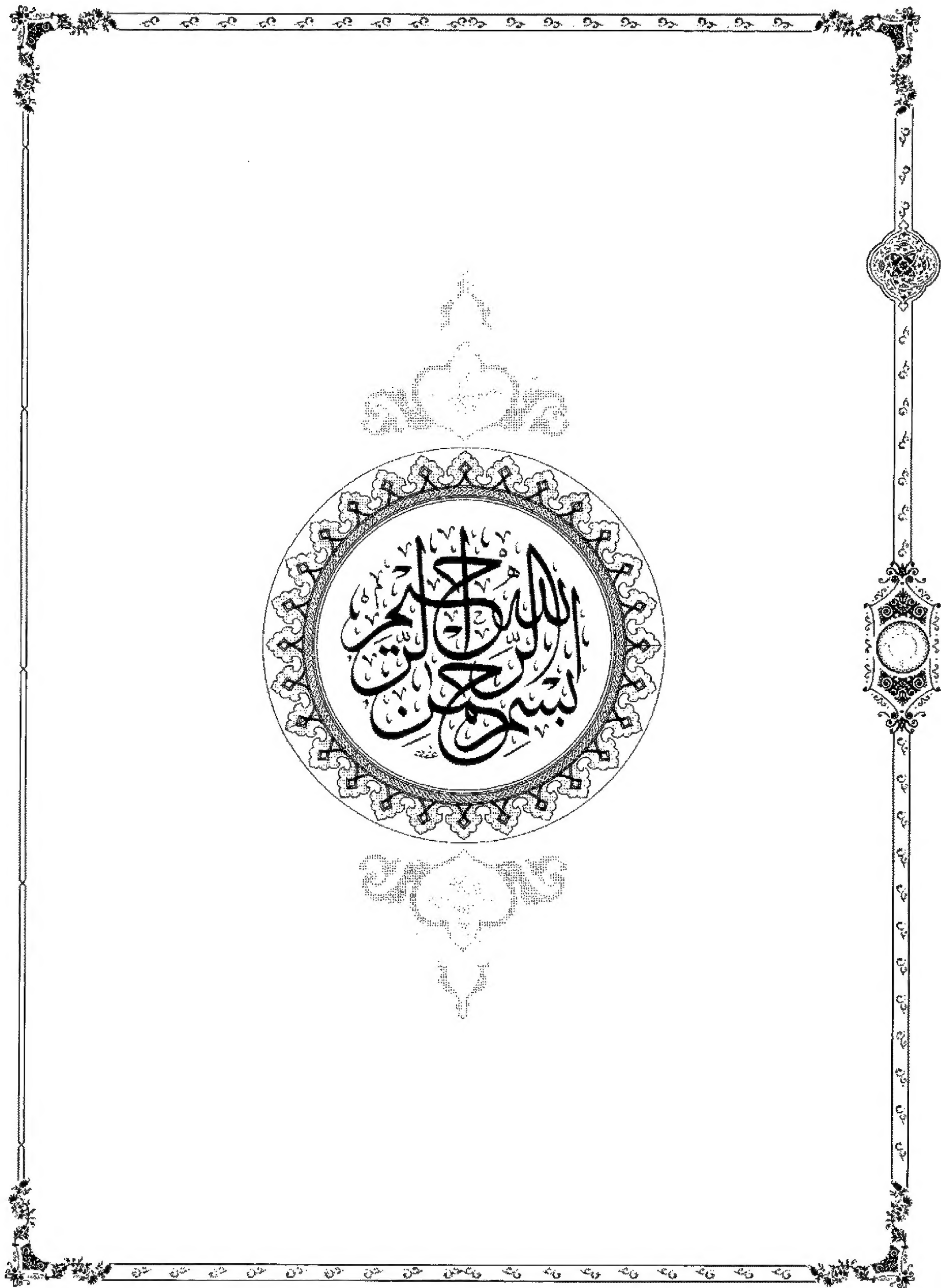


طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسعة سنين على وفاة حجة الإسلام الخميني

١١١١ - ٢٠١١ م

الحياة علوم الدين



إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطبراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) - (١٠٥٨ - ١١١١ م)

رُبْعُ الْمُنَجِّياتِ / الْقِسْمُ الثَّانِي

كِتَابُ

الْفَقْرُ وَالزُّهْدُ - التَّوْحِيدُ وَالتَّوَكُّلُ

الْمَحَبَّةُ وَالشَّوْقُ وَالْأُنْسُ وَالرِّضَا

المجلد الثامن

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
جميع الحقوق محفوظة للناسر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبيها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَدِيرٌ إِنَّا إِلَهُكُمُ الْمَلِكُ الْيَوْمَ وَالْآخِرَةُ وَتَرْجُو أَرْحَمَهُ رَبِّهِ
قُلْ هَؤُلَاءِ إِلَهُكُمْ الَّذِينَ يَعْصُونَ الْأَمْرَ وَالْإِيعَادَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

كِتَابُ
الْفَيْقِ وَالْإِهْدَاكِ

وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الفقر والزهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تسبَّح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتذكك من هيته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللزب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادي إشراقه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميز وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عُجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال ، وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبالها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاعتيال ، ثم لا تجتري معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال^(١) ، فلما انكشف للعارفين منها

(١) الأنكال : جمع نكل ، وهو القيد الشديد ، أو جمع نكلة ، وهي ما نكلت به غيرك كأنها من كان . « إتحاف » (٢٦٥ / ٩) .

قبائح الأسرار والأفعال . . زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر
والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال ، واثقين منها
بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعترها فناء ولا زوال .

والصلاة على سيدنا محمد سيّد الأنبياء وعلى آله خير آل .

أما بعد :

فإن الدنيا عدوة لله عز وجل ، بغرورها ضلّ من ضلّ ، وبمكرها زلّ من
زلّ ، فحبّها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأسر القربات ،
وقد استقصينا ما يتعلّق بوصفها وذمّ الحبّ لها في كتاب ذمّ الدنيا من ربع
المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنّه رأس
المنجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها ، ولكن
مقاطعتها إمّا أن تكون بانزوائها عن العبد ويُسمّى ذلك فقراً ، وإمّا بانزواء
العبد عنها ويُسمّى ذلك زهداً ، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات ،
وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة .

ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ، ودرجاتهما ، وأقسامهما ،
وشروطهما ، وأحكامهما ، ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في
شطر آخر منه .



ونبدأ بذكر الفقر فنقول :

الشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْكِتَابِ فِي الْفَقْرِ

وفيه : بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقاً ، وبيان فضيلة خصوص الفقراء ، وبيان فضل الفقر على الغنى ، وبيان أدب الفقير في فقره ، وبيان أدبه في قبول العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرّم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين ، والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم : أنَّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاجٌ إليه ، أمّا فقد ما لا حاجةً إليه . . فلا يُسمَّى فقراً ، وإن كان المحتاجُ إليه موجوداً مقدوراً عليه . . لم يكن المحتاجُ فقيراً^(١) .

وإذا فهمتَ هذا . . لم تشكَّ في أنَّ كلَّ موجودٍ سوى الله تعالى فهو فقيرٌ ؛ لأنَّه محتاجٌ إلى دوام الوجود في ثاني الحال ، ودوام وجوده مستفادٌ من فضل الله تعالى وجوده ، فإن كان في الوجود موجودٌ ليس وجوده مستفاداً

(١) فالفقير : هو الفاقِد المحتاج ، والفقر : هو الفقد والاحتياج . « إتحاف » (٩/٢٦٦) .

لَهُ مِنْ غَيْرِهِ . . . فَهُوَ الْغَنِيُّ الْمَطْلُوقُ ، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذَا الْمَوْجُودِ
إِلَّا وَاحِدًا ، فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا غَنِيٌّ وَاحِدٌ ، وَكُلُّ مَنْ عَدَاهُ فَإِنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ
إِلَيْهِ لِيَمُدَّ وَجُودَهُمْ بِالْدَوَامِ ، وَإِلَى هَذَا الْحَصْرِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ
الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ .

هَذَا مَعْنَى الْفَقْرِ مَطْلَقًا .

وَلَكِنَّا لَسْنَا نَقْصِدُ بَيَانَ الْفَقْرِ الْمَطْلُوقِ ، بَلِ الْفَقْرُ مِنَ الْمَالِ عَلَى
الْخُصُوصِ ، وَإِلَّا . . . فَفَقْرُ الْعَبْدِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَصْنَافِ حَاجَاتِهِ لَا يَنْحَصِرُ ؛
لَأَنَّ حَاجَاتِهِ لَا حَصَرَ لَهَا ، وَمِنْ جَمَلَةِ حَاجَاتِهِ مَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْمَالِ ، وَهُوَ
الَّذِي نَرِيدُ الْآنَ بَيَانَهُ فَقَطْ ، فَنَقُولُ :

كُلُّ فَاقِدٍ لِلْمَالِ فَإِنَّا نَسْمِيهِ فَقِيرًا بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْمَالِ الَّذِي فَقَدَهُ ، إِذَا كَانَ
ذَلِكَ الْمَفْقُودُ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ فِي حَقِّهِ ، ثُمَّ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَمْسَةُ أَحْوَالٍ عِنْدَ
الْفَقْرِ ، وَنَحْنُ نَمِيزُهَا وَنَخْصِّصُ كُلَّ حَالٍ بِاسْمٍ ؛ لِنَتَوَصَّلَ بِالْتَّمِيزِ إِلَى ذِكْرِ
أَحْكَامِهَا .

الْحَالَةُ الْأُولَى - وَهِيَ الْعَلِيَا - : أَنْ يَكُونَ بَحِيثٌ لَوْ أَتَاهُ الْمَالُ . . . لَكَرَهُهُ
وَتَأَذَّى بِهِ ، وَهَرَبَ مِنْ أَخْذِهِ ، مَبْغِضًا لَهُ ، وَمَحْتَرِزًا مِنْ شَرِّهِ وَشَغْلِهِ ، وَهُوَ
الزَّهْدُ ، وَاسْمُ صَاحِبِهِ الزَّاهِدُ .

الثَّانِيَةُ : أَنْ يَكُونَ بَحِيثٌ لَا يَرِغْبُ فِيهِ رَغْبَةً يَفْرَحُ بِحَصُولِهِ ، وَلَا يَكْرَهُهُ
كَرَاهَةً يَتَأَذَّى بِهِ وَيَزْهَدُ فِيهِ لَوْ أَتَاهُ ، وَصَاحِبُ هَذِهِ الْحَالَةِ يُسَمَّى رَاضِيًا .

الثَّالِثَةُ : أَنْ يَكُونَ وَجُودُ الْمَالِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ عَدَمِهِ ؛ لِرَغْبَةٍ لَهُ فِيهِ ،

ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه عفواً صفواً . أخذهُ وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب في طلبه . . لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً ؛ إذ أقنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة .

الرابعة : أن يكون تركه للطلب لعجزه ، وإلا . . فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب . . لطلبه ، أو هو مشغول بالطلب ، وصاحب هذه الحالة نسميه الحريص .

الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه ؛ كالجائع الفاقِد للخبز ، والعاري الفاقِد للثوب ، ويُسمى صاحب هذه الحالة مضطراً ، كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية ، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة .

فهذه خمسة أحوال ، أعلاها الزهد ، والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك^(١) ، فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه .

ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد ، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده ، فإن وجد . . لم يفرح به ولم يتأذ ، وإن فقد . . فكذلك ، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها ؛ إذ أتاه مئة ألف درهم من العطاء ، فأخذتها وفرقتها من يومها ، فقالت خادمتها :

(١) بأن يكون كارهاً للمال مع اضطراره . « إتحاف » (٢٦٧ / ٩) .

ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ؟ فقالت :
لو ذكرتني .. لفعلت^(١) .

فمن هذا حاله ؛ فلو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه .. لم
تضره ؛ إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه ، فلا يفرق
بين أن تكون في يده أو في يد غيره ، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة
المستغني ؛ لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً .

وليُفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى ،
وعلى من كثر ماله من العباد ، فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به .. فهو
فقير إلى بقاء المال في يده ، وإنما هو غني عن دخول المال في يده ، لا عن
بقائه ، فهو إذا فقير من وجه .

وأما هذا الشخص .. فهو غني عن دخول المال في يده ، وعن بقاءه في
يده ، وعن خروجه من يده أيضاً ، فإنه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجهِ ،
وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءهِ ، وليس فاقداً له ليجتاح إلى الدخول في
يده ، فغناه إلى العموم أميل ، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى
أقرب ، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات ، لا بقرب المكان .

ولكننا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنياً ، بل مستغنياً ؛ لبقى الغني
اسماً لمن له الغنى المطلق عن كل شيء ، وأما هذا العبد فإن استغنى عن

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٦٦ / ١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٧ / ٢) .

المالِ وجوداً وعدماً . فلم يستغنِ عن أشياءٍ آخرَ سواه ، ولم يستغنِ عن مددِ توفيقِ الله تعالى له ليبقى استغناؤه الذي زينَ الله به قلبه ؛ فإنَّ القلبَ المقيدَ بحبِّ المالِ رقيقٌ ، والمستغني عنه حرٌّ ، واللهُ تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرقِّ ، فهو محتاجٌ إلى دوامِ هذا العتقِ ، والقلوبُ متقلبةٌ بين الرقِّ والحريةِ في أوقاتٍ متقاربةٍ ؛ لأنها بين إصبعين من أصابع الرحمن ، فلذلك لم يكن اسمُ الغنى مطلقاً عليه مع هذا الكمالِ إلا مجازاً .

واعلم : أنَّ الزهدَ درجةٌ هي كمالُ الأبرار ، وصاحبُ هذه الحالةِ من المقرَّبين ، فلا جرمَ صارَ الزهدُ في حقِّه نقصاناً ؛ إذ حسنتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين ؛ وهذا لأنَّ الكارةَ للدنيا مشغولٌ بالدنيا ، كما أنَّ الراغبَ فيها مشغولٌ بها ، والشغلُ بما سوى الله تعالى حجابٌ عن الله تعالى ، إذ لا بعدَ بينك وبين الله حتَّى يكونَ البعدُ حجاباً ؛ فإنه أقربُ إليك من حبلِ الوريدِ ، وليسَ هوَ في مكانٍ حتَّى تكونَ السماواتُ والأرضُ حجاباً بينك وبينه ، فلا حجابَ بينك وبينه إلا شغلكَ بغيره ، وشغلكَ بنفسِكَ وشهواتِكَ شغلٌ بغيره ، وأنتَ لا تزالُ مشغولاً بنفسِكَ وبشهوَاتِ نفسِكَ ، فكذلك لا تزالُ محجوباً عنه ، فالمشغولُ بحبِّ نفسه مشغولٌ عن الله تعالى ، والمشغولُ ببغضِ نفسه أيضاً مشغولٌ عن الله تعالى .

بل كلُّ ما سوى الله تعالى مثاله مثالُ الرقيبِ الحاضرِ في مجلسِ جمعِ العاشقِ والمعشوقِ ، فإنَّ التفتَ قلبُ العاشقِ إلى الرقيبِ ، وإلى بغضِهِ واستثقالِهِ وكراهيةِ حضورِهِ . فهو في حالِ اشتغالِ قلبِهِ ببغضِهِ مصروفٌ عن

التلذذ بمشاهدة معشوقه ، ولو استغرقه العشق . . لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه ، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه . . فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر ، بل الكمال في ألا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضاً وحباً ؛ فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة . . فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة .

فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلة سالك في طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلة سالك في طريق القرب ؛ إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود ، فالكمال له مرتقب ؛ لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله تعالى .

فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج ، مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ، ولكن أحدهما مستدير للكعبة ، والآخر مستقبل لها ، فهما سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدير ؛ إذ يرجى له الوصول إليها ، وليس بمحمود بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة والملازم لها ، الذي لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها .

فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه ، بل الدنيا عائق

عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق .

ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : (مَنْ زهد في الدنيا واقتصر عليه . . فقد استعجل الراحة ، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة)^(١) ، فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد ، كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج .

فإذا ؛ قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أُريدَ به عدم الرغبة في وجودها وعدمها . . فهو غاية الكمال ، وإن أُريدَ به الرغبة في عدمها . . فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني ، بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك الماء والمال ، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيكَ بأن تكون على شاطئ البحر ، ولا قلته تؤذيكَ إلا في قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه ، كما أن الماء محتاج إليه ، فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ، ولا يبغض الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة ، وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ، ولا أبخل به على أحد .

فهكذا ينبغي أن يكون المال ؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة ، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ، ووثقت بتدبيره الذي دبّر به العالم . . علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٤) بنحوه .

- لا محالة - ما دمت حياً كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي ، فإن العدو يوسوس إلي أن اللص قد أخذها ، فقال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفيّة ، هو قد زهد في الدنيا ، ما عليه من أخذها ؟! (١) .

فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان .



فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار ؟

فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ، فنفروا عما وراءه ، ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونها مع أنفسهم ، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه ، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه .

وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخذوها ووضعوها في مواضعها ،

(١) قوت القلوب (٢٦٧ / ١) ، وخبر مالك مفرداً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٤ / ٢) ، وليس فيه ذكر للمغيرة ، بل قالها للحارث بن نبهان .

وما هربوا منها ، إذ كَانَ قَدِ اسْتَوَىٰ عِنْدَهُمُ الْمَالُ وَالْمَاءُ ، وَالذَّهَبُ
وَالْحَجَرُ .

وَمَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنْ امْتِنَاعٍ ؛ فَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ عَنْهُمْ خَافَ أَنْ لَوْ أَخَذَهُ أَنْ يَخْدَعَهُ
الْمَالُ وَيَقِيدَ قَلْبَهُ ، فَيَدْعُوهُ إِلَى الشَّهَوَاتِ ، وَهَذَا حَالُ الضَّعْفَاءِ ، فَلَا جَرَمَ
الْبَغْضُ لِلْمَالِ وَالْهَرَبُ مِنْهُ فِي حَقِّهِمْ كَمَالٌ ، وَهَذَا حُكْمُ جَمِيعِ الْخَلْقِ ؛ لِأَنَّ
كُلَّهُمْ ضَعْفَاءٌ إِلَّا الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ ، وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ عَنْ قَوِيٍّ بَلَغَ الْكَمَالَ ،
وَلَكِنْ أَظْهَرَ الْفِرَارَ وَالنَّفَارَ نَزُولاً إِلَىٰ دَرَجَةِ الضَّعْفَاءِ ؛ لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي التَّرْكِ ،
إِذْ لَوْ اقْتَدَوْا بِهِ فِي الْأَخْذِ . . لَهَلَكُوا ، كَمَا يَفِرُّ الرَّجُلُ الْمَعْرُومُ بَيْنَ يَدَيِ أَوْلَادِهِ
مِنَ الْحَيَّةِ ، لَا لِضَعْفِهِ عَنْ أَخْذِهَا ، وَلَكِنْ لَعَلِمِهِ أَنََّّهُ لَوْ أَخَذَهَا . . أَخَذَهَا
أَوْلَادُهُ إِذَا رَأَوْهَا فِيهِلْكُونَ ، وَالسَّيْرُ بِسِيرِ الضَّعْفَاءِ ضَرُورَةٌ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ
وَالْعُلَمَاءِ .

فَقَدْ عَرَفْتَ إِذَا أَنَّ الْمَرَاتِبَ سِتٌّ ، وَأَنَّ أَعْلَاهَا رَتَبَةُ الْمُسْتَغْنِي ، ثُمَّ
الزَّاهِدِ ، ثُمَّ الرَّاضِي ، ثُمَّ الْقَانِعِ ، ثُمَّ الْحَرِيصِ ، وَأَمَّا الْمَضْطَرُّ . . فَيُصَوِّرُ
فِي حَقِّهِ أَيْضاً الزَّهْدَ وَالرِّضَا وَالْقَنَاعَةَ ، وَدَرَجَتُهُ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ هَذِهِ
الْأَحْوَالِ ، وَاسْمُ الْفَقِيرِ يُطْلَقُ عَلَىٰ هَذِهِ الْخَمْسَةِ .

أَمَّا تَسْمِيَةُ الْمُسْتَغْنِي فَقِيراً . . فَلَا وَجْهَ لَهُ بِهَذَا الْمَعْنَى ، بَلْ إِنْ سُمِّيَ
فَقِيراً فَبِمَعْنَى آخَرَ ، وَهُوَ مَعْرِفَتُهُ بِكَوْنِهِ مُحْتَاجاً إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ
عَامَّةً ، وَفِي بَقَاءِ اسْتِغْنَائِهِ عَنِ الْمَالِ خَاصَّةً ، فَيَكُونُ اسْمُ الْفَقِيرِ لَهُ كَاسِمٍ

العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرَّ بها ، فإنه أحقُّ باسم العبد من الغافلين وإن كان اسمُ العبد عامًّا للخلق ؛ فكذلك اسمُ الفقير عامٌّ ، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله . . فهو أحقُّ باسم الفقير ، فاسمُ الفقير مشتركٌ بين هذين المعنيين .

وإذا عرفت هذا الاشتراك . . فهت أن قولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : « أعوذُ بك من الفقر » ^(١) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « كاد الفقر أن يكون كفراً » ^(٢) . . لا يناقضُ قوله : « أحييني مسكيناً وأمتني مسكيناً » ^(٣) ؛ إذ فقرُ المضطرِّ هو الذي استعاذَ منه ، والفقرُ الذي هو الاعترافُ بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى . . هو الذي سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم ، وعلى كلِّ عبدٍ مصطفىٍّ من أهل الأرض والسماء .



(١) روى أبو داود (١٥٤٤) ، والنسائي (٢٦١ / ٨) ، وابن ماجه (٣٨٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من الفقر والقلّة والذلة . . . » .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٣ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) .

بيان فضيلة الفقر مطلقاً

أَمَّا مِنَ الْآيَاتِ . . فَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ . . . ﴾ الْآيَةُ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

سَاقَ الْكَلَامَ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ ، ثُمَّ قَدَّمَ وَصَفَهُمُ بِالْفَقْرِ عَلَى وَصْفِهِمْ بِالْهَجْرَةِ وَالْإِخْصَارِ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى مَدْحِ الْفَقْرِ .

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ فِي مَدْحِ الْفَقْرِ . . فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى ؛ فَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ : « أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ » فَقَالُوا : مُوسِرٌّ مِنْ الْمَالِ يُعْطِي حَقَّ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَقَالَ : « نَعَمْ الرَّجُلُ هَذَا وَلَيْسَ بِهِ » ، قَالُوا : فَمَنْ خَيْرُ النَّاسِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « فَقِيرٌ يُعْطِي جَهْدَهُ » ^(١) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِبِلَالٍ : « الْقَوَّالُ اللَّهُ فَقِيرًا ، وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا » ^(٢) .

(١) كَذَا فِي « الْقَوَاتِ » (٢٦٣ / ١) ، وَقَدْ رَوَاهُ الطَّيَالِسِيُّ فِي « مُسْنَدِهِ » (١٨٥٢) ، وَابْنُ عَدِيٍّ فِي « الْكَامِلِ » (٢٣٨ / ٤) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « تَارِيخِ أَصْبَهَانَ » (٢٦٢ / ٢) .

(٢) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٣١٦ / ٤) ، وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي « الْكَبِيرِ » (٣٤١ / ١) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَةِ » (١٤٩ / ١) وَلَفْظُهُ عِنْدَهُمَا : « يَا بِلَالُ ؛ مَتَّ فَقِيرًا ، وَلَا تَمُتْ غَنِيًّا » ، قُلْتُ : وَكَيْفَ ذَاكَ ؟ قَالَ : « مَا رَزَقْتَ فَلَا تَخْبَأْ ، وَمَا سَأَلْتَ فَلَا تَمْنَعْ » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ كَيْفَ لِي بِذَاكَ ؟ فَقَالَ : « هُوَ ذَاكَ أَوْ النَّارُ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ » (١) .

وفي الخبر المشهور : « يَدْخُلُ فَقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِ مِائَةِ عَامٍ » (٢) .

وفي حديث آخر : « بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً » (٣) أي : أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فيكون المرادُ به تقديرُ تقدُّمِ الفقيرِ الحريصِ على الغنيِّ الحريصِ ، والتقديرُ بخمسين مِئَةً عامٍ تقديرُ تقدُّمِ الفقيرِ الزاهدِ على الغنيِّ الراغبِ ، وما ذكرناه من اختلافِ درجاتِ الفقرِ يعرفُك بالضرورةِ تفاوتاً بينَ الفقراءِ في درجاتِهِمْ ، وكانَ الفقيرُ الحريصُ على درجتينِ مِنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً مِنَ الْفَقِيرِ الزَاهِدِ ؛ إِذْ هَذِهِ نِسْبَةُ الْأَرْبَعِينَ إِلَى خَمْسِ مِائَةٍ .

وَلَا تَظَنَّ أَنَّ تَقْدِيرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ جَزَافاً وَبِالِاتِّفَاقِ ، بَلْ لَا يَسْتَنْطِقُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِحَقِيقَةِ الْحَقِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتِّهِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوَّةِ » (٤) ،

(١) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٣) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٩) .

(٤) رواه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

فإنه تقديرٌ تحقيقٍ لا محالة ، ولكن ليس في قوّة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين ، فأما بالتحقيق . . فلا ، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي صلى الله عليه وسلم ويفارق به غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص :

أحدها : أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته وملائكته والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره ، بل مخالفاً له بكثرة المعلومات ، وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف .

والثاني : أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات ، كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا واختيارنا وهي القدرة ، وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى .

والثالث : أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم ، كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات .

والرابع : أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب ؛ إما في اليقظة ، وإما في المنام ، إذ بها يطالع اللوح المحفوظ ، فيرى ما فيه من الغيب .

فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ، ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين ، وإلى خمسين ، وإلى ستين ، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين ؛ بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ، ولكن تعيين طريق واحد من طرق

التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين ، فلا ندري تحقيقاً أنه الذي أرادَهُ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم لا ، وإنما المعلومُ مجامعُ الصفات التي بها تتمُّ النبوةُ وأصلُ انقسامِها ، وذلك لا يرشدنا إلى معرفةِ علّةِ التقديرِ .

وكذلك نعلمُ أنَّ الفقراءَ لهم درجاتٌ كما سبق ، فأما لِمَ كانَ هذا الفقيرُ الحريصُ مثلاً على نصفِ سدسِ درجةِ الفقيرِ الزاهدِ^(١) ، حتى لَمْ يقتضِ لَهُ التقدُّمُ بأكثرَ مِنْ أربعينَ سنةً إلى الجنةِ ، واقتضى ذلكَ التقدُّمُ بخمسينَ مئةَ عامٍ . . . فليسَ في قوّةِ البشرِ غيرِ الأنبياءِ الوقوفُ على ذلكَ إلا بنوعٍ مِنَ التخمينِ ، ولا وثوقَ بِهِ ، والغرضُ التنبيهُ على منهاجِ التقديرِ في أمثالِ هذهِ الأمورِ ؛ فإنَّ الضعيفَ الإيمانِ قد يظنُّ أنَّ ذلكَ يجري مِنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سبيلِ الاتفاقِ ، وحاشا منصبَ النبوةِ عن ذلكِ .

ولنرجعَ إلى نقلِ الأخبارِ ، فقد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضاً : « خيرُ هذهِ الأمةِ فقراؤها ، وأسرعُها تضجُّعاً في الجنةِ ضعفاؤها »^(٢) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إنَّ لي حرفتينِ اثنتينِ ، فَمَنْ أَحَبَّهُمَا . . . فقدَ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا . . . فقدَ أَبْغَضَنِي ؛ الفقرُ والجهادُ »^(٣) .

(١) أي : على التقريب .

(٢) كذا في « القوت » (٢٦٣ / ١) ، ورواه الدولابي في « الكنى والأسماء » (١٣٨ / ٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٩٢١) .

(٣) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٥٣) ، ورواه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٤٣ / ١٧) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (١٨٢ / ٢) .

وَرُوِيَ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ : أَتَحِبُّ أَنْ أَجْعَلَ هَذِهِ الْجِبَالَ ذَهَبًا وَتَكُونَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ ؟ فَأَطْرَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : « يَا جَبْرِيلُ ؛ إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ مَن لَّا دَارَ لَهُ ، وَمَالٌ مَن لَّا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَن لَّا عَقْلَ لَهُ » ، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ : يَا مُحَمَّدُ ؛ ثَبِّتَكَ اللَّهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ^(١) .

وَرُوِيَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ فِي سِيَاحَتِهِ بِرَجُلٍ نَائِمٍ مُلْتَفٍّ فِي عِبَاءَةٍ ، فَأَيْقَظُهُ وَقَالَ : يَا نَائِمُ ؛ قُمْ فَادْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى ، فَقَالَ : مَا تَرِيدُ مِنِّي ؟ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، فَقَالَ لَهُ : فَنَمَ إِذَا حَبِيبِي نَمَ ^(٢) .

وَمَرَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ نَائِمٍ عَلَى التُّرَابِ وَتَحْتَ رَأْسِهِ لَبَنَةٌ ، وَوَجْهُهُ وَلَحِيَّتُهُ فِي التُّرَابِ ، وَهُوَ مَتَرٌّ بِعِبَاءَةٍ ، فَقَالَ : يَا رَبُّ ؛ عَبْدُكَ هَذَا فِي الدُّنْيَا ضَائِعٌ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : يَا مُوسَى ؛ أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي إِذَا

(١) الخبر جامع بين حديثين ؛ فالأول حديث : « عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً... » الذي رواه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، والثاني : « الدنيا دار من لا دار له... » الذي رواه أحمد في « المسند » (٧١ / ٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، مقتصراً على قوله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » ، وزاد ابن أبي الدنيا في روايته له في « ذم الدنيا » (١٨٢) : « ومال من لا مال له » .

(٢) كذا في « القوت » (٢٦٤ / ١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٠٦ / ١٠) .

نظرتُ إلى عبيدٍ بوجهي كلِّه . . . زويتُ عنه الدنيا كلَّها^(١) .

وعن أبي رافع أنه قال : وردَ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ضيفٌ ، فلم يجدْ عنده ما يصلحُه ، فأرسلني إلى رجلٍ من يهودِ خيبرَ ، وقالَ : « قُلْ لَهُ : يقولُ لك محمدٌ : أسلفني أو بعني دقيقاً إلى هلالِ رجبٍ » ، قالَ : فأتيتُه ، فقالَ : لا واللهِ إلا برهنٍ ، فأخبرتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بذلكَ ، فقالَ : أما واللهِ إنِّي لأمينٌ في أهلِ السماءِ أمينٌ في أهلِ الأرضِ ، ولو باعني أو أسلفني . . . لأديتُ إليه ، اذهبْ بدرعي هذا إليه فارهنه » ، فلما خرجتُ . . . نزلتُ هذه الآيةُ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾ الآيةُ ؛ تعزيةً له صلى الله عليه وسلم عن الدنيا^(٢) .

وقالَ صلى الله عليه وسلم : « الفقرُ أزينُ بالمؤمنِ مِنَ العذارِ الحسنِ على خدِّ الفرسِ »^(٣) .

وقالَ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أصبحَ منكمُ آمناً في سربه ، معافى في

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٤) ، وهو عند صاحب « القوت » (٢٦٤ / ١) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٣٨٦٣) ، والطبراني في « الكبير » (٣٣١ / ١) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٥٢ / ١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٩٤ / ٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٧) .

جسمه ، عنده قوت يومه . . فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها «^(١) .

وقال كعب الأحمار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا موسى ؛ إذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين^(٢) .

وقال عطاء الخراساني : مرّ نبيّ من الأنبياء بساحل ، فإذا هو برجل يصطاد حيتاناً ، فقال : باسم الله ، وألقى شبكته ، فلم يخرج فيها شيء ، ثم مرّ بآخر ، فقال : باسم الشيطان ، وألقى شبكته ، فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها ، فقال النبيّ : يا ربّ ؛ ما هذا وقد علمت أن كلّ ذلك بيدك ؟! فقال الله عزّ وجلّ للملائكة : اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما ، فلمّا رأى ما أعدّ الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان . . قال : رضيت يا ربّ^(٣) .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : « اطلعت في الجنة ، فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار ، فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء »^(٤) ، وفي لفظ آخر : « فقلت : أين الأغنياء ؟ فقيل : حسبهم

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٢٤٩ / ٥) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥ / ٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢١) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٤٢ / ١) ، ورواه أحمد في « المسند » (١٧٣ / ٢) .

الجدُّ»^(١) ، وفي حديث آخر : « فرأيتُ أكثرَ أهلِ النارِ النساءَ ، فقلتُ : ما شأنُهُنَّ ؟ فقيلَ : شغلُهُنَّ الأحمرانِ ؛ الذهبُ والزعفرانُ »^(٢) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « تحفةُ المؤمنِ في الدنيا الفقرُ »^(٣) .

وفي الخبرِ : « آخرُ الأنبياءِ دخولاً الجنةَ سليمانُ بنُ داوودَ ؛ لمكانِ ملكِهِ ، وآخرُ أصحابي دخولاً الجنةَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ ؛ لأجلِ غناه »^(٤) .

وفي حديثٍ آخرَ : « رأيتُهُ دخلَ الجنةَ زحفاً »^(٥) .

- (١) كذا في « القوت » (٢٤٢ / ١) ، وعند مسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما مرفوعاً : « قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجدِّ محبسون . . . » الحديث .
- (٢) قوت القلوب (٢٥٢ / ٢) ، وروى أحمد في « المسند » (٢٥٩ / ٥) نحوه ، وفيه : (التحرير) بدل (الزعفران) ، وعند مسلم (٢٧٣٨) مرفوعاً : « إن أقلَّ ساكني الجنة النساءَ » ، وذكر الزعفران جاء عند أبي نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٤٠٢ / ٦) .
- (٣) كذا في « القوت » (٢٤٣ / ١) ، قال الحافظ العراقي : (رواه محمد بن خفيف الشيرازي في « شرف الفقراء » ، والديلمي في « مسند الفردوس » [٢٣٩٩] من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به) . « إتحاف » (٢٧٦ / ٩) .
- (٤) قوت القلوب (٢٠٣ / ١) ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٤١٢٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « الأنبياء كلهم يدخلون الجنة قبل داوود وسليمان بألفي عام . . . » الحديث ، وروى البزار في « مسنده » (٧٠٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف ، والذي نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبواً » .
- (٥) رواه الحاكم في « المستدرک » (٣١١ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) ، ولفظه : « يا بن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً . . . » .

وقال عيسى عليه السلام : (بشدة يدخل الغني الجنة)^(١) .

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبداً . . ابتلاه ، فإذا أحبه الحب البالغ . . اقتناه » ، قيل : وما اقتناه ؟ قال : « لم يترك له أهلاً ولا مالاً »^(٢) .

وفي الخبر : (إذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً . . فقل : ذنب عجلت عقوبته)^(٣) .

وقال موسى عليه السلام : يا رب ؛ مَنْ أَحَبَّأَوْكَ مِنْ خَلْقِكَ حَتَّى أَحَبَّهُمْ لِأَجْلِكَ ؟ فقال : كُلُّ فَقِيرٍ فَقِيرٍ^(٤) . فيمكن أن يكون الثاني للتأكيد ، ويمكن أن يُراد به الشديد الضرر .

وقال عيسى عليه السلام : (إنني لأحب المسكنة وأبغض النعماء)^(٥) ،

(١) كذا في « القوت » (٢٥٦ / ١) ، وفيه : (أو قال : بعجب . . .) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٨) ولفظه : (لشدة ما يدخل الغني الجنة) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٤٣ / ١) ، ورواه ابن أبي عاصم في « الأحاد والمثاني » (٢٤٩٩) ، والدولابي في « الكنى والأسماء » (٤٦ / ١) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٦٨) كلهم من حديث أبي عتبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٥ / ١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مقتصراً على الشطر الأخير منه .

(٣) كذا في « القوت » (١٩٤ / ٢) ، وتقدم قريباً عن كعب الأحبار ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٤) قوت القلوب (١٩٤ / ٢) ، واللاحق بنحوه عنده .

(٥) قوت القلوب (١٩٤ / ٢) ، وفيه : (الغنى) بدل (النعماء) .

وكان أحبُّ الأسامي إليه صلواتُ الله عليه أن يُقالَ له : يا مسكين^(١) .

ولَمَّا قالَ ساداتُ العربِ وأغنياؤها للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : اجعلْ لنا يوماً ولهم يوماً ، يجيئونُ إليك ولا نجيءُ ، ونجيءُ إليك ولا يجيئونُ ، يعنونَ بذلكَ الفقراءَ ؛ مثلَ بلالٍ ، وسلمانَ ، وصهيبٍ ، وأبي ذرٍّ ، وخبَّابِ بنِ الأرتِّ ، وعمارِ بنِ ياسرٍ ، وأبي هريرةَ ، وأصحابِ الصُّفَّةِ مِنَ الفقراءِ ، فأجابَهُمُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ذلكَ ، وذلكَ لأنَّهُمُ شكَّوا إليه التَّأذِّيَ برائحتِهِمُ ، وكانَ لباسُ القومِ الصوفَ في شدَّةِ الحرِّ ، فإذا عرقوا . . فاحتَ الروائحُ مِنْ ثيابِهِمُ ، فاشتدَّ على الأغنياءِ ذلكَ ، منهمُ الأقرعُ بنُ حابسِ التميميِّ ، وعيينةُ بنُ حصنٍ الفزاريُّ ، وعباسُ بنُ مرداسٍ السلميِّ ، وغيرُهُمُ ، فأجابَهُمُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألا يجمعَهُمُ وإياَهُمُ في مجلسٍ واحدٍ ، فنزلَ عليه قولُهُ تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يعني الفقراءَ ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني الأغنياءَ ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ يعني الأغنياءَ ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ مع الفقراءِ ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ . . . ﴾ الآية^(٢) .

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٢٧) ، والبزار في « مسنده » (٢١٢٩ ، ٢١٣٠) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه بنحوه ، ومؤاذااتهم لهم بريحهم رواه الطبري في « تفسيره » (٢٩٠/١٥/٩) عن سلمان الفارسي ، قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله =

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ بُرْءٌ ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ يعني ابن أم مكتوم ﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَعَى ۚ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَى ﴾ يعني هذا الشريف (١) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْتَذِرُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ كَمَا يَعْتَذِرُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا ، فيقول : وعزتي وجلالي ؛ ما زويت الدنيا عنك لهوائك علي ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة ، اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي . . . فخذ بيده فهو لك ، والناس يومئذ قد

= صلى الله عليه وسلم ؛ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا نبي الله ؛ إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف ، ولم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك وحادثناك . . . الخبر .

(١) رواه الترمذي (٣٣٣١) ، وروى الطبري في « تفسيره » (١٥ / ٣٠ / ٦٨) أن الشريف كان العباس رضي الله عنه ، أو عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وقيل غير ذلك ، وفي خطابه سبحانه له صلى الله عليه وسلم لطف ؛ إذ خاطبه بضمير الغائب ، ثم بين أن خطابه إنما هو تذكرة ، وإنما سيق العتاب تعظيماً لأمر الفقراء ، وروى ابن سعد في « طبقاته » (١٩٤ / ٤) أنه صلى الله عليه وسلم بعد هذا العتاب كان يكرم ابن أم مكتوم ، واستخلفه على المدينة مرتين .

أَجْمَهُمُ الْعَرَقُ ، فَيَتَخَلَّلُ الصَّفُوفَ ، وَيَنْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ ، فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ
وَيَدْخُلُهُ الْجَنَّةَ « (١) .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَكْثَرُوا مَعْرِفَةَ الْفُقَرَاءِ ، وَاتَّخَذُوا عِنْدَهُمُ
الْأَيَادِي ؛ فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً » ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ وَمَا دَوْلَتُهُمْ ؟ قَالَ :
« إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . . قِيلَ لَهُمْ : انْظُرُوا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كَسْرَةً وَسَقَاكُمْ شَرْبَةً
وَكَسَاكُمْ ثَوْبًا فَخَذُوا بِيَدِهِ ، ثُمَّ أَفِيضُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ » (٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ ، فَسَمِعْتُ حَرَكَةَ أَمَامِي ،
فَنَظَرْتُ فَإِذَا بِلَالٌ ، وَنَظَرْتُ فِي أَعْلَاهَا فَإِذَا فَقْرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلَادُهُمْ ، وَنَظَرْتُ
فِي أَسْفَلِهَا فَإِذَا فِيهَا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ ، فَقُلْتُ : يَا رَبِّ ؛ مَا شَأْنُهُمْ ؟
قَالَ : أَمَّا النِّسَاءُ . . فَأَضْرَبْنَ الْبَهْنَ الْأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالْحَرِيرُ ، وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ . .
فَاسْتَغْلَوْا بِطُولِ الْحَسَابِ ، وَتَفَقَّدْتُ أَصْحَابِي فَلَمْ أَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ
عَوْفٍ ، ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ يَبْكِي ، فَقُلْتُ : مَا خَلَّفَكَ عَنِّي ؟ فَقَالَ :

(١) قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ : (رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي كِتَابِ « الثَّوَابِ » مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ بِسَنَدٍ
ضَعِيفٍ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَدْنُوا مِنِّي أَحِبَائِي ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : وَمَنْ
أَحِبَاؤُكَ ؟ فَيَقُولُ : فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ ، فَيَدْنُونَ مِنْهُ ، فَيَقُولُ : أَمَا إِنِّي لَمْ أَزُودِ الدُّنْيَا عَنْكُمْ
لَهْوَانِ كَانَ بِكُمْ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ بِذَلِكَ أَنْ أَضْعِفَ لَكُمْ كِرَامَتِي الْيَوْمَ ، فَتَمَنَّوْا عَلَيَّ
مَا شِئْتُمْ الْيَوْمَ . . الْحَدِيثُ ، دُونَ آخِرِ الْحَدِيثِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ الْحَدِيثِ . . فَرَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ
فِي « الْحَلِيَّةِ » ، وَسَيَأْتِي فِي الْحَدِيثِ الَّذِي بَعْدَهُ) . « إِتْحَافٌ » (٢٧٨ / ٩) .

(٢) رَوَاهُ بَنُحْوَةُ النَّرْسِيُّ فِي « قَضَاءِ حَوَائِجِ الْإِخْوَانِ » (ص ٧٧) عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ
السَّلْمِيِّ مَرْسَلًا .

أما والله يا رسول الله ؛ ما خلصتُ إليك حتَّى لقيتُ المشيَّاتِ ، وظننتُ أنَّني لا أراك ، فقلتُ : ولمَ ، قالَ : كنتُ أحاسبُ بمالي « (١) .

فانظرْ إلى هذا وعبدُ الرحمنِ صاحبُ السابقةِ العظيمةِ معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وهوَ مِنَ العشرةِ المخصوصينَ بأنَّهمُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ (٢) ، وهوَ مِنَ الأغنياءِ الذينَ قالَ فيهمُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إِنْ مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا » (٣) ، ومعَ هذا فقدِ استضرَّ بالغنَى إلى هذا الحدِّ .

ودخلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على رجلٍ فقيرٍ ولمَ يرَ له شيئاً ، فقالَ : « لَوْ قُسمَ نورُ هذا على أَهْلِ الأَرْضِ . . لوسعَهُمُ » (٤) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِملوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ » قالوا :

(١) رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٢٥٩ / ٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٣٦ / ٨) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٤٥) ، وخبر بلال رضي الله عنه مفرداً عند البخاري (٣٦٧٩) .

(٢) كما روى ذلك أبو داود (٤٦٤٨) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٨١٠٠) ، وابن ماجه (١٣٤) .

(٣) رواه البخاري (٢٣٨٨) ، ومسلم (٩٤) في (كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة) .

(٤) روى البيهقي في « الشعب » (١٠٠٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إِنْ ملوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ كلُّ أشعثٍ أغبرٍ ذي طمرين ، الذينَ إذا استأذنوا على الأمراء . . لم يؤذن لهم ، وإذا طلبوا النساء . . لم ينكحوا ، وإذا قالوا الحديث . . لم ينصت لقولهم ، حاجة أحدهم تتجلجل في صدره ، لو قسم نوره بين أَهْلِ الأَرْضِ . . لوسعَهُمُ » ، وهو قريب من الحديث الآتي .

بلى يا رسول الله ، قال : « كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله . . لأبره » (١) .

وقال عمران بن حصين : كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه ، فقال : « يا عمران ؛ إن لك عندنا منزلة وجاهاً ، فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » فقلت : نعم ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فقام وقمت معه ، حتى وقف بباب فاطمة ، ففرع الباب وقال : « السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ » فقالت : ادخل يا رسول الله ، قال : « أنا ومن معي ؟ » قالت : ومن معك يا رسول الله ؟ قال : « عمران » ، فقالت فاطمة : والذي بعثك بالحق نبياً ؛ ما علي إلا عباءة ، قال : « اصنعي بها هكذا وهكذا » وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدي قد واريته ، فكيف برأسي ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : « شدي بها على رأسك » ، ثم أذنت له فدخل ، فقال : « السلام عليكم يا ابتاه ، كيف أصبحت ؟ » قالت : أصبحت - والله - وجعة ، وزادني وجعاً على ما بي أنني لست أقدر على طعام آكله ، فقد أضربني الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « لا تجزعي يا ابتاه ، فوالله ؛ ما ذقت طعاماً منذ ثلاث وإنني لأكرم على الله منك ، ولو

(١) رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) وفيهما : « ألا أخبركم بأهل الجنة . . » ، وعند ابن ماجه (٤١١٥) من حديث معاذ رضي الله عنه : « ألا أخبرك عن ملوك الجنة . . » ولم يقل فيه : (أشعث أغبر) .

سألتُ ربِّي . . لأطعمني ، ولكنني أثرتُ الآخرةَ على الدنيا ، ثم ضربَ بيدهِ على منكبِها وقالَ لها : « أبشري ، فواللهِ ؛ إنَّكِ لسيدةُ نساءِ أهلِ الجنةِ » ، قالتُ : فأينَ آسيةُ امرأةُ فرعونَ ومريمُ بنتُ عمرانَ ؟ قالَ : « آسيةُ سيدةُ نساءِ عالمِها ، ومريمُ سيدةُ نساءِ عالمِها ، وخديجةُ سيدةُ نساءِ عالمِها ، وأنتِ سيدةُ نساءِ عالمِكِ ، إنَّكنَّ في بيوتٍ مِنْ قصبٍ ، لا أذى فيها ولا صخبَ ولا نصبَ » ، ثمَّ قالَ لها : « اقنعي بابنِ عمِّكِ ، فواللهِ ؛ لقد زوجتُكِ سيِّداً في الدنيا سيِّداً في الآخرةِ »^(١) .

ورُويَ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ : « إذا أبغضَ الناسُ فقراءَهُمْ ، وأظهروا عمارَةَ الدنيا ، وتكالبوا على جمعِ الدراهمِ . . رماهُمُ اللهُ بأربعِ خصالٍ : بالقحطِ مِنَ الزمانِ ، والجورِ مِنَ السلطانِ ، والخيانةِ مِنَ ولاةِ الأحكامِ ، والشوكةِ مِنَ الأعداءِ »^(٢) .



(١) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٠٧) ، ورواه مختصراً من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمد في « المسند » (٢٦/٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢٩/٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٦/٤٢) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (٣٢٥/٤) ، وفيه : (علماءهم) بدل (فقراءهم) ، وعليه فقد لا يصلح شاهداً هنا ، وقد سقط هذا الحديث من جميع النسخ إلا (س) ، واستكمل من نسخة الحافظ الزبيدي (٢٨٠/٩) ، وهو في نسخة الحافظ العراقي كذلك ؛ إذ أثبت تخريجه في « المغني » .

وَأَمَّا الْأَثَارُ :

فَقَدْ قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (ذُو الدَّرْهَمِينَ أَشَدُّ حِسَاباً - أَوْ قَالَ : أَشَدُّ حِسَاباً - مِنْ ذِي الدَّرْهَمِ) ^(١) .

وَأَرْسَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ بِأَلْفِ دِينَارٍ ، فَجَاءَ كُثَيْباً حَزِيناً ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ : أَحْدَثَ أَمْرٌ ؟ قَالَ : أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : أَرِنِي دِرْعَكَ الْخَلْقِ ، فَشَقَّهُ وَجَعَلَهُ صِرَافاً وَفَرَّقَهُ ، ثُمَّ قَامَ يَصَلِّي وَيَبْكِي إِلَى الْغَدَاةِ ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « يَدْخُلُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِ مِائَةِ عَامٍ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غَمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ » ^(٢) .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (ثَلَاثَةٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ : رَجُلٌ يَرِيدُ أَنْ يَغْسَلَ ثَوْبَهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَلَقٌ يَلْبِسُهُ ، وَرَجُلٌ لَمْ يُنْصَبْ لَهُ عَلَى

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٤ / ١) .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٦ / ١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٥ / ٢١) ، وروى المرفوع وحده بنحوه الطبراني في « الكبير » (٥٨ / ٦) ، ولفظ المرفوع عندهم : « يجمع الله عز وجل الناس للحساب ، فيجيء فقراء المؤمنين يزفون كما تزف الحمام ، فيقال لهم : قفوا عند الحساب ، فيقولون : ما عندنا حساب ولا آتيمونا شيئاً ، فيقول ربهم : صدق عبادي ، فيفتح لهم باب الجنة ، فيدخلونها قبل الناس بسبعين عاماً » ، وروى الخمس مئة عام الترمذي (٢٣٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

مستوقد قدران ، ورجلٌ دعا بشرابه فلا يُقالُ له : أيّها تريدُ ؟ (١) .

وقيلَ : جاءَ فقيرٌ إلى مجلسِ الثوريِّ رحمه الله ، فقالَ له : تخطُّ ، لو كنتَ غنياً . ما قرَّبْتُكَ ، وكانَ الأغنياءُ مِنْ أصحابِهِ يودُّونَ أنَّهم فقراءُ ؛ لكثرةِ تقريبِهِ الفقراءَ وإعراضِهِ عَنِ الأغنياءِ (٢) .

وقالَ المؤملُ : (ما رأيتُ الغنيَّ أذلَّ منه في مجلسِ الثوريِّ ، ولا رأيتُ الفقيرَ أعزَّ منه في مجلسِ الثوريِّ رحمه الله) (٣) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ، لو خافَ مِنَ النارِ كما يخافُ مِنَ الفقرِ . . لنجا منهما جميعاً ، ولو رغبَ في الجنةِ كما يرغبُ في الغنى . . لفازَ بهما جميعاً ، ولو خافَ اللهَ في الباطنِ كما يخافُ خلقَهُ في الظاهرِ . . لسعدَ في الدارينِ جميعاً) (٤) .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (ملعونٌ مَنْ أكرمَ بالغنى وأهانَ بالفقرِ) (٥) .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (لا تحقرَنَّ أحداً لخلقانِ ثيابهِ ، فإنَّ ربَّكَ وربُّهُ واحدٌ) .

(١) رواه أبو بكر الدينوري في « القناعة » (٤٧)، وكذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٩٠)، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وعزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦٠٧٨) لأبي الشيخ في « الثواب » عن أبي سعيد رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٨٢/٩) .

(٣) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٥٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٥/٦) عن قبيصة بن عقبة لا عن المؤمل بن إسماعيل .

(٤) روى بعضُهُ عن يحيى بن معاذ الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٥/١٤) ، وأورده القشيري في « الرسالة » (ص ٢٣٦) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥٦/٦٠) .

وقال يحيى بن معاذ : (حبك للفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفراؤك من صحبتهم من علامة المنافقين) .
وفي الأخبار عن الكتب السالفة : أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه :
احذر أن أمقتك فتسقط من عيني ، فأصب عليك الدنيا صبا^(١) .

وكانت عائشة رضي الله عنها تفرق مئة ألف درهم في يومها ، يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية :
لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه وكانت صائمة ، فقالت : لو
ذكرتيني .. لفعلت^(٢) .

وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن أردت
اللحوق بي .. فعليك بعيش الفقراء ، وإيّاك ومجالسة الأغنياء ، ولا تنزعي
درعك حتى ترقع^(٣) » .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم ، فأبى عليه ، فطلب
إليه الرجل قبولها ، فقال إبراهيم : تريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء
بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل ذلك أبداً^(٤) .



(١) قوت القلوب (٢٤٣ / ١) .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٦٦ / ١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٧ / ٢) .

(٣) رواه الترمذي (١٧٨٠) .

(٤) أورده صاحب « القوت » (١٩٥ / ٢) والسياق عنده ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٥٣) .

بيان فضيلة خُصوص الفقراء من الرّاضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « طوبى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كِفَافاً وَقَنَعَ بِهِ » (١) .

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ الرضا مِنْ قُلُوبِكُمْ . . . تظفروا بثوابِ فقركُمْ ، وإلا . . . فلا » (٢) ، فالأوّلُ للقانع ، وهذا للراضي ، ويكادُ يشعرُ هذا بمفهوميهِ أَنَّ الحريصَ لا ثوابَ لَهُ على فقرِهِ ، ولكنَّ العموماتُ الواردةُ في فضلِ الفقرِ تدلُّ على أَنَّ لَهُ ثواباً كما سيأتي تحقيقُهُ ، فلعلَّ المرادَ بعدمِ الرضا هو الكراهةُ لفعلِ اللهِ في حبسِ الدنيا عنه ، وربَّ راغبٍ في المالِ لا يخطرُ بقلبه إنكارُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ولا كراهةُ في فعلِهِ ، فتلكَ الكراهةُ هي التي تحبُطُ ثوابَ الفقرِ .

ورُويَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ ، وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَساكِينِ ،

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « الكبرى » (٩٧٩٣) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٤ / ٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكى سننه الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٢٨١ / ٤) ، وانظر « الإتحاف » (٢٨٣ / ٩ ، ٦٥٠) .

والفقراء الصبرُ هُم جلساءُ الله تعالى يومَ القيامةِ «^(١) .

وروي عن علي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« أحبُّ العبادِ إلى الله الفقيرُ القانعُ برزقِهِ الراضي عن الله تعالى »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ
كفافاً »^(٣) .

وقال : « ما مِنْ أحدٍ غنيٍّ ولا فقيرٍ إلا ودَّ يومَ القيامةِ أَنَّهُ كانَ أُوتِيَ قوتاً
في الدنيا »^(٤) .

وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام : اطلبني عند المنكسرة
قلوبهم ، قال : ومن هُم ؟ قال : الفقراءُ الصادقونَ^(٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا أحدَ أفضلَ مِنَ الفقيرِ إذا كانَ راضياً »^(٦) .

-
- (١) رواه الديلمي في « الفردوس » (٤٩٩٣) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٥٣) .
(٢) كذا في « القوت » (١٩٤ / ٢) حيث قال : (وروي عبد الرحمن بن سابط عن علي
عليه السلام ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل ...) وذكره ، وتقدم
حديث : « إن الله يحب الفقير المتعفف » وهو ما رواه ابن ماجه (٤١٢١) .
(٣) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) بلفظ : « اللهم ؛ ارزق آل محمد قوتاً » ،
وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) ، وقال الحافظ الزبيدي في
« إتحافه » (٢٨٣ / ٩) : (وفي بعض النسخ : « رزق » بدل « قوت ») .
(٤) رواه ابن ماجه (٤١٤٠) .
(٥) قوت القلوب (١٩٢ / ١) .
(٦) كذا في « القوت » (١٩٢ / ١) حيث قال : (وفي الحديث الذي روي عن ابن
الأعرابي ...) وذكره .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين صفوتي من خلقي ؟ فتقول الملائكة : ومن هم يا ربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعطائي ، الراضون بقدري ، أدخلوهم الجنة ، فدخلونها ، ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون » (١) .

فهذا في القانع والراضي ، وأما الزاهد . . فنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى .



وأما الآثار في الرضا والقناعة . . فكثيرة ، ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضي الله عنه : (إن الطمع فقر ، واليأس غنى ، وإنه من يش عَمَّا في أيدي الناس وقنع . . استغنى عنهم) (٢) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (ما من يوم إلا وملكٌ ينادي من تحت العرش : يا بن آدم ؛ قليلٌ يكفيك خيرٌ من كثيرٍ يطغيك) (٣) .

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : (ما من أحدٍ إلا وفي عقله

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس) .

« إتحاف » (٢٨٣ / ٩) ، وعند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٥٨) من حديثه

رضي الله عنه : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : أدنوا مني أحبائي . . » الحديث .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٠ / ١) .

(٣) قد روى أحمد في « المسند » (١٩٧ / ٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً : « ما

طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين :

يا أيها الناس ؛ هلموا إلى ربكم ؛ فإن ما قل وكفى مما كثر وألهى . . » الحديث .

نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة . . ظلّ فرحاً مسروراً ، والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ، ويح ابن آدم ! ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص !؟ (١) .

وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال : قلّة تمنّيك ، ورضاك بما يكفيك (٢) .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم . . إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله ، فلمّا أكل . . نام ، فقال لبعض غلمانه : إذا قام . . فجنّني به ، فلمّا قام . . جاء به إليه ، فقال إبراهيم : أيها الرجل ؛ أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال : نعم ، قال : فشبع ؟ قال : نعم ، قال : ثمّ نمت طيباً ؟ قال : نعم ، فقال إبراهيم في نفسه : فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر (٣) .

ومرّ رجلٌ بعامر بن عبد قيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً ، فقال له : يا عبد الله ؛ أَرْضِيتَ مِنَ الدُّنْيَا بهذا ؟ فقال : أَلَا أدلّك على مَنْ رَضِيَ بِشَرِّ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٧٧) .

(٢) أي : عدم تعلق النفس بالآمال ، والرضا بما يسر له في الحال ، وهذا أحسن ما عرف به الغنى . « إتحاف » (٢٨٤ / ٩) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨٧ / ٦) .

مِنْ هَذَا ؟ قَالَ : بلى ، قَالَ : مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا عَوْضاً عَنِ الْآخِرَةِ ^(١) .
 وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَخْرُجُ خَبزاً يَابِساً فَيَبِّلُهُ بِالمَاءِ وَيَأْكُلُهُ
 بِالمَلْحِ وَيَقُولُ : مَنْ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِهَذَا . . . لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَحَدٍ ^(٢) .
 وَقَالَ الْحَسَنُ : لعنَ اللَّهُ أَقْوَاماً أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ ثُمَّ لَمْ يَصْدُقُوهُ ، ثُمَّ
 قَرَأَ : ﴿ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ . . . ﴿ الْآيَةُ ^(٣) .
 وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا جَالِسًا فِي النَّاسِ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ
 لَهُ : أَتَجْلِسُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ ؟ ! وَاللَّهِ ؛ مَا فِي الْبَيْتِ هِفَّةٌ وَلَا سَفَّةٌ ، فَقَالَ :
 يَا هَذِهِ ؛ إِنَّ بَيْنَ أَيْدِينَا عَقَبَةٌ كَوْودًا لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا كُلُّ مُخَفٍّ ، فَرَجَعَتْ
 وَهِيَ رَاضِيَةٌ ^(٤) .

وَقَالَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ : (أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى الْكُفْرِ ذُو فَاقَةٍ لَا صَبْرَ لَهُ) ^(٥) .
 وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ : مَا مَالُكَ ؟ فَقَالَ : التَّجَمُّلُ فِي الظَّاهِرِ ، وَالْقَصْدُ

- (١) ولفظ « القوت » : (وكان عامر بن عبد قيس إذا عوتب في تقلله من الدنيا . . يقول : بل أنتم - والله - رضيتم بالقليل ، وكان غيره يقول : إذا قيل له : أزهد الناس ، فقال : أنتم أزهد مني ؛ لأنني زهدت في قليل يفتنى ، وأنتم زهدتم في كثير يبقى) . « إتحاف » (٢٨٤ / ٩) .
 (٢) روى أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٣ / ٢) نحوه .
 (٣) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٥٣ / ٢٦ / ١٣) عن الحسن بلاغاً .
 (٤) بنحوه رواه ابن عدي في « الكامل » (٢٧٦ / ٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٥ / ١) ، والهفة والسفة بوزن المرة : ما يهف وما يسف ، والهفة : من صغار السمك ، والسفة : حبة من السويق ، تكني عن العدم .
 (٥) وقد روى أبو نعيم في « الحلية » (٥٣ / ٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » .

في الباطن ، واليأس ممّا في أيدي الناس .

وروي أنّ الله عزّ وجلّ قال في بعض الكتب المنزلة : يا بن آدم ؛ لو كانت الدنيا كلّها لك . . لم يكن لك منها إلا القوت ، فإذا أنا أعطيتك منها القوت ، وجعلت حسابها على غيرك . . فأنا محسن إليك .

وقد قيل في القناعة^(١) :

[من البسيط]

وَأَقْنَعُ بِيَأْسٍ فَإِنَّ الْعِزَّ فِي الْيَأْسِ
إِنَّ الْغِنَى مَنْ أَسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ

إِضْرَعْ إِلَى اللَّهِ لَا تَضْرَعْ إِلَى النَّاسِ
وَأَسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ

وقيل أيضاً^(٢) :

[من البسيط]

مُقَدَّرًا أَيَّ بَابٍ مِنْهُ يُغْلِقُهُ
أَغَادِيًا أَمْ بِهَا يَسْرِي فَتَطْرُقُهُ
يَا جَامِعَ الْمَالِ أَيَّامًا تَفَرِّقُهُ
مَا الْمَالُ مَالَكَ إِلَّا يَوْمَ تَنْفِقُهُ
إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْأَرْزَاقَ يَرْزُقُهُ
وَالْوَجْهَ مِنْهُ جَدِيدٌ لَيْسَ يُخْلِقُهُ
لَمْ يَلْقَ فِي ظِلِّهَا هَمًّا يُورِّقُهُ

يَا جَامِعًا مَانِعًا وَالذَّهْرُ يَرْمُقُهُ
مُفَكِّرًا كَيْفَ تَأْتِيهِ مَنِيَّتُهُ
جَمَعْتَ مَالًا فَفَكَّرْ هَلْ جَمَعْتَ لَهُ
الْمَالُ عِنْدَكَ مَخْزُونٌ لِوَارِثِهِ
أَرْفَهُ بِبَالٍ فَتَى يَغْدُو عَلَى ثِقَةٍ
فَالْعَرَضُ مِنْهُ مَصُونٌ مَا يُدْنِسُهُ
إِنَّ الْقَنَاعَةَ مَنْ يَحُلُّ بِسَاحَتِهَا



(١) اليتان لابن أبي حازم في «ديوانه» (ص ٦٣) .

(٢) الأبيات للعطوي . انظر «ديوانه» (ص ٨٤ ، ضمن مجلة المورد ، المجلد الأول

١٣٩١-١٩٧١ - العددان ١ و ٢) ، و «شرح نهج البلاغة» (٢٠ / ٥٥) .

بيان فضل إفقر على أغنى

اعلم : أنَّ الناسَ قد اختلفوا في هذا ، فذهبَ الجنيْدُ والخوَّاصُ والأكثرونَ إلى تفضيلِ الفقرِ^(١) ، وقالَ ابنُ عطاءٍ : (الغنيُّ الشاكرُ القائمُ بحقه أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ)^(٢) ، ويُقالُ : إنَّ الجنيْدَ دعا عليَّ ابنَ عطاءٍ لمخالفتهِ إيَّاهُ في هذا ، فأصابتهُ محنةٌ^(٣) .

وقد ذكرنا ذلكَ في كتابِ الصبرِ ، ووجهَ التفاوتِ بينَ الصبرِ والشكرِ ، ومهدنا سبيلَ طلبِ الفضيلةِ في الأعمالِ والأحوالِ ، وأنَّ ذلكَ لا يمكنُ إلا بتفصيلٍ .

وأما الفقرُ والغنى إذا أخذَا مطلقاً . . لم يسترِبْ مَنْ قرأ الأخبارَ والآثارَ في تفضيلِ الفقرِ ، ولا بدَّ فيه مِنْ تفصيلٍ ، فنقولُ :
إنَّما يُتصوَّرُ الشكُّ في مقامينِ :

أحدهما : فقيرٌ صابرٌ ليسَ بحريصٍ على الطلبِ ، بل هو قانعٌ أو راضٍ بالإضافةِ إلى غنيٍّ منفقٍ ماله في الخيراتِ ، ليسَ حريصاً على إمساكِ المالِ .
والثاني : فقيرٌ حريصٌ معَ غنيٍّ حريصٍ ؛ إذ لا يخفى أنَّ الفقيرَ القانعَ

(١) والخوَّاص هو إبراهيم بن أحمد ، وضع كتاباً سماه « شرف الفقراء » ، ونقل تفضيله الطوسي في « اللمع » (ص ٧٤) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٤ / ١) .

(٣) قوت القلوب (٢٠١ / ١ ، ٢٦٤) .

أَفْضَلُ مِنَ الْغَنِيِّ الْحَرِيصِ الْمَمْسُوكِ ، وَأَنَّ الْغَنِيَّ الْمُنْفَقَ مَالَهُ فِي الْخَيْرَاتِ
أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ الْحَرِيصِ .

- أَمَّا الْأَوَّلُ : فَرَبَّمَا يُظَنُّ أَنَّ الْغَنِيَّ أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ ؛ لِأَنَّهُمَا تَسَاوَيَا فِي
ضَعْفِ الْحَرَصِ عَلَى الْمَالِ ، وَالْغَنِيُّ مُتَقَرِّبٌ بِالْصَّدَقَاتِ وَالْخَيْرَاتِ وَالْفَقِيرُ
عَاجِزٌ عَنْهُ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي ظَنَّهُ ابْنُ عَطَاءٍ فِيمَا نَحْسِبُهُ ، فَأَمَّا الْغَنِيُّ الْمَتَمَتِّعُ
بِالْمَالِ - وَإِنْ كَانَ فِي مَبَاحٍ - فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُفْضَلَ عَلَى الْفَقِيرِ الْقَانِعِ .

وَقَدْ يَشْهَدُ لَهُ مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ الْفُقَرَاءَ شَكُّوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ سَبَقَ الْأَغْنِيَاءَ بِالْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ ، فَعَلَّمَهُمْ كَلِمَاتٍ فِي
التَّسْبِيحِ وَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَنَالُونَ بِهَا فَوْقَ مَا نَالَهُ الْأَغْنِيَاءُ ، فَتَعَلَّمَ الْأَغْنِيَاءُ ذَلِكَ ،
فَكَانُوا يَقُولُونَهُ ، فَعَادَ الْفُقَرَاءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » ^(١) .

وَقَدْ اسْتَشْهَدَ ابْنُ عَطَاءٍ أَيْضاً لَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : (الْغَنِيُّ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ
وَصَفُ الْحَقِّ) ^(٢) .

أَمَّا دَلِيلُهُ الْأَوَّلُ . . فِيهِ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ قَدْ وَرَدَ مَفْصَلاً تَفْصِيلاً يَدُلُّ عَلَى
خِلَافِ ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ ثَوَابَ الْفَقِيرِ فِي التَّسْبِيحِ يَزِيدُ عَلَى ثَوَابِ الْغَنِيِّ ، وَأَنَّ
فَوْزَهُمْ بِذَلِكَ الثَّوَابِ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ؛ فَقَدْ رَوَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ

(١) رواه البخاري (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٤ / ١) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني رسول الفقراء إليك ، فقال : « مرحباً بك وبمن جئت من عندهم ، جئت من عند قوم أحبهم » ، قال : قالوا : يا رسول الله ؛ إن الأغنياء ذهبوا بالجنة ؛ يحججون ولا نقدر عليه ، ويعتصرون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا . . بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بلغ عني الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء ، أما خصلة واحدة : فإن في الجنة غرفاً ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء ، لا يدخلها إلا نبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وهو خمس مئة عام ، والثالثة : إذا قال الغني : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك . . لم يلحق الغني بالفقير وإن أنفق فيها عشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البر كلها » ، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : رضينا رضيانا^(١) .

فهذا يدل على أن قوله : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » أي : مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم .

(١) كذا في « القوت » (٢٦٢ / ١) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده هكذا بهذا السياق ، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه [٤١٢٤] من حديث ابن عمر : اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل به عليهم أغنيائهم ، فقال : « يا معشر الفقراء ، ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ؛ خمس مئة عام » ، وإسناده ضعيف . « إتحاف » (٢٨٧ / ٩) .

وأما قوله : (إِنَّ الْغَنَى وَصْفُ الْحَقِّ) . . فقد أجابه بعضُ الشيوخ فقال : أترى أَنَّ الْحَقَّ غَنِيٌّ بِالْأَسْبَابِ وَالْأَعْرَاضِ ؟ ! فأنقطع ولم ينطق^(١) .

وأجاب آخرون فقالوا : إِنَّ التَّكَبُّرَ مِنْ صِفَاتِ الْحَقِّ ، فينبغي أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنَ التَّوَاضُعِ ! ثُمَّ قالوا : بَلْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَقْرَ أَفْضَلُ ؛ لِأَنَّ صِفَاتِ الْعِبُودِيَّةِ أَفْضَلُ لِلْعَبْدِ ؛ كَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَصِفَاتِ الرِّبُوبِيَّةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُنَازَعَ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِيمَا رَوَى عَنْهُ نَبِيُّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « الْكِبْرِيَاءُ رَدَائِي وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا . . قَصَمْتُهُ »^(٢) .

وقال سهل : (حُبُّ الْعِزِّ وَالْبَقَاءِ شُرْكٌ فِي الرِّبُوبِيَّةِ وَمُنَازَعَةٌ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى)^(٣) .

فَمِنْ هَذَا الْجَنْسِ تَكَلَّمُوا فِي تَفْضِيلِ الْغَنَى وَالْفَقْرِ ، وَحَاصِلُ ذَلِكَ : تَعَلُّقٌ بِعُمُومَاتٍ تَقْبَلُ التَّأْوِيلَ ، وَبِكَلِمَاتٍ قَاصِرَةٍ لَا تَبَعُدُ مَنَاقِضَتُهَا ، إِذْ كَمَا يُنَاقِضُ قَوْلُ مَنْ فَضَّلَ الْغَنَى بِأَنَّهُ صِفَةُ الْحَقِّ . . بِالتَّكَبُّرِ ؛ فَكَذَلِكَ يُنَاقِضُ قَوْلُ مَنْ فَضَّلَ الْفَقْرَ بِأَنَّهُ وَصْفُ الْعَبْدِ . . بِالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ؛ فَإِنَّهُ وَصْفُ الرَّبِّ تَعَالَى ، وَالْجَهْلُ وَالْغَفْلَةُ وَصْفُ الْعَبْدِ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَفْضَلَ الْغَفْلَةَ عَلَى الْعِلْمِ .

فكشفتُ الغطاءَ عَنْ هَذَا هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ الصَّبْرِ ، وَهُوَ أَنَّ مَا لَا

(١) قوت القلوب (١/٢٦٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داود (٤٠٩٠) .

(٣) قوت القلوب (١/٢٦٤) .

يُرَادُ لِعَيْنِهِ بَلْ يُرَادُ لغيرِهِ . . فينبغي أَنْ يُضَافَ إِلَى مقصوده ؛ إِذْ بِهِ يَظْهَرُ فضلهُ ، والدنيا لَيْسَتْ محذورةً لِعَيْنِهَا ، وَلَكِنْ لكونِهَا عَائِقَةً عَنِ الوصولِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا الْفَقْرُ مَطْلُوبٌ لِعَيْنِهِ ، لَكِنْ لِأَنَّ فِيهِ فَقْدَ الْعَائِقِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَدَمَ الشَّاغِلِ عَنْهُ ، وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ لَمْ يَشْغَلْهُ الْغِنَى عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مِثْلَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَعُثْمَانَ ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَكَمْ مِنْ فَقِيرٍ شَغَلَهُ الْفَقْرُ وَصَرَفَهُ عَنِ الْمَقْصِدِ ، وَغَايَةِ الْمَقْصِدِ فِي الدُّنْيَا هُوَ حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَنْسُ بِهِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ، وَسَبِيلُ الْمَعْرِفَةِ مَعَ الشَّوَاغِلِ غَيْرُ مُمْكِنٍ ، وَالْفَقْرُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الشَّوَاغِلِ ؛ كَمَا أَنَّ الْغِنَى قَدْ يَكُونُ مِنَ الشَّوَاغِلِ ، وَإِنَّمَا الشَّاغِلُ عَلَى التَّحْقِيقِ حُبُّ الدُّنْيَا ؛ إِذْ لَا يَجْتَمِعُ مَعَهُ حُبُّ اللَّهِ فِي الْقَلْبِ ، وَالْمَحَبُّ لِلشَّيْءِ مَشْغُولٌ بِهِ سِوَاهُ كَانَ فِي فِرَاقِهِ أَوْ فِي وَصَالِهِ ، وَرَبَّمَا يَكُونُ شُغْلُهُ فِي الْفِرَاقِ أَكْثَرَ ، وَرَبَّمَا يَكُونُ شُغْلُهُ فِي الْوَصَالِ أَكْثَرَ ، وَالدُّنْيَا مَعْشُوقَةُ الْغَافِلِينَ ، الْمَحْرُومُ مِنْهَا مَشْغُولٌ بِطَلِبِهَا ، وَالْقَادِرُ عَلَيْهَا مَشْغُولٌ بِحِفْظِهَا وَالتَّمَتُّعِ بِهَا .

فَإِذَا ؛ إِنْ فَرَضْتَ فَارْغِينَ عَنْ حُبِّ الْمَالِ ؛ بِحَيْثُ صَارَ الْمَالُ فِي حَقِّهِمَا كَالْمَاءِ . . اسْتَوَى الْفَاقِدُ وَالْوَاجِدُ ؛ إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ غَيْرُ مَتَمِّعٍ إِلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ ، وَوَجُودُ قَدْرِ الْحَاجَةِ أَفْضَلُ مِنْ فَقْدِهِ ؛ إِذِ الْجَائِعُ يَسْلُكُ سَبِيلَ الْمَوْتِ لَا سَبِيلَ الْمَعْرِفَةِ .

وَإِنْ أَخَذْتَ الْأَمْرَ بِاعْتِبَارِ الْأَكْثَرِ . . فَالْفَقِيرُ عَنِ الْخَطَرِ أَبْعَدُ ؛ إِذْ فَتْنَةُ السَّرَّاءِ أَشَدُّ مِنْ فَتْنَةِ الضَّرَّاءِ ، وَمِنَ الْعَصْمَةِ أَلَّا يَقْدَرَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ الصَّحَابَةُ

رضي الله عنهم : (بُلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبُلينا بفتنة السراء فلم نصبر)^(١) ، وهذه خِلقةُ الآدميين كلهم إلا الشاذَّ الفذَّ الذي لا يُوجدُ في الأعصارِ الكثيرةِ إلا نادراً .

ولمَّا كانَ خطابُ الشرعِ مع الكلِّ لا مع ذلكِ النادرِ ، والضراءُ أصلحُ للكلِّ دونَ ذلكِ النادرِ . زجرَ الشرعُ عن الغنى وذمَّهُ ، وفضَّلَ الفقرَ ومدحَهُ ، حتَّى قالَ عيسى عليه السلامُ : (لا تنظروا إلى أموالِ أهلِ الدنيا ، فإنَّ بريقَ أموالِهِمْ يذهبُ بنورِ إيمانِكُمْ)^(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (تَقْلِبُ الأموالِ يَمْصُ حِلَاوَةَ الإِيْمَانِ)^(٣) .

وفي الخبرِ : « لكلِّ أمةٍ عَجَلٌ ، وعَجَلُ هذهِ الأُمَّةِ الدِّينَارُ والدرهمُ »^(٤) ، وكانَ أصلُ عَجَلِ قومِ موسى مِنْ حَلِيَةِ الذهبِ والفضةِ أيضاً .

واستواءُ المالِ والماءِ والذهبِ والحجرِ إِنَّمَا يُتَصَوَّرُ لِلأنبياءِ والأولياءِ ، ثُمَّ يَتَمُّ لَهُمْ ذَلِكَ بَعْدَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِطَوْلِ المِجَاهِدَةِ ، إِذْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (٢٦٢ / ١) .

(٣) قوت القلوب (٢٦٢ / ١) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٥٠١٩] من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة) . « إتحاف » (٢٨٩ / ٩) .

عليه وسلم يقولُ للدنيا : « إِيْلَيْكَ عَنِّي » إِذْ كَانَتْ تَتَمَثَّلُ لَهُ بِزِينَتِهَا ^(١) .

وَكَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : (يَا صَفْرَاءُ ؛ غَرِّيْ غَيْرِي ، وَيَا بَيْضَاءُ ؛ غَرِّيْ غَيْرِي) ^(٢) وَذَلِكَ لِاسْتِشْعَارِهِ فِي نَفْسِهِ ظُهُورَ مَبَادِي الْاِغْتِرَارِ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأْيَ بَرَهَانَ رَبِّهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْغِنَى الْمَطْلُوقُ ، إِذْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » ^(٣) .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ بَعِيدًا . . فَإِذَا الْأَصْلَحُ لِكَافَةِ الْخَلْقِ فَقَدْ الْمَالِ وَإِنْ تَصَدَّقُوا بِهِ وَصَرَفُوهُ إِلَى الْخَيْرَاتِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَكُونَ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الْمَالِ عَنْ أَنَسٍ بِالدُّنْيَا ، وَتَمَتَّعَ بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَشْعَارَ رَاحَةَ فِي بَذْلِهَا ، وَكُلَّ ذَلِكَ يُوْرِثُ الْإِنْسَ بِهَذَا الْعَالَمِ ، وَبِقَدْرِ مَا يَأْنِسُ الْعَبْدُ بِالدُّنْيَا يَسْتَوْحِشُ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَبِقَدْرِ مَا يَأْنِسُ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ - سِوَى صِفَةِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ - يَسْتَوْحِشُ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ حَبِّهِ ، وَمَهُمَا انْقَطَعَتْ أَسْبَابُ الْإِنْسِ بِالدُّنْيَا . . تَجَافَى الْقَلْبُ عَنِ الدُّنْيَا وَزَهَرَتْهَا ، وَالْقَلْبُ إِذَا تَجَافَى عَمَّا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى وَكَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ . . انْصَرَفَ - لَا مُحَالَةً - إِلَى اللَّهِ ؛ إِذْ لَا يُتَصَوَّرُ قَلْبٌ فَارِغٌ .

وَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَغَيْرُهُ ، فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى غَيْرِهِ . . فَقَدْ تَجَافَى عَنْهُ ، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ . . تَجَافَى عَنْ غَيْرِهِ ، وَيَكُونُ إِقْبَالُهُ عَلَى أَحَدِهِمَا

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « ذَمِّ الدُّنْيَا » (١١) ، وَابْنُ زَبَرٍ فِي « مَسْنَدِهِ » (٤٤) ، وَالْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٣٠٩ / ٤) ، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي « الشَّعْبِ » (١٠٠٣٩) .

(٢) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٨١ / ١) .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٤٦) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٥١) .

بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ، ومثلهما مثل المشرق والمغرب ، فإنهما جهتان ، فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد من الآخر ، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر ، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوفه عن الدنيا وأنسه بها .

فإذا ؛ فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط ، فإن تساويا فيه . . تساوت درجتُهُما ، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور ؛ فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقدته ، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً . . فليعلم أنه كان مغروراً ، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها ، فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية . . اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه ، فتحقق به أنه كان مغروراً ، وأن العشق كان مستكناً في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد ، وهذا حال كل الأغنياء ، إلا الأنبياء والأولياء .

وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً . . فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ؛ لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف ، وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسيحاته وعبادته ، فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها ، بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور ، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول .

ولذلك قال بعض السلف : (مثلٌ مَنْ تعبدَ وهو في طلبِ الدنيا مثلٌ مَنْ يطفىءُ النارَ بالحلفاءِ ، ومثلٌ مَنْ يغسلُ يدهُ مِنَ الغَمْرِ بالسَّمَكِ)^(١) .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : (تنفُّسُ فقيرٍ دونَ شهوةٍ لا يقدرُ عليها أفضلُ مِنْ عبادةٍ غنيٍّ ألفَ عامٍ)^(٢) .

وعن الضحَّاك قال : (مَنْ دخلَ السوقَ ، فرأى شيئاً يشتيه ، فصبرَ واحتسبَ . . كان خيراً لَهُ مِنْ ألفِ دينارٍ ينفقُها كلها في سبيلِ الله تعالى) .

وقال رجلٌ لبشرِ بنِ الحارثِ رحمه الله : ادعُ اللهَ لي ، فقد أضربَ بي الفقرُ والعيالُ ، فقال : إذا قالَ لكَ عيالكُ : ليسَ عندنا دقيقٌ ولا خبزٌ . . فادعُ لي في ذلكَ الوقتِ ؛ فإنَّ دعاءَكَ أفضلُ مِنْ دعائي^(٣) .

وكان يقولُ : (مثلُ الغنيِّ المتعبدِ مثلُ روضةٍ على مزبلةٍ ، ومثلُ الفقيرِ المتعبدِ مثلُ عقدِ الجواهرِ في جيدِ الحسناءِ)^(٤) .

وقد كانوا يكرهون سماعَ علمِ المعرفةِ مِنَ الأغنياءِ^(٥) .

وقد قال أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه : (اللهم ؛ إنِّي أسألكَ الذلَّ عندَ النصفِ مِنْ نفسي ، والزهدَ فيما جاوزَ الكفافَ)^(٦) ، وإذا كانَ مثلُ الصديقِ

(١) قوت القلوب (٢٦٢ / ١) ، والغمر : ربح اللحم وزهمه .

(٢) قوت القلوب (١٩٢ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (١٩٢ / ٢) .

(٤) قوت القلوب (١٩٢ / ٢) .

(٥) قوت القلوب (١٩٣ / ٢) .

(٦) قوت القلوب (٢٦٢ / ١) .

رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها . . فكيف يُشكُّ في أن فقد المال أصلح من وجوده ؟! هذا مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالاً ، وينفق طيباً ، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ، ويطول انتظاره ، ومن نوقش الحساب . . عذَّب ، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة ؛ إذ كان مشغولاً بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) .

ولهذا قال أبو الدرداء : ما أحبُّ أن لي حانوتاً على باب المسجد ولا تخطئي فيه صلاةً وذكرٌ وأربح كل يوم أربعين ديناراً وأتصدق بها في سبيل الله تعالى ، قيل : وما تكره ؟ قال : سوء الحساب^(٢) .

ولذلك قال سفيان رحمه الله : (اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء ؛ اختار الفقراء راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب ، واختار الأغنياء تعب النفس ، وشغل القلب ، وشدة الحساب) .

وما ذكره ابن عطاء من أن الغني وصف الحق ؛ فهو بذلك أفضل . . فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعدمه جميعاً ، بأن يستوي عنده كلاهما ، فأما إذا كان غنياً بوجوده ومفتقراً إلى بقائه . . فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى ؛ لأن الله تعالى غني بذاته ، لا بما يتصور زواله ، والمال يتصور زواله بأن يُسرق .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٣٦ / ٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٩ / ١) .

وما ذُكِرَ في الردِّ عليه مِنْ أَنَّ اللهَ ليسَ غنياً بالأعراضِ والأسبابِ ..
صحيحٌ في ذمِّ غنيٍّ يريدُ بقاءَ المالِ ، وما ذُكِرَ مِنْ أَنَّ صفاتِ الحقِّ لا تليقُ
بالعبدِ .. غيرُ صحيحٍ ، بلِ العلمُ مِنْ صفاتِهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أفضلُ شيءٍ
للعبدِ ، بلِ منتهى العبدِ أَنْ يتخلَّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالى ، وقد سمعتُ بعضَ
المشايخِ يقولُ : إِنَّ سالكَ الطريقِ إلى اللهِ تعالى قبلَ أَنْ يقطعَ الطريقَ تصيرُ
الأسماءُ التسعةُ والتسعونَ أوصافاً له ؛ أي : يكونُ له مِنْ كلِّ واحدٍ نصيبٌ .
وأما التكبرُ .. فلا يليقُ بالعبدِ ، فَإِنَّ التكبرَ على مَنْ لا يستحقُّ التكبرَ عليه
ليسَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالى ، وأما التكبرُ على مَنْ يستحقُّه ؛ كتكبرِ المؤمنِ على
الكافرِ ، وتكبرِ العالمِ على الجاهلِ ، والمطيعِ على العاصي .. فيليقُ به .
نعم ، قد يُرادُ بالتكبرِ الزهوُ والصلفُ والإيذاءُ ، وليسَ ذلكَ مِنْ
وصفِ اللهِ تعالى ، وإنما وصفُ اللهِ تعالى أَنَّهُ أكبرُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، وَأَنَّهُ يعلمُ
أَنَّهُ كذلكَ ، والعبدُ مأمورٌ بأنْ يطلبَ أعلى المراتبِ إنْ قدرَ عليه ، ولكنْ
بالاستحقاقِ كما هوَ حقُّه ، لا بالباطلِ والتلبسِ ، فعلى العبدِ أَنْ يعلمَ أَنَّ
المؤمنَ أكبرُ مِنَ الكافرِ ، والمطيعُ أكبرُ مِنَ العاصي ، والعالمُ أكبرُ مِنَ
الجاهلِ ، والإنسانُ أكبرُ مِنَ البهيمةِ والجمادِ والنباتِ ، وأقربُ إلى اللهِ تعالى
منها ، فلو رأى نفسه بهذه الصفةِ رؤيةً محقَّقةً لا شكَّ فيها .. لكانتُ صفةُ
التكبرِ حاصلةً له ولائقةً به وفضيلةً في حقِّه ، إلا أَنَّهُ لا سبيلَ له إلى معرفته ،
فإنَّ ذلكَ موقوفٌ على الخاتمةِ ، وليسَ يدري الخاتمةَ كيفَ تكونُ ، وكيفَ
تتفقُ ، فلجهلهِ بذلكَ وجبَ ألا يعتقِدَ لنفسِهِ رتبةً فوقَ رتبةِ الكافرِ ؛ إذ ربما

يُخْتَمُ لِلْكَافِرِ بِالْإِيمَانِ وَيُخْتَمُ لَهُ بِالْكَفْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لائِقًا بِهِ ؛ لِقْصُورِ
عِلْمِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْعَاقِبَةِ .

وَلَمَّا تُصَوِّرَ أَنْ يَعْلَمَ الشَّيْءَ عَلَى مَا هُوَ بِهِ . . كَانَ الْعِلْمُ كَمَالًا فِي حَقِّهِ ؛
لَأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ، وَلَمَّا كَانَتْ مَعْرِفَةُ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ قَدْ تَضَرَّعَتْ . . صَارَ ذَلِكَ
الْعِلْمُ نَقْصًا فِي حَقِّهِ ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِ اللَّهِ تَعَالَى عِلْمٌ يَضُرُّهُ ، فَمَعْرِفَةُ
الْأُمُورِ الَّتِي لَا ضَرَرَ فِيهَا هِيَ الَّتِي تُتَصَوَّرُ فِي الْعَبْدِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا
جَرَمَ هُوَ مُنْتَهَى الْفَضِيلَةِ ، وَبِهِ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ .

فَإِذَا ؛ لَوْ اسْتَوَى عِنْدَهُ وَجُودُ الْمَالِ وَعَدَمُهُ . . فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْغِنَى
يُضَاهِي بَوَاجِهُ مِنَ الْوُجُوهِ الْغِنَى الَّذِي يُوصَفُ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ^(١) ، فَهُوَ
فَضِيلَةٌ ، أَمَّا الْغِنَى بِوُجُودِ الْمَالِ . . فَلَا فَضِيلَةَ فِيهِ أَصْلًا .

فَهَذَا بَيَانُ نِسْبَةِ حَالِ الْفَقِيرِ الْقَانِعِ إِلَى حَالِ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ .

- الْمَقَامُ الثَّانِي : فِي نِسْبَةِ حَالِ الْفَقِيرِ الْحَرِيصِ إِلَى حَالِ الْغَنِيِّ الْحَرِيصِ :

وَلِنَفَرَضُ ذَلِكَ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ هُوَ طَالِبٌ لِلْمَالِ وَسَاعٍ فِيهِ وَفَاقِدٌ لَهُ ثُمَّ
وَجَدَهُ ، فَلَهُ حَالَةُ الْفَقْرِ وَحَالَةُ الْوُجُودِ ، فَأَيُّ حَالَتَيْهِ أَفْضَلُ ؟

فَنَقُولُ : نَنْظُرُ ؛ فَإِنْ كَانَ مَطْلُوبُهُ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ فِي الْمَعِيشَةِ ، وَكَانَ قَصْدُهُ
أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ الدِّينِ ، وَيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَيْهِ . . فَحَالُ الْوُجُودِ أَفْضَلُ ؛ لِأَنَّ الْفَقْرَ

(١) يَضَاهِي هُنَا : يَشَاكِلُ وَيَشَابَهُ ، وَيَقَالُ : فَلَانِ يَضَاهِي فَلَانًا ؛ أَيِ : يَتَابَعُهُ .

يشغله بالطلب ، وطالب القوت لا يقدر على الذكر والفكر إلا قدرة مدخولة
بشغل ، والمكفي هو القادر .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ اجعل قوت آل محمد
كفافاً »^(١) .

وقال : « كاد الفقر أن يكون كفراً »^(٢) أي : الفقر مع الاضطرار فيما
لا بد منه .

وإن كان المطلوب فوق الحاجة ، أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن
المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين . . فحالة الفقر أصلح وأفضل ؛
لأنهما استويا في الحرص وحب المال ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس
يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس
يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ، ولكن افرقا في أن الواحد يأنس بما
وجدته ، فيتأكد حبه في قلبه ، ويطمئن إلى الدنيا ، والفاقد المضطر يتجافى قلبه
عن الدنيا ، وتكون الدنيا عنده مثل السجن الذي ينبغي الخلاص منه .

ومهما استوت الأمور كلها ، وخرج من الدنيا رجلان ؛ أحدهما أشد
ركوناً إلى الدنيا . . فحاله أشد لا محالة ؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ،

(١) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) بلفظ : « اللهم ؛ ارزق آل محمد قوتا » ،
وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيع والتنبية » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٣ / ٣) ،
والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

ويستوحش من الآخرة بقدر تأكده أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فإنك مفارقة »^(١) ، وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد .

فينبغي أن تحب من لا يفارقك ، وهو الله تعالى ، ولا تحب ما يفارقك ، وهو الدنيا ؛ فإنك إذا أحببت الدنيا . . كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ، وكل من فارق محبوباً فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به ، وأنس الواحد للدنيا بالدنيا أكثر من أنس الفاقدين لها وإن كان حريصاً عليها .

فإذا ؛ قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين :

أحدهما : غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها ، استوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيداً له ، إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم .

والثاني : الفقر عن مقدار الضرورة ، فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً ،

(١) الشطر الأول من الحديث رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٢٥ / ١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦ / ١٠) ، والثاني رواه أيضاً أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

ولا خيرَ فيه بوجهٍ من الوجوه ، إلا إذا كان وجودُهُ يُبقي حياته ، ثمَّ يستعينُ بقوته وحياته على الكفرِ والمعاصي ، ولو مات جوعاً . . لكانت معاصيه أقلَّ ، فالأصلحُ له أن يموت جوعاً ولا يجد ما يُضطرُّ إليه أيضاً .

فهذا تفصيلُ القولِ في الغنى والفقر ، ويبقى النظرُ في فقيرٍ حريصٍ متكالبٍ على طلبِ المالِ ، ليسَ له همٌّ سواه ، وفي غنيٍّ دونه في الحرصِ على حفظِ المالِ ، ولم يكنْ تفجُّعُهُ بفقدِ المالِ لو فقدَهُ كتفجُّعِ الفقيرِ بفقدِهِ ، فهذا في محلِّ النظرِ ، والأظهرُ : أنَّ بعدهما عن الله تعالى بقدرِ قوَّةِ تفجُّعِهِما لفقدِ المالِ ، وقربَهُما بقدرِ ضعفِ تفجُّعِهِما بفقدِهِ ، والعلمُ عندَ الله تعالى فيه .



بيان آداب الفقير في فقره

اعلم : أنَّ للفقير آداباً في باطنه وظاهره ، ومخالطته وأفعاله ، ينبغي أن يراعيها .

فأما أدب باطنه : فالأول يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ؛ أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله من حيث إنه فعله وإن كان كارهاً للفقير ؛ كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ، ولا يكون كارهاً فعل الحجامة ، ولا كارهاً للحجامة ، بل ربما يتقلد منه منه .

فهذا أقل درجاته ، وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الفقراء ؛ أعطوا الله الرضا من قلوبكم . . . تظفروا بثواب فقركم ، وإلا . . . فلا »^(١) .

وأرفع من هذا : ألا يكون كارهاً للفقير ، بل يكون راضياً به .

وأرفع منه : أن يكون طالباً له ، وفرحاً به ؛ لعلمه بغوائل الغنى ، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى ، واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ، ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف .

(١) قوت القلوب (١٩٤ / ٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكى سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٢٨١ / ٤) ، وانظر « الإتحاف » (٢٨٣ / ٩ ، ٦٥٠) .

وقد قال علي رضي الله عنه : (إنَّ الله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ، ويطيع به ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علامته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ، ويعصي ربه بترك طاعته ، ويكثر الشكاية ، ويتسخط القضاء)^(١) .

وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود ، بل الذي لا يتسخط ، أو يرضى ، أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بشمرته ؛ إذ قيل : (ما أُعطي عبدٌ شيئاً من الدنيا إلا قيل له : خذهُ على ثلاثة أثلاث : شغلٍ وهمٍّ وطولٍ حسابٍ)^(٢) .

وأما أدب ظاهره : فأن يظهر التعفف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ، ويستر أنه يستره ؛ ففي الحديث : « إنَّ الله تعالى يحبُّ الفقيرَ المتعففَ أبا العيال »^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ .

وقال سفيان : (أفضلُ الأعمالِ التجملُ عندَ المحنة)^(٤) .

(١) قوت القلوب (١٩٣ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (١٩٥ / ٢) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٤) قوت القوت (١٩٤ / ٢) .

وقال بعضهم : (سترُ الفقيرُ مِنْ كنوزِ البرِّ) .

وأما في أعماله : فأدبه : ألا يتواضعَ لغنيٍّ لأجلِ غناه ، بل يتكبرُ عليه ، قال عليٌّ رضي الله عنه : (ما أحسنَ تواضعَ الغنيِّ للفقيرِ رغبةً في ثوابِ الله تعالى ، وأحسنُ منه تيهُ الفقيرِ على الغنيِّ ثقةً بالله عزَّ وجلَّ) (١) .

فهذه رتبةٌ ، وأقلُّ منها : ألا يخالطَ الأغنياءَ ولا يرغبَ في مجالستهم ؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ مبادي الطمعِ ، قال الثوريُّ رحمه الله تعالى : (إذا خالطَ الفقيرُ الأغنياءَ . . فاعلمْ أنَّه مرءٍ ، وإذا خالطَ السلطانَ . . فاعلمْ أنَّه لصٌّ) (٢) .

وقال بعضُ العارفينَ : (إذا مالَ الفقيرُ إلى الأغنياءِ . . انحلتْ عروتهُ ، فإذا طمعَ فيهمُ . . انقطعتْ عصمتهُ ، فإذا سكنَ إليهمُ . . ضلَّ) (٣) .

وينبغي ألا يسكتَ عن ذكرِ الحقِّ مداهنةً للأغنياءِ ، وطمعاً في العطاء (٤) .

(١) القول له في حكاية منام رآه الفتح بن شخرف ، رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٨١ / ١٢) .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٦ / ٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٧ / ٦) . وفيه : (القاريء) بدل (الفقير) .

(٣) قوت القلوب (١٩٦ / ٢) .

(٤) وهذا واجب ، روى البيهقي في « الشعب » (٧٨٨٢) من قول ابن مسعود : (من خضع لغني ، ووضع له نفسه إعظاماً له ، وطمعاً فيما قبله . . ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه) . « إتحاف » (٢٩٦ / ٩) .

وأما أدبه في أفعاله : فألا يفتَر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ؛ فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى .

وروى زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « درهم من الصدقة أفضل عند الله تعالى من مئة ألف درهم » ، قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « أخرج رجل من عرض ماله مئة ألف درهم فتصدق بها ، وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة من نفسه ، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المئة ألف »^(١) .

وينبغي ألا يدخر مالاً ، بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي ، وفي الادخار ثلاث درجات :

إحداها : ألا يدخر إلا ليومه وليلته ، وهي درجة الصديقين .

والثانية : أن يدخر لأربعين يوماً ، فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل ، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ، ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوماً ، وهي درجة المتقين .

والثالثة : أن يدخر لسنته ، وهي أقصى المراتب ، وهي رتبة الصالحين .

(١) تقدم بلفظ : « سبق درهم مئة ألف درهم... » ، وهو عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو ما رواه النسائي (٥٩ / ٥) .

وَمَنْ زَادَ فِي الْإِدْخَارِ عَلَى هَذَا . . . فَهُوَ وَاقِعٌ فِي غِمَارِ الْعُمُومِ ، خَارِجٌ
عَنْ حَيِّزِ الْخُصُوصِ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَغَنَى الصَّالِحِ الضَّعِيفِ فِي طُمَأْنِينَةٍ قَلْبِهِ فِي
قُوَّةِ سَنَةٍ ، وَغَنَى الْخُصُوصِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَغَنَى خُصُوصِ الْخُصُوصِ
فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ .

وَقَدْ قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنِسَائِهِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ ،
فَبَعْضُهُنَّ كَانَ يُعْطِيهَا قُوَّةَ سَنَةٍ عِنْدَ حَصُولِ مَا يَحْصُلُ ، وَبَعْضُهُنَّ قُوَّةَ
أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَبَعْضُهُنَّ يَوْمًا وَلَيْلَةً ؛ وَهُوَ قَسَمُ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ .



بيان آداب التفكير في قبول العطاء إذا جاره بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطي ، وغرضه في الأخذ .

أما نفس المال : فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة . . فليحترز من أخذه .

وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابه وما يستحب .

وأما غرض المعطي : فلا يخلو : إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية ، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، أو الذكر والرياء والسمعة ؛ إما على التجرد ، وإما ممزوجاً ببقية الأغراض .

أما الأول وهو الهدية : فلا بأس بقبولها ، فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) ، ولكن ينبغي ألا يكون فيها منة ، فإن كان فيها منة . . فالأولى تركها ، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة . . فليرد البعض دون البعض ، فقد أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش ، فقبل السمن والأقط ورد الكبش^(٢) .

(١) رواه البخاري (٢٥٨٥) .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٩ / ٢) ، والسياق عنده ، ورواه أحمد في « المسند » =

وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض ،
وقال : « لقد هممت ألا أتهب إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقيفي أو
دوسي »^(١) ، وفعل هذا جماعة من التابعين .

وجاءت إلى فتح الموصل صرة فيها خمسون درهماً ، فقال : حدثنا
عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أتاه رزق من غير مسألة
فردّه . . فإنما يردّه على الله » ، ثم فتح الصرة ، فأخذ منها درهماً وردّ
سائرهما^(٢) .

وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً ، ولكن حمل إليه رجل كيساً
ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فردّ ذلك وقال : من جلس مجلسي هذا

(١٧٢ / ٤) عن يعلى بن مرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتته امرأة
بابن لها قد أصابه لَمَمٌ ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « اخرج عدوّ الله ، أنا
رسول الله » ، فبرأ ، فأهدت له كبشين وشيئاً من أقط وسمن ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « يا يعلى خذ الأقط والسمن ، وخذ أحد الكبشين وردّه عليها
الآخر » .

(١) رواه أبو داود (٣٥٣٧) ، والترمذي (٣٩٤٥) ، وأتهب : أقبل هبة .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٩ / ٢) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرسلأ هكذا ،
وسأتي بعد هذا بحديث ما يصحح معناه) . « إتحاف » (٢٩٧ / ٩) ، ومن ذلك
ما رواه البخاري (١٤٧٣) ، ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء ، فأقول : أعطه من هو أفقر إليه
مني ، فقال : « إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل . . فخذ ،
وما لا . . فلا تتبعه نفسك » .

وقبل من الناس مثل هذا.. لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق^(١).

وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء.

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه^(٢).

وكان إبراهيم التيمي يسأل أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ، ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها^(٣).

وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً.. يقول : اتركه عندك ، وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول.. فأخبرني حتى آخذه ، وإلا.. فلا .

وأما هذا أن يشق عليه الرد لو رده ، ويفرح بالقبول ويرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منه.. فأخذه مباح ، ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين .

وقال بشر : ما سألت أحداً قط شيئاً إلا سرياً السقطي ؛ لأنه قد صحّ عندي زهده في الدنيا ، فهو يفرح بخروج الشيء من يده ، ويتبرّم ببقائه عنده ، فأكون عوناً له على ما يحب^(٤).

(١) قوت القلوب (١٩٩/٢) ، والسياق عنده .

(٢) تطيباً لقلوبهم . « إتحاف » (٢٩٧/٩) .

(٣) قوت القلوب (١٩٩/٢) .

(٤) قوت القلوب (١٩٩/٢) .

وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال ، وسأله أن يأكله ، فقال :
أفرقه على الفقراء ، فقال : ما أريد هذا ، فقال : ومتى أعيش حتى أكل
هذا؟! فقال : ما أريد أن تنفقه في الخلّ والبقل ، بل في الحلاوة
والطيبات ، فقبل ذلك منه ، فقال الخراساني : ما أحد ببغداد آمن عليّ
منك ، فقال الجنيد : ولا ينبغي أن يُقبل إلا من مثلك^(١) .

- الثاني : أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة : فعليه أن ينظر
في صفات نفسه أنه هل هو مستحق للزكاة ، فإن اشتبه عليه . . فهو محل
شبهة ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة ، وإن كانت صدقة ،
وكان يعطيه لدينه . . فليُنظر إلى باطنه ؛ فإن كان مقارفاً لمعصية في السرّ
يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ، ولما تقرب إلى الله بالتصدق
عليه . . فهذا حرام أخذُه ، كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن
كذلك ، فإن أخذَه حرام محض لا شبهة فيه .

- الثالث : أن يكون غرضه الشهرة والرياء والسمعة : فينبغي أن يردّ عليه
قصدَه الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد .

وكان سفيان الثوري رحمه الله يردّ ما يُعطى ويقول : لو علمت أنهم
لا يذكرون ذلك افتخاراً به . . لأخذت^(٢) .

(١) قوت القلوب (٢/٢٠٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٠٢) .

وعُوتِبَ بعضهم في ردِّ ما كان يأتيهِ مِنْ صَلَةٍ ، فقال : إنما أَرَدْتُ صَلَتَهُمْ
إشفاقاً عليهم ونصحاً لهم ؛ لأنَّهم يذكرون ذلك ويحبُّون أن يُعلمَ به ،
فتذهب أموالهم وتحبُّط أجورهم .

وأما غرضه في الأخذ : فينبغي أن ينظر أهو محتاجٌ إليه فيما لا بدَّ له منه
أو هو مستغن عنه ، فإن كان محتاجاً إليه وقد سلمَ مِنَ الشبهة والآفاتِ
التي ذكرناها في المعطي . . فالأفضلُ له الأخذُ ، قال النبيُّ صَلَّى اللهُ
عليه وسلَّم : « ما المعطي مِنْ سعةٍ بأعظمَ أجراً مِنْ الأخذِ إذا كان
محتاجاً » (١) .

وقال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « مَنْ أتاهُ شيءٌ مِنْ هذا المالِ مِنْ غيرِ مسألةٍ
ولا استشرافٍ . . فإنَّما هو رزقٌ ساقه اللهُ إليه » ، وفي لفظٍ آخر : « فلا
يردُّه » (٢) .

وقال بعضُ العلماء : (مَنْ أُعْطِيَ ولم يأخذ . . سأل ولم يُعط) (٣) .
وقد كان سريُّ السقطيُّ يوصلُ إلى أحمدَ ابنِ حنبلٍ رضي اللهُ عنهما
شيئاً ، فردَّه مرَّةً ، فقال له السريُّ : يا أحمدُ ؛ احذر آفةَ الردِّ ، فإنَّها أشدُّ
مِنْ آفةِ الأخذِ ، فقال له أحمدُ : أعد عليَّ ما قلتَ ، فأعادهُ ، فقال أحمدُ :

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٥ / ٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢٩٢ / ٢) ، (٢٢٠ / ٤) .

(٣) قوت القلوب (١٩٨ / ٢) .

ما رددتُ عليك إلا لأنَّ عندي قوتَ شهرٍ ، فاحبسهُ لي عندك ، فإذا كانَ بعدَ شهرٍ فأنفذهُ إليَّ^(١) .

وقد قالَ بعضُ العلماءِ : يُخافُ في الردِّ معَ الحاجةِ عقوبةٌ منِ ابتلاءٍ بطمعٍ ، أو دخولٍ في شبهةٍ أو غيرِهِ .

فأمَّا إذا كانَ ما أتاهُ زائداً على حاجتِهِ . . فلا يخلو : إمَّا أن يكونَ حالُهُ الاشتغالَ بنفسِهِ ، أو التكفُّلَ بأمورِ الفقراءِ والإنفاقِ عليهمَ لما في طبعِهِ منَ الرقيِّ والسخاءِ ، فإنَّ كانَ مشغولاً بنفسِهِ . . فلا وجهَ لأخذه وإمساكه إنَّ كانَ طالباً طريقَ الآخرةِ ، فإنَّ ذلكَ محضُ اتباعِ الهوى ، وكلُّ عملٍ ليسَ لله فهو في سبيلِ الشيطانِ أو داعٍ إليه ، ومنَ حامَ حولَ الحمى يوشكُ أن يقعَ فيه ، ثمَّ له مقامانِ :

أحدهما : أن يأخذَ في العلانية ويردَّ في السرِّ ، أو يأخذَ في العلانية ويفرِّقَ في السرِّ ، وهذا مقامُ الصديقينَ ، وهو شاقٌّ على النفسِ ، لا يطيقُهُ إلا منَ اطمأنتَ نفسه بالرياضةِ .

والثاني : أن يتركَ ولا يأخذَ ؛ ليصرفهُ صاحبهُ إلى مَنْ هوَ أحوجُّ منه ، أو يأخذَ ويوصلَ إلى مَنْ هوَ أحوجُّ منه ، فيفعلُ كليهما في السرِّ أو كليهما في العلانية .

وقد ذكرنا أنَّ الأفضلَ إظهارُ الأخذِ أو إخفاؤه في كتابِ أسرارِ الزكاةِ ،

(١) قوت القلوب (١٩٨ / ٢) .

مع جملة من أحكام الفقر ، فليطلب من موضعه .

وأما امتناع أحمد ابن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمه الله .
فإنما كان لاستغنائه عنه ؛ إذ كان عنده قوت شهر ، ولم ير لنفسه أن يشتغل
بأخذه وصرفه إلى غيره ، فإن في ذلك آفات وأخطاراً ، والورع يكون حذراً
من مظان الآفات ؛ إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه .

وقال بعض المجاورين بمكة : كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في
سبيل الله ، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : أنا
جائع كما ترى ، عريان كما ترى ، فما ترى فيما ترى ، يا من يرى
ولا يرى ؟ فنظرت فإذا عليه خُلقان لا تكاد تواريه ، فقلت في نفسي :
لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا ، فحملتها إليه ، فنظر إليها ، ثم
أخذ منها خمسة دراهم فقال : أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثاً ، فلا
حاجة بي إلى الباقي ، فردّه ، قال : فرأيت الليلة الثانية وعليه مئزران
جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء ، فالتفت إلي ، فأخذ بيدي ، فأطافني
معه أسبوعاً ، كل شوط منها في جوهري من معادن الأرض يتخشش تحت
أقدامنا إلى الكعبيين ، منها ذهب ، وفضة ، وياقوت ، ولؤلؤ ، وجوهر ،
ولم يظهر ذلك للناس ، فقال : هذا كله قد أعطينا فزهدنا فيه ، وناخذ من
أيدي الخلق ؛ لأن هذه أثقال وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة^(١) .

(١) قوت القلوب (١٩٦/٢) بنحوه ، وفي آخره : (وناخذ من أيدي الخلق أحب إلينا ؛
لأنه أحب إلى الله وأخف علينا في المطالبة ، وهذه أثقال ...) .

والمقصود من هذا : أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاءً وفتنةً ، لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا حق لابن آدم إلا في ثلاث : طعامٌ يقيم صلبه ، وثوبٌ يوارى عورته ، وبيتٌ يكنه ، فما زاد فهو حساب » (١) .

فإذا ؛ أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثابٌ ، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرضٌ للحساب ، وإن عصيت الله . . فأنت متعرضٌ للعقاب .

ومن الاختبار أيضاً أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرباً إلى الله تعالى ، وكسراً لصفة النفس ، فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها ، فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم . . ألفت نقض العهد ، وعادت لعادتها ، ولا يمكن قهرها ، فرد ذلك مهم ، وهو الزهد .

فإن أخذته وصرفته إلى محتاج . . فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون .

(١) قوت القلوب (١٩٨ / ٢) ، ورواه الترمذي (٢٣٤١) بنحوه .

فأما إذا كانت حالك السخاء والبذل ، والتكفل بحقوق الفقراء ، وتعهد جماعة من الصالحاء .. فخذ ما زاد على حاجتك ، فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ، ولا تدخره ، فإن إمساكه - ولو ليلة واحدة - فيه فتنه واختبار ، فربما يحلو في قلبك فتمسكه ويكون فتنه عليك .

وقد تصدّي لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسّع في المال ، والتنعم في المطعم والمشرب ، وذلك هو الهلاك ، ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به .. فله أن يستقرض على حسن الظن بالله ، لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال .. قضاءه ، وإن مات قبل القضاء .. قضاءه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه ، فلا يغرّ المقرض ولا يخدعه بالمواعيد ، بل يكشف حاله عنده ؛ ليقدم على إقراضه عن بصيرة .

ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ، ومن الزكوات ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ ، قيل : معناه : لبيع أحد ثوبيه ، وقيل : معناه : فليستقرض بجاهه ، فذلك ممّا قد آتاه الله^(١) .

وقال بعضهم : (لله تعالى عباد ينفقون على قدر بضائعهم ، والله عباد

(١) قوت القلوب (١٩٩ / ٢) .

ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى^(١) .

ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف : الأقوياء ، والأسخياء ، والأغنياء ، فقيل : مَنْ هؤلاء ؟ فقال : أمّا الأقوياء .. فهم أهل التوكل على الله تعالى ، وأمّا الأسخياء .. فهم أهل حسن الظن بالله تعالى ، وأمّا الأغنياء .. فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى^(٢) .

فإذا ؛ مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي .. فليأخذهُ .

وينبغي أن يرى ما يأخذهُ من الله لا من المعطي ، إنّما المعطي واسطة قد سُخِّرَ للعطاء ، وهو مضطرٌّ إليه بما سُلِّطَ عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات .

وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقاً في خمسين من أصحابه ، فوضع الرجل مائدة حسنة ، فلمّا قعد .. قال لأصحابه : إنّ هذا الرجل يقول : مَنْ لم يرني صنعتُ هذا الطعامَ وقدمته .. فطعامي عليه حرامٌ ، فقاموا كلّهم وخرجوا إلا شاباً منهم كان دونهم في الدرجة ، فقال صاحبُ المنزل لشقيق : ما قصدت بهذا ؟ قال : أردتُ أن أختبرَ توحيدَ أصحابي كلّهم^(٣) .

(١) قوت القلوب (٢/١٩٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٩٩) .

(٣) قوت القلوب (٢/٢٠٠) .

وقال موسى عليه السلام : يا ربّ ؛ جعلتَ رزقي هلكذا على أيدي بني إسرائيل ، يغدّيني هذا يوماً ، ويعشّيني هذا ليلةً ، فأوحى الله تعالى إليه ، هلكذا أصنعُ بأوليائي ، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم^(١) .

فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيثُ إنّه مسخّرٌ مأجورٌ من الله تعالى ، نسأل الله حسنَ التوفيقِ لما يرضاهُ .



(١) قوت القلوب (٢ / ٢٠٠) .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة، وآداب الفقير المضطر في

اعلم : أنه قد وردت منه كثيرة في السؤال وتشديدات ، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « للسائل حق وإن جاء على فرس »^(١) .

وفي الحديث : « ردُّوا السائل ولو بظلفٍ محرقٍ »^(٢) .
ولو كان السؤال حراماً مطلقاً . لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه ، والإعطاء إعانة .

فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل ، وإنما يُباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة ، فإن كان عنها بد . فهو حرام .
وإنما قلنا : إن الأصل فيه التحريم ؛ لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى :

إذ السؤال إظهار للفقر ، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه ، وهو عين

(١) رواه أبو داود (١٦٦٥) من حديث سيدنا الحسين رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٩٩٦ / ٢) عن زيد بن أسلم مرسلاً : « أعطوا السائل وإن جاء على فرس » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤٣٥ / ٦) بلفظه وتماه ، وينحوه هو عند أبي داود (١٦٦٧) ، والترمذي (٦٦٥) ، والنسائي (٨١ / ٥) .

الشكوى ، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده . .
فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل
إلا لضرورة كما تحل الميتة .



والثاني : أن فيه إذلال السائل لنفسه لغير الله تعالى :

وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه ،
فإن فيه عزه ، فأما سائر الخلق . . فإنهم عباد أمثاله ، فلا ينبغي أن يذل لهم
إلا لضرورة ، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤول .



والثالث : أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً :

لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب منه ، فإن بذل حياء من
السائل أو رياء . . فهو حرام على الآخذ ، وإن منع . . ربما استحيا وتأذى في
نفسه بالمنع ، إذ يرى نفسه في صورة البخلاء ، ففي البذل نقصان ماله ،
وفي المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب في
الإيذاء ، والإيذاء حرام إلا بضرورة .



ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث . . فهمت قوله صلى الله
عليه وسلم : « مسألة الناس من الفواحش ، ما أحل من الفواحش

غيرها»^(١) ، فانظر كيف سمّاها فاحشة ، ولا يخفى أنّ الفاحشة إنّما تُباحُ
لضرورة كما يُباحُ شربُ الخمرِ لمنْ غصَّ بلقمةٍ وهو لا يجدُ غيره .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سألَ عنْ غنىٍّ . . فإنّما يستكثرُ مِنْ
جمرِ جهنّم ، وَمَنْ سألَ وله ما يغنيه . . جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ عظيمٌ
يتقعّقُ ، ليسَ عليه لحمٌ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « كَانَتْ مَأَلَتُهُ خَدُوشاً
وكدوحاً في وجهِهِ »^(٢) ، وهذه الألفاظُ صريحةٌ في التحريمِ والتشديدِ .

وبايعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قوماً على الإسلام ، فاشترطَ
عليهمُ السمعَ والطاعة ، ثمَّ قالَ لَهُمْ كلمةٌ خفيةٌ : « ولا تسألوا الناسَ
شيئاً »^(٣) .

وكانَ صلى الله عليه وسلم يأمرُ كثيراً بالتعقُّفِ عنِ السؤالِ ويقولُ : « مَنْ

(١) كذا في « القوت » (١٩٣ / ٢) حيث قال : (وقد روينا في الخبر . . .) وذكره ، قال
الحافظ العراقي : (لم أجده أصلاً) . « إتحاف » (٣٠٤ / ٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٣ / ٢) ، وقد روى أبو داود (١٦٢٩) من حديث سهل بن
الحنظلية رضي الله عنه مرفوعاً : « مَنْ سألَ وعنده ما يغنيه . . فإنّما يستكثرُ من النار » ،
وعنده أيضاً : « من جمر جهنم » ، وعند البخاري (١٤٧٥) ، ومسلم (١٠٤٠) من
حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما يزال الرجل يسأل الناسَ حتّى يأتي يومَ
القيامة ليسَ في وجهه مزعة لحم » ، وروى أبو داود (١٦٢٦) ، والترمذي
(٦٥٠) ، والنسائي (٩٧ / ٥) ، وابن ماجه (١٨٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله
عنه مرفوعاً : « مَنْ سألَ وله ما يغنيه . . جاءتْ مَأَلَتُهُ يومَ القيامةِ خدوشاً أو خموشاً أو
كدوحاً في وجهِهِ » .

(٣) رواه مسلم (١٠٤٣) .

سألنا.. أعطينا، ومن استغنى.. أغناه الله^(١)، وقال: «ومن لم يسألنا.. فهو أحب إلينا»^(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «استغنوا عن الناس، وما قل من السؤال فهو خير»، قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومني»^(٣).

وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً بعد المغرب، فقال لواحد من قومه: عش الرجل، فعشاه، ثم سمعه ثانية يسأل، فقال: ألم أقل لك عش الرجل؟! قال: قد عشيت، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً، فقال: لست سائلاً، ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة، وضربه بالدرّة، وقال: لا تعد^(٤). ولولا أن سؤاله كان حراماً.. لما ضربه ولا أخذ مخلاته.

(١) كذا في «القوت» (١٩٣/٢)، ورواه النسائي (٩٨/٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه: «من استغنى.. أغناه الله، ومن استعفف.. أعفه الله عز وجل، ومن استكفى.. كفاه الله عز وجل...» الحديث، ولفظ: «من سألنا.. أعطينا» عند ابن حبان في «صحيحه» (٣٣٩٨).

(٢) هذه الرواية رواها ابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفف» (٧٦).

(٣) كذا في «القوت» (١٩٣/٢)، وهو عند أحمد في «المسند» (٤٣٤/٣) من حديث حكيم بن حزام، ولفظه: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وليبدأ أحدكم بمن يعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستغن.. يفنه الله، ومن يستعفف.. يعفه الله»، فقلت: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومني»، وعند البزار في «مسنده» (٤٨٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٤/١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «استغنوا عن الناس ولو بشوص سواك».

(٤) قوت القلوب (١٩٣/٢).

ولعلَّ الفقيهَ الضعيفَ المُنَّةَ الضيِّقَ الحوصلةِ يستبعدُ هذا مِنْ فعلِ عمرَ ،
ويقولُ : أمَّا ضربُهُ .. فهو تأديبٌ ، وقد وردَ الشرعُ بالتعزيرِ ، وأمَّا أخذهُ
مالَهُ .. فهو مصادرةٌ ، والشرعُ لم يردِّ بالعقوبةِ بالمالِ ، فكيفَ استجازه ؟

وهو استبعادُ مصدرُهُ القصورُ في الفقهِ ، فأينَ يظهرُ الفقهاءُ كُلُّهُمْ في
حوصلةِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه وإطلاعهِ على أسرارِ دينِ اللهِ ومصالحِ
عبادِهِ ؟! أفترى أَنَّهُ لم يعلمْ أَنَّ المصادرةَ بالمالِ غيرُ جائزةٍ ، أو علمَ ذلكَ
ولكنْ أقدمَ عليه غضباً في معصيةِ اللهِ وحاشاهُ ، أو أرادَ الزجرَ بالمصلحةِ بغيرِ
طريقِ شرعها نبيُّ اللهِ ؟! وهيهاتَ ! فإنَّ ذلكَ أيضاً معصيةٌ .

بل الفقهُ الذي لاحَ لَهُ فيه أَنَّهُ رآهُ مستغنياً عنِ السؤالِ ، وعلمَ أَنَّ مَنْ أعطاهُ
شيئاً فإنَّما أعطاهُ على اعتقادِ أَنَّهُ محتاجٌ ، وقد كانَ كاذباً ، فلمْ يدخلْ في
ملكِهِ بأخذهِ معَ التلبسِ ، وعسرَ تمييزُ ذلكَ وردُّهُ إلى أصحابِهِ ؛ إذ لا يُعرفُ
أصحابُهُ بأعيانِهِمْ ، فبقيَ مالاً لا مالكَ لَهُ ، فوجبَ صرفُهُ إلى المصالحِ ،
وإبلُ الصدقةِ وعلفُها مِنَ المصالحِ .

ويتنزَّلُ أخذُ السائلِ معَ إظهارِ الحاجةِ كاذباً كأخذِ العلويِّ بقوله : إنِّي
علويٌّ وهو كاذبٌ ؛ فإنَّهُ لا يملكُ ما يأخذُهُ ، وكأخذِ الصوفيِّ والصالحِ الذي
يُعطى لصلاحِهِ وهو في الباطنِ مقارِفٌ معصيةً لو عرَفَها المعطي .. لما
أعطاهُ ، وقد ذكرنا في مواضعَ أَنَّ ما أخذوهُ على هذا الوجهِ لا يملكونَهُ ،
وهو حرامٌ عليهم ، ويجبُ عليهمُ الرَّدُّ إلى مالكِهِ ، فاستدِلَّ بفعلِ عمرَ

رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء ، وقد قررناه في مواضع ، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر رضي الله عنه .

فإذا عرفت أن السؤال يُباح لضرورة . . فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطراً إليه ، أو محتاجاً إليه حاجة مهمة ، أو حاجة خفيفة ، أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال .

أما المضطرُّ إليه : فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً ، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً ، والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن ، والسائل بكونه عاجزاً عن الكسب ؛ فإن القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته ، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالورقة .

وأما المستغني . . فهو الذي يطلب شيئاً عنده مثله أو أمثاله ، فسؤاله حرام قطعاً . وهذان طرفان واضحان .

وأما المحتاج حاجة مهمة : فكالمرضى الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكنه لا يخلو عن خوف ، وكم من له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأدياً لا ينتهي إلى حد الضرورة ، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة ، فهذا أيضاً ينبغي أن

تسترسل عليه الإباحة ؛ لأنها أيضاً حاجةٌ محققةٌ ، ولكن الصبرُ عليه أولى ، وهو بالسؤالِ تاركٌ للأولى ، ولا يُسمَّى سؤالُهُ مكروهاً مهما صدقَ في السؤالِ وقالَ : (ليسَ تحتَ جبَّتِي قميصٌ ، والبردُ يؤذيني أذىً أطيقةً ، ولكنْ يشقُّ عليَّ) ، فإذا صدقَ . . فصدقةٌ يكونُ كفَّارةً لسؤالِهِ إن شاء الله .

وأما الحاجةُ الخفيفةُ : فمثلُ سؤالِهِ قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عندَ خروجه فيسترَ الخروقَ التي في ثيابه عن أعينِ الناسِ ، وكَمَنْ يسألُ لأجلِ الأدمِ وهو واجدٌ للخبزِ ، وكَمَنْ يسألُ لكراءِ الفرسِ في الطريقِ وهو واجدٌ كراءِ الحمارِ ، أو يسألُ كراءَ المحملِ وهو قادرٌ على الراحلةِ ، فهذا ونحوهُ إن كانَ فيه تلبسٌ حالٍ بإظهارِ حاجةٍ غيرِ هذه . . فهو حرامٌ ، وإن لم يكنْ وكانَ فيه شيءٌ من المحذوراتِ الثلاثةِ ؛ من الشكوى ، أو الدلِّ ، أو إيذاءِ المسؤولِ . . فهو حرامٌ ؛ لأنَّ مثلَ هذهِ الحاجةِ لا تصلحُ لأنْ تُباحَ بها هذهِ المحذوراتُ ، وإن لم يكنْ فيها شيءٌ من ذلكَ . . فهو مباحٌ مع الكراهةِ .



فإن قلتَ : فكيفَ يمكنُ إخلاءُ السؤالِ عن هذهِ المحذوراتِ ؟

فاعلمُ : أنَّ الشكوى تندفعُ بأنْ يظهرَ الشكرَ لله تعالى والاستغناء عن الخلقِ ، ولا يسألُ سؤالَ محتاجٍ ، ولكنْ يقولُ : (أنا مستغنٍ بما أملكُهُ ، ولكنْ تطالبُني رعونَةُ النفسِ بثوبٍ فوق ثيابي ، وهو فضلةٌ عن الحاجةِ وفضولٌ من النفسِ) ، فيخرجُ به عن حدِّ الشكوى .

وأما الذلُّ . . . فإنَّ يسألَ أباهُ أو قريبهُ أو صديقهُ الذي يعلمُ أنَّه لا ينقصُهُ ذلكَ في عينه ، ولا يزدريه بسببِ سؤاله ، أو الرجلَ السخيَّ الذي قد أعدَّ مالهَ لمثلِ هذهِ المكارمِ ، فيفرحُ بوجودِ مثلهِ ، ويتقلدُ منه منَّةً بقبوله ، فيسقطُ عنه الذلُّ بذلكَ ، فإنَّ الذلَّ لازمٌ للمنة لا محالة .

وأما الإيذاءُ . . . فسيبُلُ الخلاصُ عنه ألاَّ يعيَّنَ شخصاً بالسؤالِ بعينه ، بلَّ يلقي الكلامَ عرضاً بحيث لا يقدمُ على البذلِّ إلا متبرِّعٌ بصدقِ الرغبة . وإنَّ كانَ في القومِ شخصٌ مرموقٌ لو لم يذلَّ لكانَ يُلامُ . . فهذا إيذاءٌ ، فإنَّه ربما يذلُّ كرهاً خوفاً من الملامةِ ، ويكونُ الأحبُّ إليه في الباطنِ الخلاصَ لو قدرَ عليه من غيرِ ملامةٍ .

وأما إذا كانَ يسألُ شخصاً معيَّناً . . فينبغي ألاَّ يصرِّحَ ، بلَّ يعرضُ تعريضاً يُبقي له سبيلاً إلى التغافلِ إنَّ أرادَ ، فإذا لم يتغافلْ مع القدرةِ عليه . . فذلكَ لرغبته ، وأنَّه غيرُ متأذُّ به .

وينبغي أن يسألَ مَنْ لا يستحي منه لو ردَّه أو تغافلَ عنه ، فإنَّ الحياءَ مِنَ السائلِ يؤذي ؛ كما أنَّ الرياءَ مع غيرِ السائلِ يؤذي .



فإن قلتَ : فإذا أخذَ مع العلمِ بأنَّ باعثَ المعطي هو الحياءُ منه أو من الحاضرين ، ولولاهُ لما ابتدأه به . . فهو حلالٌ أو شبهةٌ ؟

فأقولُ : ذلكَ حرامٌ محضٌ لا خلافَ فيه بين الأئمةِ ، وحكمه حكمُ أخذِ

مالٍ الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضربَ ظاهرَ جلدِهِ بسيّاطِ الخشبِ ، أو يضربَ باطنَ قلبِهِ بسوطِ الحياءِ وخوفِ الملام ، وضربُ الباطنِ أشدُّ نكايَةً في قلوبِ العقلاء ، ولا يجوزُ أن يُقالَ : هو في الظاهرِ قد رضيَ به ، وقد قالَ صلى الله عليه وسلم : « نحنُ نحكمُ بالظاهرِ واللهُ يتولّى السرائرَ »^(١) ؛ فإنَّ هذهِ ضرورةُ القضاةِ في فصلِ الخصوماتِ ، إذ لا يمكنُ ردُّهم إلى البواطنِ وقرائنِ الأحوالِ ، فاضطروا إلى الحكمِ بظاهرِ اللسانِ مع أنَّه ترجمانٌ كثيرُ الكذبِ ، ولكنَّ الضرورةَ دعتُ إليه ، وهذا سؤالٌ عمّا بينَ العبدِ وبينَ الله تعالى ، والحاكمُ فيه أحكمُ الحاكمينَ ، والقلوبُ عنده كالألْسنةِ عندَ سائرِ الحكّامِ ، فلا تنظرُ في مثلِ هذا إلا إلى قلبِكَ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ ، فإنَّ المفتيَ معلِّمُ القاضي والسلطانَ ليحكموا في عالمِ الشهادةِ ، ومفتي القلوبِ همُ علماءُ الآخرةِ ، وبفتواهم النجاةُ من سطوةِ سلطانِ الآخرةِ ، كما أنَّ بفتوى الفقيهِ النجاةُ من سطوةِ سلطانِ الدنيا .

(١) قال الحافظ ابن الملقن في « البدر المنير » (٥٩٠ / ٩) : (هذا الحديث غريب لا أعلم من خرجه من أصحاب الكتب المعتمدة ولا غيرها ، وسئل عنه حافظ زماننا جمال الدين المزي فقال : لا أعرفه) ، ويؤب الإمام مسلم في « صحيحه » (باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة) وساق (١٧١٣) حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعاً : « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه . . . » الحديث ، وروى مسلم (١٠٦٤ / ١٤٤) ضمن خبر : « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » الحديث ، قال الإمام النووي في « شرحه صحيح مسلم » (١٦٣ / ٧) : (معناه : إني أمرت بالحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص ٩١) .

فإذا ؛ ما يأخذهُ مع الكراهة لا يملكهُ بينهُ وبينَ الله تعالى ، ويجبُ عليه رُدُّهُ على صاحبه ، فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده . . فعليه أن يشيهُ على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ، ليتفصّل عن عهده ، فإن لم يقبل هديته . . فعليه أن يردّ ذلك إلى ورثته ، فإن تلف في يده . . فهو مضمونٌ عليه بينهُ وبينَ الله تعالى ، وهو عاصٍ بالتصرّف فيه ، وبالسؤال الذي حصل به الأذى .



فإن قلت : فهذا أمرٌ باطنٌ يعسرُ الاطلاعُ عليه ، فكيف السبيلُ فيه ؟
فربما يظنُّ السائلُ أنّه راضٍ ولا يكونُ هو في الباطنِ راضياً .

فأقولُ : لهذا ترك المتقون السؤالَ رأساً ، فما كانوا يأخذون من أحدٍ شيئاً أصلاً ، فكان بشرّاً لا يأخذ من أحدٍ أصلاً إلا من السريِّ رحمةً الله عليهما ، وقال :
(لأنني علمتُ أنّه يفرحُ بخروجِ المالِ من يده ، فأنا أعينه على ما يحبُّه)^(١) .

وإنما عظم النكيرُ في السؤالِ وتأكّد الأمرُ بالتعقّف لهذا ؛ لأنّ هذا الأذى إنّما يحلُّ بضرورة ، وهو أن يكون السائلُ مشرفاً على الهلاك ، ولم يبقَ له سبيلٌ إلى الخلاص ، ولم يجد مَنْ يعطيه من غير كراهة وأذى ، فيباح له ذلك كما يُباح له أكلُ لحم الخنزيرِ وأكلُ لحم الميتة ، فكان الامتناعُ طريقَ الورعين .

ومن أربابِ القلوبِ مَنْ كان واثقاً ببصيرته في الاطلاعِ على قرائنِ

(١) قوت القلوب (١٩٩ / ٢) .

الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ، ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضاً ويرد بعضاً ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والسمن والأقط^(١) ، وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال ؛ فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ، ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاهه ، أو طلباً لرياء وسمعة ، فكانوا يحترزون من ذلك .

فأما السؤال . . فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين :

أحدهما : الضرورة : فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة ؛ سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام ، ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب فيهم .

والثاني : السؤال من الأصدقاء والإخوان : فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان ؛ لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم ، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه ، وإلا . . فكانوا يستغنون عن السؤال .

وحد إثابة السؤال : أن تعلم أن المسؤول بصفة لو علم ما بك من الحاجة . . لا تبدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك ، فأما في تحريكه بالحياء ، وإثارة داعيته بالحيل . . فلا .

(١) روى ذلك أحمد في « المسند » (١٧٢ / ٤) .

ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك في الكراهة ، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال ، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق ، وفي الثانية حرام سحت ، ويتدد بين الحالتين أحوال يشك فيها ، فليستف فيها قلبه ، وليترك حزاز القلب ، فإنه الإثم ، وليدع ما يريه إلى ما لا يريه ، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته ، وضعف حرصه وشهوته ، فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة . . تراءى له ما يوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة .

وبهذه الدقائق يُطلع على سر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه »^(١) ، وقد أوتي جوامع الكلم ؛ لأن من لا كسب له ، ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته ؛ فيأكل من أيدي الناس ، وإن أُعطي بغير سؤال . . فإنما يُعطى بدينه ، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف . . لا يُعطى بدينه ؟ ! فيكون ما يأخذه حراماً ، وإن أُعطي بسؤال . . فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سُئل ؟ وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ؟

فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس . . علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت ، وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبه بحلالك أنت أو مورثك .

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٤١ / ٤) ، والحاكم في « المستدرک » (١٠ / ٢) .

فإذا ؛ بعيداً أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس .
فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه
وبفضله عما سواه ، بمنه وسعة جوده ؛ فإنه على ما يشاء قدير .



بيان مقدار غنى المحرم للسؤال

اعلم : أنَّ قولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غَنَى .. فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا ، فليستقلَّ مِنْهُ ، أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ »^(١) صريحٌ في التحريم ، ولكنَّ حَدُّ الغنى مشكُلٌ ، وتقديرُهُ عسيرٌ ، وليسَ إلينا وضعُ المقاديرِ ، بل يُستدركُ ذلكُ بالتوقيفِ .

وقد وردَ في الحديثِ : « استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره » ، قالوا : وما هوَ : قالَ : « غداءٌ يومٍ وعشاءٌ ليلةٍ »^(٢) .

وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عَدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ .. فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا »^(٣) .

ووردَ في لفظٍ آخرَ : « أربعون درهماً »^(٤) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٣١ / ٢) ، وبنحوه أبو داود (١٦٢٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٣ / ٢) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٨٠) ، وهو عند أبي داود (١٦٢٩) ولفظه : « مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يَغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنَ النَّارِ » ، فقالوا : وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة ؟ قال : « قدر ما يغديه ويعيشه » ، وعند أحمد في « المسند » (١٤٧ / ١) من حديث علي كرم الله وجهه : قالوا : وما ظهر غنى ؟ قال : « عشاء ليلة » .

(٣) رواه أبو داود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٩٧ / ٥) ، وابن ماجه (١٨٤٠) بنحوه .

(٤) رواه أبو داود (١٦٢٧ ، ١٦٢٨) ، والنسائي (٩٨ / ٥) .

ومهما اختلفت التقديرات وصحّت الأخبار . . فينبغي أن يُقطع بورودها على أحوال مختلفة ، فإنّ الحقّ في نفسه لا يكون إلا واحداً ، والتقدير ممتنع ، وغاية الممكن فيه تقريب ، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حقّ لابن آدم إلا في ثلاث : طعامٌ يقيم صلبه ، وثوبٌ يوارى عورته ، وبيتٌ يكتئه ، فما زاد فهو حسابٌ »^(١) ، فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها ، والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات .

فأمّا الأجناس : فهي هذه الثلاث ، ويلحق بها ما في معناها ، حتّى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي ، وكذلك ما يجري مجراه من المهمّات ، ويلحق بنفسه عياله وولده ، وكلّ من تحت كفالته كالداية أيضاً .

وأما المقادير : فالثوب يُراعى فيه ما يليق بذوي الدين ، وهو ثوبٌ واحدٌ ، وقميصٌ ، ومنديلٌ ، وسراويلٌ ، ومداسٌ ، فأما الثاني من كلّ جنس . . فهو مستغنى عنه ، وليقس على هذا أثاث البيت جميعه .

ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب ، وكون الأواني من النحاس والصفير فيما

(١) قوت القلوب (١٩٨ / ٢) ، ورواه الترمذي (٢٣٤١) بنحوه .

يكفي فيه الخزف ؛ فإن ذلك مستغنى عنه ، فيقتصر من العدد على واحد ،
ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة .

وأما الطعام .. فقدرة في اليوم مد ، وهو ما قدره الشرع ، ونوعه
ما يُقتات ولو كان من الشعير ، والأدم على الدوام فضلة ، وقطعه بالكلية
إضرار ، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة .

وأما المسكن .. فأقله ما يجزىء من حيث المقدار ، وذلك من غير
زينة ، فأما السؤال للزينة والتوشع .. فهو سؤال عن ظهر غنى .

وأما بالإضافة إلى الأوقات : فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم
وليلة ، وثوب يلبسه ، وماوى يكنه .. فلا شك فيه ، فأما سؤاله
للمستقبل .. فهذا له ثلاث درجات :

إحداها : ما يحتاج إليه في غد .

والثانية : ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين يوماً .

والثالثة : ما يحتاج إليه في السنة .

ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعِياله - إن كان له عيال - لسنة .. فسؤاله
حرام ؛ فإن ذلك غاية الغنى ، وعليه يُنزل التقدير بخمسين درهماً في
الحديث ، فإن خمسة دنائير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد ، أما
المعيل .. فربما لا يكفيه ذلك .

وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ؛ فإن كان قادراً على السؤال ولا تفوته

فرصته . . فلا يحلُّ له السؤال ؛ لأنه مستغن في الحال ، وربما لا يعيش إلى الغد ، فيكون قد سأل ما لا يحتاج ، فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه يُنزَّل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر .

وإن كان يفوته فرصة السؤال ، ولا يجد مَنْ يعطيه لو أخر . . فيباح له السؤال ؛ لأنَّ أمل البقاء سنة غير بعيد ، فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يعينه .

فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً ، وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محلِّ الضرورة . . لم يخلُ سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف الفوت وتراخي المدة التي فيها يُحتاج إلى السؤال .

وكلُّ ذلك لا يقبل الضبط ، وهو منوطٌ باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى ، فيستفتي فيه قلبه ، ويعملُ به إن كان سالكاً طريق الآخرة ، وكلِّما كان يقينه أقوى ، وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم ، وقناعته بقوت الوقت أظهر . . فدرجته عند الله تعالى أعلى^(١) ، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعالك إلا من ضعف اليقين ،

(١) وهو داخل في حد قولهم : الصوفي ابن وقته ؛ أي : يقنع بما تيسر له من كل شيء في وقته ، سواء كان قوتاً ظاهرياً أو معنوياً ، ولا يعلق قلبه بما سيأتي . « إتحاف » (٣١١/٩)

والإصغاء إلى تخويف الشيطان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ .

والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة ، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان ممّا يحتاج إليه في السنة . . أشد من حال من ملك مالا موروثا وادّخره لحاجة وراء السنة ، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ، ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل ، وعدم الثقة بفضل الله ، وهذه الخصلة من أمّهات المهلكات ، نسال الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .



بيان أحوال السائلين

كَانَ بَشَرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ : (الْفُقَرَاءُ ثَلَاثَةٌ : فَقِيرٌ لَا يَسْأَلُ ، وَإِنْ أُعْطِيَ .. لَا يَأْخُذُ ، فَهَذَا مَعَ الرُّوحَانِيِّينَ فِي عَلِيَيْنَ ، وَفَقِيرٌ لَا يَسْأَلُ ، وَإِنْ أُعْطِيَ .. أَخَذَ ، فَهَذَا مَعَ الْمُقَرَّبِينَ فِي جَنَاتِ الْفَرْدَوْسِ ، وَفَقِيرٌ يَسْأَلُ عِنْدَ فَاقَتِهِ ، فَهَذَا مَعَ الصَّادِقِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) (١) .

فَإِذَا ؛ قَدْ اتَّفَقَ كُلُّهُمْ عَلَى ذَمِّ السَّوَالِ ، وَعَلَى أَنَّهُ مَعَ الْفَاقَةِ يَحُطُّ الْمَرْتَبَةُ وَالدرَجَةُ .

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ لَشَقِيقِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ مِنْ خُرَاسَانَ : كَيْفَ تَرَكْتَ الْفُقَرَاءَ مِنْ أَصْحَابِكَ ؟ قَالَ : تَرَكْتُهُمْ إِنْ أُعْطُوا .. شَكَرُوا ، وَإِنْ مُنَعُوا .. صَبَرُوا ، وَظَنَّ أَنَّهُ لَمَّا وَصَفَهُمْ بِتَرْكِ السَّوَالِ فَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِمْ غَايَةَ الثَّنَاءِ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : هَكَذَا تَرَكْتُ كِلَابَ بَلْخِ عِنْدَنَا ، فَقَالَ لَهُ شَقِيقٌ : فَكَيْفَ الْفُقَرَاءُ عِنْدَكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ ؟ فَقَالَ : الْفُقَرَاءُ عِنْدَنَا إِنْ مُنَعُوا .. شَكَرُوا ، وَإِنْ أُعْطُوا .. آثَرُوا ، فَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَقَالَ : صَدَقْتَ يَا أَسْتَادُ (٢) .

فَإِذَا ؛ دَرَجَاتُ أَرْبَابِ الْأَحْوَالِ فِي الرِّضَا وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالسَّوَالِ كَثِيرَةٌ ، فَلَا بَدَّ لِسَالِكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ، وَمَعْرِفَةِ انْقِسَامِهَا وَاخْتِلَافِ

(١) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي « الشَّعْبِ » (٣٢٥٦) ، وَالْقَشِيرِيُّ فِي « رِسَالَتِهِ » (ص ٣٠٤) بِنَحْوِهِ .

(٢) رَوَاهُ بِنَحْوِهِ الدِّينُورِيُّ فِي « الْمَجَالِسَةِ وَجَوَاهِرِ الْعِلْمِ » (ص ٣٠) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَةِ » (٢٧ / ٨) ، وَفِيهِمَا أَنَّهُمَا اجْتَمَعَا فِي مَكَّةَ .

درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم . . لم يقدر على الترقى من حضيضها إلى
يفاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين ، وقد خلق الإنسان في أحسن
تقويم ، ثم رُدَّ إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين ، ومن
لا يميز بين السفلى والعلو . . لا يقدر على الترقى قطعاً ، وإنما الشك فيمن
عرف ذلك ، فإنه ربما يقدر عليه^(١) .

وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في
درجاتهم ، ولكن بالإضافة إلى حالهم ، فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ؛
وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا الحسين النوري رحمه الله يمدُّ يده ويسأل
الناس في بعض المواطن ، قال : فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأتيت
الجنيد رحمه الله فأخبرته ، فقال : لا يعظم هذا عليك ؛ فإن النوري لم
يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليشبهم في الآخرة ، فيؤجرون من حيث
لا يضرهم - وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « يدُ المعطي هي
العليا »^(٢) ، فقال بعضهم : يدُ المعطي هي يدُ الآخذ للمال ؛ لأنه يعطي
الثواب ، والقدر له لا لما يأخذه - ثم قال الجنيد : هات الميزان ، فوزن مئة
درهم ، ثم قبض قبضة فألقاها على المئة ، ثم قال : أحملها إليه ، فقلت في
نفسي : إنما يوزن الشيء ليُعرف مقداره ، فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل
حكيم ؟ ! واستحييت أن أسأله ، فذهبت بالصرّة إلى النوري ، فقال : هات

(١) فالترقي تابع للمعرفة والتمييز . « إتحاف » (٣١٢ / ٩) .

(٢) رواه النسائي (٦١ / ٥) عن طارق المحاربي رضي الله عنه مرفوعاً .

الميزان ، فوزن مئة وقال : ردّها عليه ، وقلّ له : أنا لا أقبلُ منك شيئاً ، وأخذ ما زاد على المئة ، قال : فزاد تعجّبي ، فسألته ، فقال : الجنيدُ رجلٌ حكيمٌ ، يريدُ أن يأخذَ الحبلَ بطرفيه ، وزنَ المئة لنفسه طلباً لثواب الآخرة ، وطرحَ عليها قبضةً بلا وزنٍ لله عزّ وجلّ ، فأخذتُ ما كانَ لله تبارك وتعالى ، ورددتُ ما جعله لنفسه ، قال : فرددتُها إلى الجنيد ، فبكى وقال : أخذَ ماله وردّ مالنا ، والله المستعان^(١) .

فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم ، وكيف خلصت لله أعمالهم ، حتّى كان يشاهد كل واحد قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار ، وذلك نتيجة أكل الحلال ، وخلو القلب عن حب الدنيا ، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمّة .

فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه . . فهو جاهلٌ ؛ كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه ، ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتّى بذل كنه مجهوده ولم يصل ، فأنكر ذلك لغيره . . كان كمن شرب المسهل فلم يؤثّر في حقه خاصّة لعلّة في باطنه ، فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً ، وهذا وإن كان في الجهل دون الأوّل ولكنه ليس خالياً عن حظّ وافٍ من الجهل .

(١) رواه أبو طالب المكي في « القوت » (٢٠١ / ٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣١٣ / ٩) : (فمن كان بهذه المثابة من المعرفة والاستشراف على الخواطر كيف لا يكون السؤال مزيداً في درجاته ؟ !) .

بل البصيرُ أحدُ رجلين :

إمّا رجلٌ سلكَ الطريقَ فظهرَ له مثلُ ما ظهرَ لهم ، فهو صاحبُ الذوقِ
والمعرفة ، وقد وصلَ إلى عينِ اليقين .

وإمّا رجلٌ لم يسلكِ الطريقَ ، أو سلكَ ولم يصلْ ، ولكنه آمنَ بذلكَ
وصدّقَ به ، فهو صاحبُ علمِ اليقينِ ، وإن لم يكنْ واصلاً إلى عينِ اليقينِ ،
ولعلمِ اليقينِ أيضاً رتبةٌ وإن كان دونَ عينِ اليقينِ .

ومن خلا عن علمِ اليقينِ وعينِ اليقينِ . . فهو خارجٌ عن زمرةِ المؤمنين ،
ويُحشَرُ يومَ القيامةِ في زمرةِ الجاحدينِ المستكبرين ، الذين هم قتلَى العقولِ
الضعيفةِ وأتباعُ الشياطينِ .

فنسألُ اللهَ تعالى أنْ يجعلَنا منَ الراسخينَ في العلمِ ، القائلينَ : ﴿ أَمَّا
بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ فِي الزَّهْدِ

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضرورات المعيشة ، وبيان علامة الزهد .

بيان حقيقة الزهد

اعلم : أنَّ الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ؛ لأنَّ أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل^(١) .
وكانَّ القول لظهوره أُقيم مقام الحال ؛ إذ به يظهر الحال الباطن ، وإلا . . . فليس القول مراداً لعينه ، وإن لم يكن صادراً عن حال . . . سُمِّيَ إسلاماً ولم يُسمَّ إيماناً^(٢) ، والعلم هو السبب في الحال ، يجري مجرى

(١) فالعقد يرجع إلى القلب ، والقول يرجع إلى اللسان ، والعمل يرجع إلى الجوارح .
« إتحاف » (٣١٧/٩) .

(٢) فالعلم هو الأصل الذي هو عقد من عقود الإيمان بالله أو الله ، والحال ما ينشأ عنه من المواجيد ، والعمل هو ما تنشئه المواجيد على القلوب والجوارح من الأعمال .
« إتحاف » (٣١٧/٩) .

المثمر ، والعملُ يجري من الحالِ مجرى الثمرة ، فلنذكر الحالَ مع كلا طرفيه من العلم والعمل .

أما الحال :

فنعني بها ما يُسمَّى زهداً ، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، فكلُّ مَنْ عدلَ عن شيء إلى غيره بمعاوضةٍ وبيعٍ وغيره فإنما عدلَ عنه لرغبته عنه ، وإنما عدلَ إلى غيره لرغبته في غيره ، فحالُه بالإضافة إلى المعدول عنه يُسمَّى زهداً ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يُسمَّى رغبةً وحباً .

فإذا ؛ استدعي حالُ الزهد : مرغوباً عنه ، ومرغوباً فيه هو خيرٌ من المرغوب عنه .

وشرطُ المرغوب عنه : أن يكون أيضاً هو مرغوباً فيه بوجهٍ من الوجوه ، فمن رغبَ عما ليس مطلوباً في نفسه لا يُسمَّى زاهداً ، إذ تاركُ التراب والحجر وما أشبهه لا يُسمَّى زاهداً ، وإنما يُسمَّى زاهداً مَنْ ترك الدراهم والدنانير ؛ لأنَّ التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة .

وشرطُ المرغوب فيه : أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه ، حتى تغلبَ هذه الرغبة ، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمُشتري عنده خيرٌ من المبيع ، فيكون حالُه بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبةً فيه وحباً ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ؛ معناه : باعوه ، فقد يُطلقُ الشراءُ بمعنى

البيع ، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ،
وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف ، فباعوه طمعاً في العوض .

فإذا ؛ كل من باع الدنيا بالآخرة .. فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع
الآخرة بالدنيا .. فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة ، ولكن العادة جارية
بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن
يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للميل في وضع اللسان .

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة .. لم يتصور إلا بالعدول إلى
شيء هو أحب منه ، وإلا .. فترك المحبوب بغير الأحب محال^(١) .

والذي يرغب عن كل ما سوى الله حتى الفراديس ، ولا يحب إلا الله
تعالى .. فهو الزاهد المطلق .

والذي يرغب عن كل حظ يُنال في الدنيا ، ولم يزهد في مثل تلك
الحظوظ في الآخرة ، بل طمع في الحور والقصور ، والأنهار والفواكه ..
فهو أيضاً زاهد ، ولكنه دون الأول .

والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ؛ كالذي يترك المال
دون الجاه ، أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة .. فلا
يستحق اسم الزاهد مطلقاً ، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض
المعاصي في التائبين ، وهو زهد صحيح ؛ كما أن التوبة عن بعض المعاصي

(١) وبهذا يفارق الفقر ؛ فإن حقيقة الفقر الفقد والاحتياج . « إتحاف » (٣١٨ / ٩) .

صحيحة ؛ فإنَّ التوبةَ عبارةٌ عن ترك المحظورات ، والزهدُ عبارةٌ عن تركِ المباحاتِ التي هي حظُّ النفسِ ، ولا يبعدُ أن يقدرَ على تركِ بعضِ المباحاتِ دونَ بعضٍ ، كما لا يبعدُ ذلكَ في المحظوراتِ ، والمقتصرُ على تركِ المحظوراتِ لا يُسمَّى زاهداً وإن كان قد زهدَ في المحظورِ وانصرفَ عنه ، ولكنَّ العادةَ تخصُّصُ هذا الاسمِ بتركِ المباحاتِ .

فإذا ؛ الزهدُ عبارةٌ عن رغبتهِ عن الدنيا عدولاً إلى الآخرةِ ، أو عن غيرِ الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى ، وهي الدرجةُ العليا .

وكما يُشترطُ في المرغوبِ فيه أن يكونَ خيراً عندهُ . . فيُشترطُ في المرغوبِ عنه أن يكونَ مقدوراً عليه ، فإنَّ تركَ ما لا يُقدرُ عليه محالٌ ، وبالتركِ يتبيَّنُ زوالُ الرغبةِ ، ولذلك قيلَ لابنِ المباركِ : يا زاهدُ ، فقالَ : الزاهدُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ؛ إذ جاءتُهُ الدنيا راغمةً فتركها ، وأمّا أنا . . ففيمَاذا زهدتُ ؟ (١) .

وأما العلمُ الذي هو مشمَّرٌ لهذهِ الحالِ :

فهو العلمُ بكونِ المتروكِ حقيراً بالإضافةِ إلى المأخوذِ ؛ كعلمِ التاجرِ بأنَّ العوضَ خيرٌ من المبيعِ ، فيرغبُ فيه ، وما لم يتحقَّقْ هذا العلمُ . .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٤٩/٥) ، وهو عند صاحب « القوت » (٢٤٩/١) . وقد روي في هذا الباب عن الشريف محسن بن علوي السقاف (ت ١٢٩١ هـ) لما سمع أحدهم - ممن لا يملك من الدنيا شيئاً - يقول للدنيا : (طلقتك ثلاثاً !!) . . فقال له : (إنك لم تطلق الدنيا ، بل الدنيا طلقتك) .

لا يُتصوَّرُ أنْ تزولَ الرغبةُ عن المبيع ؛ فكذلك مَنْ عرفَ أنَّ ما عندَ اللهِ باقٍ وأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقى ؛ أي : لذاتها خيرٌ في نفسها وأبقى ، كما يكونُ الجواهرُ خيراً من الثلجِ مثلاً ، وهي أبقى كما يكونُ الجواهرُ أبقى من الثلجِ ، ولا يعسرُ على مالكِ الثلجِ بيعُهُ بالجواهرِ والآلئِ ، فهكذا مثلاً الدنيا والآخرةُ ، فالدنيا كالثلجِ الموضوعِ في الشمسِ لا يزالُ في الدوبانِ إلى الانقراضِ ، والآخرةُ كالجواهرِ الذي لا فناءَ له .

فبقدرِ قوَّةِ اليقينِ والمعرفةِ بالتفاوتِ بينَ الدنيا والآخرةِ تقوى الرغبةُ في البيعِ والمعاملةِ ، حتَّى إنَّ مَنْ قويَ يقينهُ يبيعُ نفسهُ ومالهُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ صفقتَهُم رابحةٌ فقالَ : ﴿ فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ .

فليسَ يحتاجُ مِنَ العلمِ في الزهدِ إلا إلى هذا القدرِ ، وهو أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقى ، وقدْ يعلمُ ذلكَ مَنْ لا يقدرُ على تركِ الدنيا ؛ إمَّا لضعفِ علمِهِ ويقينه ، وإمَّا لاستيلاءِ الشهوةِ في الحالِ عليه ، وكونِهِ مقهوراً في يدِ الشيطانِ ، وإمَّا لاغتراره بمواعيدِ الشيطانِ في التسويفِ يوماً بعد يومٍ إلى أنْ يختطفهُ الموتُ ، ولا يبقى معه إلا الحسرةُ بعدَ الفوتِ .

وإلى تعريفِ خساسةِ الدنيا الإشارةُ بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ ، وإلى تعريفِ نفاسةِ الآخرةِ الإشارةُ بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾

وَيَلْصَقُكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ، فَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِنَفَاسَةِ الْجَوْهَرِ هُوَ الْمَرْغَبُ عَنْ عَوْضِهِ .

وَلَمَّا لَمْ يُتَصَوَّرِ الزَّهْدُ إِلَّا بِمَعَاوِضَةٍ وَرَغْبَةٍ عَنْ مَحْبُوبٍ فِي أَحَبِّ مِنْهُ . .
قَالَ رَجُلٌ فِي دَعَائِهِ : اللَّهُمَّ أَرْنِي الدُّنْيَا كَمَا تَرَاهَا ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَقُلْ هَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : أَرْنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ » ^(١) ، وَهَذَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَاهَا حَقِيرَةً كَمَا هِيَ ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى جَلَالِهِ حَقِيرٌ ، وَالْعَبْدُ يَرَاهَا حَقِيرَةً فِي حَقِّ نَفْسِهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَرَى بَائِعُ الْفَرَسِ وَإِنْ رَغَبَ عَنْ فَرَسِهِ كَمَا يَرَى حَشْرَاتِ الْأَرْضِ مِثْلًا ^(٢) ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْحَشْرَاتِ أَصْلًا ، وَلَيْسَ مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْفَرَسِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ بِذَاتِهِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، فَيَرَى الْكُلَّ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى جَلَالِهِ ، وَيَرَاهَا مُتَفَاوِتَةً بِالْإِضَافَةِ إِلَى غَيْرِهِ ، وَالزَّاهِدُ هُوَ الَّذِي يَرَى تَفَاوُتَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ .

وَأَمَّا الْعَمَلُ الصَّادِرُ عَنْ حَالِ الزَّهْدِ :

فَهُوَ تَرْكُ وَأَخْذٌ ؛ لِأَنَّهُ بَيْعٌ ، وَمَعَامَلَةٌ ، وَاسْتِبْدَالُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِالَّذِي هُوَ أَدْنَى ، فَكَمَا أَنَّ الْعَمَلَ الصَّادِرَ عَنْ عَقْدِ الْبَيْعِ هُوَ تَرْكُ الْمُبِيعِ وَإِخْرَاجُهُ مِنَ الْيَدِ

(١) كَذَا فِي « الْقَوَات » (٢٥٣ / ١) ، وَالْخَبَرُ رَوَاهُ ابْنُ فَضِيلٍ فِي « الدَّعَاءِ » (٢) عَنْ أَبِي الْغَضَنِ الطَّائِي ، وَهُوَ عِنْدَ الدَّيْلَمِيِّ فِي « مُسْنَدِ الْفَرْدُوسِ » (١٩١٠) عَنْ أَبِي الْعَصِيرِ الْكِنَانِيِّ .

(٢) كَذَا فِي (ب) ، وَفِي بَاقِي النُّسخِ : (أَنْ يَرَى بَائِعُ الْفَرَسِ وَإِنْ رَغَبَ عَنْهُ فَرَسُهُ . . .)

وأخذُ العوضِ .. فكَذلكَ الزهدُ يوجبُ تركَ المزهودِ فيه بالكليةِ ؛ وهي الدنيا بأسرها ، مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها ، فيخرجُ من القلبِ حبَّها ، ويدخلُ حبَّ الطاعاتِ ، ويخرجُ من اليدِ والعينِ ما أخرجَهُ مِنَ القلبِ ، ويوظفُ على اليدِ والعينِ وسائرِ الجوارحِ وظائفَ الطاعاتِ ، وإلا .. كَانَ كَمَنْ سَلَّمَ المبيعَ وَلَمْ يَأْخُذِ الثمنَ .

فإذا وَفَّى بشرطِ الجانبينِ في الأخذِ والتركِ .. فليستبشرُ ببيعِهِ الذي بايعَ بِهِ ، فَإِنَّ الذي بايعَهُ بهذا البيعِ وَفَّى بالعهدِ ، فَمَنْ أسْلَمَ حاضراً في غائبٍ ، وَسَلَّمَ الحاضرَ وَأَخَذَ يسعَى في طلبِ الغائبِ .. سَلَّمَ إِلَيْهِ الغائبُ حينَ فراغِهِ مِنْ سعيِهِ إِنْ كَانَ العاقدُ مَمَّنْ يُوثِقُ بِصدقِهِ وقدرتِهِ ووفائِهِ بالعهدِ .

وما دامَ ممسكاً للدنيا .. لا يصحُّ زهدهُ أصلاً ، ولذلك لَمْ يَصِفِ اللهُ تعالى إخوةَ يوسفَ بالزهدِ في بنيامينَ ، وَإِنْ كانوا قَدْ قالوا : ليوسفُ وأخوهُ أَحَبُّ إلَيَّ أَيْنا مِنَّا ، وعزموا على إبعادهِ كما عزموا على يوسفَ حتَّى تشفعَ فِيهِ أَحَدُهُمْ فَتُرِكَ^(١) ، ولا وصفَهُمْ أيضاً بالزهدِ في يوسفَ عندَ العزمِ على إخراجِهِ ، بَلْ عندَ التسليمِ والبيعِ .

فعلامَةُ الرغبةِ الإمساكُ ، وعلامَةُ الزهدِ الإخراجُ ، فَإِنْ أخرجتَ عن اليدِ بعضَ الدنيا دونَ البعضِ .. فَأَنْتَ زاهدٌ فيما أخرجتَ فقط ، ولستَ زاهداً

(١) وهو يهوذا ، فشفعَ فيه ورحمه ومنعه ، وكان شديداً بينهم منيعاً مهيباً فيهم ، وقد قيل في السير : (إن أخاهم الأكبر روبيل هو استوهبه منهم) . « إتحاف » (٣٢١ / ٩) نقلاً عن « القوت » (٢٤٨ / ١) .

مطلقاً ، وإن لم يكن لك مالٌ ولم تساعدك الدنيا . . لم يُتصوّر منك الزهد ؛ لأنّ ما لا يُقدّر عليه لا يُقدّر على تركه ، وربما يستهويك الشيطان بغروره ، ويخيّل إليك أنّ الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهدٌ فيها ، فلا ينبغي أن تتدلّى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثقٍ غليظٍ من الله ؛ فإنك إذا لم تجربَ حال القدرة . . فلا تثق بالقدرة على الترك عندها ، فكم من ظانّ بنفسه كراهة المعاصي عند تعذُّرها ، فلمّا تسرّت له أسبابها من غير مكدّر ولا خوفٍ من الخلق . . وقع فيها ، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات . . فإياك أن تثق بوعدها في المباحات .

والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها : أن تجربها مرّةً بعد مرّة في حال القدرة ، فإذا وفّت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً . . فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما ، ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر ؛ فإنّها سريعة النقض للعهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع .
وبالجملة : فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط ، وذلك عند القدرة ، قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى هذا ابن الحائك ، لا نفتي في مسألة إلا ردّ علينا ! يعني أبا حنيفة ، فقال ابن شبرمة : لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو ، لكن أعلم أنّ الدنيا غدّت إليه فهرب منها ، وهربت منّا فطلبناها^(١) .

(١) أورده الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » (٢ / ٣٣٥) ، قال الحافظ الزبيدي في =

ولذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 إِنَّا نَحِبُّ رَبَّنَا ، وَلَوْ عَلِمْنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ مَحَبَّتَهُ . . . لَفَعَلْنَاهُ ، حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ
 تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَذَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا
 قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنْتَ مِنْهُمْ » أَي : مِنَ الْقَلِيلِ ، قَالَ : (وَمَا عَرَفْتُ أَنَّ فِينَا مَنْ
 يَحِبُّ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ
 يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾) (١) .

واعلم : أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الزَّهْدِ تَرْكُ الْمَالِ وَبَذْلُهُ عَلَى سَبِيلِ السَّخَاءِ وَالْفَتْوَةِ ،
 وَعَلَى سَبِيلِ اسْتِمَالَةِ الْقُلُوبِ ، وَلَا عَلَى سَبِيلِ الطَّمَعِ ، فَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ
 مُحَاسِنِ الْعَادَاتِ ، وَلَكِنْ لَا مَدْخَلَ لَشَيْءٍ مِنْهُ فِي الْعِبَادَاتِ ، وَإِنَّمَا الزَّهْدُ أَنْ
 تَتْرَكَ الدُّنْيَا لِعِلْمِكَ بِحَقَارَتِهَا بِالإِضَافَةِ إِلَى نَفَاسَةِ الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا كُلُّ نَوْعٍ مِنَ

= « إِيحَافُهُ » (٣٢٢ / ٩) : (فَإِنْ كَلَّا مِنْهُمَا تَوَلَّى قِضَاءَ الْكُوفَةِ ، وَأَبَاهَا الْإِمَامَ وَضَرَبَ
 وَامْتَحَنَ لَذَلِكَ ، وَلَقَدْ أَنْصَفَ ابْنُ شَبْرَمَةَ فِي جَوَابِهِ ، وَأَمَّا ابْنُ أَبِي لَيْلَى . . . فَكَانَ بِحَسَدِ
 الْإِمَامِ دَائِمًا وَيَعَادِيهِ لَمَا يَرَى لَهُ مِنَ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ ، سَامَحَ اللَّهُ عَنْ
 الْجَمِيعِ وَجَعَلَهُمْ إِخْوَانًا عَلَى سِرَرٍ مُتَقَابِلِينَ) .

(١) رَوَى التِّرْمِذِيُّ (٣٣٠٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ
 أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَذَاكَرْنَا ، فَقُلْنَا : لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ
 إِلَى اللَّهِ . . . لَفَعَلْنَاهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴾ . يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ، وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
 (وَمَا عَرَفْتُ أَنَّ فِينَا مَنْ يَحِبُّ . . .) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٤٦٣ / ١) ، وَالطَّبْرِيُّ
 فِي « تَفْسِيرِهِ » (١٦٤ / ٤ / ٣) ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي « تَفْسِيرِهِ » (٤٣٣٠) .

الترك . . فإنه يُصَوَّرُ مَمَّنٌ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ ، فَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ مَرُوءَةً وَفَتَوَةً وَسَخَاءً وَحَسَنَ خَلْقٍ ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ زَهْدًا ؛ إِذْ حَسَنُ الذِّكْرِ وَمِيلُ الْقُلُوبِ مِنْ حِظْوِظِ الْعَاجِلَةِ ، وَهِيَ أَلَدُّ وَأَهْنَأُ مِنَ الْمَالِ ، وَكَمَا أَنَّ تَرْكَ الْمَالِ عَلَى سَبِيلِ السَّلَامِ طَمَعًا فِي الْعَوَاضِ لَيْسَ مِنَ الزَّهْدِ . . فَكَذَلِكَ تَرْكُهُ طَمَعًا فِي الذِّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَالِاشْتِهَارِ بِالْفَتَوَةِ وَالسَّخَاءِ ، أَوْ اسْتِثْقَالًا لَهُ لَمَّا فِي حِفْظِ الْمَالِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ ، وَالْحَاجَةِ إِلَى التَّدَلُّلِ لِلْسَّلَاطِينِ وَالْأَغْنِيَاءِ . . لَيْسَ مِنَ الزَّهْدِ أَصْلًا ، بَلْ هُوَ اسْتِعْجَالٌ حِظًّا آخَرَ لِلنَّفْسِ .

بَلِ الزَّاهِدُ مَنْ أَتَتْهُ الدُّنْيَا رَاغِمَةً عَفْوًا صَفْوًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى التَّنَعُّمِ بِهَا مِنْ غَيْرِ نَقْصَانٍ جَاءِهِ وَقَبَحِ اسْمٍ وَلَا فَوَاتٍ حِظًّا لِلنَّفْسِ ، فَتَرْكُهَا خَوْفًا مِنْ أَنْ يَأْنَسَ بِهَا ، فَيَكُونَ آنَسًا بِغَيْرِ اللَّهِ ، وَمُحِبًّا لِمَا سِوَى اللَّهِ ، وَيَكُونُ مُشْرِكًا فِي حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرَهُ ، أَوْ تَرْكُهَا طَمَعًا فِي ثَوَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، فَتَرْكُ التَّمَتُّعِ بِأَشْرَبَةِ الدُّنْيَا طَمَعًا فِي أَشْرَبَةِ الْجَنَّةِ ، وَتَرْكُ التَّمَتُّعِ بِالسَّرَارِيِّ وَالنِّسْوَانِ طَمَعًا فِي الْحُورِ الْعِينِ ، وَتَرْكُ التَّفَرُّجِ فِي الْبَسَاتِينِ طَمَعًا فِي بَسَاتِينِ الْجَنَّةِ وَأَشْجَارِهَا ، وَتَرْكُ التَّزْيِينِ وَالتَّجَمُّلِ بِزِينَةِ الدُّنْيَا طَمَعًا فِي زِينَةِ الْجَنَّةِ ، وَتَرْكُ الْمَطَاعِمِ اللَّذِيذَةِ طَمَعًا فِي فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ ، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُقَالَ لَهُ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ، فَآثَرَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مَا وُعدَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ عَلَى مَا تيسَّرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا عَفْوًا صَفْوًا ؛ لَعَلِمِهِ بَأَنَّ مَا فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، وَأَنَّ مَا سِوَى هَذَا فَمَعَامِلَاتٌ دُنْيَوِيَّةٌ لَا جَدْوَى لَهَا فِي الْآخِرَةِ أَصْلًا .



بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ ﴾ ^(١) ، فنسب الزهد إلى العلماء ، ووصف أهله بالعلم ، وهو غاية الشناء .

وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ، وجاء في التفسير : على الزهد في الدنيا ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، قيل : معناه : أيهم أزهد فيها ^(٣) ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

(١) والآية بتمامها : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ قال الذين يريدون الحياة الدنيا يلبسنا ولبسنا ما أوفى قنودنا إنه لذو حظ عظيم ۖ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن ءامن وعمل صالحاً ولا يُلَقَّها إلا الصابرون ۖ

(٢) قوت القلوب (١/٢٤٢) .

(٣) قوت القلوب (١/٢٤٢) .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ ، فوصف الكفار بذلك ، فمفهومهُ أَنَّ المؤمنَ هو الذي يتصفُ بنقيضِهِ ، وهو أَن يستحبَّ الآخرةَ على الحياةِ الدنيا .

وأما الأخبار :

فما وردَ منها في ذمِّ الدنيا كثيرٌ ، وقد أوردنا بعضها في كتابِ ذمِّ الدنيا من ربع المهلكات ، إذ حُبُّ الدنيا من المهلكات ، ونحن الآن نقصرُ على فضيلةِ بغضِ الدنيا ؛ فإنه من المنجيات ، وهو المعنىُّ بالزهد .

وقد قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَصْبَحَ وَهْمُهُ الدُّنْيَا . . شَتَّ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضِيعَتَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَهْمُهُ الْآخِرَةُ . . جَمَعَ اللهُ لَهُ هَمَّهُ ، وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضِيعَتَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » (١) .

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ قَدْ أُعْطِيَ صِمْتَاً وَزَهْداً فِي الدُّنْيَا . . فَاقْتَرَبُوا مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يُلْقَى الْحِكْمَةَ » (٢) .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، ولذلك

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠١) .

قيل : (مَنْ زهدَ في الدنيا أربعين يوماً . . أجرى الله تعالى ينابيع الحكمة في قلبه ، وأنطقَ بها لسانه) (١) .

وعن بعض الصحابة أنه قال : قلنا : يا رسول الله ؛ أيُّ الناس خيرٌ ؟ قال : « كلُّ مؤمنٍ مخمومٍ القلب صدوق اللسان » ، قلنا : يا رسول الله ، وما مخموم القلب ؟ قال : « التقيُّ النقيُّ الذي لا غلٌّ فيه ولا غشٌّ ولا بغْيٌ ولا حسدٌ » ، قيل : يا رسول الله ؛ فمَنْ على أثره ؟ قال : « الذي يشنأ الدنيا ويحبُّ الآخرة » (٢) ، ومفهومٌ هذا : أنَّ شرَّ الناس الذي يحبُّ الدنيا .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أردت أن يحبَّك الله . . فازهد في الدنيا » ، فجعل الزهد سبباً للمحبة ، فمَنْ أحبه الله تعالى . . فهو في أعلى الدرجات ، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ، ومفهومه أيضاً : أنَّ محبَّ الدنيا متعرِّضٌ لبغض الله تعالى .

وفي خبرٍ من طريق أهل البيت : (الزهد والورع يجولان في القلوب كلَّ ليلة ، فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء . . أقاما فيه ، وإلا . . ارتحلا) (٣) .

(١) تقدم بلفظ : « من أكل الحلال أربعين يوماً . . » ، وهو ما أورده صاحب « القوت » (٢٨٧ / ٢) ، ولفظه هنا عند ابن عدي في « الكامل » (٣٠٧ / ٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٥) بتمامه ، وصدره عند ابن ماجه (٤٢١٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٥٠ / ١) حيث قال : (وروينا في ذلك حديثاً من طريق أهل =

ولَمَّا قَالَ حَارِثَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنَا مُؤْمِنٌ حَقًّا . .
 قَالَ : « وَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ » قَالَ : عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ، فَاسْتَوَيْ
 عِنْدِي حَجَرُهَا وَذَهَبُهَا ، وَكَأَنِّي بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَكَأَنِّي بِعَرْشِ رَبِّي بَارِزًا ،
 فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَرَفْتَ فَالْزَمِ ، عَبْدُ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ
 بِالْإِيمَانِ »^(١) ، فَانْظُرْ كَيْفَ بَدَأَ فِي إِظْهَارِ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بِعُزُوفِ النَّفْسِ عَنِ
 الدُّنْيَا ، وَقَرْنَهُ بِالْيَقِينِ ، وَكَيْفَ زَكَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ :
 « عَبْدُ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ » .

ولَمَّا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مَعْنَى الشَّرْحِ فِي قَوْلِهِ
 تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ ، وَقِيلَ لَهُ : مَا هَذَا
 الشَّرْحُ ؟ قَالَ : « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ . . انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ » ،
 قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ وَهَلْ لَذَلِكَ مِنْ عِلَاقَةٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، التَّجَافِي عَنْ
 دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ »^(٢) ،
 فَانْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ الزَّهْدَ شَرْطًا لِلْإِسْلَامِ ، وَهُوَ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ .

= البيت (وذكره ، وقد روى أبو نعيم في « الحلية » (١٨١ / ٣) عن محمد بن علي بن
 الحسين بن علي يقول : (الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان
 فيه التوكل . . أوطناه) .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٤) ، والبزار في « مسنده » (٦٩٤٨) ، والطبراني
 في « الكبير » (٢٦٦ / ٣) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٧٧٧ / ٢) ، والبيهقي
 في « الشعب » (١٠١٠٧ ، ١٠١٠٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (٣١١ / ٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « استحيوا من الله حقَّ الحياءِ » ، قالوا : إنا لنستحي منه تعالى ، فقال : « ليس كذلك ، تبون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ! »^(١) ، فبيّن أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى .

ولمّا قدم عليه بعض الوفود . . قالوا : إنا مؤمنون ، قال : « وما علامة إيمانكم ؟ » فذكروا الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمواقع القضاء ، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن كنتم كذلك . . فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون »^(٢) ، فجعل الزهد تكملة لإيمانهم .

وقال جابر رضي الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها غيرها . . وجبت له الجنة » ، فقام إليه علي رضي الله عنه فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما لا يخلط بها غيرها صفة لنا ، فسره لنا ، فقال : « حب الدنيا طلباً لها واتباعاً لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا . . وجبت له الجنة »^(٣) .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٧٢ / ٢٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٩٧ / ٧) عن أم الوليد بنت عمر .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩٧ / ٤١) من حديث سويد بن الحارث .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢٩٠ / ٦) من حديث جابر رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠١٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وفي الخبر : « السخاء من اليقين ، ولا يدخل النار موقنٌ ، والبخل من الشك ، ولا يدخل الجنة من شك » (١) .

وقال أيضاً : « السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، والبخل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، قريب من النار » (٢) ، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا ، والسخاء ثمرة الزهد ، والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة .

وروى ابن المسيب عن أبي ذر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من زهد في الدنيا . أدخل الله الحكمة قلبه ، فأنطق بها لسانه ، وعرفه داء الدنيا ودواءها ، وأخرجته منها سالماً إلى دار السلام » (٣) .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بعشارٍ من النوق حُفِلٍ ، وهي الحوامل ، وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم ؛ لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ ، قال : فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره ، فقيل له : يا رسول الله ؛ هذه أنفس أموالنا ، لم لا تنظر

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٥١) ، وقد قال صاحب « القوت » (٢٥١/١) : (وروينا في خبر مقطوع) وذكره .

(٢) رواه الترمذي (١٩٦١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٥٥ / ١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٩) عن صفوان بن سليم مرسلًا .

إليها ؟ فقال : قد نهاني الله تعالى عن ذلك ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ۖ ﴾ الآية (١) .

وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ ألا تستطعم الله فيطعمك ؟ قالت : وبكى لما رأيت به من الجوع ، فقال : « يا عائشة ؛ والذي نفسي بيده ؛ لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً . . لأجراها حيث شئت من الأرض ، ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة ؛ إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ؛ إن الله تعالى لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال : ﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ ، والله ؛ ما لي بد من طاعته ، وإني - والله - لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة إلا بالله » (٢) .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها : البس لي الثياب إذا قدمت عليك الوفود من

(١) كذا في « القوت » (٢٥٥ / ١) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (٦١٣ / ٥) : (وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة : أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفاً ، فإذا رجع إلى أهله فدخل الدار . . قرأ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ، ثم يقول : الصلاة الصلاة رحمكم الله) .

(٢) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٥٨٣) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٠٦) بنحوه ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٦٢٨) مختصراً .

الآفاق ، ومُرْ بصنعة طعامٍ تطعمُهُ وتطعمُ مَنْ حضرَ .

فقال عمرُ : يا حفصةُ ؛ ألسِ تعلمينَ أنَّ أعلمَ الناسِ بحالِ الرجلِ أهلُ بيتهِ ؟ فقالتُ : بلى .

قالَ : ناشدُكَ اللهُ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لبثَ في النبوةِ كذا وكذا سنةً لم يشبعْ هوَ ولا أهلُ بيتهِ غدوةً إلا جاعوا عشيَّةً ، ولا شبعوا عشيَّةً إلا جاعوا غدوةً ؟ (١) .

وناشدُكَ اللهُ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لبثَ في النبوةِ كذا وكذا سنةً لم يشبعْ مِنَ التمرِ هوَ وأهلُهُ حتَّى فتحَ اللهُ عليه خيبرَ ؟ (٢) .

وناشدُكَ اللهُ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قرَّبْتُمُ إليه يوماً طعاماً على مائدةٍ فيها ارتفاعُ فشقَّ ذلكَ عليه حتَّى تغيَّرَ لونهُ ، ثمَّ أمرَ بالمائدةِ فرُفعتْ ووُضعَ الطعامُ على دونِ ذلكَ أو وُضعَ على الأرضِ ؟ (٣) .

وناشدُكَ اللهُ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ ينامُ على عباءةٍ مثنَّيةٍ ، فثَنَيْتُ لَهُ ليلةً أربعَ طاقاتٍ ، فنامَ عليها ، فلمَّا استيقظَ .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٣٦٠٦) عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، وروى الترمذي (٢٣٥٦) عن عائشة رضي الله عنها نحوه .

(٢) وقد روى ابن سعد في « طبقاته » (٣٤٩ / ١) عن عمر رضي الله عنه : (لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوي يومه من الجوع ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه) ، وعنده عن النعمان بن بشير : (ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع من الدقل ، وما ترضون دون ألوان التمر والزبد) .

(٣) حديث عدم أكله على خوان رواه البخاري (٦٤٥٠) .

قال : « منعتموني قيامَ الليلة بهذه العبادة ، اثنوها باثنتين كما كنتم تنونها » ؟ (١) .

وناشدتك الله ؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتُغسل ، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة ، فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه ، فيخرج فيها إلى الصلاة ؟ (٢) .

وناشدتك الله ؛ هل تعلمين أن امرأة من بني ظفر صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كساءين إزاراً ورداءً ، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر ، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره ، قد عقد طرفيه إلى عنقه ، فصلّى كذلك ؟ (٣) .

فما زال حتى أبكاها ، وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (٤) .

وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر رضي الله عنه ، وهو أنه قال : كان لي صاحبان سلكا طريقاً ، فإن سلكت غير طريقهما . . . سلك بي طريق

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٤٠٠ / ١) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٤٦٣) .

(٢) رواه أبو بكر الدينوري في « القناعة » (٤٦) بلفظ المصنف هنا ، وروايته هذه تشعر بأن للحديث أصلاً بهذا السياق .

(٣) روى ابن ماجه (١٠٣٢) عن ثابت بن الصامت رضي الله عنه نحوه مرفوعاً ، والبخاري في « مسنده » (٤١٠٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

(٤) روي هذا الخبر مختصراً كما سيأتي بيانه في الحديث الآتي .

غير طريقهما ، وإنِّي - والله - سأصبرُ على عيشِهما الشديدِ لعلِّي أدركُ معهُما عيشَهُما الرغيدَ^(١) .

وعن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« لقد كان الأنبياءُ قبلي يُبتلى أحدهم بالفقر ، فلا يجدُ إلا العباءة ، وإن كانَ أحدهم ليُبتلى بالقملِ حتَّى يقتله القملُ ، وكان ذلك أحبَّ إليهم من العطاء إليكم »^(٢) .

وعن ابن عباسٍ قال : (لَمَّا وردَ موسى عليه السلامُ ماءَ مدينَ . . كانت خضرةُ البقلِ تُرى في بطنِهِ مِنَ الهزالِ)^(٣) .

فهذا ما كانَ قد اختاره أنبياءُ الله ورسله ، وهم أعرفُ خلقِ الله بالله وبطريقِ الفوزِ في الآخرة .

وفي حديثِ عمرَ رضي الله عنه أنه قال : لَمَّا نزلَ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ . . قال صلى الله عليه وسلم : « تَبَا لِلدُّنْيَا ، تَبَا »

(١) روى ابن المبارك في « الزهد » (٥٧٤) ، والحاكم في « المستدرک » (١٢٣ / ١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٨ / ١) عن مصعب بن سعد : أن حفصة قالت لعمر : ألا تلبس ثوباً ألين من ثوبك ، وتأكل طعاماً أطيب من طعامك هذا ؟ فقد فتح الله عليك الأرض وأوسع عليك الرزق ، قال : سأخصمك إلى نفسك ، فذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يلقي من شدة العيش ، ولم يزل يذكر حتَّى بكى ، ثم قال عمر : لأشركنهما في مثل عيشهما الشديد ؛ لعلِّي أدرك معهما مثل عيشهما الرخي .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٢٤) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (٧٥ / ٢٠ / ١١) .

للدینار والدرهم» ، فقلنا : یا رسول الله ؛ نهانا الله عن کثر الذهب والفضة ، فأی شيء ندخر ؟ فقال صلى الله علیه وسلم : « ليتخذ أحدکم لساناً ذاکراً ، وقلباً شاکراً ، وزوجةً صالحةً تعینهُ علی أمر آخرته » (١) .

وفي حديث حذیفة عن رسول الله صلى الله علیه وسلم : « من أثر الدنيا علی الآخرة .. ابتلاء الله بثلاث : هم لا یفارق قلبه أبداً ، وفقر لا یتغنی أبداً ، وحرص لا یشبع أبداً » (٢) .

وقال النبی صلى الله علیه وسلم : « لا یتکمل العبدُ بالإیمان حتّی یشعر أنه لا یعرف أحبّ إلیه من أن یعرف ، وحتّی یشعر أنه لا یعرف أحبّ إلیه من کثرته » (٣) .

(١) رواه الترمذی (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) عن ثوبان رضي الله عنه قال : لما نزل فی الفضة والذهب ما نزل .. قالوا : فأی المال نتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لکم ذلك ، فأوضع علی بعیره فأدرك النبی صلى الله علیه وسلم وأنا علی أثره ، فقال : یا رسول الله ؛ أي المال نتخذ ؟ فقال : « ليتخذ أحدکم قلباً شاکراً ، ولساناً ذاکراً ، وزوجةً مؤمنة تعین أحدکم علی أمر الآخرة » .

(٢) کذا فی « القوت » (٢٥٦/١) ، وقد روى الطبرانی فی « الكبير » (١٠/١٦٢) ، والقضاعي فی « مسند الشهاب » (٥٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من أشرب حب الدنيا .. التاط منها بثلاث : شقاء لا ینفد عنه ، وحرص لا یبلغ عنه ، وأمل لا یبلغ متناه » .

(٣) کذا فی « القوت » (٢٥٦/١) حیث قال : (وروينا حديثاً مرسلأ عن علي بن معبد ، عن علي بن أبي طلحة) یرسله ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له إسناداً ، وذكره صاحب « الفردوس » من رواية علي بن أبي طلحة مرسلأ : « لا یتکمل عبد الإیمان حتّی یشعر أنه لا یعرف أحبّ إلیه من کثرته ، وحتّی یشعر أنه لا یعرف أحبّ إلیه من کثرته »)

وقال عيسى عليه السلام : (الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها)^(١) .

وقيل له : يا نبي الله ؛ لو أمرتنا أن نبني بيتاً نعبد الله فيه ، فقال : اذهبوا فابنوا بيتاً على الماء ، فقالوا : كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ ! قال : وكيف تستقيم عبادة على حب الدنيا ؟^(٢) .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يا رب ، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذي أجوع فيه . . فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه . . فأحمدك وأثني عليك »^(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه ، فصعد على الصفا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي بعثك بالحق ؛ ما أمسى لآل محمد كفٌ سويق ولا سفةٌ دقيق » ، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمر الله القيامة أن تقوم ؟ » قال : لا ، ولكن هذا إسرائيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع

= من أن يعرف في غير ذات الله ، ولم يخرج له ولده في « مسنده » ، وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم ، وروى عن ابن عباس ، لكن روايته عنه مرسله ، والحديث إذاً معضل) . « إتحاف » (٣٣٢ / ٩) .

(١) قوت القلوب (٢٥٦ / ١) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢) .

(٢) قوت القلوب (٢٥٦ / ١) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) .

كلامك ، فاتاه إسرائيلُ فقال : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمِعَ مَا ذَكَرْتَ ، فَبِعَثْنِي
بِمِفْتَاحِ الْأَرْضِ وَأَمْرَنِي أَنْ أَعْرَضَ عَلَيْكَ ؛ إِنَّ أَحْبَبْتَ أَنْ أَسِيرَ مَعَكَ جِبَالَ
تِهَامَةَ زَمْرَدًا وَيَاقُوتًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً . . فَعَلْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مُلْكًا ، وَإِنْ شِئْتَ
نَبِيًّا عَبْدًا ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ جَبْرِيلُ أَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ ، فَقَالَ : « نَبِيًّا عَبْدًا » ثَلَاثًا^(١) .
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ . . زَهْدَهُ فِي الدُّنْيَا ،
وَرَغْبَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَبَصَرَهُ بَعْيُوبَ نَفْسِهِ »^(٢) .
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ : « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا . . يَحْبَبَكَ اللَّهُ ،
وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ . . يَحْبَبَكَ النَّاسُ »^(٣) .
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ عِلْمًا بَغَيْرِ تَعَلُّمٍ ،
وَهْدًى بَغَيْرِ هِدَايَةٍ . . فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا »^(٤) .

- (١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٩٣٣) ، والبيهقي في « الزهد » (٤٤٧) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، والديلمى
في « مسند الفردوس » (٩٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وليس عندهما (ورغبه
في الآخرة) ، بل (فقهه في الدين) .
(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٢/٦) ،
والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) من حديث الحسن مرسلاً ، قال : خرج رسول الله
صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم فقال : « هل منكم من يريد أن يؤتيه الله عز
وجل علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية ؟ هل منكم من يريد أن يذهب الله عز وجل عنه
العمى ويجعله بصيراً ؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وأطال أمله فيها . . أعمى الله قلبه على
قدر ذلك ، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها . . أعطاه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير
هداية . . » الحديث .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ اشتاق إلى الجنة .. سارع إلى الخيرات ، وَمَنْ خاف من النار .. لها عن الشهوات ، وَمَنْ ترقّب الموت .. ترك اللذات ، وَمَنْ زهد في الدنيا .. هانت عليه المصيبات » (١) .

ويروى عن نبينا وعن عيسى صلوات الله عليهما وسلامته : « أربع لا يُدركن إلا بعجب : الصمت وهو أول العباد ، والتواضع ، وكثرة الذكر ، وقلة الشيء » (٢) .

وجميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن حصرها ، فإن الأنبياء ما بُعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، فإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية ، والله المستعان .

وأما الآثار :

فقد جاء في الأثر : (لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم) ، وفي لفظ آخر : (ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله ..

(١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٣٠ / ٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠ / ٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٣٤) من حديث علي كرم الله وجهه مرفوعاً .

(٢) كذا في « القوت » (٢٦٦ / ١) ، ورواه الحاكم في « المستدرک » (٣١١ / ٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٦ / ١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٢٨) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَبْتُمْ ، لَسْتُمْ بِهَا صَادِقِينَ (١) .

وَعَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ : (تَابِعْنَا الْأَعْمَالَ كُلَّهَا ، فَلَمْ نَرَ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ أَبْلَغَ مِنْ زَهْدٍ فِي الدُّنْيَا) (٢) .

وَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لَصَدْرٍ مِنَ التَّابِعِينَ : أَنْتُمْ أَكْثَرُ أَعْمَالاً وَاجْتِهَاداً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُمْ كَانُوا خَيْرًا مِنْكُمْ ، قِيلَ : وَلِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : كَانُوا أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا مِنْكُمْ (٣) .

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا رَاحَةُ الْقَلْبِ وَالْجَسَدِ) (٤) .

وَقَالَ بِلَالُ بْنُ سَعْدٍ : (كَفَى بِهِ ذَنْباً أَنْ اللَّهَ تَعَالَى يَزْهِدُنَا فِي الدُّنْيَا وَنَحْنُ نَرْغَبُ فِيهَا) (٥) .

وَقَالَ رَجُلٌ لِسَفِيَّانٍ : أَشْتَهِي أَنْ أَرَى عَالِماً زَاهِداً ، فَقَالَ : وَيَحَاكَ ! تِلْكَ ضَالَّةٌ لَا تُوجَدُ (٦) .

(١) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢٤٣ / ١) ، وَقَدْ رَوَاهُ مَرْفُوعاً مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ابْنُ عَدِي فِي « الْكَامِلِ » (٢١٤ / ٢) .

(٢) وَالْقَوْلُ لِأَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، رَوَاهُ لَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٣٥٩ / ٨) ، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي « الشَّعْبِ » (١٠٢٠٠) .

(٣) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢٤٣ / ١) ، وَرَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي « الزَّهْدِ » (٥٠١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَخَاطِبُ صَدْرَ التَّابِعِينَ الْأَوَّلَ .

(٤) رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي « الزَّهْدِ » (٥٩٣) .

(٥) رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي « الزَّهْدِ » (٤٨٤) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٢٢٤ / ٥) .

(٦) رَوَاهُ الدِّينُورِيُّ فِي « الْمَجَالِسَةِ وَجَوَاهِرِ الْعِلْمِ » (ص ٧٥) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٥٢ / ٧) .

وقال وهب بن منبه : إنَّ للجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها . . جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا ؛ لا يدخلها أحدٌ قبل الزاهدين في الدنيا والعاشقين للجنة .

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله : إنني لأشتهي من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ، ولا يكون علي دين ، ولا على عظمي لحم ، فأعطي ذلك كله .

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت تردُّ على حالتك هذه ! فبكى الفضيل وقال : أتدرون ؟ ما مثلي ومثلكم إلا كمثلي قوم كانت لهم بقرة يحرقون عليها ، فلما هرمت . . قالوا : اذبحوها وانتفعوا بجلدها ، وكذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني ، موتوا يا أهلي جوعاً خيراً لكم من أن تذبحوا فضيلاً^(١) .

وقال عبيد بن عمير : (كان عيسى ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ، ويأكل الشجر ، وليس له ولدٌ يموت ، ولا بيتٌ يخرب ، ولا يدخر لغد ، أينما أدركه المساء . . نام)^(٢) .

(١) رواه ضمن خبر طويل فيه قصة زيارة هارون الرشيد له أبو نعيم في « الحلية » (١٠٥ / ٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٢٨) بنحوه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٦٧) .

وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم : هذا الشتاء قد هجم علينا ، ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب ، فقال لها أبو حازم : من هذا كله بد ، ولكن لا بد لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله عز وجل ، ثم الجنة أو النار^(١) .

وقيل للحسن : لم لا تغسل قميصك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك^(٢) .

وقال إبراهيم بن أدهم : (قد حُجِبَتْ قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحُجُب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود .. فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود .. فأنت ساخط والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح .. فأنت معجب والمعجب يحبط العمل)^(٣) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدین المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً)^(٤) .

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٥١٥ / ٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٠ / ٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٥٠ / ١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤ / ٨) بنحوه .

(٤) قوت القلوب (٢٦٥ / ١) حيث قال : (وروى مسروق عن ابن مسعود) وذكره .

وقال بعض السلف : (نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا)^(١) ، وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يَحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ »^(٢) ، فإذا فهم هذا .. عَلِمَ أَنَّ النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدي إلى السقم .

وكان الثوري يقول : (الدنيا دارُ التواءٍ لا دارُ استواءٍ ، ودارُ ترحٍ لا دارُ فرحٍ ، مَنْ عرفها .. لم يفرح برخاءٍ ، ولم يحزن على شقاءٍ)^(٣) .

وقال سهل : (لا يخلصُ العملُ لمتعبدٍ حتَّى لا يفرغَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ : الجوعُ ، والعريُّ ، والفقرُ ، والذلُّ)^(٤) .

وقال الحسن البصري : (أدركتُ أقواماً وصحبتُ طوائفَ ما كانوا يفرحون بشيءٍ مِنَ الدُّنْيَا أَقْبَلَ ، ولا يأسفون على شيءٍ مِنْهَا أَدْبَرَ ، ولهي كانت في أعينهم أهونَ مِنَ الترابِ ، كان أحدهم يعيشُ خمسينَ سنةً وستينَ سنةً لم يُطوَ لَهُ ثوبٌ ، ولم يُنصبَ لَهُ قَدْرٌ ، ولم يجعلَ بينَهُ وبينَ الأرضِ شيئاً ، ولا أمرَ مَنْ فِي بَيْتِهِ بِصَنْعَةِ طَعَامٍ قَطُّ ، فإذا كانَ اللَّيْلُ .. فقيامٌ على

(١) قوت القلوب (٢٦٦/١) .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٦) .

(٣) قوت القلوب (٢٦٦/١) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٤٥) .

أطرافهم ، يفرشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، ينجون ربهم في فكاك رقابهم ، كانوا إذا عملوا الحسنة . . دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة . . أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم ، فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة (١) .



(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٤٣) .

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه، وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه

اعلم : أنَّ الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث :

الدرجة الأولى - وهي السفلى منها - :

أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ ، وقلبه إليها مائلٌ ، ونفسه إليها ملتفتةٌ ، ولكنه يجاهدُها ويكفُّها ، وهذا يُسمَّى المتزهد ، وهو مبدأ الزهد في حق مَنْ يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد .
والمتزهد يذيب أولاً نفسه ثم كيسه^(١) ، والزاهد أولاً يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعة ، لا في الصبر على ما فارقه ، والمتزهد على خطر ؛ فإنه ربما تغلبه نفسه ، وتجذبهُ شهوتهُ ، فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير .

الدرجة الثانية :

الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاقه إيّاها بالإضافة إلى ما طمع فيه ؛ كالذي يترك درهماً لأجل درهمين ، فإنه لا يشقُّ عليه ذلك وإن كان يحتاجُ

(١) بإخراج المرغوب منه . « إتحاف » (٣٣٧ / ٩) .

إلى انتظارٍ قليلٍ ، ولكن هذا الزاهد يرى - لا محالة - زهده ويلتفت إليه ؛
كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه ، فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده ،
ويظنُّ بنفسه أنه ترك شيئاً له قدرٌ لما هو أعظمُ قدراً منه ، وهذا أيضاً
نقصانٌ .

الدرجة الثالثة - وهي العليا - :

أن يزهد طوعاً ، ويزهد في زهده ، فلا يرى زهده ؛ إذ لا يرى أنه ترك
شيئاً ، إذ عرف أن الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك خزفةً وأخذ جوهرةً ،
فلا يرى ذلك معاوضةً ، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً ، والدنيا بالإضافة إلى الله
تعالى ونعيم الآخرة أحسنٌ من خزفةٍ بالإضافة إلى جوهرةٍ .
فهذا هو الكمال في الزهد ، وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد
آمنٌ من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمنٌ من
طلب الإقالة في البيع .

قال أبو يزيد لأبي موسى : عبد الرحيم في أي شيء يتكلم ؟ قال : في
الزهد ، قال : في أي شيء ؟ قال : في الدنيا ، فنفض يده وقال : ظننت أنه
يتكلم في شيء ، الدنيا لا شيء ، أي يزهد فيها ؟^(١) .

(١) قوت القلوب (٢٦٩ / ١) ، وأبو موسى هو هارون بن سليمان الكوفي ، وعبد الرحيم
هو ابن يحيى الأسود الأرموي الدمشقي . انظر « الإتحاف » (٣٣٨ / ٩) .

ومثل مَنْ ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة
بالمشاهدات والمكاشفات مثل مَنْ منعه عن باب الملك كلبٌ على بابه ،
فألقي إليه لقمةً مِنْ خبزٍ ، فشغله بنفسه ، ودخل الباب ونال القربَ عند
الملك ، حتَّى نفذ أمره في جميع مملكته ، أفترى أنّه يرى لنفسه يداً عند
الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله ؟

فالشيطان كلبٌ على باب الله تعالى يمنعُ الناسَ مِنَ الدخولِ ، مع أنّ
البابَ مفتوحٌ والحجابَ مرفوعٌ ، والدنيا كلقمة خبزٍ ، إنّ أُكِلَتْ . . فلذَّتْها
في حالِ المضغِ ، وتنقضي على القربِ بالابتلاعِ ، ثمَّ يبقى ثقلها في
المعدةِ ، ثمَّ تنتهي إلى التّن والقدِرِ ، ثمَّ يحتاجُ بعد ذلك إلى إخراج ذلك
الثقلِ ، فمن تركها لينال عزَّ الملك كيف يلتفتُ إليها ؟!

ونسبة الدنيا كلّها - أعني ما يسلم لكلِّ شخصٍ منها وإنَّ عُمُرَ مئة سنة -
بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقلُّ مِنْ لقمةٍ بالإضافة إلى ملك الدنيا ؛ إذ لا نسبةَ
للمتناهي إلى ما لا نهايةَ له ، والدنيا متناهيةٌ على القربِ ولو كانت تتماضى
ألفَ ألفِ سنةٍ صافيةً عن كلّ كدرٍ . . لكانَ لا نسبةَ لها إلى نعيم الأبدِ ، فكيفَ
ومدَّةُ العمرِ قصيرةٌ ولذاتُ الدنيا مكدرَةٌ غيرُ صافيةٍ ؟! فأی نسبة لها إلى نعيم
الأبدِ ؟!

فإذا ؛ لا يلتفتُ الزاهدُ إلى زهده إلا إذا التفتَ إلى ما زهدَ فيه ،
ولا يلتفتُ إلى ما زهدَ فيه إلا لأنَّه يراه شيئاً معتداً به ، ولا يراه شيئاً معتداً به

إلا لقصور معرفته ، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة .

فهذا تفاوت درجات الزهد ، وكلُّ درجةٍ مِنْ هذه أيضاً لها درجاتٌ ، إذ تصبُّر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر ، وكذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته إلى زهدِه .

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه .. فهو أيضاً على ثلاث درجات :

الدرجة السفلى :

أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام ؛ كعذاب القبر ، ومناقشة الحساب ، وخطر الصراط ، وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار ؛ ففي الخبر : « إنَّ الرجلَ ليُوقَفُ في الحسابِ حتَّى لو وردتْ مئةُ بعيرٍ عطاشاً على عرقِه .. لصدَّرتْ رِواءً »^(١) ، فهذا هو زهدُ

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣٠٤ / ١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « التقى مؤمنان على باب الجنة ؛ مؤمن غني ومؤمن فقير كانا في الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة وحبس الغني ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة ، فلقى الفقير ، فيقول : أي أخي ؛ ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتَّى خفت عليك ، فيقول : أي أخي ؛ حبست بعدك محبساً فظيماً كريهاً ، وما وصلت إليك حتَّى سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها أكلة حمض .. لصدَّرت عنه رِواءً » ، والحمض : نبت فيه ملوحة يحمل على كثرة الشرب .

الخائفين ، وكأنَّهم رضوا بالعدم لو أعدموا ، فإنَّ الخلاصَ مِنَ الألمِ يحصلُ
بمجردِ العدمِ (١) .

الدرجةُ الثانيةُ :

أنَّ يزهدَ رغبةً في ثوابِ الله ونعيمِهِ ، واللذاتِ الموعودةِ في جَنَّتِهِ مِنَ
الحدورِ والقصورِ وغيرها ، وهذا زهدُ الراجينَ ، فإنَّ هؤلاءِ ما تركوا الدنيا
قناعةً بالعدمِ والخلاصِ مِنَ الألمِ ، بل طمعوا في وجودِ دائمٍ ونعيمٍ سرمديٍّ
لا آخرَ لَهُ .

الدرجةُ الثالثةُ - وهي العليا - :

ألا يكونَ لَهُ رغبةٌ إلا في الله وفي لقائِهِ ، فلا يلتفتُ قلبُهُ إلى الآلامِ ليقصدَ
الخلاصَ منها ، ولا إلى اللذاتِ ليقصدَ نيلَها والظفرَ بها ، بل هو مستغرقٌ
الهمَّ باللهِ تعالى ، وهو الذي أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ ، وهو الموحَّدُ
الحقيقيُّ الذي لا يطلبُ غيرَ الله تعالى ؛ لأنَّ مَنْ طلبَ غيرَ الله . . فقد عبدهُ ،
وكلُّ مطلوبٍ معبودٌ ، وكلُّ طالبٍ عبدٌ بالإضافةِ إلى مطلبِهِ ، وطلبُ غيرِ اللهِ

(١) أشار الحافظ الزبيدي إلى أن العدم هنا بمعنى الفقر إذ قال في « إتحافه » (٣٣٩ / ٩) :
(لأن احتباس الغني إنما كان لسبب غناه) ، وما يفيدُه لحاق المصنف الآتي أن العدم
هنا على إطلاقه .

مِنَ الشَّرِكِ الْخَفِيِّ ، وَهَذَا زَهْدُ الْمُحِبِّينَ ^(١) ، وَهُمْ الْعَارِفُونَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى خَاصَّةً إِلَّا مَنْ عَرَفَهُ ، وَكَمَا أَنَّ مَنْ عَرَفَ الدِّينَارَ وَعَرَفَ الدَّرْهَمَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدَرُ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . . لَمْ يَحِبَّ إِلَّا الدِّينَارَ ؛ فَكَذَلِكَ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ ، وَعَرَفَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَعَرَفَ أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ تِلْكَ اللَّذَّةِ وَبَيْنَ لَذَّةِ التَّنْعَمِ بِالْحُورِ الْعَيْنِ وَالنَّظَرِ إِلَى نَقْشِ الْقُصُورِ وَخُضْرَةِ الْأَشْجَارِ غَيْرُ مُمْكِنٍ . . فَلَا يَحِبُّ إِلَّا لَذَّةَ النَّظَرِ وَلَا يُوَثِّرُ غَيْرُهُ .

وَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى يَبْقَى لِلذَّةِ الْحُورِ وَالْقُصُورِ مَتَسَعٌ فِي قُلُوبِهِمْ ، بَلْ تِلْكَ اللَّذَّةُ بِالإِضَافَةِ إِلَى لَذَّةِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ كُلِّدَّةٍ مُلْكِ الدُّنْيَا وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى أَطْرَافِ الْأَرْضِ وَرِقَابِ الْخَلْقِ بِالإِضَافَةِ إِلَى لَذَّةِ الْاسْتِيلَاءِ عَلَى عَصْفُورٍ وَاللَّعِبِ بِهِ ، وَالطَّالِبُونَ لِنَعِيمِ الْجَنَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَأَرْبَابِ الْقُلُوبِ كَالصَّبِيِّ الطَّالِبِ لِلْعِبْ بِالْعَصْفُورِ التَّارِكِ لِلذَّةِ الْمُلْكِ ، وَذَلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ إِدْرَاكِ لَذَّةِ الْمُلْكِ ، لَا لِأَنَّ اللَّعِبَ بِالْعَصْفُورِ فِي نَفْسِهِ أَعْلَى وَالذُّ مِنْ الْاسْتِيلَاءِ بِطَرِيقِ الْمُلْكِ عَلَى كَافَّةِ الْخَلْقِ .



وَأَمَّا انْقِسَامُهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمَرْغُوبِ عَنْهُ : فَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِ الْأَقَاوِيلُ ، وَلَعَلَّ الْمَذْكُورَ فِيهِ يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ قَوْلٍ ، فَلَا نَشْتَغِلُ بِنَقْلِ الْأَقَاوِيلِ ، وَلَكِنْ

(١) وَصَاحِبُ هَذَا الْمَقَامِ قَدْ سَبَّاهُ الْحُبُّ وَشَغَفَهُ الشُّوقُ ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْخَلْقِ مُنْفَصِلٌ مِنْهُمْ ، غَيْرُ مُضِيعٍ لِمَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ حَقُوقِهِمْ ، فَأَتَى لِإِبْلِيسَ أَنْ يَطْمَعَ فِي هَذَا وَمَعَهُ مِنَ اللَّهِ عَصْمَةٌ وَتَأْيِيدٌ ، فَلَوْلَا الْقُدْرَةُ . . لَرَفَعَهُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِهِ . « إِتْحَاف » (٣٤٠ / ٩) .

نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل ، حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل ، فنقول :

المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، ولتفصيله مراتب ، بعضها أشرح لآحاد الأقسام ، وبعضها أجمع للجمل .

أما الإجمال في الدرجة الأولى : فهو كل ما سوى الله ، فينبغي أن يزهد فيه ، حتى يزهد في نفسه أيضاً .

والإجمال في الدرجة الثانية : أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع ؛ من الشهوة ، والغضب ، والكبر ، والرئاسة ، والمال ، والجاه ، وغيرها .

وفي الدرجة الثالثة : أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس .

وفي الدرجة الرابعة : أن يزهد في العلم والقدرة ، والدينار والدرهم والجاه ، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة ، وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها .

فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا . . فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر ، وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها

فَقَالَ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

ثُمَّ رَدَّهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى إِلَى خَمْسَةِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ .

ثُمَّ رَدَّهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى اثْنَيْنِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ .

ثُمَّ رَدَّ الْكُلَّ إِلَى وَاحِدٍ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَقَالَ : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، فَالْهَوَى لَفْظٌ يَجْمَعُ جَمِيعَ حَظَوِظِ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الزَّهْدُ فِيهِ .

وَإِذَا فَهَمْتَ طَرِيقَ الْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ .. عَرَفْتَ أَنَّ الْبَعْضَ مِنْ هَذِهِ لَا يَخَالِفُ الْبَعْضَ ، وَإِنَّمَا يَفَارِقُهُ فِي الشَّرْحِ مَرَّةً وَالْإِجْمَالِ أُخْرَى .

وَالْحَاصِلُ : أَنَّ الزَّهْدَ عِبَارَةٌ عَنِ الرِّغْبَةِ عَنْ حَظَوِظِ النَّفْسِ كُلِّهَا ، وَمَهْمَا رَغِبَ عَنْ حَظَوِظِ النَّفْسِ .. رَغِبَ عَنِ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا ، فَقَصَرَ أَمَلُهُ لَا مُحَالَةً ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَرِيدُ الْبَقَاءَ لِيَتَمَتَّعَ ، وَيَرِيدُ التَّمَتُّعَ الدَّائِمَ بِإِرَادَةِ الْبَقَاءِ ، فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ شَيْئًا .. أَرَادَ دَوَامَهُ ، وَلَا مَعْنَى لِحُبِّ الْحَيَاةِ إِلَّا حُبُّ دَوَامِ مَا هُوَ مُوجُودٌ أَوْ مُمَكِّنٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَإِذَا رَغِبَ عَنْهَا .. لَمْ يَرُدَّهَا .

وَلِذَلِكَ لَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ أَيُّ : لَسْتُمْ تَرِيدُونَ

البقاء إلا لمتاع الدنيا، فظهر عند ذلك الزاهدون، وانكشف حال المنافقين.

أما الزاهدون المحبسون لله تعالى.. فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنين، وكانوا إذا دُعوا إلى القتال.. يستنشقون رائحة الجنة، ويبادرون إليه مبادرة الظمان إلى الماء البارد؛ حرصاً على نصر دين الله عز وجل أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى إن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول: (كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعاً في الشهادة، وأنا الآن أموت موت العجائز)، فلما مات عُدد على جسده ثمان مئة ثقب من آثار الجراحات^(١)، هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وأما المنافقون.. ففرّوا من الزحف خوفاً من الموت، ف قيل لهم: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾، فإثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، فأولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

وأما المخلصون.. فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم

(١) روى الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص ١٤٢) عن أبي الزناد: أن خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة.. بكى وقال: لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، فهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

الجنة ، فلما رأوا أَنَّهُمْ تركوا تمتعَ عشرين سنةً مثلاً أو ثلاثين سنةً بتمتع
الأبد . . استبشروا ببيعِهِمُ الذي بايعوا به .

فهذا بيانُ المزهودِ فيه .

وإذا فهمتَ هذا . . علمتَ أن ما ذكرَهُ المتكلمونَ في حدِّ الزهدِ لم
يشيروا بهِ إلا إلى بعضِ أقسامِهِ ، فذكرَ كلُّ واحدٍ منهمُ ما رآه غالباً على نفسهِ
أو على مَنْ كان يخاطبُهُ .

فقال بشرُّ رحمَةِ اللهُ تعالى : (الزهدُ في الدنيا هو الزهدُ في الناسِ)^(١) ،
وهذا إشارةٌ إلى الزهدِ في الجاهِ خاصَّةً .

وقال قاسمُ الجوعِي : (الزهدُ في الدنيا هو الزهدُ في الجوفِ ، فبقدرِ
ما تملكُ مِنْ بطنِكَ كذلك تملكُ مِنْ الزهدِ)^(٢) ، وهذا إشارةٌ إلى الزهدِ في
شهوةٍ واحدةٍ ، ولعمري هي أغلبُ الشهواتِ على الأكثرِ ، وهي المهيجَةُ
لأكثرِ الشهواتِ .

وقال الفضيلُ : (الزهدُ في الدنيا هو القناعةُ)^(٣) ، وهذا إشارةٌ إلى
المالِ خاصَّةً .

(١) كذا في « القوت » (٢٥٢ / ١) ، ونحوه أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٢٤٦) .

(٢) قوت القلوب (٢٥٢ / ١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٥٢ / ١) ، ورواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله »
(٦٤٧) .

وقال الثوري : (الزهدُ هو قصرُ الأملِ)^(١) ، وهذا جامعٌ لجميعِ الشهواتِ ، فإنَّ مَنْ يميلُ إلى الشهواتِ يحدثُ نفسَهُ بالبقاءِ ، فيطولُ أملهُ ، ومَنْ قصرَ أملهُ . . فكأنَّه رغبَ عن الشهواتِ كُلِّها .

وقال أويسٌ : (إذا خرجَ الزاهدُ يطلبُ . . ذهبَ الزهدُ عنه)^(٢) ، وما قصدَ بهذا حدَّ الزهدِ ، ولكنَّ جعلَ التوكُّلَ شرطاً في الزهدِ .
وقال أويسٌ أيضاً : (الزهدُ هو تركُ الطلبِ للمضمونِ)^(٣) ، وهو إشارةٌ إلى الرزقِ .

وقال أهلُ الحديثِ : (الدنيا هو العملُ بالرأيِ والمعقولِ ، والزهدُ إنما هو اتباعُ العلمِ ولزومُ السنةِ)^(٤) ، وهذا إن أُريدَ به الرأيُ الفاسدُ والمعقولُ الذي يُطلبُ به الجاهُ في الدنيا . . فهو صحيحٌ ، ولكنَّه إشارةٌ إلى بعضِ أسبابِ الجاهِ خاصَّةً ، أو إلى بعضِ ما هو من فضولِ الشهواتِ ، فإنَّ مِنَ العلومِ ما لا فائدةَ فيه في الآخرةِ ، وقد طَوَّلوها حتَّى ينقضي عمرُ الإنسانِ في الاشتغالِ بواحدٍ منها ، فشرطُ الزاهدِ أن يكونَ الفضولُ أوَّلَ مرغوبٍ عنه عندهُ .

وقال الحسنُ : (الزاهدُ الذي إذا رأى أحداً . . قال : هذا أفضلُ

(١) قوت القلوب (٢٥٢ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٢٥٢ / ١) .

(٣) قوت القلوب (٢٦٧ / ١) .

(٤) قوت القلوب (٢٦٧ / ١) .

مَنِي) (١) ، فذهب إلى أنَّ الزهد هو التواضع ، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب ، وهو بعض أقسام الزهد .

وقال بعضهم : (الزهد هو طلب الحلال) (٢) ، وأين هذا ممن يقول : (الزهد هو ترك الطلب) كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال ؟!

وقد كان يوسف بن أسباط يقول : (مَنْ صَبَرَ عَلَى الْأَذَى ، وَتَرَكَ الشَّهَوَاتِ ، وَأَكَلَ الْخَبْزَ مِنْ حَلَالٍ .. فَقَدْ أَخَذَ بِأَصْلِ الزَّهْدِ) (٣) .

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه ، فلم نر في نقلها فائدة ، فإنَّ مَنْ طَلَبَ كَشَفَ حَقَائِقِ الْأُمُورِ مِنْ أَقَاوِيلِ النَّاسِ .. رَأَاهَا مُخْتَلِفَةً ، فَلَا يَسْتَفِيدُ إِلَّا الْحَيْرَةَ ، وَأَمَّا مَنْ انْكَشَفَ لَهُ الْحَقُّ فِي نَفْسِهِ ، وَأَدْرَكَهُ بِمُشَاهَدَةٍ مِنْ قَلْبِهِ ، لَا يَتَلَقَّفُ مِنْ سَمْعِهِ .. فَقَدْ وَثَّقَ بِالْحَقِّ ، وَاطَّلَعَ عَلَى قُصُورِ مَنْ قَصَرَ لِقُصُورِ بَصِيرَتِهِ ، وَعَلَى اقْتِصَارِ مَنْ اقْتَصَرَ مَعَ كَمَالِ الْمَعْرِفَةِ لِاقْتِصَارِ حَاجَتِهِ .

وهؤلاء كلُّهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة ، ولكنَّهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف ، فلا جرم الكلمات تختلف .

وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٤) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٨ / ١) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٠٤) .

في نفسه ، والأحوال تختلف ، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف .
 وأما الحق في نفسه . . فلا يكون إلا واحداً ، ولا يتصور أن يختلف ، وإنما
 الجامع من هذه الأقاويل ، الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل . . ما قاله
 أبو سليمان الداراني ؛ إذ قال : (سمعنا في الزهد كلاماً كثيراً ، والزهد عندنا
 ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل)^(١) ، وقد فصل مرة وقال : (من
 تزوج ، أو سافر في طلب المعيشة ، أو كتب الحديث . . فقد ركن إلى
 الدنيا)^(٢) ، فجعل جميع ذلك ضدّاً للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى :
 ﴿لَا مَنَآئِي لِلَّهِ يَقْلِبْ سَلِيمٌ﴾ فقال : (هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى)^(٣) .

وقال : (إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة)^(٤) .

فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه .

فأما بالإضافة إلى أحكامه : فينقسم إلى فرض ، ونفل ، وسلامة ؛ كما
 قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض هو الزهد في الحرام ، والنفل هو الزهد في
 الحلال ، والسلامة هو الزهد في الشبهات^(٥) .

وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام ، وذلك من

(١) بنحوه عند صاحب « القوت » (٢٥٢ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٢٥٢ / ١) .

(٣) قوت القلوب (٢٥٢ / ١) .

(٤) قوت القلوب (٢٥٢ / ١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦ / ٨) .

الزهد ، إذ قيل لمالك بن أنس : ما الزهد ؟ قال : التقوى .

وأما بالإضافة إلى خفايا ما يُترك : فلا نهاية للزهد فيه ، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات ، لا سيما خفايا الرياء ، فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سماسرة العلماء ، بل الأمور الظاهرة أيضاً درجات الزهد فيها لا تنهاى .

فمن أقصى درجاتها زهد عيسى عليه السلام ، إذ توسّد حجراً في نومه ، فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدنيا ، فما الذي بدا لك ؟ قال : وما الذي تجدد ؟ قال : توسدت الحجر - أي : تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم - فرمى الحجر وقال : خذهُ مع ما تركته لك^(١) .

وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى نقب جلده ؛ تركاً للتنعم بلبين اللباس ، واستراحة حسّ اللبس ، فسألته أمّه أن يلبس مكانها جبة من صوف ، ففعل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ؛ أثرت عليّ الدنيا ! فبكى ونزع الصوف ، وعاد إلى ما كان عليه^(٢) .

وقال أحمد رحمه الله : (الزهد زهد أويس ، بلغ من العري إلى أن جلس في قوصرة)^(٣) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) عن إسماعيل بن أبي خالد .

(٢) قوت القلوب (٢٦٥ / ١) .

(٣) نحوه عند أحمد في « الورع » (٢٤٢) ، وهو في « القوت » (٢٦٧ / ١) ، والقوصرة - وتخفف - : وعاء للتمر من قصب .

وجلسَ عيسى عليه السلام في ظلِّ حائطِ إنسانٍ ، فأقامَهُ صاحبُ الحائطِ ، فقالَ : ما أقمَنتي أنتَ ، إنما أقماني الذي لم يرضَ لي أن أتَنعمَ بظلِّ الحائطِ^(١) .

فإذا ؛ درجاتُ الزهدِ ظاهراً وباطناً لا حصرَ لها ، وأقلُّ درجاتِ الزهدِ في كلِّ شبهةٍ ومحذورٍ .

وقالَ قومٌ : الزهدُ هو الزهدُ في الحلالِ ، لا في الشبهةِ والمحذورِ ، فليسَ ذلكَ من درجاتِهِ في شيءٍ ، ثم رأوا أَنَّهُ لم يبقَ حلالٌ في أموالِ الدنيا ، فلا يُتصوَرُ الزهدُ الآنَ .

فإن قلتَ : مهما كانَ الصحيحُ هو أنَّ الزهدَ تركُ ما سوى الله . . فكيفَ يُتصوَرُ ذلكَ معَ الأكلِ والشربِ واللبسِ ، ومخالطةِ الناسِ ومكالمَتِهِمْ وكلِّ ذلكَ اشتغالٌ بما سوى الله تعالى ؟

فاعلمْ : أنَّ معنى الانصرافِ عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبالُ بكلِّ القلبِ عليه ذكراً وفكراً ، ولا يُتصوَرُ ذلكَ إلا معَ البقاءِ ، ولا بقاءَ إلا بضرورياتِ النفسِ ، فمهما اقتصرتَ من الدنيا على دفعِ المهلكاتِ عن البدنِ وكانَ غرضُكَ الاستعانةَ بالبدنِ على العبادةِ . . لم تكنْ مشتغلاً بغيرِ الله ؛ فإنَّ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٩ / ٤٧) بنحوه .

ما لا يُتوصَّلُ إلى الشيء إلا به فهو منه ، فالمشتغلُ بعلفِ الناقةِ وبسقيها في طريقِ الحجِّ ليسَ معرضاً عن الحجِّ ، ولكن ينبغي أن يكونَ بدنك في طريقِ الله مثلَ ناقتك في طريقِ الحجِّ ، ولا غرضَ لك في تنعمِ ناقتك باللذاتِ ، بل غرضك مقصودٌ على دفعِ المهلكاتِ عنها ، حتَّى تسيرَ بك إلى مقصدك ؛ فكَذلكَ ينبغي أن تكونَ في صيانةِ بدنك عن الجوعِ والعطشِ المهلكِ بالأكلِ والشربِ ، وعن الحرِّ والبردِ المهلكِ باللباسِ والمسكنِ ، فتقتصرُ على قدرِ الضرورةِ ، ولا تقصدُ التلذُّذَ ، بل التقويَّ على طاعةِ الله تعالى ، فذلكَ لا يناقضُ الزهدَ ، بل هو شرطُ الزهدِ .

فإن قلتَ : لا بدَّ وأن أتلذَّذَ بالأكلِ عندَ الجوعِ .

فاعلمُ : أن ذلكَ لا يضرُّك إذا لم يكنْ قصدُك التلذُّذَ ؛ فإنَّ شاربَ الماءِ الباردِ قد يستلذُّ الشربَ ويرجعُ حاصلُهُ إلى زوالِ ألمِ العطشِ ، ومن يقضي حاجتهُ . . فقد يستريحُ بذلكَ ، ولكن لا يكونُ ذلكَ مقصوداً عندهُ ومطلوباً بالقصدِ ، فلا يكونُ القلبُ منصرفاً إليه ، فالإنسانُ قد يستريحُ في قيامِ الليلِ بتنشيمِ الأسحارِ وصوتِ الأطيَّارِ ، ولكن إذا لم يقصدْ طلبَ موضعٍ لهذهِ الاستراحةِ . . فما يصيبُهُ من ذلكَ بغيرِ قصدِهِ لا يضرُّهُ .

ولقد كانَ في الخائفينَ مَنْ طلبَ موضعاً لا يصيبُهُ فيه نسيمُ الأسحارِ خيفةً من الاستراحةِ به وأنسِ القلبِ معه ، فيكونُ فيه أنسٌ بالدنيا ، ونقصانٌ في

الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ، ولذلك كان داوود الطائي له حُبٌّ مكشوفٌ فيه ماؤه^(١) ، فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحارَّ ويقول : مَنْ وجدَ لذةَ الماءِ الباردِ . . شقَّ عليه مفارقةُ الدنيا^(٢) .

فهذه مخاوفُ المحتاطين ، والحزمُ في جميع ذلك الاحتياط ، فإنه وإن كان شاقًّا . . فمدته قريبة ، والاحتماء مدةٌ يسيرةٌ للتنعم على التأييد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين أنفسهم بسياسة الشرع ، المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين .



(١) الحُبُّ : الخاية للماء ، جمعه : حباب وحبية .

(٢) معناه عند أبي نعيم في « الحلية » (٣٤٩ / ٧ ، ٣٥١) .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم : أنَّ ما الناسُ منهمكونَ فيه ينقسمُ إلى فضولٍ وإلى مهمٍّ .
 فالفضولُ : كالخيلِ المسوَّمةِ مثلاً ؛ إذ غالبُ الناسِ إنما يقتنيها للترَفِ
 بركوبِها ، وهو قادرٌ على المشي .
 والمهمُّ : كالأكلِ والشربِ .
 ولسنا نقدرُ على تفصيلِ أصنافِ الفضولِ ، فإنَّ ذلكَ لا ينحصرُ ، وإنَّما
 ينحصرُ المهمُّ الضروريُّ ، والمهمُّ أيضاً يتطَرَّقُ إليه فضولٌ في مقداره وجنسه
 وأوقاته ، فلا بدَّ من بيان وجهِ الزهدِ فيه .
 والمهماتُ ستةُ أمورٍ : المطعمُ ، والملبسُ ، والمسكنُ ، وأثاثُهُ ،
 والمنكحُ ، والمالُ ، والجاهُ يُطلبُ لأغراضٍ ، وهذه الستةُ من جمليتها^(١) ،
 وقد ذكرنا معنى الجاهِ ، وسببَ حبِّ الخلقِ له ، وكيفيةَ الاحترازِ منه في
 كتابِ الرياءِ من ربيعِ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نقصرُ على بيانِ هذهِ المهمَّاتِ
 الستةِ .

(١) أي : الستة من جملة الأغراض التي يطلب الجاه لأجلها ، فليس الجاه معدوداً في المهمات ، وسيجعل المصنف رحمه الله تعالى المال والجاه في مهم واحد ، وهو المهم السادس .

الأول : المطعم :

ولا بدّ للإنسان من قوتٍ حلالٍ يقيمُ صلبه ، ولكن له طولٌ وعرضٌ ، فلا بدّ من قبضِ طولِهِ وعرضِهِ حتّى يتمّ به الزهد .

فأمّا طولُهُ . . فبالإضافة إلى جملةِ العمر ؛ فإنّ مَنْ يملكُ طعامَ يومِهِ فلا يقنعُ به ، وأمّا عرضه . . ففي مقدارِ الطعامِ وجنسه ووقتِ تناوله .

أمّا طولُهُ : فلا يقصرُ إلا بقصرِ الأملِ ، وأقلُّ درجاتِ الزهدِ فيه الاقتصارُ على قدرِ دفعِ الجوعِ عندَ شدّةِ الجوعِ وخوفِ المرضِ ، ومَنْ هذا حالُهُ فإذا استقلَّ بما تناوله . . لم يدخرْ منْ غدائه لعشائه ، وهذه هي الدرجةُ العليا .

الدرجةُ الثانيةُ : أن يدخرَ لشهرٍ أو لأربعينَ يوماً .

الدرجةُ الثالثةُ : أن يدخرَ لسنةٍ فقط ، وهذه رتبةُ ضعفاءِ الزهاد .

ومَنْ ادخرَ لأكثرَ منْ ذلك . . فتسميته زاهداً محالٌ ؛ لأنّ مَنْ أملَ بقاءَ أكثرَ منْ سنةٍ . . فهو طويلُ الأملِ جداً ، فلا يتمُّ منه الزهدُ إلا إذا لم يكنْ له كسبٌ ، ولم يرضَ لنفسِهِ الأخذَ منْ أيدي الناسِ ؛ كداوودَ الطائيِّ ، فإنه ورثَ عشرينَ ديناراً ، فأمسكها وأنفقها في عشرينَ سنةً^(١) ، فهذا لا يضادُّ أصلَ الزهدِ إلا عندَ مَنْ جعلَ التوكّلَ شرطَ الزهدِ .

وأمّا عرضه . . فبالإضافة إلى المقدارِ : وأقلُّ درجاتِهِ في اليومِ والليلةِ

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية »

نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مد واحد ، وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة ، وما وراء ذلك . . فهو من اتساع البطن والاشتغال به ، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد . . لم يكن له من الزهد في البطن نصيب .

وأما بالإضافة إلى الجنس : فأقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول ، فإذا ميز من النخالة وصار حواري . . فقد دخل في التعم ، وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلاً عن أوائله .

وأما الأدم . . فأقله الملح أو البقل أو الخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان ، وأعلاه اللحم أي لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين ، فإن صار دائماً ، أو أكثر من مرتين في الأسبوع . . خرج من آخر أبواب الزهد ، فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً .

وأما بالإضافة إلى الوقت : فأقله في اليوم واللييلة مرة ، وهو أن يكون صائماً ، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب ، وأعلاه ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه ، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات .

ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم ، قالت

عائشة رضي الله تعالى عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يُوقدُ في بيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مصباحٌ ولا نارٌ ، قيلَ لها : فبِمَ كنتمُ تعيشونَ ؟ قالتُ : بالأسودين ؛ التمرِ والماءِ^(١) . وهذا تركُ اللحمِ والمرقةِ والأدمِ .

وقال الحسنُ : كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يركبُ الحمارَ ، ويلبسُ الصوفَ ، ويتعلُّ المخصوفَ ، ويلعقُ أصابعَهُ ، ويأكلُ على الأرضِ ، ويقولُ : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ »^(٢) .

وقال عيسى عليه السلامُ : (بحقِّ أقولُ لكمُ : إِنَّهُ مَنْ طَلَبَ الْفَرْدَوْسَ فَخَبِرَ الشَّعِيرَ لَهُ وَالنَّوْمَ عَلَى الْمَزَابِلِ مَعَ الْكِلَابِ كَثِيرٌ)^(٣) .

(١) روى ابن ماجه (٤١٤٥) من حديثها رضي الله عنها : لقد كان يأتي على آل محمد صلى الله عليه وسلم الشهر ما يرى في بيت من بيوته الدخان ، قال أبو سلمة : قلت : فما كان طعامهم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء . . . الحديث .

وعند أحمد في « المسند » (٨٦ / ٦) : كان يمر برسول الله صلى الله عليه وسلم هلال وهلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار .

(٢) روى قول الحسن إلى قوله : (ويأكل على الأرض) ابن سعد في « طبقاته » (٣٢٠ / ١) ، والشرط الثاني منه رواه أيضاً ابن سعد في « طبقاته » (٣٢٨ / ١) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٤٩٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧٤ / ٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٩ / ٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٢ / ٤٧) .

وقال الفضيل : (ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر)^(١) .

وكان عيسى عليه السلام يقول : (يا بني إسرائيل ؛ عليكم بالماء القراح ، والبقل البري وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر ؛ فإنكم لن تقوموا بشكره)^(٢) .

وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات ، فلا نعيده .

ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قباء . . أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال : « أما إنني لست أحرّمه ، ولكني أتركه تواضعاً لله تعالى »^(٣) .

وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف ، فقال : (اعزلوا عني حسابها)^(٤) .

وقد قال يحيى بن معاذ الرازي : (الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ،

(١) رواه البخاري (٥٤١٦) ، ومسلم (٢٩٧٠) .

(٢) هو عند مالك في « الموطأ » (٩٣٢ / ٢) بلاغاً عنه عليه السلام .

(٣) قوت القلوب (٢٥٦ / ١) ، وروى الحكيم الترمذي في « نوادره » (٤٢٦ / ٢) نحوه .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) .

المهم الثالث : المسكن :

وللزهد أيضاً فيه ثلاث درجات :

أعلاها : ألا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة .

وأوسطها : أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ؛ مثل كوخ مبني من سعف أو حصن أو ما يشبهه^(١) .

وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية ؛ إما بشراء أو إجارة ، فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ، ولم يكن فيه زينة . . لم يخرجهُ هذا القدر عن آخر درجات الزهد ، فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع . . فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن .

فاختلاف جنس البناء بأن يكون بالجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر ،

(١) الخُصْصُ : البيت من قصب ، وفي (أ) : (الخوص) وهو ورق النخل ، وهذا الوسط كان وصف مسكن الأسوة الحسنة صلى الله عليه وسلم ، إذ لم تكن بيوت أزواجه عليه الصلاة والسلام من حجر أو لبن ، بل كانت من سعف وطين ، روى ابن سعد في « طبقاته » (٤٣٠ / ١) عن عمران بن أبي أنس قال : (أدركت حُجَرَ أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ ، يأمر بإدخال حُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم) .

واختلاف قدره بالسعة والضيق ، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكاً أو مستأجراً أو مستعاراً ، وللزهد مدخل في جميع ذلك .

وبالجملة : كل ما يُراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدَّ الضرورة ، وقدَّر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته ، وما جاوز ذلك فهو مضادٌّ للدين ، والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ، ودفع الأعين والأيدي ، وأقلُّ الدرجات فيه معلومٌ ، وما زاد عليه فهو من الفضول ، والفضول كله من الدنيا ، وطالب الفضول والساعي له بعيدٌ من الزهد جداً .

وقد قيل : أوَّل شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدرُّب والتشييد ، يعني بالتدريز : كفَّ دروز الثياب ؛ فإنَّها كانت تُشَلُّ شلاً^(١) ، والتشييد هو البنيان بالجصِّ والآجر ، وإنَّما كانوا يبنون بالسعف والجريد^(٢) ، وقد جاء في الأثر : (يأتي على الناس زمانٌ

(١) أي : تخاط خياطة خفيفة ، بخلاف الدرز الذي هو التدقيق فيها . روى الحاكم في « المستدرک » (١٩٥ / ٤) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : لبس عمر قميصاً جديداً ثم قال : مدَّ كمي يا بني وألرزق يدك بأطراف أصابعي واقطع ما فضل عنهما ، قال : فقطعت من الكمين ، فصار فم الكمين بعضه فوق بعض ، فقلت : لو سويته بالمقص ، قال : دعه يا بني ، هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، قال ابن عمر : فما زال القميص على أبي حتى تقطع ، وما كنا نصلي حتى رأيت بعض الخيوط تتساقط على قدميه .

(٢) كذا في « القوت » (٢٦٠ / ١) والسياق عنده ، وعند البخاري (٤٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على عهد مبنياً باللبن ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل .

يوشون بنيانهم كما توشى البرود اليمانية^(١) .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها^(٢) ، ومراً عليه الصلاة والسلام بجنبذة معلأة فقال : « لمن هذه » ؟ فقالوا : لفلان ، فلما جاءه الرجل . . أعرض عنه ، فلم يكن يقبل عليه كما كان ، فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم ، فأخبر ، فذهب فهدمها ، فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها ، فأخبر بأنه هدمها ، فدعاه بخير^(٣) .

وقال الحسن : (مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة ، ولا قصبة على قصبة)^(٤) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد شراً . . أهلك ماله في الماء والطين »^(٥) .

(١) كذا في « القوت » (٢٦٠ / ١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٤٢) .

(٣) رواه أبو داود (٥٢٣٧) وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فرأى قبة مشرفة . . الحديث ، والجنبذة : لفظة فارسية معربة ، أصلها : كنبذ ، وهي القبة .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٤ / ٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٤٠) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨٥ / ٢) من حديث جابر رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٣٥) من حديث محمد بن بشير الأنصاري .

وقال عبد الله بن عمرو : مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالجُ خُصّاً ، فقال : « ما هذا ؟ » قلنا : خُصٌّ لنا قد وهى ، فقال : « أرى الأمرَ أعجلَ من ذلك »^(١) .

واتخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصبٍ ، فقيل له : لو بنيت ، فقال : هذا كثيرٌ لمن يموت^(٢) .

وقال الحسن : دخلنا على صفوان بن مُحَرَّرٍ وهو في بيتٍ من قصبٍ قد مالَ عليه ، فقيل له : لو أصلحتَه ، فقال : كم من رجلٍ قد مات وهذا قائمٌ على حاله^(٣) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ بنى فوق ما يكفيه .. كُفِّ أن يحمله يوم القيامة »^(٤) .

وفي الخبر : « كلُّ نفقةٍ يُؤجرُ عليها العبدُ إلا ما أنفقَه في الماء والطين »^(٥) .

(١) رواه أبو داود (٥٢٣٥) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وابن ماجه (٤١٦٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٦٦) .

(٣) بنحوه عند ابن سعد في « طبقاته » (١٤٨/٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٧) .

(٥) رواه بنحوه ابن ماجه (٤١٦٣) ففيه : « إن العبد ليؤجر في نفقته كلها إلا في التراب » أو قال : « في البناء » .

وفي قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ أنه الرئاسة والتطاؤل في البنيان .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ بناءٍ وبِالٍ على صاحبه يومَ القيامةِ إلا ما أكنَّ من حرٍّ وبرٍّ »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكَا إليه ضيقَ منزله : « اتسع في السماء » أي : في الجنة^(٢) .

ونظرَ عمرُ رضي الله عنه في طريقِ الشامِ إلى صرحٍ قد بُنيَ بجصٍّ وأجرٍّ ، فكَبَّرَ وقالَ : (ما كنتُ أظنُّ أن يكونَ في هذهِ الأمةِ منُ يَني بِنِيانَ هَامَانَ لفرعونَ)^(٣) ؛ يعني قولَ فرعونَ : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ ﴾ ؛ يعني بهِ الأجرَ .

ويُقالُ : إنَّ فرعونَ هوَ أوَّلُ منُ بُنيَ لهُ بالجصِّ والأجرِ ، وأوَّلُ منُ عملهُ

(١) كذا في « القوت » (٢٦١ / ١) ، وهو عند أبي داود (٥٢٣٧) في الحديث الذي فيه ذكر القبة المتقدم قريباً ، ولفظه : « أما إن كل بناء وبِال على صاحبه إلا ما لا ، إلا ما لا » ؛ يعني : ما لا بد منه .

(٢) كذا في « القوت » (٢٦١ / ١) ، ورواه ابن شبة في « تاريخ المدينة » (٢٤٤ / ١) عن المغيرة بن عبد الرحمن ، وأبو داود في « المراسيل » (٤٨٩) عن اليسع بن المغيرة ، كلاهما مرسلًا ، ووصله الطبراني في « الكبير » (١١٧ / ٤) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وهو الرجل الذي شكَا ضيقَ مسكنه .

(٣) قوت القلوب (٢٦٠ / ١) .

هامان ، ثم تبعهما الجبابرة ، وهذا هو الزخرف^(١) .

وذكر بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنياً من الجريد والسعف ، ثم رأيت مبنياً من رهوص ، ثم رأيت الآن مبنياً باللبن ، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهوص ، وكان أصحاب الرهوص خيراً من أصحاب اللبن^(٢) .

وكان في السلف من يبنى داره مراراً في مدة عمره لضعف بنائه ، وقصر أمله ، وزهده في إحكام البنيان ، وكان منهم من إذا حج أو غزا . . نزع بيته أو وهبه لجيرانه ، فإذا رجع . . أعاده ، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود ، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن^(٣) .

وكان ارتفاع بناء السلف قامة وبسطة ، قال الحسن : (كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدي إلى السقف)^(٤) .

(١) قوت القلوب (٢٦٠ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٠ / ١) ، والرهوص : جمع رهص ، وهو الطين الذي يبنى به ، يجعل بعضه على بعض .

(٣) قوت القلوب (٢٦٠ / ١) .

(٤) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٤٣١ / ١) ، وفيه : (كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفاها بيدي) ، وقد روى (٤٣٠ / ١) أيضاً في وصف بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أنها من جريد قد طرأت بالطين ، عليها مسوح شعر ، وقول أبي أمامة بن سهل يوم أدخلت في مسجده صلى الله عليه وسلم زمن الوليد : (ليتها تركت فلم تهدم ؛ حتى يقصر الناس عن البناء ، ويروا ما رضي الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الدنيا بيده) ، وقول سعيد بن =

وقال عمرو بن دينار : (إذا عَلَى العبدُ البناءَ فوقَ سِتِّهِ أذرعٍ . . ناداهُ ملكٌ : إلى أينَ يا أفسقَ الفاسقينَ !؟)^(١) .

وقد نهى سفيان عن النظرِ إلى بناءٍ مشيدٍ وقال : لولا نظرُ الناسِ . . لما شيدوه ، فالناظرُ إليه معيّنٌ عليه^(٢) .

وقال الفضيلُ : (إنِّي لا أعجبُ ممَّنْ بنى وترك ، ولكنِّي أعجبُ ممَّنْ نظرَ إليه ولمْ يعتبرْ !)^(٣) .

وقال ابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه : (يأتي قومٌ يرفعونَ الطينَ ، يضعونَ الدينَ ، ويستعملونَ البراذينَ ، يصلُّونَ إلى قبليّكم ، ويموتونَ على غيرِ دينِكُمْ) .



= المسيب : (والله ؛ لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشيء من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، فيكون ذلك مما يزهّد الناس في التكاثر والتفاخر) .

(١) كذا في « القوت » (٢٦٠ / ١) ، وروى أبو نعيم في « الحلية » (٧٥ / ٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع . . ناداه مناد من السماء : أين تذهب يا أفسق الفاسقين !؟ » .

(٢) قال نحوه ليحيى بن يمان كما في « القوت » (٢٦٠ / ١) حين نظر إلى باب مشيد ، فقال له سفيان : لا تنظر إليه ؛ إذا نظرت إليه . . كنت عوناً على بنائه ؛ لأنه إنما بناء لينظر إليه ، ولو كان كل من مر به لم ينظر إليه . . ما عمله .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٣٦٣ / ٩) .

المهمُّ الرابعُ : أثاثُ البيتِ :

وللزهدِ فيه أيضاً درجاتٌ :

أعلاها : حالُ عيسى عليه السلام ؛ إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكوزٌ ،
فرأى إنساناً يمشطُ لحيته بأصابعه ، فرمى المشطَ ، ورأى آخرَ يشربُ منَ
النهرِ بكفيه ، فرمى الكوزَ .

وهذا حكمُ كلِّ أثاثٍ ، فإنه إنما يُرادُ لمقصودٍ ، فإذا استغنى عنه . . فهو
وبال في الدنيا والآخرة ، وما لا يُستغنى عنه فيقتصرُ فيه على أقلِّ
الدرجاتِ ، وهو الخزفُ في كلِّ ما يكفي فيه الخزفُ ، ولا يبالي بأن يكونَ
مكسورَ الطرفِ إذا كان المقصودُ يحصلُ به .

وأوسطُها : أن يكونَ له أثاثٌ بقدرِ الحاجةِ صحيحٌ في نفسه ، لكن
يستعملُ الآلةَ الواحدةَ في مقاصدَ ؛ كالذي معه قصعةٌ يشربُ فيها ، ويأكلُ
الثريدَ فيها ، ويحفظُ المتاعَ فيها ، وكان السلفُ يستحبُّونَ استعمالَ آلةٍ واحدةٍ
في أشياءٍ للتخفيفِ .

وأدناها : أن يكونَ له بعددِ كلِّ حاجةٍ آلةٌ منَ الجنسِ النازلِ الخسيسِ ،
فإن زادَ في العددِ أو في نفاسةِ الجنسِ . . خرجَ عن جميعِ أبوابِ الزهدِ ،
وركنَ إلى طلبِ الفضولِ .

ولينظرُ إلى سيرةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وسيرةِ الصحابةِ
رضي الله عنهم ، فقد قالتْ عائشةُ رضي الله عنها : (كان ضجاعُ رسولِ الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشَوُهَا لَيْفٌ (١) .
 وَقَالَ الْفَضِيلُ : (مَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا عِبَاءَةً
 مَثْنِيَّةً ، وَوَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشَوُهَا لَيْفٌ) (٢) .

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِشَرِيطٍ ، فَجَلَسَ ، فَرَأَى أَثَرَ الشَّرِيطِ
 فِي جَنْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا الَّذِي أَبْكَاكَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ ؟ » قَالَ : ذَكَرْتُ كَسْرِي
 وَقِصْرَ وَمَا هُمَا فِيهِ مِنَ الْمَلِكِ ، وَذَكَرْتُكَ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَحَبِيبُهُ وَصَفِيُّهُ
 نَائِمٌ عَلَى سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِالشَّرِيطِ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَمَا تَرْضَى
 يَا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ ؟ » قَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ :
 « فَذَلِكَ كَذَلِكَ » (٣) .

وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى أَبِي ذَرٍّ ، فَجَعَلَ يَقْلُبُ بَصَرَهُ فِي بَيْتِهِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا
 ذَرٍّ ؛ مَا أَرَى فِي بَيْتِكَ مَتَاعاً وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَثَاثِ ! فَقَالَ : إِنَّ لَنَا بَيْتاً
 نَوَجَّهُ إِلَيْهِ صَالِحَ مَتَاعِنَا ، فَقَالَ : إِنَّهُ لَا بَدَّ لَكَ مِنْ مَتَاعٍ مَا دَمْتَ هَهُنَا ،

(١) رواه البخاري (٦٤٥٦) ، وأبو داود (٤١٤٧) ، والترمذي (١٧٦١) ، وابن ماجه (٤١٥١) ، والضجاع : كالفرش لفظاً ومعنى .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٢٩) بنحوه عن عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

(٣) رواه بنحوه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (٣١/١٤٧٩) ، ويلفظه هنا رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١١٦٣) ، والمرمول : المنسوج ، يقال : أرملته ؛ إذا نسجته بشريط من خوص أوليف .

فَقَالَ : إِنَّ صَاحِبَ الْمَنْزِلِ لَا يَدْعُنَا فِيهِ ^(١) .

وَلَمَّا قَدِمَ عَمِيرُ بْنُ سَعْدٍ أَمِيرُ حَمَصَ عَلَى عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . . قَالَ لَهُ : مَا مَعَكَ مِنَ الدُّنْيَا ؟ فَقَالَ : مَعِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ، وَأَقْتُلُ بِهَا حَيَّةً إِنْ لَقِيتُهَا ، وَمَعِيَ جِرَابِي أَحْمَلُ فِيهِ طَعَامِي ، وَمَعِيَ قَصْعَتِي آكُلُ فِيهَا ، وَأَغْسِلُ فِيهَا رَأْسِي وَثَوْبِي ، وَمَعِيَ مِطْهَرَتِي أَحْمَلُ فِيهَا شِرَابِي وَوَضُوئِي لِلصَّلَاةِ ، فَمَا كَانَ بَعْدَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ تَبِعٌ لِمَا مَعِيَ ، فَقَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : صَدَقْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ ^(٢) .

وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سَفَرٍ ، فَدَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَرَأَى عَلَى بَابِ مَنْزِلِهَا سِتْرًا ، وَفِي يَدَيْهَا قُلْبَيْنِ مِنْ فُضَّةٍ ، فَرَجَعَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو رَافِعٍ وَهِيَ تَبْكِي ، فَأَخْبَرَتْهُ بِرَجُوعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسَأَلَهُ أَبُو رَافِعٍ ، فَقَالَ : « مِنْ أَجْلِ السِّتْرِ وَالسَّوَارِينِ » ، فَأَرْسَلَتْ بِهِمَا بِلَالًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَتْ : قَدْ تَصَدَّقْتُ بِهِمَا ، فَضَعْتُهُمَا حَيْثُ تَرَى ، فَقَالَ : « اذْهَبْ فَبِعْهُ وَادْفَعْهُ إِلَى أَهْلِ الصَّفَّةِ » ، فَبَاعَ الْقُلْبَيْنِ بِدَرَاهِمِينَ وَنَصْفٍ ، وَتَصَدَّقَ بِهِمَا عَلَيْهِمَا ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « بِأَبِي أَنْتَ ، قَدْ أَحْسَنْتَ » ^(٣) .

- (١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٢٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٦٨) .
 (٢) كذا في « القوت » (٢٥٧/١) ، وقد رواه ضمن خبر طويل الطبراني في « الكبير » (٥١/١٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٨/١) .
 (٣) كذا في « القوت » (٢٥٨/١) ، وروى أبو داود (٤٢١٣) عن ثوبان رضي الله عنه =

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة رضي الله عنها سترًا ، فهتكه وقال : « كلما رأيته .. ذكرت الدنيا ، أرسلني به إلى آل فلان » (١) .

وفرشت له عائشة رضي الله عنها ذات ليلة فراشاً جديداً ، وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية ، فما زال يتقلب ليلته ، فلما أصبح .. قال لها : « أعيدي العباءة الخلقة ونحني هذا الفراش عني ، قد أسهرني الليلة » (٢) .

وكذلك أتته دنائير خمسة أو ستة عشاءً فييها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل ، قالت عائشة رضي الله عنها ، فنام حيثئذ حتى سمعت

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر .. كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة ، وأول من يدخل عليها إذا قدم فاطمة ، فقدم من غزاة وقد علقت مسحاً أو سترًا على بابها ، وحلت الحسن والحسين قُلبين من فضة ، فقدم ، فلم يدخل ، فظنت أن ما منعه أن يدخل ما رأى ، فهتكت الستر ، وفككت القلبين عن الصبيين وقطعته بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان ، فأخذه منهما وقال : « يا ثوبان ؛ اذهب بهذا إلى آل فلان - أهل بيت بالمدينة - إن هؤلاء أهل بيتي أكره أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، يا ثوبان ؛ اشتر لفاطمة قلادة عصب وسوارين من عاج » ، والقلب : السوار .

(١) كذا في « القوت » (٢٥٩ / ١) ، ورواه مسلم (٨٨ / ٢١٠٧) من حديثها رضي الله عنها وفيه : « حوّلني هذا ، فلما دخلت فرأيت .. ذكرت الدنيا » ، وعنده (٩١ / ٢١٠٧) : (ثم تناول الستر فهتكه) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٥٩ / ١) ، وهو بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٤٦٣) .

غطيّطه ، ثمّ قال : « ما ظنّ محمد برّبّه لو لقِيَ اللهَ وهذِهِ عنده ؟ » (١) .

وقال الحسن : (أدركتُ سبعينَ مِنَ الأخيارِ ما لأحدِهِم إلا ثوبُهُ ، وما وضعَ أحدُهُم بينَهُ وبينَ الأرضِ ثوباً قطُّ ، كانَ إذا أرادَ النومَ . . باشرَ الأرضَ بجسمِهِ ، وجعلَ ثوبَهُ فوقَهُ) (٢) .



المهمُّ الخامسُ : المنكحُ :

وقد قال قائلون : لا معنى للزهد في أصلِ النكاح ولا في كثرته ، وإليه ذهب سهل بن عبد الله ، وقال : (قد حُبّبَ إلى سيّد الزاهدين النساءُ ، فكيف نزهدُ فيهنَّ) (٣) .

ووافقه على هذا القول ابنُ عيّنة ، وقال : (كانَ أزهدَ الصحابةِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه ، وكانَ لَهُ أربعُ نساءٍ وبضعَ عشرةِ سُرّيّةٍ) (٤) .
والصحيحُ : ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله ، إذ قال : (كلُّ

(١) كذا في « القوت » (٢٥٩ / ١) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٤٩ / ٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه : « يا عائشة ؛ ما فعلتِ الذهب ؟ » فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة ، فجعل يقلبها بيده ويقول : « ما ظن محمد بالله عز وجل لو لقيه وهذه عنده ؟ أنفقها » .

(٢) قوت القلوب (٢٦٧ / ١) .

(٣) قوت القلوب (٢٦٧ / ١) .

(٤) قوت القلوب (٢٦٧ / ١) .

ما شغلكَ عن الله من أهلٍ ومالٍ وولدٍ . . فهو عليك مشؤومٌ ^(١) ، والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله .

وكشف الحق فيه : أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح ، فيكون ترك النكاح من الزهد .

وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة . . فهو واجب ، فكيف يكون من الزهد تركه ؟!

وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا في فعله ، ولكن ترك النكاح احترازاً من ميل القلب إليهن والأنس بهن ؛ بحيث يشتغل عن ذكر الله . . فترك ذلك من الزهد .

وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ، ولكن ترك ذلك احترازاً من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة . . فليس هذا من الزهد أصلاً ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم من القربات ، واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره إذا لم تكن هي المطلب والمقصد ، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازاً من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد في شيء ؛ لأن في ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله .

فلا يجوز أن يترك النكاح زهداً في لذته من غير خوف آفة أخرى ، وهذا

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣ / ٣٦٢) .

ما عناء سهل لا محالة ، ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وإذا ثبت هذا . . فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه
 لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن . . فلا
 معنى لزهديه فيهن حذراً من مجرد لذة الوقاع والنظر ، ولكن أنى يتصور ذلك
 لغير الأنبياء والأولياء ؟ ! فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان ، فيبغي أن يترك
 الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن
 أو جمال المرأة . . فليتكح واحدة غير جميلة ، وليراع قلبه في ذلك .

قال أبو سليمان : (الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة
 على المرأة الجميلة والشريفة)^(١) .

وقال الجنيد رحمه الله : (أحب للمريد المبتدئ ألا يشغل قلبه
 بثلاث ، وإلا . . تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث ، والتزويج)^(٢) .

وقال : (أحب للصوفي ألا يقرأ ولا يكتب ؛ لأنه أجمع لهم)^(٣) .

فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل . . فما يشغل عن الله فهو محذور
 فيهما جميعاً .



(١) قوت القلوب (٢٦٧/١) ، وقال : (وذهب إلى هذا مالك بن دينار) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٧/١) .

(٣) قوت القلوب (٢٦٧/١) .

المهمُّ السادسُ : ما يكونُ وسيلةً إلى هذه الخمسة ، وهو المالُ والجاهُ :

أما الجاهُ : فمعناه ملكُ القلوبِ بطلبِ محلٍّ فيها ؛ ليتوصَّلَ به إلى الاستعانةِ في الأغراضِ والأعمالِ ، وكلُّ مَنْ لا يقدرُ على القيامِ بنفسِهِ في جميعِ حاجاته ، وافتقرَ إلى مَنْ يخدمُهُ . . افتقرَ إلى جاهٍ - لا محالة - في قلبِ خادمِهِ ؛ لأنَّهُ إن لم يكنْ له عندهُ محلٌّ وقدرٌ . . لم يقمَ بخدمتِهِ ، وقيامُ القدرِ والمحلِّ في القلوبِ هو الجاهُ .

وهذا له أوَّلُ قريبٌ ، ولكن يتمادى به إلى هاويةٍ لا عمقَ لها ، ومَنْ حامَ حولَ الحمى . . يوشكُ أن يقعَ فيه ، وإنَّما يحتاجُ إلى المحلِّ في القلوبِ إمَّا لجلبِ نفعٍ ، أو لدفعِ ضررٍ ، أو لخلاصٍ مِنْ ظلمٍ .

فأما النفعُ . . فيعني عنه المالُ ، فإنَّ مَنْ يخدمُ بأجرةٍ يخدمُ وإن لم يكنْ للمستأجرِ عندهُ قدرٌ ، وإنَّما يُحتاجُ إلى الجاهِ في قلبِ مَنْ يخدمُ بغيرِ أجرٍ .

وأما دفعُ الضررِ . . فيحتاجُ لأجلِهِ إلى الجاهِ في بلدةٍ لا يكملُ العدلُ فيها ، أو أن يكونَ بينَ جيرانٍ يظلمونهُ ولا يقدرُ على دفعِ شرِّهم إلا بمحلٍّ له في القلوبِ ، أو محلٍّ له عندَ السلطانِ ، وقدرُ الحاجةِ فيه لا ينضبُ ، لا سيما إذا انضمَّ إليه الخوفُ وسوءُ الظنِّ بالعواقبِ .

والخائضُ في طلبِ الجاهِ سالكُ طريقِ الهلاكِ ، بل حقُّ الزاهدِ ألا يسعى لطلبِ المحلِّ في القلوبِ أصلاً ، فإنَّ اشتغاله بالدينِ والعبادةِ يمهدُ له مِنْ المحلِّ في القلوبِ ما يدفعُ به عنه الأذى ولو كانَ بينَ الكفارِ ، فكيفَ بينَ

المسلمين ؟! فأما التوهّمات والتقديرات التي تحوجُ إلى زيادة في الجاهِ على الحاصلِ بغيرِ كسبٍ . . فهي أوهامٌ كاذبةٌ ؛ إذ مَنْ طلبَ الجاهَ أيضاً لم يخلُ عن أذى في بعضِ الأحوالِ ، فعلاجُ ذلك بالاحتمالِ والصبرِ أولى من علاجه بطلبِ الجاهِ .

فإذا ؛ طلبُ المحلِّ في القلوبِ لا رخصةَ فيه أصلاً ، واليسيرُ منه داعٍ إلى الكثيرِ ، وضراوتهُ أشدُّ من ضراوةِ الخمرِ ، فليحترزْ من قليله وكثيره .

وأما المالُ : فهو ضروريٌّ في المعيشةِ ؛ أعني القليلُ منه ، فإن كان كسوباً ؛ فإذا اكتسبَ حاجةَ يومِهِ . . فينبغي أن يتركَ الكسبَ ، كان بعضهم إذا اكتسبَ حبّتين . . رفعَ سفطه وقام . هذا شرطُ الزهدِ .

فإن جاوزَ ذلك إلى ما يكفيه أكثرُ من سنة . . فقد خرجَ عن حدِّ ضعفاءِ الزهادِ وأقويائهم جميعاً ، وإن كانت له ضيعةٌ ولم يكن له قوّةٌ يقينٍ في التوكّلِ ، فأمسكْ منها مقدارَ ما يكفي ريعه لسنة واحدة . . فلا يخرجُ بهذا القدرِ عن الزهدِ ، بشرطِ أن يتصدّقَ بكلِّ ما يفضلُ عن كفايةِ سنتِهِ ، ولكن يكونُ من ضعفاءِ الزهادِ ؛ فإن شرطَ التوكّلِ في الزهدِ كما شرطه أويسُ القرنِيُّ رحمه الله . . فلا يكونُ هذا من الزهادِ ، وقولنا : (إنّه خرجَ من حدِّ الزهادِ) نعني به : أن ما وُعدَ للزاهدين في الدارِ الآخرةِ من المقاماتِ المحمودَةِ لا ينالُهُ ، وإلا . . فاسمُ الزهدِ قد لا يفارقهُ بالإضافةِ إلى ما زُهدَ فيه من الفضولِ والكثرةِ .

وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : (لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد ، بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا ، وإلا . . تركهم وفعل بنفسه ما شاء) ؛ معناه : أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله ، نعم ، لا ينبغي أن يجيهم أيضاً فيما يخرج عن حد الاعتدال ، وليتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انصرف من بيت فاطمة رضي الله عنها بسبب ستر وقلبين ؛ لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة .

فإذا ؛ ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل ، والاقتصار على قدر الضرورة دواء نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًا قاتلاً . . فهو مضر ، وما يقرب من الضرورة . . فهو وإن لم يكن دواءً نافعاً ولكنه قليل الضرر ، والسم محظور شره ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشبهة أمره ، فمن احتاط . . فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل . . فإنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه ، وترك ما يريه إلى ما لا يريه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة . . فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لا محالة .

والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين ؛ لأنه شرط الدين ، والشرط من جملة المشروط ، ويدل عليه ما روي أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته

حاجةً ، فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً ، فلم يقرضه ، فرجع
مهموماً ، فأوحى الله تعالى إليه : لو سألت خليلك .. لأعطاك ، فقال :
يا ربُّ ؛ عرفتُ مقتكَ للدنيا ، فخفتُ أن أسألكَ منها شيئاً ، فأوحى الله
تعالى إليه : ليس الحاجة من الدنيا^(١) .

فإذا ؛ قدرُ الحاجة من الدين ، وما وراء ذلك وبال في الآخرة ، وهو في
الدنيا أيضاً كذلك ، يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء ، وما عليهم من المحنة
في كسب المال وجميعه وحفظه واحتمال الذل فيه ، وغاية سعادته به أن يُسلمَ
لورثته فيأكلونه وربما يكونون أعداء له ، وقد يستعينون به على المعصية ،
فيكون هو معيناً لهم عليها .

ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القُر ، لا يزال ينسج على
نفسه حتى يفتلها ، ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصاً ، فيموت ويهلك
بسبب عمله الذي عمله بنفسه ، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما
يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهي ، حتى تتظاهر عليه السلاسل ،
فيقيده المال ، والجاه ، والأهل ، والولد ، وشماته الأعداء ، ومראה
الأصدقاء ، وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه ، فقصد
الخروج من الدنيا . لم يقدر عليه ، ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال
لا يقدر على قطعها ، ولو ترك محبوباً من محابه باختياره .. كاد أن يكون

(١) قوت القلوب (١/٢٤٥) .

قاتلاً لنفسه ، وساعياً في هلاكه ، إلى أن يفرّق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة ، فتبقى السلاسل من قلبه معلقةً بالدنيا التي فاتته وخلفها ، فهي تجاذبه إلى الدنيا ، ومخالب ملك الموت قد علقّت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة ، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص يُنشر بالمنشار ، ويُفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين ، والذي يُنشر بالمنشار إنما ينزل الألم بيده ، ويألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره ، فما ظنك بألم يتمكّن أولاً من صميم القلب ، مخصوصاً به لا بطريق السراية إليه من غيره ؟!

فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين ، وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يُحجب عن لقاء الله تعالى ، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم ؛ إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ، فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب ، وألم الحجاب كافٍ من غير علاوة النار ، فكيف إذا أُضيفت العلاوة إليه ؟! فنسأل الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا ما نُفث في رُوع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له : « أحب ما أحبت فإنك مفارقُهُ » (١) .

(١) كذا في النسخ : « أحب ما » ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) بلفظ : « أحب من » .

وفي معنى ما ذكرناه من المثل قول الشاعر^(١) :

كَدُودٌ كَدُودِ الْقَرْزِ يَنْسُجُ دَائِمًا وَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطًا هُوَ نَاسِجُهُ
ولمَّا انكشف لأولياء الله تعالى أنَّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى
نفسه إهلاك دود القَرْزِ نفسه.. رفضوا الدنيا بالكلية ، حتَّى قال الحسن :
(رأيت سبعين بدرية كانوا فيما أحلَّ الله لهم أزهد منكم فيما حرَّم الله
عليكم) ، وفي لفظ آخر : (كانوا بالبلاء أشدَّ فرحاً منكم بالخصب
والرخاء ، لو رأيتموهم.. قلتُم : مجانين ، ولو رأوا خياركم.. قالوا :
ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم.. قالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم
الحساب ، وكان أحدُّهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ، ويقول :
أخاف أن يفسد عليَّ قلبي)^(٢) .

فمن كان له قلب فهو - لا محالة - يخاف من فسادِهِ ، والذين أمارت حبُّ
الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ، فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم
العلم .

(١) البيت لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص ٤١٧) ، وكدود : فعول من الكد ، وهو
التعب .

(٢) كذا في « القوت » (٢٥٥ / ١) ، وينحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٣٤ / ٢) .

ولذلك قال رجلٌ لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك ،
فقال : أخرج مالك والحقني ، فقال : لا أستطيع ، فقال عليه السلام :
بعجبٍ يدخلُ الغنيُّ الجنةَ ، أو قال : بشدة^(١) .

وقال بعضهم : ما من يومٍ ذرٌّ شارقه إلا وأربعة أملاكٍ ينادون في الآفاق
بأربعة أصواتٍ ؛ ملكانٍ بالشرق ، وملكانٍ بالمغرب ، يقولُ أحدهمُ
بالشرق : يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشرِّ أقصر ، ويقولُ الآخرُ :
اللهم ؛ أعطِ منفقاً خلفاً ، وأعطِ ممسكاً تلفاً ، ويقولُ أحدُ اللذين في
المغرب : لدوا للموتِ وابنوا للخرابِ ، ويقولُ الآخرُ : كلوا وتمتعوا لطولِ
الحسابِ^(٢) .



- (١) قوت القلوب (٢٥٦/١) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٨) بنحوه .
(٢) كذا في « القوت » (٢٦٢/١) ، وعند البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) عن
أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يتزلان ،
فيقول أحدهما : اللهم ؛ أعطِ منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم ؛ أعطِ ممسكاً
تلفاً » ، وروى أبو الشيخ في « العظمة » (٥١٧) نحو هذا وزاد : « وملك بباب آخر
ينادي : يا أيها الناس ؛ هلموا إلى ربكم ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، وملك
بباب آخر ينادي : يا بني آدم ؛ لدوا للموت وابنوا للخراب » .

بيان علامات الزهد

اعلم : أنه قد يُظنُّ أنَّ تارك المال زاهدٌ ، وليس كذلك ، فإنَّ ترك المال وإظهار الخشونة سهلٌ على مَنْ أحبَّ المدحَ بالزهد ، فكم من الرهابين^(١) مَنْ ردُّوا أنفسهم كلَّ يومٍ إلى قَدْرِ يسيرٍ من الطعام ، ولازموا ديراً لا بابَ له ، وإنما سرَّةُ أحدهم معرفةُ الناسِ حالَهُ ونظرُهُم إليه ومدحُهُم له ، فذلك لا يدلُّ على الزهدِ دلالةً قاطعةً ، بل لا بدَّ من الزهدِ في المالِ والجاهِ جميعاً ؛ حتَّى يكملَ الزهدُ في جميعِ حظوظِ النفسِ مِنَ الدنيا .

بل قد يدَّعي جماعةُ الزهدِ مع لبسِ الأصوافِ الفاخرةِ والثيابِ الرفيعةِ ، كما قال الخوَّاصُ في وصفِ المدَّعينِ إذ قالَ : (وقومٌ ادَّعَوْا الزهدَ ، ولبسوا الفاخرَ مِنَ اللباسِ ، يموِّهونَ بذلكَ على الناسِ ليُهدى إليهم مثلُ لباسِهِمْ ، لئلا يُنظرَ إليهم بالعينِ التي يُنظرُ بها إلى الفقراءِ فيُحتقروا ، فيُعطوا كما تُعطى المساكينُ ، ويحتجُّونَ لنفوسِهِمْ باتباعِ العلمِ^(٢) ، وأنَّهُمْ على السنَّةِ ، وأنَّ الأشياءَ داخلَةٌ عليهم وهم خارجونَ منها ، وإنما يأخذونَ بعلَّةِ غيرِهِمْ ، هذا إذا طُلبوا بالحقائقِ وأُلجُّوا إلى المضايقِ ، وكلُّ هؤلاءِ أكلةُ الدنيا بالدينِ ، لم يُعنوا بتصفيةِ أسرارِهِمْ ، ولا بتهديبِ أخلاقِ نفوسِهِمْ ،

(١) رهابين : جمع رهبان ، ورهبان لفظ يطلق على الواحد والجمع .

(٢) في « القوت » (١ / ٢٦٠) : (باتساع العلم) .

فظهرت عليهم صفاتهم ، فغلبتهم ، فادعوها حالاً لهم ، منهم مائلون إلى الدنيا ، متبعون للهوى) ، فهذا كله كلام الخواص رحمهم الله (١) .
 فإذا ؛ معرفة الزهد أمرٌ مشكلٌ ، بل حال الزاهد على الزاهد مشكلٌ (٢) ،
 وينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأولى : ألا يفرح بوجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، بل ينبغي أن يكون بالصد من ذلك ، وهو أن يحزن بوجود المال ، ويفرح بفقده .

والعلامة الثانية : أن يستوي عنده ذامه ومادحه ، فالأول علامة الزهد في المال ، والثاني علامة الزهد في الجاه (٣) .

(١) حكاه في كتابه « شرف الفقراء » الذي سبقت الإشارة إليه ، ونقله عنه صاحب « القوت » (٢٦٠ / ١) ، وقال : (وكان الخواص رحمهم الله تعالى لا يلبس أكثر من قطعتين ؛ إزارين ، وقميص ومئزر تحته ، يعطف ذيل قميصه على رأسه ، ويغطي به رأسه ، وكذلك استحب للفقير هذا اللباس) .

(٢) في (ق) : (وحال الزهد على الزاهد مشكل) .

(٣) وقد روى البيهقي في « الشعب » (١٠٢٨٩) عن يونس بن ميسرة الجبلائي : (ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في يدك ، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء ، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء) .

والعلامة الثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة ، إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة ؛ إمّا محبة الدنيا ، وإمّا محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح ، فالماء إذا دخل .. خرج الهواء ، ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله .. اشتغل به ولم يشتغل بغيره .

ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال : إلى الأنس بالله^(١) .

فأمّا الأنس بالدنيا وبالله .. فلا يجتمعان ، وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلّق الإيمان بظاهر القلب .. أحبّ الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما ، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره .. أبغض الدنيا ، فلم ينظر إليها ، ولم يعمل لها^(٢) .

ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام : (اللهم ؛ إنني أسألك إيماناً مباشراً قلبي)^(٣) .

وقال أبو سليمان : (من شغل بنفسه .. شغل عن الناس ، وهذا مقام

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٩٢ / ٨) ، والسائل هو مضاء بن عيسى ، والمجيب هو سباع الموصلي .

(٢) قوت القلوب (٢٧٠ / ١) .

(٣) قاله عليه السلام لما أهبط إلى الأرض ؛ كما روى ذلك الطبراني في « الأوسط » (٥٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

العاملين ، وَمَنْ شُغِلَ بِرَبِّهِ . . شُغِلَ عَنْ نَفْسِهِ ، وهذا مقامُ العارفين (١) ،
والزاهد لا بدَّ وأن يكونَ في أحدِ هذينِ المقامينِ ، ومقامُهُ الأوَّلُ : أن يشغلَ
نفسَهُ بنفسِهِ ، وعندَ ذلكَ يستوي عندَهُ الذمُّ والمدحُ والوجودُ والعدمُ .
ولا يُستدلُّ بإمساكِه قليلاً مِنَ المالِ على فَقْدِ زهدهِ أصلاً .

قَالَ ابْنُ أَبِي الْحوَارِي : قُلْتُ لِأَبِي سَلِيمَانَ : أَكَانَ دَاوُودُ الطَّائِي زَاهِداً ؟
قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : قَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ وَرِثَ عَنْ أَبِيهِ عَشْرِينَ دِينَاراً ، فَأَنْفَقَهَا فِي
عَشْرِينَ سَنَةً ، فَكَيْفَ كَانَ زَاهِداً وَهُوَ يَمْسِكُ الدَّنَانِيرَ ؟ فَقَالَ : أَرَدْتَ مِنْهُ أَنْ
يَبْلُغَ حَقِيقَةَ الزَّهْدِ ؟ ! (٢)

وَأَرَادَ بِالْحَقِيقَةِ الْغَايَةَ ؛ فَإِنَّ الزَّهْدَ لَيْسَ لَهُ غَايَةٌ ؛ لكَثْرَةِ صِفَاتِ النَّفْسِ ،
وَلَا يَتِمُّ الزَّهْدُ إِلَّا بِالزَّهْدِ فِي جَمِيعِهَا ، فَكُلُّ مَنْ تَرَكَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً مَعَ الْقُدْرَةِ
عَلَيْهِ خَوْفاً عَلَى قَلْبِهِ وَعَلَى دِينِهِ . . فَلَهُ مَدْخَلٌ فِي الزَّهْدِ بِقَدْرِ مَا تَرَكَهُ ، وَآخِرُهُ
أَنْ يَتَرَكَ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ ، حَتَّى لَا يَتَوَسَّدَ حَجَراً ؛ كَمَا فَعَلَهُ عِيسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ (٣) .

(١) قوت القلوب (١/ ٢٧٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٧٠) ، وهذا أيضاً يقال فيه : هو على مذهب من يشرط التوكل في
الزهد ، ورواية أنه ورث عن أبيه . . رواها القشيري في « رسالته » (ص ٥٩) ، وعند
أبي نعيم في « الحلية » (٣٤٧ / ٧) : (ورث عن أبيه دنانير ، فكان ينفق فيها حتى كفَّ
بآخرها) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) .

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيباً وإن قلّ ، فإن أمثالنا لا يستجريء
على الطمع في غاياته ، وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه ، وإذا
لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا . . علمنا أن الله تعالى لا يتعاضده شيء ،
فلا بُدّ في أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكل كمال^(١) .



فاذا ؛ علامة الزهد : استواء الغنى والفقر ، والعز والذلّ ، والمدح
والذمّ ، وذلك لغلبة الأنس بالله ، ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى
لا محالة ، مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها^(٢) .

وقيل : (علامته : أن يترك الدنيا كما هي ، ولا يقول : أبني رباطاً ، أو
أعمر مسجداً)^(٣) .

وقال يحيى بن معاذ : (علامة الزهد : السخاء بالموجود)^(٤) .

وقال ابن خفيف : (علامته : وجود الراحة في الخروج من الملك)^(٥) .

(١) فما لا يدرك كله لا يترك كله ، ومن فاته من الكمال وبه لا يفوته طله . « إتحاف »
(٣٧٤ / ٩) .

(٢) قاله أبو عثمان المغربي كما هو عند القشيري في « رسالته » (ص ٢١٩) .

(٣) وهو قول الأستاذ أبي علي الدقاق كما هو عند القشيري في « رسالته » (ص ٢١٩) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٢١٩) ، وفيها : (الزهد يورث السخاء بالملك ، والحب يورث
السخاء بالروح) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٠) .

وقال أيضاً : (الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف)^(١) .

وقال أبو سليمان : (الصوف علم من أعلام الزهد ، فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم)^(٢) .

وقال أحمد ابن حنبل وسفيان : (علامة الزهد : قصر الأمل)^(٣) .

وقال سري : (لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه)^(٤) .

وقال النصرabadي : (الزاهد غريب في الدنيا ، والعارف غريب في الآخرة)^(٥) .

وقال يحيى بن معاذ : (علامة الزهد ثلاث : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رئاسة)^(٦) .

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٠) دون نسبة .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٠) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٠) ، والقول لهما ولعيسى بن يونس وغيرهم .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٢٢١) ، وفي هذا المعنى روى البيهقي في « الزهد الكبير »

(٤٢٩) أنه قيل للجنيد : ما تقول في رجل ما بقي عليه من الدنيا غير مصّ النوى ، هل

بقي عليه من الدنيا شيء ؟ قال : نعم ، هكذا علمنا نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن

المكاتب عبد ما بقي عليه درهم » . وهذا بخلاف العارف الذي لا شغل له عن الله

تعالى ، فإذا اشتغل بنفسه . . لم تطب نفسه .

(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٠) .

(٦) الرسالة القشيرية (ص ٢٢١) .

وقال أيضاً : (الزاهد يسعطك الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر)^(١) .

وقال له رجل : متى أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزهد ، وأقعد مع الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام . لم تضعف في نفسك ، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة . فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ، ثم لا آمن عليك أن تفتضح^(٢) .

وقال أيضاً : (الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها ، والزاهد فيها يسخم وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها)^(٣) .

وقال السري : (مارست كل شيء من أمر الزهد ، فنلت منه ما أريد ، إلا الزهد في الناس ، فإني لم أبلغه ولم أطقه)^(٤) .

وقال الفضيل رحمه الله : (جعل الله الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٢١) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٢) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٢) ، وبعضه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠ / ٥٣) بزيادة أخرى .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٣) .

حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا^(١) .
فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه ، وإذا كان الزهد
لا يتم إلا بالتوكل . . فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .



تم كتاب الفقه والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

بمباركة منته ، وحسن توفيقه ، وجميل صنعه ، ولطيف كفايته

وصلاته على سيد المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين

يتلوه كتاب التوحيد والتوكل

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٣) ، وبه ختم باب الزهد ، وعقد الحافظ الزبيدي
في « إتحافه » (٣٧٦ / ٩) فصلاً فيها تفصيل لما أجمله المصنف رحمه الله تعالى .

كِتَابُ

التَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ

وهو الكتاب الخامس من ربيع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب التوحيد والتوكل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المدبّر للملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، الرافع للسماء بغير عماد ، المقدر فيها أرزاق العباد ، الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه ، والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إيّاه ، علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحققاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يُتغنى عندهم الرزق ، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة إلى على الله رزقها ، فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيلاً . . توكلوا عليه وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

والصلاة على محمدٍ قانع الأباطيل ، الهادي إلى سواء السبيل ، وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيراً .

أما بعد :

فإن التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالي درجات المقرّبين ، وهو في نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل .

ووجه غموضه من حيث الفهم : أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها
 شرك في التوحيد ، والثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع ،
 والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير في وجه العقل ،
 وانغماس في غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه
 مقتضى التوحيد والعقل والشرع في غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على
 كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء ، الذين اكتحلوا من
 فضل الله تعالى بأنوار الحقائق ، فأبصروا وتحققوا ، ثم نطقوا بالإعراب عما
 شاهدوه من حيث استنطقوا .

ونحن الآن نبتدئ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقديم ، ثم نردفه
 بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر
 الثاني .



بيان فضيلة التوكل

أَمَّا مِنَ الْآيَاتِ :

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وَأَعْظَمَ بِمَقَامِ مَوْسَى بِمَحَبَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ صَاحِبُهُ ، وَمُضْمُونِ بِكَفَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَلَابِسُهُ ، فَمَنْ اللَّهُ تَعَالَى حَسْبُهُ وَكَافِيهِ ، وَمَحَبَّةُ وَمِرَاعِيهِ . . فَقَدْ فَازَ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ ؛ فَإِنَّ الْمَحْبُوبَ لَا يُعَذِّبُ ، وَلَا يُبْعَدُ وَلَا يُحْجَبُ .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ، فَطَالِبُ الْكَفَايَةِ مِنْ غَيْرِهِ هُوَ التَّارِكُ لِلتَّوَكُّلِ ، وَهُوَ الْمَكْذُوبُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ فَإِنَّهُ سَوَّالٌ فِي مَعْرَضِ اسْتِنطَاقِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : عَزِيزٌ لَا يَذُلُّ مَنْ اسْتَجَارَ بِهِ ، وَلَا يَضِيعُ مَنْ لَازَ بِجَنَابِهِ وَالتَّجَأَ إِلَى ذِمَارِهِ وَحِمَاهُ ، وَحَكِيمٌ لَا يَقْصُرُ عَنْ تَدْبِيرِ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى تَدْبِيرِهِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ﴾ ، بَيَّنَّ

أَنْ كُلَّ مَا سَوَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدٌ مَسْحُورٌ ، حَاجَتُهُ مِثْلُ حَاجَتِكُمْ ، فَكَيْفَ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ ؟ !

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ .

وَكُلُّ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّوْحِيدِ فَهُوَ تَنْبِيهُ عَلَى قَطْعِ الْمَلاحِظَةِ عَنِ الْأَغْيَارِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .



وَأَمَّا الْأَخْبَارُ :

فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ : « أُرِيتُ الْأُمَمَ بِالْمَوْسِمِ ، فَرَأَيْتُ أُمَّتِي قَدْ مَلَأُوا السَّهْلَ وَالْجِبَلَ ، فَأَعْجَبَنِي كَثَرَتُهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ ، فَقِيلَ لِي : أَرْضَيْتَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قِيلَ : وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، قِيلَ : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ، فَقَامَ عَكَاشَةً وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ ؛ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ » ، فَقَامَ آخِرُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ ادْعُ اللَّهَ

أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةٌ » ^(١) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . .

لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا » ^(٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا . . كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ

مُؤْنَةٍ ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا . . وَكَلَهُ اللَّهُ

إِلَيْهَا » ^(٣) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ . . فَلْيَكُنْ

بِمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ » ^(٤) .

وَيُرَوَّى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَصَابَ أَهْلَهُ

خِصَاصَةً . . قَالَ : « قَوْمُوا إِلَى الصَّلَاةِ » ، وَيَقُولُ : « بِهِذَا أَمَرَنِي رَبِّي عِزًّا

وَجَلًّا ، قَالَ عِزًّا وَجَلًّا : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا . . . ﴾ « الْآيَةُ ^(٥) .

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٣٥٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٤) ، وهو

عند البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٣٨٣) ، و« الصغير » (١١٦ / ١) ، والبيهقي في

« الشعب » (١٠٤٤) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرک » (٢٧١ / ٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٨ / ٣) ،

والقضاعي في « مستند الشهاب » (٣٦٧) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٦ / ٨) ،

والبيهقي في « الشعب » (٢٩١١) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : (كان النبي

إذا نزل بأهله الضيق . . أمرهم بالصلاة ثم قرأ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لم يتوكل من استرقى واكتوى »^(١) ورُوي أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رُمي به إلى النار بالمنجنيق : ألك حاجة ؟ قال : أمّا إليك . . فلا . وفاء بقوله : حسبي الله ونعم الوكيل ؛ إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾^(٢) .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : (يا داوود ؛ ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيد السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ . . إلا جعلت له مخرجاً)^(٣) .



وأما الآثار :

فقد قال سعيد بن جبير : (لدغني عقرب ، فأقسمت عليّ أمي لتسترقين ، فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ)^(٤) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٥١ / ٤) واللفظ له ، والترمذي (٢٠٥٥) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٧٥٦١) ، وابن ماجه (٣٤٨٩) .

(٢) كذا في القوت (٢٢٩ / ١) ، وأما قوله عليه السلام حين ألقى في النار : (حسبي الله ونعم الوكيل) . . فقد رواه البخاري (٤٥٦٤) ، وخبره مع جبريل عليه السلام رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (٦٠ / ١٧ / ١٠) .

(٣) رواه تمام في « فوائده » (١٧٠٠) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٥ / ٤) ، وزاد : (وكرهت أن أحثها) .

وقرأ الخواصُّ قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ إلى آخرها ، فقال : (ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله عز وجل^(١) .

وقيل لبعض العلماء في منامه : (مَنْ وثق بالله تعالى .. فقد أحرز قوته)^(٢) .

وقال بعض العلماء : (لا يشغلنك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ، ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك)^(٣) .

وقال يحيى بن معاذ : (في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمورٌ بطلب العبد)^(٤) .

وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لي : ليس هذا العلم عندي ، ولكن سل ربِّي من أين يطعمني^(٥) .

وقال هرم بن حيَّان لأويس القرني : أين تأمرني أن أكون ؟ فأوماً إلى

(١) الخواص هو سليمان أبو أيوب ، انظر خبره هذا في « مختصر تاريخ دمشق » (١٩٦ / ١٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٠ / ٩) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٣٨٩ / ٩) .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٣٨٩ / ٩) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٣٨٩ / ٩) .

الشام ، فقال هرمٌ : كيف المعيشةُ بها ؟ قال أويسٌ : أفُّ لهذه القلوبِ ! قد خالطها الشكُّ فما تنفعُها الموعظةُ^(١) .

وقال بعضهم : (متى رضيتَ باللهِ وكيلاً .. وجدتَ إلى كلِّ خيرٍ سبيلاً) ، نسألُ اللهَ تعالى حسنَ الأدبِ .



(١) رَوَاهُ الْخَلَالُ فِي « الْحَثِّ عَلَى التَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالْعَمَلِ » (١٢٨) وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ هَرَمًا ، وَلَقَاءَ هَرَمٍ بِأُوَيْسٍ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٤٠٦ / ٣) .

الشَّطْرُ الْأَوَّلُ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل

اعلم : أنَّ التوكلَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، وجميعُ أبوابِ الإيمانِ لا تتنظمُ إلا بعلمٍ وحالٍ وعملٍ ، والتوكلُ كذلكَ ينتظمُ مِنْ علمٍ هو الأصلُ ، وعملٍ هو الثمرةُ ، وحالٍ هو المرادُ باسمِ التوكلِ .

فلنبداً ببيانِ العلمِ الذي هو الأصلُ ، وهو المسمَّى إيماناً في أصلِ اللسانِ ؛ إذ الإيمانُ هو التصديقُ ، وكلُّ تصديقٍ بالقلبِ فهو علمٌ ، وإذا قويَّ . . سُمِّيَ يقيناً ، ولكنْ أبوابُ اليقينِ كثيرةٌ ، ونحنُ إنما نحتاجُ منها إلى ما يُبنى عليه التوكلُ ؛ وهو التوحيدُ الذي يترجمُهُ قولُكَ : (لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لَهُ) ، والإيمانُ بالقدرةِ التي يترجمُها قولُكَ : (لَهُ الملكُ) ، والإيمانُ بالجودِ والحكمةِ الذي يدلُّ عليه قولُكَ : (وَلَهُ الحمدُ) .

فَمَنْ قَالَ : (لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لَهُ ، لَهُ الملكُ ، وَلَهُ الحمدُ ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ) . . تَمَّ لَهُ الإيمانُ الذي هو أصلُ التوكلِ ؛ أعني : أن يصيرَ معنى هذا القولِ وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه .



فأمَّا التوحيدُ . . فهو الأصلُ ، والقولُ فيه طویلٌ ، وهو مِنْ علمِ المكاشفةِ ، ولكنْ بعضُ علومِ المكاشفاتِ تتعلَّقُ بالأعمالِ بواسطةِ

الأحوال^(١) ، ولا يتم علمُ المعاملةِ إلا بها ، فإذا ؛ لا نتعرضُ إلا للقدرِ الذي يتعلّقُ بالمعاملةِ ، وإلا . . فالتوحيدُ هو البحرُ الخضمُّ الذي لا ساحلَ له ، فنقولُ :

للتوحيدِ أربعُ مراتبَ ، وهو ينقسمُ إلى لبٍّ ، ولبِّ اللبِّ ، وإلى قشرٍ ، وقشرِ القشرِ ، ولنمثِّلُ ذلكَ تقريباً إلى الأفهامِ الضعيفةِ بالجوزِ في قشرتهِ العليا ، فإنَّ له قشريّين ، وله لبٌّ ، وللبِّ دهنٌ هو لبُّ اللبِّ .



فالمرتبةُ الأولى من التوحيدِ : أن يقولَ الإنسانُ بلسانهِ : (لا إلهَ إلا الله) وقلبهُ غافلٌ عنه ، أو منكرٌ له ؛ كتوحيدِ المنافقينِ .

والثانيةُ : أن يصدّقَ بمعنى اللفظِ قلبه ، كما صدّقَ به عمومُ المسلمين ، وهو اعتقاد^(٢) .

والثالثةُ : أن يشاهدَ ذلكَ بطريقِ الكشفِ بواسطةِ نورِ الحقِّ ، وهو مقامُ المقرّبينَ ، وذلكَ بأن يرى أشياء كثيرةً ، ولكن يراها على كثرتها صادرةً عن الواحدِ القهارِ .

والرابعةُ : ألا يرى في الوجودِ إلا واحداً ، وهو مشاهدةُ الصديقينَ ،

(١) فإن الأحوال هي التي تثمر الأعمال ، وهي مواجيد القلوب . « إتحاف » (٣٩٠ / ٩) .

(٢) كذا في جميع النسخ : (وهو اعتقاد) ، وهو الصحيح ، وسيأتي قريباً قوله : (وأما الثاني وهو الاعتقاد . . فهو موجود في عموم المسلمين) .

وتسميه الصوفيّة الفناء في التوحيد ؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالواحد . . . كان فانياً عن نفسه في توحيدِهِ ، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق^(١) .



فالأوّل : موحدٌ بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان .

والثاني : موحدٌ بمعنى أنه معتقدٌ بقلبه مفهوم لفظه ، وقلبه خالٍ عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفتاح ، ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة إن توفّي عليها ولم تضعف بالمعاصي عقده ، ولهذا العقد حيلٌ يُقصدُ بها تضعيفه وتحليله تُسمّى بدعة ، وله حيلٌ يُقصدُ بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويُقصدُ بها أيضاً إحكام هذه العقدة وشدّها على القلب وتُسمّى كلاماً ، والعارف به يُسمّى متكلماً ، وهو في مقابلة المبتدع^(٢) ، ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يُخصّ المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتّى لا تنحل عقده .

والثالث : موحدٌ بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً ؛ إذ قد انكشف له

(١) وعن الخلق من باب أولى .

(٢) وعليه : فاصطلاح (المتكلم) عند المصنف مقتصر على أهل الحق ، ولا مشاحة في الاصطلاح .

الحقُّ كما هو عليه^(١) ، ولا فاعلَ بالحقيقة إلا واحدٌ ، وقد انكشفتَ له الحقيقة كما هي عليه ، لا أنه كلفَ قلبه أن يعقدَ على مفهوم لفظ الحقيقة^(٢) ؛ فإنَّ ذلك رتبة العوامِّ والمتكلمين ؛ إذ لم يفارق المتكلم العامِّي في الاعتقاد ، بل في صنعة تليقِ الكلام الذي به يدفع حيلَ المبتدع في تحليل هذه العقدة .

والرابعُ : موحدٌ بمعنى أنه لم يحضُر في شهوده غيرُ الواحد ، فلا يرى الكلَّ من حيثُ إنه كثيرٌ ، بل من حيثُ إنه واحدٌ ، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد .



فالأوَّلُ كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللبِّ ، والرابع كالدهن المستخرج من اللبِّ .

وكما أنَّ القشرة العليا من الجوز لا خيرَ فيها ، بل إن أُكلَ .. فهو مرُّ المذاقِ ، وإن نُظرَ إلى باطنه .. فهو كريه المنظر ، وإن اتُّخذَ حطباً .. أطفأ النارَ وأكثرَ الدخانَ ، وإن تُركَ في البيتِ .. ضيَّقَ المكانَ ، فلا يصلحُ إلا أن يُتركَ مدَّةً على الجوزِ للصوانِ ثم يُرمى به ؛ فكذلك التوحيدُ بمجردِ اللسانِ دونَ التصديقِ بالقلبِ عديمُ الجدوى كثيرُ الضررِ ، مذمومُ الظاهرِ والباطنِ ،

(١) في غير (أ) : (إذا انكشف) بدل (إذ قد انكشف) .

(٢) في (أ ، ف) : (إلا أنه) بدل (لا أنه) .

لكنه ينفع مدّة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي القلب والبدن ، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة ؛ فإنهم لم يؤمروا بشقّ القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشر ، وإنما يتجرّد عنه بالموت ، فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده .

وكما أنّ القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا ؛ فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت . . أمكن أن ينتفع بها حطباً ، لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ؛ فذلك مجرّد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرّد نطق اللسان ، ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانسراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه ؛ إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

وكما أنّ اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكأنه المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ؛ فذلك توحيد الفعل مقصود عالٍ للسالكين ، ولكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

فإن قلت : كيف يتصور ألا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض

وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ؟ فكيف يكون الكثير واحداً ؟

فاعلم : أن هذا غاية علوم المكاشفات ، وأسرارها لا يجوز أن تُسطر في كتاب^(١) ، فقد قال العارفون : (إفشاء سر الربوبية كفر)^(٢) .

ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة ، نعم ، ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن ، وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ؛ إذ نقول : إنه إنسان واحد ، فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد ، وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه ، وتفصيل روحه وجسده وأعضائه ، والفرق بينهما ، فهو في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفرق^(٣) ، وكأنه في عين الجمع ، والملفت إلى الكثرة في تفرقة .

فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، وهو باعتبار واحد من الاعتبار واحد ، وباعتبارات أخرى

(١) فيطلع عليه من ليس بأهل لمزاولتها ، فيقع في وحلة لا يكاد يتخلص منها . « إتحاف » (٣٩٢ / ٩) .

(٢) قوت القلوب (٩٠ / ٢) ، وقد بين الإمام الغزالي معناه في « الإملاء » .

(٣) كذا في جميع النسخ ، وعند الحافظ في « إتحافه » (٣٩٣ / ٩) : (والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق) ، علماً أنه لم يتقدم ذكر للتفريع صريح .

سواها كثيرٌ ، بعضها أشدُّ كثرةً مِنْ بعضٍ ، ومثالُ الإنسانِ وإنْ كانَ مثلاً لا يطابقُ الغرضَ ولكنه ينبُّهُ في الجملة على كيفية مصيرِ الكثرةِ في حكم المشاهدةِ واحداً .

وتستفيدُ بهذا الكلامِ تركُ الإنكارِ والجحودِ لمقامٍ لم تبلغه وتؤمنُ به إيمانَ تصديقٍ ، فيكونُ لك مِنْ حيثُ إنَّكَ مؤمنٌ بهذا التوحيدِ نصيبٌ وإنْ لم يكنْ ما آمنتَ به صفتك ؛ كما أنَّكَ إذا آمنتَ بالنبوةِ وإنْ لم تكنْ نبياً . . كانَ لك نصيبٌ منه بقدرِ قوَّةِ إيمانِكَ .

وهذه المشاهدةُ التي لا يظهرُ فيها إلا الواحدُ الحقُّ تارةً تدومُ ، وتارةً تطرأ كالبرقِ الخاطفِ وهو الأكثرُ ، والدوامُ نادرٌ عزيزٌ^(١) ، وإلى هذا أشارَ الحسينُ بنُ منصورٍ الحلَّاجُ حيثُ رأى الخوَّاصَ يدورُ في الأسفارِ فقالَ : فيماذا أنتَ ؟ فقالَ : أدورُ في الأسفارِ لأصحَّحَ حالي في التوكلِ - وقد كانَ مِنَ المتوكلينَ - فقالَ الحسينُ : قد أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ ، فأينَ الفناءُ في التوحيدِ^(٢) ؟ فكانَ الخوَّاصُ كانَ في تصحيحِ المقامِ الثالثِ في التوحيدِ ، فطالبه بالمقامِ الرابعِ .

(١) لكنها إذا غابت . . بقيت آثارها ، فصاحبها بعد سكون غليانه يعيش في بركات ضيائها إلى أن تلوح ثانية يزجي وقته على انتظار عودها ، ويعيش بما وجد في حين كونه . « إتحاف » (٣٩٤ / ٩) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٩٧) .

فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال^(١) .

فإن قلت : فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه .

فأقول : أمّا الرابع . . فلا يجوز الخوض في بيانه ، وليس التوكل أيضاً مبنياً عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث .

وأمّا الأول وهو النفاق . . فهو واضح .

وأمّا الثاني وهو الاعتقاد . . فهو موجود في عموم المسلمين ، وطريق تأكيد الكلام ، ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام ، وقد ذكرنا في كتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » القدر المهم منه .

وأمّا الثالث . . فهو الذي يبنى التوكل عليه ؛ إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل ، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب .

وحاصله : أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق ، وعطاء ومنع ، وحياة وموت ، وغنى وفقير ، إلى غير ذلك ممّا ينطلق عليه اسم^(٢) . . فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله تعالى ،

(١) وقد اعترض على المصنف هذا التقسيم ، حتى إنه عقد له جواباً في « إملائه » .

(٢) في (ب) : (اسم الحادث) .

لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا . . لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك ، وإليه رجائك ، وبه ثقتك ، وعليه اتكالك ؛ فإنه الفاعل على الأفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والأرض ، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة . . اتضح لك هذا اتصاحاً أتم من المشاهدة بالبصر .

وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقامين يتغني بهما أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك :

أحدهما : الالتفات إلى اختيار الحيوانات .

والثاني : الالتفات إلى الجمادات .

أمّا الالتفات إلى الجمادات . . فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع الغيم ، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ، وهذا كله شرك في التوحيد ، وجهلٌ بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ، قيل : معناه : أنهم يقولون : لولا استواء الريح . . لما نجونا .

ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه . . علم أن الريح هو الهواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يُحرَّك وكذلك محرَّكه ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ، ولا هو متحرك في نفسه عز وجل ،

فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبتة فكتب الملك توقيعاً بالعمو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بشكر الحبر والكاغذ والقلم الذي به كتب التوقيع ، ويقول : (لولا القلم .. لما تخلصت) ، فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم ، وهو غاية الجهل ، ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه ، وإنما هو مسخر في يد الكاتب .. لم يلتفت إليه ، ولم يشكر إلا الكاتب ، بل ربّما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب عن أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة .

فالشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب ، بل هذا تمثيل في حقك لا اعتقادك أن الملك الموقّع هو كاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ .

فإذا انكشف لك أن جميع ما في السماوات والأرض مسخرات على هذا الوجه .. انصرف عنك الشيطان خائباً ، وأيس من مزج توحيدك بهذا الشرك ، فيأتيك في المهلكة الثانية ، وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ، ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ؛ فإن شاء .. أعطاك ، وإن شاء .. قطع عنك ؟ وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك ؛ إن شاء .. حز رقبتك ، وإن شاء .. عفا عنك ، فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ ويقول له أيضاً : نعم ، إن كنت

لا ترى القلم لأنه مسخرٌ . فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ؟
وعند هذا زلَّ أقدامُ الأكثرين ، إلا عبادَ الله المخلصين ، الذين
لا سلطانَ عليهم للشيطانِ اللعينِ ، فشاهدوا بنورِ البصائرِ كونَ الكاتبِ
مسخرًا مضطراً كما شاهدَ جميعُ الضعفاءِ كونَ القلمِ مسخرًا ، وعرفوا أنَّ
غلطَ الضعفاءِ في ذلكَ كغلطِ النملةِ مثلاً لو كانتْ تدبُّ على الكاغِدِ فترى
رأسَ القلمِ يسوّدُ الكاغِدَ ، ولم يمتدَّ بصرُها إلى اليدِ والأصابعِ فضلاً عن
صاحبِ اليدِ ، فغلطتْ وظنّتْ أنَّ القلمَ هو المسوّدُ للبياضِ ، وذلكَ لقصورِ
بصرِها عن مجاوزةِ رأسِ القلمِ لضيقِ حديقَتِها .

فكذلكَ مَنْ لم ينشرحْ بنورِ اللهِ صدرُهُ للإسلامِ . . قصرتْ بصيرتُهُ عن
ملاحظةِ جَبَّارِ السماواتِ والأرضِ ، ومشاهدةِ كونهِ قاهراً وراءَ الكلِّ ، فوقفَ
في الطريقِ على الكاتبِ ، وهو جهلٌ محضٌ .

بل أربابُ القلوبِ والمشاهداتِ قد أنطقَ اللهُ تعالى في حقِّهم كلَّ ذرَّةٍ في
الأرضِ والسماواتِ بقدرتهِ التي بها أنطقَ كلُّ شيءٍ ، حتَّى سمعوا تقديسَها
وتسبيحَها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجزِ بلسانِ ذلِّ ، تتكلَّمُ بلا
حرفٍ ولا صوتٍ ، ولا يسمعهُ الذينَ هم عن السمعِ معزولونَ ، ولستُ أعني
به السمعَ الظاهرَ الذي لا يجاوزُ الأصواتَ ، فإنَّ الحمارَ شريكٌ فيه ،
ولا قدرَ لما يُشاركُ فيه البهائمُ ، وإنَّما أريدُ به سماعاً يُدرِكُ به كلامٌ ليسَ
بحرفٍ ولا صوتٍ ، ولا هو عربيٌّ ولا عجميٌّ .

فإن قلت : فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل ، فصف لي كيفية نطقها ،
وأنها كيف نطقت ، وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت
على نفسها بالعجز .

فاعلم : أن لكل ذرة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة
في السر ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فإنها كلمات تستمد من بحر
كلام الله تعالى الذي لا نهاية له ، ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ
قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ .

ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم ، بل صدور
الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قط أميناً على أسرار الملك قد نوجي
بخفائه ، فنادى بسرّه على ملا من الخلق ؟ ولو جاز إفشاء كل سر . . لما
قال صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم . . لضحكتم قليلاً ولبكيتم
كثيراً »^(١) ، بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون ، ولما نهى
عن إفشاء سرّ القدر^(٢) ، ولما قال : « إذا ذكر النجوم . . فأمسكوا ، وإذا
ذكر القدر . . فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابي . . فأمسكوا »^(٣) ، ولما خص
حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار^(٤) .

(١) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (١٠٢ / ٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٨٢ / ٦) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩٦ / ٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٨ / ٤) .

(٤) روى ذلك البخاري (٣٧٤٣) .

فإذا ؛ عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب
المشاهدات مانعان :

أحدهما : استحالة إفشاء السر .

والثاني : خروج كلماتها عن الحصر والنهاية .

ولكننا في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم نحكي من مناجياتها قدراً
يسيراً يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى
الحروف والأصوات وإن لم تكن هي حروفاً وأصواتاً ، ولكن هذه ضرورة
التفهم ، فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله^(١) تعالى للكاغد
وقد رآه اسودَّ وجهه بالخبير : ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً والآن قد ظهر
عليه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ وما السبب فيه ؟

فقال الكاغد : ما أنصفتني في هذه المطالبة ؛ فإنني ما سودت وجهي
بنفسي ، ولكن سل الخبير ، فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره
وطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً . فقال :
صدقت .

فسأل الخبير عن ذلك فقال : ما أنصفتني ، فإنني كنت في المحبرة وادعاً
ساكناً ، عازماً على ألا أبرح منها ، فاعتدى عليّ القلم بطبعه الفاسد^(٢)

(١) أي : بعين البصيرة . « إتحاف » (٤٠٢ / ٩) .

(٢) في غير (أ ، ب) : (بطمعه) بدل (بطبعه) .

واختطفني من وطني ، وأجلاني عن بلادي ، وفرّق جمعي ، وبددني كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لا علي . فقال : صدقت .

ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه ، وإخراج الحبر من أوطانه ، فقال : سل اليد والأصابع ؛ فإنني كنت قصباً نابتاً على شط الأنهار ، متنزهاً بين خضرة الأشجار ، فجاءتني اليد بسكين ، فنحّت عني قشري ، ومزقت عني ثيابي ، واقتلعتني من أصلي ، وفصلت بين أنابيبي ، ثم برتني وشقت رأسي ، ثم غمسّني في سواد الحبر ومرارته ، وهي تستخدمني وتمشيّني على قمّة رأسي ، فلقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك ، فتعّ عني وسل من قهرني . فقال : صدقت .

ثم سأل اليد عن ظلمها للقلم وتعدّيها عليه واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحماً يظلم أو جسماً يتحرّك بنفسه ؟ وإنما أنا مركّب مسخّر ، ركّبي فارس يُقال له : القدرة والقوّة ، فهي التي ترددّني وتجول بي في نواحي الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدّى شيء منها مكانه ولا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبها مثل هذا الفارس القويّ القاهر ؟ أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها وبين القلم ؟ فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ، فسل القدرة عن شأني ، فإنني مركّب أزعجني من ركّبي . فقال : صدقت .

ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد واستخدامها وكثرة ترديدتها ،

فَقَالَتْ : دَعْ عَنْكَ لَوْمِي وَمَعَاتِبِي ، فَكَمْ مِنْ لَائِمٍ مَلُومٌ ، وَكَمْ مِنْ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ ، وَكَيْفَ خَفِيَ عَلَيْكَ أَمْرِي ؟ وَكَيْفَ ظَنَنْتَ أَنِّي ظَلَمْتُ الْيَدَ لِمَا رَكَبْتُهَا وَلَقَدْ كُنْتُ لَهَا رَاكِبَةً قَبْلَ التَّحْرِيكِ وَمَا كُنْتُ أَحْرَكُهَا وَلَا أَسْتَخْرِهَا ؟ ! بَلْ كُنْتُ نَائِمَةً سَاكِنَةً نَوْمًا ظَنَّ الظَّالِمُونَ بِي أَنِّي مَيِّتَةٌ أَوْ مَعْدُومَةٌ ؛ لِأَنِّي مَا كُنْتُ أَتَحَرَّكُ وَلَا أَحْرَكُ ، حَتَّى جَاءَنِي مُوَكَّلٌ أَزْعَجَنِي وَأَرْهَقَنِي إِلَى مَا تَرَاهُ مِنِّي ، فَكَانَتْ لِي قُوَّةٌ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ لِي قُوَّةٌ عَلَى مُخَالَفَتِهِ ، وَهَذَا الْمُوَكَّلُ يُسَمَّى الْإِرَادَةَ ، وَلَا أَعْرِفُهُ إِلَّا بِاسْمِهِ وَهَجُومِهِ وَصِيَالِهِ ، إِذَا أَزْعَجَنِي مِنْ غَمْرَةِ النَّوْمِ وَأَرْهَقَنِي إِلَى مَا كَانَ لِي مَنْدُوحَةٌ عَنْهُ لَوْ خَلَّانِي وَرَأَيْي . فَقَالَ : صَدَقْتَ .

ثُمَّ سَأَلَ الْإِرَادَةَ : مَا الَّذِي جَرَّأَكَ عَلَى هَذِهِ الْقُدْرَةِ السَّاكِنَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ حَتَّى صَرَفْتَهَا إِلَى التَّحْرِيكِ ، وَأَرْهَقْتَهَا إِلَيْهِ إِرْهَاقًا لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَخْلَصًا وَلَا مَنَاصًا ، فَقَالَتْ الْإِرَادَةُ : لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ ، فَلَعَلَّ لَنَا عِذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ ؛ فَإِنِّي مَا انْتَهَضْتُ بِنَفْسِي وَلَكِنِّي أَنْهَضْتُ ، وَمَا انْبَعَثْتُ وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِحُكْمِ قَاهِرٍ وَأَمْرِ جَازِمٍ ، وَقَدْ كُنْتُ سَاكِنَةً قَبْلَ مَجِيئِهِ ، وَلَكِنْ وَرَدَ عَلَيَّ مِنْ حَضْرَةِ الْقَلْبِ رَسُولُ الْعِلْمِ عَلَى لِسَانِ الْعَقْلِ بِالْإِشْخَاصِ لِلْقُدْرَةِ ، فَأَشْخَصْتُهَا بِاضْطِرَارٍ ، فَإِنِّي مَسْكِينَةٌ مَسْخَرَةٌ تَحْتَ قَهْرِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ ، وَلَا أَدْرِي بِأَيِّ جَرَمٍ وَقُفْتُ عَلَيْهِ وَسُخِّرْتُ لَهُ وَأُلْزِمْتُ طَاعَتَهُ ، لَكِنِّي أَدْرِي أَنِّي فِي دَعَاةٍ وَسُكُونٍ مَا لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ هَذَا الْوَارِدُ الْقَاهِرُ ، وَهَذَا الْحَاكِمُ الْعَادِلُ أَوْ الظَّالِمُ ، وَقَدْ وَقُفْتُ عَلَيْهِ وَقَفًا ، وَأُلْزِمْتُ طَاعَتَهُ إِلْزَامًا ، بَلْ لَا يَبْقَى لِي مَعَهُ مَهْمَا جَزَمَ حُكْمُهُ طَاقَةً عَلَى

المخالفة ، لعمرى ما دامَ هوَ في التردّدِ على نفسه والتحيرِ في حكمه فأنا ساكنة ، لكن مع استشعارٍ وانتظارٍ لحكمه ، فإذا انجزمَ حكمه .. أزعجتُ بطبعٍ وقهرٍ تحت طاعته ، وأشخصتِ القدرةَ لتقومَ بموجبِ حكمه ، فسلِ العلمَ عن شأني ، ودعْ عني عتابك ؛ فإنّي كما قال الشاعر^(١) : [من البسيط]

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَلَّا تَفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ
فَقَالَ : صدقت .

وأقبلَ على العقلِ والعلمِ والقلبِ مطالباً لهم ومعاتباً إياهم على استنهاضِ الإرادةِ وترشيحِها لأشخاصِ القدرةِ ، فقالَ العقلُ : أمّا أنا .. فسراجٌ ما اشتعلتُ بنفسي ، ولكنّي أُشعلتُ ، وقالَ القلبُ : أمّا أنا .. فلوحٌ ما انبسطتُ بنفسي ، ولكنّي بُسطتُ ، وقالَ العلمُ : إنّما أنا نقشٌ نُقِشتُ في بياضِ لوحِ القلبِ لمّا أشرقَ سراجُ العقلِ ، وما انخططتُ بنفسي ، فكمْ كانَ هذا اللوحُ قبلي خالياً عني ، فسلِ القلمَ عني ؛ لأنّ الخطَّ لا يكونُ إلا بالقلم .

فعندَ هذا تتعجّعُ السائلُ ولمْ يقنعهُ جوابُهُ وقالَ : قد طالَ تعبِي في هذا الطريقِ وكثرتُ منازلِي ، ولا يزالُ يحيلُني مَنْ طمعتُ في معرفةِ هذا الأمرِ منه على غيره ، ولكنّي كنتُ أطيّبُ نفساً بكثرةِ التردّدِ لما كنتُ أسمعُ كلاماً

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣ / ٣٧٢) ، والمراد منه : تعليق الأمر بالغير ورفع الملام ، فكأنه قال : إذا رحلت عن قوم قدروا على ألا ترحل بإكرامك ونزع علة سفرك .. فكأنهم هم الذين رحلوا عنك لاختيارهم رحلتك .

مقبولاً في الفؤادِ وعذراً ظاهراً في دفع السؤالِ ، فأما قولك : إنني خطٌّ ونقشٌ ، وإنما خطّني قلمٌ .. فلستُ أفهمُهُ ، فإنني لا أعلمُ قلماً إلا من القصْبِ ، ولا لوحاً إلا من الحديدِ أو الخشبِ ، ولا خطّاً إلا بالحبرِ ، ولا سراجاً إلا من النارِ ، وإنني لأسمعُ في هذا المنزلِ حديثَ اللوحِ والسراجِ والخطِّ والقلمِ ولا أشاهدُ منه شيئاً ! أسمعُ جمعجةً ولا أرى طحناً ! فقال له العلمُ : إن صدقتَ فيما قلتَ .. فبضاعتكِ مزجاةٌ ، وزادك قليلٌ ، ومركبكُ ضعيفٌ .

واعلمُ : أنَّ المهالكَ في الطريقِ الذي توجهتَ إليه كثيرةٌ ، فالصوابُ لك أن تنصرفَ وتدعَ ما أنتَ فيه ، فما هذا بعشك فادرج عنه ، فكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ له .

وإن كنتَ راغباً في استتمامِ الطريقِ إلى المقصدِ .. فألقِ سمعك وأنتَ شهيدٌ ، واعلمُ أنَّ العوالمَ في طريقك هذا ثلاثةٌ :

عالمُ الملكِ : والشهادةُ أوَّلُهُ ، ولقد كان الكاغدُ والحبرُ والقلمُ واليدُ من هذا العالمِ ، وقد جاوزتَ تلكَ المنازلَ على سهولةٍ .

والثاني : عالمُ الملكوتِ : وهو ورائي ، فإذا جاوزتني .. انتهيتَ إلى منازلِهِ ، وفيها المهامهُ الفيحُ ، والجبالُ الشاهقةُ ، والبحارُ المغرقةُ ، ولا أدري كيفَ تسلمُ فيها .

والثالثُ : عالمُ الجبروتِ : وهو بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ ،

ولقد قطعت منه ثلاث منازل ؛ إذ في أوله منزل القدرة والإرادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والملكوت ؛ لأنَّ عالم الملك أسهلُّ منه طريقاً ، وعالم الملكوت أوعرُّ منه منهجاً ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي في حدِّ اضطراب الماء ، ولا هي في حدِّ سكون الأرض وثباتها ، وكلُّ مَنْ يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة ، فإنْ جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة . . كان كمن يمشي في عالم الجبروت ، فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة . . مشى في عالم الملكوت من غير تتعيع .

فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء . . فانصرف ، فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ، ولم يبقَ بين يديك إلا الماء الصافي ، وأولُّ عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يُكتب به العلم في لوح القلب ، وحصول اليقين الذي يُمشى به على الماء ، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام : « لو ازداد يقيناً . . لمشى على الهواء » لما قيل له : إنه كان يمشي على الماء ؟^(١) .

فقال السالك السائل : قد تحيرت في أمري ، واستشعر قلبي خوفاً ممّا

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نواتره » (ص ٣٠٣) ، والبيهقي في « الزهد » (٩٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٦ / ٨) .

وصفته من خطر الطريق ، ولست أدري أطيع قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟

فقال : نعم ، افتح بصرَكَ ، واجمع ضوءَ عينيك وحدِّقه نحوي ، فإن ظهرَ لك القلمُ الذي به اكتبَ في لوح القلب . . فيشبهُ أن تكونَ أهلاً لهذا الطريق ، فإنَّ كلَّ مَنْ جاوزَ عالمَ الجبروتِ وقرعَ أوَّلَ بابٍ من أبوابِ الملكوتِ . . كُوشِفَ بالقلمِ ، أما ترى أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أوَّلِ أمرِهِ كُوشِفَ بالقلمِ ؛ إذ نزلَ عليه : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فقال السالكُ : لقد فتحتُ بصري وحدِّقتهُ ، فوالله ؛ ما أرى قصباً ولا خشباً ، ولا أعلمُ قلماً إلا كذلك .

فقال العلمُ : لقد أبعدتَ النُّجعةَ ، أما سمعتَ أنَّ متاعَ البيتِ يشبهُ ربَّ البيتِ ؟ أما علمتَ أنَّ اللهَ تعالى لا تشبهُ ذاتهُ سائرَ الدَّواتِ ؟ فكذلك لا تشبهُ يدهُ الأيدي ولا قلمُه الأقلامَ ، ولا كلامُه سائرَ الكلامِ ، ولا خطُّه سائرَ الخطوطِ ، وهذه أمورٌ إلهيَّةٌ من عالمِ الملكوتِ ، فليسَ اللهُ تعالى في ذاتهٍ بجسمٍ ، ولا هوَ في مكانٍ بخلافِ غيره ، ولا يدهُ لحمٌ وعظمٌ ودمٌ بخلافِ الأيدي ، ولا قلمُه من قصبٍ ، ولا لوحُه من خشبٍ ، ولا كلامُه صوتٌ وحرَفٌ ، ولا خطُّه رقمٌ ورسمٌ ، ولا حبرُه زاجٌ وعفصٌ ، فإن كنتَ لا تشاهدُ هذا هكذا . . فما أراك إلا مختشاً بينَ فحولةِ التنزيهِ وأنوثةِ التشبيهِ ، مذبذباً

بينَ هذا وذاك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته تعالى وصفاته عن الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه ؟ !

فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » ^(١) الصورة الظاهرة المدركة بالبصر . . فكن مشبهاً مطلقاً ؛ كما يقال : كن يهودياً صرفاً وإلا . . فلا تلعب بالتوراة .

وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار . . فكن منزهاً صرفاً ومقدساً فحلاً ، واطوِ الطريق ، فإنك بالوادي المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يُوحى ، فلعلك تجد على النار هدىً ، ولعلك من سرادقات العز تنادى بما يُودي به موسى : إني أنا ربك الأعلى .

فلما سمع السالك من العلم ذلك . . استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه ناراً من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيتُه الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نارٌ ، فلما نفخ فيه العلم بحدته . . اشتعل زيتُه ، فأصبح نوراً على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك ، فلعلك تجد على النار هدىً ، ففتح بصره ، فأنكشف له القلم الإلهي ، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ،

(١) رواه مسلم (٢٦١٢/١١٥) .

وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكأن له في كل قلب رأساً ولا رأس له ، فقضى منه العجب وقال : نعم الرفيق العلم ، جزاه الله عني خيراً إذ الآن ظهر لي صدق أنبيائه عن أوصاف القلم ، فإني أراه قلماً لا كالأقلام .

فعند هذا ودّع العلم وشكره ، وقال : قد طال مقامي عندك ، ومرادتي لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم فأسأله عن شأنه .

فسافر إليه ، وقال : ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى إشخاص القدرة وصرفها إلى المقدورات ؟

فقال : لقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سأله فأحالك على اليد ؟ قال : لا ، قال : فجوابي مثل جوابه .

قال : وكيف وأنت لا تشبهه ؟

قال القلم : أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال : نعم ، قال : فسل عن شأني الملقب بيمين الملك ؛ فإني في قبضته ، هو الذي يردّني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة .

فقال : ومن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ قال : نعم ، قال : فالأقلام أيضاً في قبضة يمينه ، هو الذي يردّها .

فسافر السالك من حضرة القلم إلى حضرة اليمين حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه ، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه ، والجملة فيه : أنه يمين لا كالأيمان ، ويد لا كالأيدي ، وإصبع لا كالأصابع ، فرأى القلم محرّكاً في قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ، فقال : جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة ، وهو الحوالة على القدرة ؛ إذ اليد لا حكم لها في نفسها ، وإنما محرّكها القدرة لا محالة .

فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما استحقق عندها ما قبله ، وسألها عن تحريك اليمين ، فقالت : إنما أنا صفة ، فاسأل القادر ؛ إذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات .

وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ ، فغشيته هيبه الحضرة ، فخرّ صعباً يضطرب في غشيته مدة ، فلما أفاق .. قال : سبحانك ! ما أعظم شأنك ! تبت إليك ^(١) ، وتوكلت عليك ^(٢) ، وآمنت بأنك الملك الجبار ، الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ،

(١) أي : رجعت عما كنت عازماً عليه في السؤال عن مثل هذه الحقائق . «إتحاف» (٤٠٩/٩) .

(٢) فلا يتم مقام التوكل إلا بعد ملاحظة عظمة شأنه وألوهيته ، والانصراف إليه بكليته .

«إتحاف» (٤٠٩/٩) .

ولا أرجو سواك ، ولا أعودُ إلا بعفوكَ مِنْ عقابِكَ ، وبرضاكَ مِنْ سخطِكَ ،
وما لي إلا أن أسألكَ وأتضرعَ إليك وأبتهلَ بينَ يديكَ ، فأقولُ : اشرحْ لي
صدرِي لأعرفَكَ ، واحللْ عقدةً مِنْ لساني لأثنيَ عليك .

فَنُودِيَ مِنْ وراءِ الحجابِ : إِيَّاكَ أَنْ تَطْمَعَ فِي الثَّناءِ ، وتزیدَ على سيِّدِ
الأنبياءِ ، بل ارجعْ إليه ، فما آتاكَ فخذْهُ ، وما نهاكَ عنه فانتهِ عنه ، وما قالَهُ
فقلْهُ ، فإنه ما زادَ في هذهِ الحضرةِ على أن قالَ : « سبحانَكَ ! لا أحصي
ثناءً عليك ، أنتَ كما أثَّنتَ على نفسك » (١) .

فقالَ : إلهي ؛ إن لم يكنْ للسانِ جرأةً على الثَّناءِ عليك . . فهل للقلبِ
مطمعٌ في معرفتِكَ ؟

فَنُودِيَ : إِيَّاكَ وَأَنْ تتخطى رقابَ الصَّديقينَ ، فارجعْ إلى الصَّديقِ الأكبرِ
واقْتدِ بهِ ، فإنَّ أصحابَ سيِّدِ الأنبياءِ كالنجومِ ، بأيِّهم اقتديتُمْ . .
اهتديتُمْ (٢) ، أما سمعتهُ يقولُ : (العجزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ) ؟ فيكفيكَ

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) وقد ورد هذا مرفوعاً ، ومن المرفوع ما رواه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى
الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « النجوم أمانة للسماء ، فإذا ذهبَت النجوم . . أتى
السماء ما توعَد ، وأنا أمانة لأصحابي ، فإذا ذهبَت . . أتى أصحابي ما يوعدون ،
وأصحابي أمانة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي . . أتى أمتي ما يوعدون » ، وهذا الحديث -
كما قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٤٣٩) - يؤدي بعض معنى الأثر المشهور :
« أصحابي كالنجوم ، بأيِّهم اقتديتُمْ . . اهتديتُمْ » .

نصيلاً من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا ، عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا .

فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسولته ومعاتباته^(١) ، وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها : اقبلوا عذري ؛ فإنني كنت غريباً حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ، ولكل داخل دهشة ، فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل ، والآن قد صحّ عندي عذرُكم ، وانكشف لي أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت . . هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مردّدون في قبضته ، وهو الأوّل والآخر ، والظاهر والباطن .

فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة . . استبعد منه ذلك ، وقيل له : كيف يكون هو الأوّل والآخر وهما وصفان متناقضان ؟ وكيف يكون هو الظاهر والباطن والأوّل ليس بآخر والظاهر ليس بباطن ؟

فقال : هو الأوّل بالإضافة إلى الموجودات ؛ إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سير المسافرين إليه ؛ فإنهم لا يزالون مترقّين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر في المشاهدة ، أوّل في الوجود .

(١) كذا في جميع النسخ : (أسولته) ، وأسولة : جمع سؤال بتسهيل الهمزة ، وهو جمع صحيح ، حكاه ابن جني .

وهو باطنٌ بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة ، الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ، ظاهرٌ بالإضافة إلى مَنْ يطلبُهُ في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت^(١) .

فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل ؛ أعني : مَنْ انكشف له أَنَّ الفاعل واحدٌ .

فإن قلت : فقد انتهى هذا التوحيد إلى أَنْ يُتَنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمَنْ لا يفهم ذلك أو يجحدُ . . فما طريقه ؟

فأقول : أمّا الجاحدُ . . فلا علاج له إلا أَنْ يُقالَ له : إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السَّمْنِيَّةِ لعالم الجبروت^(٢) ، وهُمُ الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم ؛ لأنها لا تُدرك بالحواس الخمس ، ولازموا حضيض عالم الشهادة .

فإن قال : وأنا منهم ؛ فإنني لا أهتدي إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ، ولا أعلم شيئاً سواه . . فيقال : إنكارك لما شاهدناه ممّا وراء

(١) وقد اعترض على المصنف بسياقه لهذه الحكاية بجملة من الأسئلة والإشكالات ، أجاب عنها في « إملائه » بما لا غنى لمن قصّر فهمه للعبائر هنا عنه .

(٢) السمنية : بضم السين وفتح الميم المخففة ، نسبة إلى صنم عند الهنود يقال له : سومنات ، وقد اندثر ، وهم قوم من عبدة الأوثان قائلون بالتناسخ ، وبأنه لا طريق للعلم سوى الحس فقط . انظر « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » (٩٧٦ / ١) .

الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس^(١) ؛ فإنهم قالوا :
ما نراه لا نتق به ، فلعلنا نراه في المنام !

فإن قال : وأنا من جملتهم ؛ فإنني شاك أيضاً في المحسوسات .
فيقال : هذا شخص فسد مزاجه ، وامتنع علاجه ، فترك أياماً قلائل ، فلا
كل مريض يقوى على علاجه الأطباء .
هذا حكم الجاحد .

وأما الذي لا يجحد ، ولكن لا يفهم . فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى
عينه التي بها يشاهد عالم الملكوت ، فإن وجدوها صحيحة في الأصل ، وقد
نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية . اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال
بالأبصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره . أرشد إلى الطريق ليسلكه ، كما فعل
ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه^(٢) .

وإن كان غير قابل للعلاج ، فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في
التوحيد ، ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة
التوحيد . كَلَّمُوهُ بحرف وصوت ، وردُّوا ذروة التوحيد إلى حضيض

(١) السوفسطائية : فرقة ينكرون الحسيات والبدهييات والضروريات ، فلم يكتفوا بما أنكره
السمنية ، بل زادوا عليها إنكار مدرك الحس ، وهم على طوائف . انظر « كشف
اصطلاحات الفنون والعلوم » (٩٥٧ / ١) .

(٢) أزال بنظره إليهم العلل الباطنة ، فأشرقت الأنوار في صدورهم وأعينهم ، ثم أرشدهم .
« إتحاف » (٤١٨ / ٩) .

فهمه ، فإن في عالم الشهادة أيضاً توحيداً ؛ إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسدُ بصاحبين ، والبلد يفسدُ بأميرين ، فيقالُ له على حدِّ عقله : إلهُ العالم واحدٌ ، والمدبِّرُ واحدٌ ؛ إذ لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ . . لفسدتا ، فيكونُ ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة ، فينغرسُ اعتقادُ التوحيدِ في قلبه بهذا الطريقِ اللائقِ بقدرِ عقله ، وقد كُلفَ الأنبياءُ أن يكلموا الناسَ على قدرِ عقولهم ، ولذلك نزلَ القرآنُ بلسانِ العربِ وعلى حدِّ عاداتهم في المحاورَةِ .

فإن قلتَ : فمثلُ هذا التوحيدِ الاعتقاديِّ هل يصلحُ أن يكونَ عماداً للتوكلِ وأصلاً فيه ؟

فأقولُ : نعم ، فإنَّ الاعتقادَ إذا قويَّ . . عملَ عملَ الكشفِ في إثارةِ الأحوالِ ، إلا أنَّه في الغالبِ يضعفُ ويتسارعُ إليه الاضطرابُ والتزلزلُ غالباً ، ولذلك يحتاجُ صاحبه إلى متكلمٍ يحرسُه بكلامه ، أو إلى أن يتعلَّم هو الكلامَ ليحرسَ به العقيدةَ التي تلقَّها من أستاذه أو من أبويه أو من أهلِ بلده .

وأما الذي شاهدَ الطريقَ وسلكه بنفسه . . فلا يُخافُ عليه شيءٌ من ذلك ، بل لو كُشِفَ الغطاءُ . . لما ازدادَ يقيناً وإن كان يزدادُ وضوحاً ، كما أن الذي يرى إنساناً في وقتِ الإسفارِ لا يزدادُ يقيناً عندَ طلوعِ الشمسِ بأنَّه

إنسان ، ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته .

وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري ، فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلقين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم ، فرأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر . . انكشف لهم حقيقة الأمر ، فلم يكثرثوا بقول فرعون : (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) ، بل قالوا : (لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) ؛ فإن البيان والكشف يمنع التغيير .

وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا إلى عجل السامري وسمعوا خواره . . تغيروا وسمعوا قوله : (هذا إلهكم وإله موسى) ، ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً .

فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر - لا محالة - إذا نظر إلى عجل ؛ لأن كليهما من عالم الشهادة ، والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير .

وأما عالم الملكوت . . فهو من عند الله تعالى ، فلذلك لا تجد فيه اختلافاً وتناقضاً أصلاً .



فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهم ثبت أن الوسائط والأسباب

مسخرات ، وكل ذلك ظاهرٌ إلا في حركات الإنسان ، فإنه يتحرك إن شاء ، ويسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخراً؟ (١).

فاعلم : أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء . . لكان هذا مزلةً القدم وموقع الغلط ، ولكن اعلم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء ، ويشاء شاء أم لم يشأ ، فليست المشيئة إليه ؛ إذ لو كانت إليه . . لافتقرت إلى مشيئة أخرى ، وتسلسل إلى غير نهاية ، وإذا لم تكن المشيئة إليه ؛ فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها . . انصرفت القدرة لا محالة ، ولم يكن لها سبيلٌ إلى المخالفة ، فالحركة لازمة ضرورةً بالقدرة ، والقدرة محركة ضرورةً عند انجزام المشيئة ، والمشيئة تحدث ضرورةً في القلب ، فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض ، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ، ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطرب في الجميع .



فإن قلت : فهذا جبرٌ محضٌ ، والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لا تنكر الاختيار ، فكيف يكون مجبوراً مختاراً ؟

فأقول : لو انكشف الغطاء . . لعرفت أنه في عين الاختيار مجبورٌ ، فهو إذاً مجبورٌ على الاختيار ، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ؟

(١) والتسخير يناقض الاختيار .

فلنشرح الاختيارَ بلسانِ المتكلمينَ شرحاً وجيزاً يليقُ بما ذُكرَ متطفاً وتابعاً ، فإنَّ هذا الكتابَ لم نقصدْ بهِ إلا علمَ المعاملةِ ، ولكنِّي أقولُ : لفظُ الفعلِ في الإنسانِ يُطلقُ على ثلاثةِ أوجهٍ ؛ إذ يُقالُ : الإنسانُ يكتبُ بالأصابعِ ، ويتنفسُ بالرئةِ والحَنجَرةِ ، ويخرقُ الماءَ إذا وقفَ عليه بجسمِهِ ، فينسبُ إليه الخرقُ في الماءِ ، والتنفسُ ، والكتابةُ ، وهذه الثلاثةُ في حقيقةِ الاضطرارِ والجبرِ واحدٌ ، ولكنها تختلفُ وراءَ ذلكَ في أمورٍ ، فأعربَ لذلكَ عنها بثلاثِ عباراتٍ ، فسُمِّيَ خرقُهُ للماءِ عندَ وقوعِهِ على وجهِهِ فعلاً طبيعياً ، ويُسمَّى تنفسُهُ فعلاً إرادياً ، وسُمِّيَتْ كتابتُهُ فعلاً اختيارياً .

والجبرُ ظاهرٌ في الفعلِ الطبيعيِّ ؛ لأنَّهُ مهما وقفَ على وجهِ الماءِ أو تخطى من السطحِ الهواءَ . . انخرقَ لا محالةً ، فيكونُ الخرقُ بعدَ التخطي ضرورياً .

والتنفسُ في معناه ، فإنَّ نسبةَ حركةِ الحَنجَرةِ إلى إرادةِ التنفسِ كنسبةِ انخراقِ الماءِ إلى ثقلِ البدنِ ، فمهما كانَ الثقلُ موجوداً . . وجدَ الانخراقُ بعدهُ ، وليسَ الثقلُ إليه ، فكذلكَ الإرادةُ ليستُ إليه ، ولذلكَ لو قصدَ عينُ الإنسانِ بإبرةٍ . . طبقَ الأجفانَ اضطراراً ، ولو أرادَ أن يتركها مفتوحةً . . لم يقدرْ معَ أنْ تغميضَ الأجفانَ فعلٌ إراديٌّ ، ولكنهُ إذا تمثَّلَ صورةَ الإبرةِ في مشاهدتهِ بالإدراكِ . . حدثتِ الإرادةُ للتغميضِ ضرورةً ، وحدثتِ الحركةُ بها ، ولو أرادَ أن يتركَ التغميضَ . . لم يقدرْ عليه ، معَ أنَّه فعلٌ بالقدرةِ والإرادةِ ؛ فقد التحقَ هذا بالفعلِ الطبيعيِّ في كونهِ ضرورياً .

وأما الثالث وهو الاختياري . . فهو مظنة الالتباس ، كالكتابة والنطق ، وهو الذي يُقال فيه : إن شاء . . فعل ، وإن شاء . . لم يفعل ، وتارة يشاء وتارة لا يشاء ، فيُظنُّ من هذا أن الأمر إليه ، وهو للجهل بمعنى الاختيار ، فلنكشف عنه .

وبيانه : أن الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك ، والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى ما قد يتردد العقل فيه .

فالذي تقطع به من غير تردد أن تقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدنك بسيف ، فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق ، فلا جرم تنبعث الإرادة بالعلم ، والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ، وذلك من غير روية وفكرة ، ويكون ذلك بالإرادة .

ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه ، فلا يُدرى أنه موافق أم لا ، فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتبين أن الخير في الفعل أو الترك ، فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير . . التحق ذلك بالذي يُقطع به من غير روية وفكر ، وانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان ، فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير . . سُميت هذه الإرادة اختياراً ؛ مشتقاً من الخير ؛ أي : هو انبعث إلى ما ظهر للعقل أنه خير ، وهو عين تلك الإرادة ، ولم ينتظر في انبعائها إلا ما انتظرت تلك الإرادة ، وهو ظهور

خيرية الفعل في حقه ، إلا أنَّ الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية ، بل على البديهية ، وهذا افتقر إلى الروية .

فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة ، وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقُّفٌ ، وعن هذا قيل : إنَّ العقل يُحتاجُ إليه للتمييز بين خير الخيرين وشرِّ الشرين ، ولا يُصوِّرُ أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحسِّ والتخييل ، أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحزَّ رقبة نفسه مثلاً . . لم يمكنه ، لا لعدم القدرة في اليد ، ولا لعدم السكين ، ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة ، وإنما فُقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحسِّ بكون الفعل موافقاً ، وقتله نفسه ليس موافقاً له ، فلا يمكنه مع قوَّة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق ، فإنَّ العقل ههنا يتوقَّفُ في الحكم ويتردَّدُ ؛ لأنه تردَّدُ بين شرِّ الشرين ، فإن ترجَّح له بعد الروية أن ترك القتل أقلُّ شراً . . لم يمكنه قتل نفسه ، وإنَّ حكم بأنَّ القتل أقلُّ شراً ، وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف عنه . . انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه ؛ كالذي يُبعُ بالسيف للقتل ، فإنه يرمي بنفسه من السطح مثلاً وإن كان مهلكاً ولا يبالي ، ولا يمكنه ألا يرمي نفسه ، وإن كان يُتبع بضرب خفيف ؛ فإن انتهى إلى طرف السطح . . حكم العقل بأنَّ الضرب أهون من الرمي ، فوقفت أعضاؤه ، فلا يمكنه أن يرمي نفسه ، ولا تنبعث له داعية ألبتة ؛ لأنَّ داعية الإرادة مسخرة لحكم العقل والحسِّ ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكلُّ يصدر بالضرورة

فيه من حيث لا يدري ، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور ، فأما أن يكون منه .. فكلا ولا .

فإذا ؛ معنى كونه مجبوراً : أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ، ومعنى كونه مختاراً : أنه محل لإرادة حدث فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً ، وحدث الحكم أيضاً جبراً ، فإذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض ، وفعل الله تعالى اختيار محض ، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين ، فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لما كان فناً ثالثاً ، وتيمّنوا فيه بكتاب الله تعالى^(١) ، فسمّوه : كسباً ، وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار ، بل هو جامع بينهما عند من فهمه .

وفعل الله تعالى يُسمّى اختياراً بشرط ألا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحيّر وتردّد ، فإن ذلك في حقه محال ، وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوّز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ، ويطول القول فيه .

فإن قلت : فهل تقول إن العلم ولد الإرادة ، والإرادة ولدت القدرة ،

(١) في قوله عز شأنه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ، ومن تمسك بلفظ الاختيار .. لم يعب عليه .

والقدرة ولدت الحركة ، وإنَّ كلَّ متأخِّر حدثٍ مِنَ المتقدِّم ؟ فإن قلت ذلك . . فقد حكمت بحدوث شيءٍ لا مِنْ قدرةِ الله تعالى ، وإن أبيت ذلك . . فما معنى ترتُّب البعضِ مِنْ هذا على البعض ؟

فاعلم : أنَّ القولَ بأنَّ بعضَ ذلك حدثَ عن بعضٍ جهلٌ محضٌ ، سواءً عبَّرَ عنه بالتولُّدِ أو بغيره^(١) ، بل حواله جميع ذلك على المعنى الذي يُعبَّرُ عنه بالقدرةِ الأزليَّةِ ، وهو الأصلُ الذي لم يقفْ كافَّةُ الخلقِ عليه إلا الراسخونَ في العلمِ فإنَّهم وقفوا على كنهِ معناه ، والكافَّةُ وقفوا على مجردِ لفظهِ مع نوعِ تشبيهِ بقدرتنا ، وهو بعيدٌ عن الحقِّ ، وبيانُ ذلك يطولُ ، ولكن بعضُ المقدوراتِ مترتبةٌ على البعضِ في الحدوثِ ترتُّبَ المشروطِ على الشرطِ ، فلا تصدرُ مِنَ القدرةِ الأزليَّةِ إرادةٌ إلا بعدَ علمٍ ، ولا علمٌ إلا بعدَ حياةٍ ، ولا حياةٌ إلا بعدَ محلٍّ للحياةِ .

وكما لا يجوزُ أن يُقالَ : الحياةُ حصلتْ مِنَ الجسمِ الذي هو شرطُ الحياةِ . . فكذلك في سائرِ درجاتِ الترتيبِ ، ولكن بعضُ الشروطِ مما ظهرَ للعامةِ ، وبعضها لم يظهرْ إلا للخواصِّ المكاشفينَ بنورِ الحقِّ ، وإلا . . فلا يتقدَّمُ متقدِّمٌ ولا يتأخَّرُ متأخِّرٌ إلا بالحقِّ واللزومِ ، وكذلك جميعُ أفعالِ الله

(١) والذين عبَّروا عنه بالتولُّدِ وهم زعماء القائلين به في الفرق الإسلامية هم المعتزلة ، وهذه التحريجة وجوابها تمهيدٌ للحديث عن العبارة المشهورة التي فاه بها المصنف : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) .

تعالى ، ولولا ذلك . . لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين ،
تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً .

والى هذا أشار قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ
﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم ،
ولا يُصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى الترتيب الذي وجد ، فما تأخر
متأخراً إلا لانتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال
لا يُوصف بكونه مقدوراً^(١) ، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط
الحياة ، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم ، وكل ذلك
على منهاج الواجب وترتيب الحق ، ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق ،
بل كل ذلك بحكمة وتدبير .

وتفهم ذلك عسير ، ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على
وجود الشرط مثلاً يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة ، وذلك بأن تقدّر
إنساناً مُحدثاً قد انغمس في الماء إلى رقبته ، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه
وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له ، فقدّر القدرة الأزليّة حاضرة ملاقيّة
للمقدورات متعلّقة بها ملاقة الماء للأعضاء ، ولكن لا يحصل بها المقدور

(١) فلا يقال : إنه داخل في الإمكان ، ولو شاء الله . . لأوجده وأبدعه ؛ إذ القدرة لا تعلق
لها بالمستحيل ، والمشروط يستحيل تصور وقوعه قبل شرطه ، ولا يجب بعد شرطه ،
فهو ممكن في ذاته ، وكلام المصنف هنا هينة لما سيأتي تفصيله .

كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط ، وهو غسل الوجه ، فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء .. عمل الماء في سائر الأعضاء وارتفع الحدث ، فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليد برفعه عن الوجه ؛ لأنه حدث عقيبته ، إذ يقول : كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعاً ، والماء لم يتغير عما كان ، فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل ؟! بل حصل ارتفاع الحدث عن اليد عند غسل الوجه^(١) ، فإذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليد !

وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة ، والقدرة بالإرادة ، والإرادة بالعلم ، وكل ذلك خطأ ، بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها ، لا بغسل الوجه ، والماء لم يتغير ، واليد لم تتغير ، ولم يحدث فيهما شيء ، ولكن حدث وجود الشرط ، فظهر أثر العلة^(٢) .

(١) أي - والكلام على لسان المعترض - : (بل حصل ارتفاع الحدث عن اليد بغسل الوجه) ، إذ حصوله عنده لا به هو ما سيقدره المصنف ، فالمراد بالعندية هنا عند المعترض : العلية .

(٢) وقد تبين بهذا المثال بأن السابق ليس مؤثراً في اللاحق ، فتأخر اللاحق عنه لا يدل قطعاً على تولده من السابق ، بل هي قضية شرط ومشروط ، يقول المصنف في « الاقتصاد » (ص ٢٨٠) : (ومعلوم أنه يلزم من عدم الشرط عدم المشروط ، فإذا رأينا علم الشخص مع حياته ، وإرادته مع علمه .. فيلزم - لا محالة - من تقدير انتفاء الحياة انتفاء العلم ، ومن تقدير انتفاء العلم انتفاء الإرادة ، ويعبر عن هذا بالشرط ، وهو الذي لا بد منه لوجود الشيء ، ولكن ليس وجود الشيء به ، بل عنده ومعه) .

فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدورات من القدرة الأزليّة مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثّة ، وهذا قرعُ بابٍ آخرَ لعالمٍ آخرَ من عوالم المكَاشفات .

فلنتركَ جميعَ ذلكَ ؛ فإنَّ مقصودنا التنبيهُ على طريقِ التوحيدِ في الفعلِ ، فإنَّ الفاعلَ بالحقيقةِ واحدٌ ، فهوَ المَخُوفُ والمرجُو ، وعليه التوكُّلُ والاعتمادُ ، ولمْ نقدرْ على أنْ نذكرَ من بحرِ التوحيدِ إلا قطرةً من بحرِ المقامِ الثالثِ من مقاماتِ التوحيدِ ، واستيفاءُ ذلكَ في عمرِ نوحٍ محالٌ ؛ كاستيفاءِ ماءِ البحرِ بأخذِ القطراتِ منه ، وكلُّ ذلكَ ينطوي تحتَ قولِكَ : (لا إلهَ إلا اللهُ) ، وما أخفَّ مؤنته على اللسانِ ! وما أسهلَّ اعتقادَ مفهومٍ لفظهِ على القلبِ ! وما أعزَّ حقيقتهُ ولبّه عندَ العلماءِ الراسخينَ في العلمِ ! فكيفَ عندَ غيرِهِم ؟ !

فإن قلتَ : فكيفَ الجمعُ بينَ التوحيدِ والشرعِ ومعنى التوحيدِ أنْ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالى ومعنى الشرعِ إثباتُ الأفعالِ للعبادِ ؟ فإن كانَ العبدُ فاعلاً . . فكيفَ يكونُ اللهُ تعالى فاعلاً ؟ وإن كانَ اللهُ تعالى فاعلاً . . فكيفَ يكونُ العبدُ فاعلاً ؟ ومفعولٌ بينَ فاعلينِ غيرُ مفهومٍ ؟

فأقولُ : نعم ، ذلكَ غيرُ مفهومٍ إذا كانَ للفاعلِ معنى واحدٌ ، وإن كانَ له معنيانِ ويكونُ الاسمُ مجملاً مردّداً بينهما . . لم يتناقضْ ، كما يُقالُ : قتلَ الأميرُ فلاناً ، ويُقالُ قتلهُ الجلادُ ، ولكنَّ الأميرُ قاتلٌ بمعنى ، والجلادُ قاتلٌ

بمعنى آخر ؛ فكَذَلِكَ الْعَبْدُ فَاعِلٌ بِمَعْنَى ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاعِلٌ بِمَعْنَى آخَرَ ،
فَمَعْنَى كَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى فَاعِلاً : أَنَّهُ الْمَخْتَرِعُ الْمَوْجِدُ ، وَمَعْنَى كَوْنِ الْعَبْدِ
فَاعِلاً : أَنَّهُ الْمَحَلُّ الَّذِي خُلِقَ فِيهِ الْقُدْرَةُ بَعْدَ أَنْ خُلِقَ فِيهِ الْإِرَادَةُ بَعْدَ أَنْ خُلِقَ
فِيهِ الْعِلْمُ ، فَارْتَبَطَتِ الْقُدْرَةُ بِالْإِرَادَةِ وَالْحَرَكَةُ بِالْقُدْرَةِ ارْتِبَاطَ الشَّرْطِ
بِالْمَشْرُوطِ ، وَارْتَبَطَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ ارْتِبَاطُ الْمَعْلُولِ بِالْعِلَّةِ وَارْتِبَاطُ الْمَخْتَرِعِ
بِالْمَخْتَرَعِ ، وَكُلُّ مَا لَهُ ارْتِبَاطٌ بِقُدْرَةٍ فَإِنَّ مَحَلَّ الْقُدْرَةِ يُسَمَّى فَاعِلاً لَهُ كَيْفَمَا
كَانَ الْارْتِبَاطُ ؛ كَمَا يُسَمَّى الْجَلَادُ قَاتِلاً وَالْأَمِيرُ قَاتِلاً ؛ لِأَنَّ الْقَتْلَ ارْتَبَطَ
بِقُدْرَتِهِمَا ، وَلَكِنْ عَلَى وَجْهَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ فَعِلاً لَهُمَا ؛ فَكَذَلِكَ
ارْتِبَاطُ الْمَقْدُورِ بِالْقُدْرَتَيْنِ .

وَلَأَجْلِ تَوَافُقِ ذَلِكَ وَتَطَابِقِهِ نَسَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَفْعَالَ فِي الْقُرْآنِ مَرَّةً إِلَى
الْمَلَائِكَةِ ، وَمَرَّةً إِلَى الْعِبَادِ ، وَنَسَبَهَا بَعِيْنَهَا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى نَفْسِهِ ، فَقَالَ
تَعَالَى فِي الْمَوْتِ : ﴿ قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ
وَجَلَّ : ﴿ اللَّهُ يَتُوفِي الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ، أَضَافَ الْحَرْثَ إِلَيْنَا ، ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى : ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿ فَأَبْثَغْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ وَعِنَّا ﴿ .
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى : ﴿ فَنفَخْنَا فِيْهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ ، وَكَانَ النَّافِخُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ، قِيلَ فِي التَّفْسِيرِ : مَعْنَاهُ : إِذَا
قَرَأَهُ عَلَيْكَ جِبْرِيلُ .

وقال تعالى : ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ، فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين القتل ، بل صرح وقال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً ، ولكن معناه : (وما رميت) بالمعنى الذي يكون الربُّ بهِ رامياً (إذ رميت) بالمعنى الذي يكون العبدُ بهِ رامياً ؛ إذ هما معنيان مختلفان .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، ثم قال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ، وقال : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ﴿ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ، ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام : « إِنَّهُ يَدْخُلُ الرَّحِمَ ، فَيَأْخُذُ النُّطْفَةَ فِي يَدِهِ ثُمَّ يُصَوِّرُهَا جَسَداً فيقول : يَا رَبِّ ؛ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ أَسَوِيٌّ أَمْ مَعْوَجٌ ؟ فيقولُ اللهُ ما شاءَ ويخلقُ الملكُ » ، وفي لفظ آخر : « وَيُصَوِّرُ الْمَلِكُ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهَا الرُّوحَ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّقَاوَةِ »^(١) .

وقد قال بعضُ السلف : إِنَّ الْمَلِكَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : الرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُولِجُ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَجْسَامِ ، وَأَنَّهُ يَتَنَفَّسُ بِوَصْفِهِ ، فَيَكُونُ كُلُّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ

(١) كذا في « القوت » (١٣ / ٢) ، وقد رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣٨٧٤) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٢٧ / ٣) ، والآجري في « الشريعة » (٣٦٥) ، وأصله في « الصحيحين » .

روحاً يلجُ في جسم ، ولذلك سُمِّيَ روحاً^(١) .

وما ذكره من مثل هذا الملك وصفته فهو حق ، شاهدته أربابُ القلوب ببصائرهم ، فأما كونُ الروح عبارةً عنه . . فلا يمكنُ أن يُعلمَ إلا بالنقل ، والحكمُ به دون النقل تخمينٌ مجردٌ .

وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فبين أنه الدليل على نفسه ، وذلك ليس بمتناقض ، بل طرق الاستدلال مختلفة ، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى ؛ كما قال بعضهم : (عرفتُ ربِّي برَّبِّي ، ولولا ربِّي لما عرفتُ ربِّي)^(٢) ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ، ثم فوَّضَ الموت والحياة إلى ملكين ، ففي الخبر : أن ملك الموت وملك الحياة تناظرا ، فقال ملك الموت : أنا أُميتُ الأحياء ، وقال ملك الحياة : أنا أحيي الموتى ، فأوحى الله تعالى إليهما : كونا على عملكما وما سُخِّرَتما له من الصنع ، وأنا المميتُ والمحيي ، لا مميت ولا محيي سواي^(٣) .

(١) قوت القلوب (١٣ / ٢) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥١٤) .

(٣) قوت القلوب (١٣ / ٢) .

فإذا ؛ الفعل يُستعمل على وجوه مختلفة ، فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة : « خذها ، لو لم تأتها . . لأتتك »^(١) ، أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها .

ولذلك لما قال ذلك التائب : أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . . فقال عليه الصلاة والسلام : « عرف الحق لأهله »^(٢) .

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى . . فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة لأهلها ، ومن أضافه إلى غيره . . فهو المتجاوز المستعير في كلامه ، وللتجاوز وجه كما أن للحقيقة وجهاً ، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته ، فسماه فاعلاً بحركته ، وظن أنه تحقيق ، وتوهم أن نسبه إلى الله تعالى على سبيل المجاز ، مثل نسبة القتل إلى الأمير ؛ فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبه إلى الجلاد ، فلما انكشف الحق لأهله . . عرفوا أن الأمر بالعكس ، وقالوا : إن كان الفاعل قد وضعه أيها اللغوي للمخترع . . فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢٧٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤٣٥ / ٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٨٦ / ١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١١١) عن الأسود بن سريع رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم أتى بأسير ، فقال له .

بالحقيقة ولغيره بالمجاز ؛ أي : تُجَوِّزُ بِهِ عَمَّا وَضَعَهُ اللُّغَوِيُّ لَهُ .

ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً .
صَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ شَاعِرٌ قَوْلُ لَبِيدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ » (١) .

أي : كُلُّ مَا لَا قِوَامَ لَهُ بِنَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا قِوَامُهُ بِغَيْرِهِ . . . فَهُوَ بِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ
بَاطِلٌ ، وَإِنَّمَا حَقِيقَتُهُ وَحَقِيقَتُهُ بِغَيْرِهِ لَا بِنَفْسِهِ .

فَإِذَا ؛ لَا حَقٌّ بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ؛ فَإِنَّهُ قَائِمٌ
بذَاتِهِ ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ قَائِمٌ بِقُدْرَتِهِ ، فَهُوَ الْحَقُّ ، وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ .
وَلِذَلِكَ قَالَ سَهْلٌ : (يَا مُسْكِينُ ؛ كَانَ وَلَمْ تَكُنْ ، وَيَكُونُ وَلَا تَكُونُ ،
فَلَمَّا كُنْتَ الْيَوْمَ . . . صَرْتَ تَقُولُ : أَنَا وَأَنَا ؟ ! كُنِ الْآنَ كَمَا لَمْ تَكُنْ ؛ فَإِنَّهُ
الْيَوْمَ كَمَا كَانَ) (٢) .

فَإِنْ قُلْتَ : فَقَدْ ظَهَرَ الْآنَ أَنَّ الْكُلَّ جَبْرٌ ، فَمَا مَعْنَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ،
وَالْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ وَكَيْفَ غَضَبُهُ عَلَى فَعَلِ نَفْسِهِ ؟
فَاعْلَمْ : أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ قَدْ أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي كِتَابِ الشُّكْرِ ، فَلَا نَطَوَّلُ
بِإِعَادَتِهِ .

(١) رواه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) .

(٢) قوت القلوب (٦/٢) .

فهذا هو القدرُ الذي رأينا الرمزَ إليه من التوحيد الذي يورثُ حالَ التوكلِ ، ولا يتمُّ هذا إلا بالإيمانِ بالرحمةِ والحكمةِ ، فإنَّ التوحيدَ يورثُ النظرَ إلى مسبِّبِ الأسبابِ ، والإيمانُ بالرحمةِ وسعتها هو الذي يورثُ الثقةَ بمسبِّبِ الأسبابِ ، ولا يتمُّ حالُ التوكلِ كما سيأتي إلا بالثقةِ بالوكيلِ ، وطمأنينةِ القلبِ إلى حسنِ نظرِ الكفيلِ .

وهذا الإيمانُ أيضاً بابٌ عظيمٌ من أبوابِ الإيمانِ ، وحكايةُ طريقِ المكاشفينَ فيه تطولُ ، فلنذكرُ حاصلَهُ ليعتقدهُ الطالبُ لمقامِ التوكلِ اعتقاداً قاطعاً لا يستريبُ فيه :

وهو أن يصدّقَ تصديقاً يقينياً لا ضعفَ فيه ولا ريبَ أن اللهَ عزَّ وجلَّ لو خلقَ الخلقَ كلَّهُم على عقلٍ أعقلِهِم وعلمٍ أعلمِهِم ، وخلقَ لَهُم من العلمِ ما تحتملهُ نفوسُهُم ، وأفاضَ عَلَيْهِم من الحكمةِ ما لا منتهى لوصفِها ، ثمَّ زادَ مثلَ عددِ جميعِهِم علماً وحكمةً وعقلاً ، ثمَّ كشفَ لَهُم عواقبَ الأمورِ ، وأطلعَهُم على أسرارِ الملكوتِ ، وعرفَهُم دقائقَ اللطفِ وخفايا العقوباتِ ، حتَّى اطلعوا بهِ على الخيرِ والشرِّ ، والنفعِ والضرِّ ، ثمَّ أمرَهُم أن يدبِّروا الملكَ والملكوتَ بما أعطوا من العلومِ والحكمِ . . لما اقتضى تديرُ جميعِهِم معَ التعاونِ والتظاهرِ عليه أن يُزادَ فيما دبَّرَ اللهُ سبحانه الخلقَ بهِ في الدنيا والآخرةِ جناحُ بعوضةٍ ، ولا أن يُنقصَ منها جناحُ بعوضةٍ ، ولا أن يُرفعَ منها ذرَّةٌ ، ولا أن يُخفضَ منها ذرَّةٌ ، ولا أن يُدفعَ مرضٌ أو عيبٌ أو نقصٌ أو فقرٌ

أَوْ ضُرٌّ عَمَّنْ بُلِيَ بِهِ ، وَلَا أَنْ تُزَالَ صِحَّةٌ أَوْ كَمَالٌ أَوْ غِنَى أَوْ نَفْعٌ عَمَّنْ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ، بَلْ كُلُّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنْ رَجَعُوا فِيهَا الْبَصَرَ ، وَطَوَّلُوا فِيهَا النَّظَرَ . . مَا رَأَوْا فِيهَا مِنْ تَفَاوُتٍ وَلَا فُتُورٍ .

وَكُلُّ مَا قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ عِبَادِهِ مِنْ رِزْقٍ وَأَجَلٍ ، وَسُرُورٍ وَفَرَحٍ ، وَعَجْزٍ وَقُدْرَةٍ ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ . . فَكُلُّهُ عَدْلٌ مُحَضَّرٌ لَا جَوْرَ فِيهِ ، وَحَقٌّ صِرْفٌ لَا ظُلْمَ فِيهِ ، بَلْ هُوَ عَلَى التَّرْتِيبِ الْوَاجِبِ الْحَقُّ عَلَى مَا يَنْبَغِي ، وَكَمَا يَنْبَغِي ، وَبِالْقَدْرِ الَّذِي يَنْبَغِي ، وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَصْلًا أَحْسَنُ مِنْهُ وَلَا أَتَمُّ وَلَا أَكْمَلُ^(١) ، وَلَوْ كَانَ وَادَّخَرَهُ مَعَ الْقُدْرَةِ وَلَمْ يَفْعَلْهُ . . لَكَانَ بَخْلًا يَنَاقِضُ الْجُودَ ، وَظُلْمًا يَنَاقِضُ الْعَدْلَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا . . لَكَانَ عَجْزًا يَنَاقِضُ الْإِلَهِيَّةَ ، بَلْ كُلُّ فَقْرٍ وَضُرٍّ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ نَقْصَانٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِيَادَةٌ فِي الْآخِرَةِ ، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْآخِرَةِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى شَخْصٍ فَهُوَ نَعِيمٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى غَيْرِهِ ، إِذْ لَوْلَا اللَّيْلُ . . لَمَا عُرِفَ قَدْرُ النَّهَارِ ، وَلَوْلَا الْمَرَضُ . . لَمَا تَنَعَّمَ الْأَصْحَاءُ بِالصِّحَّةِ ، وَلَوْلَا النَّارُ . .

(١) هذه هي العبارة المجلجلة التي تلاق وتقال : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) ، والتي تحزب العلماء لأجلها في حق المصنف رحمه الله أحزاباً ، والمراد هنا : إسقاط قول من قال بدس هذه العبارة على المصنف ، وهو قول غريب ! إذ العبارة ليست غريبة عن سياقها ، بل سبقها ولحقها مثل لها ؛ بنحو لفظها أو بمعناها ، ثم هي ثابتة في جميع النسخ ، بل وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩ / ٤٣٠) عن نسخه التي اعتمدها : (هكذا نص هذه العبارة في سائر نسخ الكتاب ، ولا سيما وفي أواخر بعضها أنها نقلت من نسخة موثوق بها معتمداً على صحتها) .

لما عرف أهل الجنة قدر النعمة .

وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبيحها ليس بظلم ، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل . . فكذاك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران فداء لأهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ، وما لم يُخلق الناقص . . لا يُعرف الكامل ، ولولا خلق البهائم . . لما ظهر شرف الإنس ، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة ، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً .

وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل ؛ لأنه فداء كامل بناقص . . فكذاك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لا جور فيه ، وحق لا لعب فيه .

وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج ، قريب في السعة من بحر التوحيد ، فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سرُّ القدر الذي تحير فيه الأكثرون ، ومُنِعَ مِنْ إفشاء سرِّه المكاشفون .

والحاصل : أن الخير والشر مقضي به ، وقد صار ما قُضِيَ به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا رادَّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن

ليخطئكَ ، وما أخطأكَ لم يكن ليصيبكَ ، ولنقتصرَ على هذه المرامزِ مِنْ
علومِ المكاشفةِ التي هي أصولُ مقامِ التوكلِ ، ولنرجعَ إلى علمِ
المعاملة^(١) .



(١) وقد أجاب المصنف رحمه الله تعالى في «إملائه» عن سياقه هنا عما اعترضه
المعترضون بأحسن جواب ، وقد عقد الحافظ الزبيدي فصلاً طويلاً في «إتحافه»
(٤٣٤/٩) ساق فيه أقوال المعترضين والمنتصرين .

الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ فِي أَحْوَالِ التَّوَكُّلِ وَأَعْمَالِهِ

وفيه بيانُ حالِ التَّوَكُّلِ وبيانُ ما قاله الشيوخُ في حدِّ التَّوَكُّلِ ، وبيانُ التَّوَكُّلِ في الكسبِ للمنفردِ والمُعِيلِ ، وبيانُ التَّوَكُّلِ بتركِ الادخارِ ، وبيانُ التَّوَكُّلِ في دفعِ المضارِّ ، وبيانُ التَّوَكُّلِ في إزالةِ الضررِ بالتداوي وغيره ، واللهُ الموفقُ برحمته .

بيان حال التَّوَكُّلِ

قد ذكرنا أنَّ مقامَ التَّوَكُّلِ ينتظمُ منْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، وذكرنا العلمَ . فأما الحالُ . . فالتَّوَكُّلُ بالتحقيقِ عبارةٌ عنه ، وإنَّما العلمُ أصلُهُ ، والعملُ ثمرتُهُ ، وقد أكثرَ الخائضونَ في بيانِ حدِّ التَّوَكُّلِ واختلفتْ عباراتهمُ ، وتكلَّم كلُّ واحدٍ عنْ مقامِ نفسه ، وأخبرَ عنْ حدِّه ، كما جرتْ عادةُ أهلِ التصوُّفِ بهِ ، ولا فائدةَ في النقلِ والإكثارِ .
فلنكشفِ الغطاءَ عنه فنقولُ :

التَّوَكُّلُ مشتقٌّ منْ الوكالةِ ، يُقالُ : وَكَلَّ امرءٌ إلى فلانٍ ؛ أي : فَوَضَّهُ إليه واعتمدَ عليه فيه ، ويُسمَّى الموكولُ إليه وكيلاً ، ويُسمَّى المفوضُ إليه متكللاً عليه ، ومتوكلاً عليه ، مهما اطمأنتَّ إليه نفسه ووثقَ بهِ ، ولمْ يتهمهُ فيه بتقصيرٍ ، ولمْ يعتقَدْ فيه عجزاً وقصوراً .

فالتوكلُ عبارةٌ عنِ اعتمادِ القلبِ على الوكيلِ وحدهُ ، ولنضربِ الوكيلَ في الخصومةِ مثلاً ؛ فنقولُ : من ادَّعَى عليه دعوى باطلةً بتليسِ فوكلَ للخصومةِ مَنْ يكشفُ ذلكَ التليسَ . . لم يكنْ متوكلاً عليه ولا واثقَ القلبِ مطمئنً النفسِ بوكيله إلا إذا اعتقدَ فيه أربعةَ أمورٍ : منتهى الهدايةِ ، ومنتهى القوةِ ، ومنتهى الفصاحةِ ، ومنتهى الشفقةِ .

أما الهدايةُ . . فليعرفَ بها مواقعَ التليسِ حتَّى لا يخفى عليه من غوامضِ الحيلِ شيءٌ أصلاً .

وأما القدرةُ والقوةُ . . فليستجريءَ على التصريحِ بالحقِّ ؛ فلا يدهنَ ولا يخافَ ، ولا يستحيي ولا يجبنَ ، فإنه ربُّما يطلعُ على وجهِ تليسِ خصمه فيمنعهُ الخوفُ أو الجبنُ أو الحياءُ أو صارفُ آخرٍ من الصوارفِ المضعفةِ للقلبِ . . عن التصريحِ به .

وأما الفصاحةُ . . فهي أيضاً من القدرةِ ، إلا أنها قدرةٌ في اللسانِ على الإفصاحِ عن كلِّ ما استجراً القلبُ عليه وأشارَ إليه ، فلا كلُّ عالمٍ بمواقعِ التليسِ قادرٌ بذلاقةِ لسانه على حلِّ عقدتهِ .

وأما منتهى الشفقةِ . . فيكونُ باعثاً له على بذلِ كلِّ ما يقدرُ عليه في حقِّه من المجهودِ ، فإنَّ قدرتهُ لا تغني دونَ العنايةِ به إذا كان لا يهتمُّ أمرُهُ ، ولا يبالي به ظفرُ به خصمه أو لم يظفرْ ، هلكَ به حقُّه أو لم يهلكْ .

فإن كان شاكاً في هذه الأربعةِ ، أو في واحدةٍ منها ، أو جوَّز أن يكونَ

خصمه أكمل في هذه الأربعة منه.. لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل يبقى منزع القلب ، مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذرهُ من قصور وكيله وسطوة خصمه ، ويكون تفاوت أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه .

والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر ، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكل في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر ، إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد المتوكل ، وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله ، فإنه يحصل له يقينٌ بمنتهاى الشفقة والعناية ، فتصيرُ خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعاً ، وكذلك سائر الخصال يُتصورُ أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة والتجربة ، وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً ، وأقواهم بياناً ، وأقدرهم على نصرته الحق ، بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق .

فإذا عرفت التوكل في هذا المثال .. فقس التوكل على الله تعالى عليه ، فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد وبالأحاد ، وأنه ليس وراء منتهاى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهاى علمه علم ، ولا وراء منتهاى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة .. اتكل - لا محالة - قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، كما

سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإنَّ الحول عبارة عن الحركة ،
والقوة عبارة عن القدرة .

فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك . . فسيبهُ أحدُ أمرين : إمَّا
ضعفُ اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإمَّا ضعفُ القلبِ ومرضُهُ
باستيلاء الجبنِ عليه ، وانزعاجُهُ بسببِ الأوهامِ الغالبةِ عليه ، فإنَّ القلبَ قد
ينزعجُ تبعاً للوهمِ وطاعةً له من غيرِ نقصانٍ في اليقين ؛ فإنَّ مَنْ يتناولُ عسلاً
فشبهه بين يديه بالعدرة . . ربَّما نفرَ طبعُهُ عنه وتعدَّرَ عليه تناولُهُ ، ولو كُلفَ
العاقلُ أن يبيتَ مع الميتِ في قبرٍ أو فراشٍ أو بيتٍ . . نفرَ طبعُهُ وإن كان متيقناً
بكونه ميتاً ، وأنه جمادٍ في الحالِ ، وأنَّ سنةَ اللهِ تعالى مطردةٌ بأنَّه لا يحشرُهُ
الآنَ ولا يحييه وإن كان قادراً عليه ؛ كما أنَّها مطردةٌ ألا يقلبَ القلمَ الذي في
يده حيَّةً ، ولا يقلبَ السُّنورَ أسداً وإن كان قادراً عليه ، ومع أنَّه لا يشكُّ في
هذا اليقين ينفرُ طبعُهُ عن مضاجعةِ الميتِ في فراشٍ له أو المبيتِ معه في بيتٍ
ولا ينفرُ عن سائرِ الجماداتِ ، وذلكَ جبنٌ في القلبِ ، وهو نوعٌ ضعفٍ قلماً
يخلو الإنسانُ عن شيءٍ منه وإن قلَّ ، وقد يقوى فيصيرُ مرضاً ، حتَّى يخافُ
أن يبيتَ في البيتِ وحده مع إغلاقِ البابِ وإحكامِهِ !

فإذا ؛ لا يتمُّ التوكلُ إلا بقوةِ القلبِ وقوةِ اليقينِ جميعاً ؛ إذ بهما يحصلُ
سكونُ القلبِ وطمأنينتهُ ، فالسكونُ في القلبِ شيءٌ ، واليقينُ شيءٌ آخرٌ ،
فكم من يقينٍ لا طمأنينةَ معه ؛ كما قال تعالى لإبراهيمَ عليه السلامُ : ﴿ أَوَلَمْ
تُؤْمِنْ قَالِ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ، فالتمسَ أن يكونَ مشاهداً إحياءِ الميتِ

بعينه ليثبت في خياله ، فإنَّ النفسَ تتبعُ الخيالَ وتطمئنُّ به ولا تطمئنُّ باليقينِ في ابتداءِ أمره إلى أن تبلغَ بالآخرةِ إلى درجةِ النفسِ المطمئنةِ ، وذلك لا يكونُ في البدايةِ أصلاً ، وكم من مطمئنٍّ لا يقينَ له ، كسائرِ أربابِ المللِ والمذاهبِ ؛ فإنَّ اليهوديَّ مطمئنُّ القلبِ إلى تهوُّدِهِ ، وكذا النصرانيُّ ، ولا يقينَ لهم أصلاً ، وإنَّما يتَّبَعُونَ الظنَّ وما تهوى الأنفسُ ، ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى وهو سببُ اليقينِ ، إلا أنَّهم معرضونَ عنه .

فإذا ؛ الجبنُ والجرأةُ غرائزُ ، ولا ينفعُ اليقينُ معها ، فهي أحدُ الأسبابِ التي تضادُّ حالَ التوكلِ ؛ كما أنَّ ضعفَ اليقينِ بالخصالِ الأربعةِ أحدُ الأسبابِ ، وإذا اجتمعتْ هذه الأسبابُ . . حصلتِ الثقةُ باللهِ تعالى .

وقد قيلَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : ملعونٌ مَنْ ثَقَّتْهُ إنْسانٌ مثْلُهُ)^(١) .

وقد قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مَنْ اعْتَزَّ بِالْعَبِيدِ . . أَذَلَّهُ اللهُ »^(٢) .



وإذا انكشفَ لك معنى التوكلِ وعُلِمَتِ الحالةُ التي سُمِّيَتْ توكلًا . . فاعلمْ أنَّ تلكَ الحالةَ لها في القوَّةِ والضعفِ ثلاثُ درجاتٍ :

(١) كذا في « القوت » (٤ / ٢) عن يحيى بن أبي كثير ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٣ / ٩) عن ذي النون المصري .

(٢) كذا في « القوت » (٤ / ٢) ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » (٦٦٩ / ٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٤ / ٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٥٠) .

الدرجة الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفاليته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل .

الثانية - وهي أقوى - : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، فإن رآها . . تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابته أمر في غيبتها . . كان أول سابق إلى لسانه : (يا أمّاه) ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمّه ؛ فإنها مفرعته ، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ؛ ثقة بها ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طُلب بتفصيل هذه الخصال . . لم يقدر على تلفيق لفظه ، ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك .

فمن كان تاللهه إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه . . كلف به كما يكلف الصبي بأمه ، فيكون متوكلاً حقاً ، فإن الطفل متوكّل على أمه .

والفرق بين هذا وبين الأول : أن هذا متوكّل وقد فني في توكله عن توكله ؛ إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى المتوكّل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكّل عليه ، وأمّا الأول . . فمتوكّل بالتكلف والكسب ، وليس فانياً عن توكله ؛ لأن له التفاتاً^(١) إلى توكله وشعوراً به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكّل عليه وحده .

(١) في غير (ج) : (أي : له التفات) بدل (لأن له التفاتاً) .

وإلى هذه الدرجة أشار سهلٌ حيثُ سُئِلَ عن التوكلِ ما أدناه؟ قال :
ترك الأمانِيَّ ، قيل : وأوسطُهُ؟ قال : ترك الاختيار - وهو إشارة إلى الدرجة
الثانية - وسُئِلَ عن أعلاه؟ فلم يذكرهُ ، وقال : لا يعرفُهُ إلا مَنْ بلغَ
أوسطَهُ^(١) .

الثالثة - وهي أعلاها - : أن يكونَ بينَ يديِ الله تعالى في حركاتِهِ وسكناتِهِ
مثل الميت بين يدي الغاسلِ ، لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحرُّكُهُ
القدرةُ الأزليَّةُ كما تحرُّكُ يدُ الغاسلِ الميتَ ، وهو الذي قَوِيَ يقينُهُ^(٢) بأنَّه
مجرى الحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفاتِ ، وأنَّ كَلَّهُ يحدثُ
جبراً ، فيكونُ عينَ الانتظارِ لما يجري عليه^(٣) ، ويفارقُ الصبيَّ ؛ فإنَّ
الصبيَّ يفرعُ إلى أمِّه ويصيحُ ، ويتعلَّقُ بذيلِها ويعدو خلفها ، بل مثالُ هذا
مثالُ صبيٍّ علمَ أنَّه وإن لم يزعقْ بأمِّه . فالأمُّ تطلبُهُ ، وأنَّه وإن لم يتعلَّقْ
بذيلِ أمِّه . فالأمُّ تحملهُ ، وإن لم يسألها اللبن . فالأمُّ تفتحُهُ وتسقيه^(٤) .

وهذا المقامُ في التوكلِ يثمرُ تركَ الدعاءِ والسؤالِ منه ؛ ثقةً بكرمه
وعنايته ، وأنَّه يُعطي ابتداءً أفضلَ ممَّا يُسألُ ، فكم من نعمةٍ ابتدأها قبلَ

(١) قوت القلوب (٤ / ٢) .

(٢) في (أ) : (وهو الذي يرى نفسه) .

(٣) والعبارة في « الإتحاف » (٤٦٤ / ٩) : (وأن كلاً يحدثُ جبراً ، فيكونُ بائناً عن
الانتظار لما يجري عليه) .

(٤) في (أ ، ع) : (تعالجه) بدل (تفتحهُ) ، وفي (ج ، ن) : (فالأم تبتدىء
وترضعهُ) بدل (فالأم تفتحهُ وتسقيه) .

السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق . والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء
والسؤال منه ، وإنما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط .

فإن قلت : فهذه الأحوال هل يُتصور وجودها ؟

فاعلم : أن ذلك ليس بمحال ، ولكنه عزيز نادر ، والمقام الثاني
والثالث أعزها ، والأوّل أقرب إلى الإمكان .

ثم إذا وجد الثاني والثالث . . فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون المقام
الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجل ؛ فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول
والقوة والأسباب طبع ، وانقباضه عارض ، كما أن انبساط الدم إلى جميع
الأطراف طبع وانقباضه عارض ، والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر
البشرة إلى الباطن ، حتى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت تتراءى
من وراء الرقيق من ستر البشرة ، فإن البشرة ستر رقيق تراءى من وراء حمرة
الدم ، وانقباضه يُوجب الصفرة ، وذلك لا يدوم ، وكذلك انقباض القلب
بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم .

وأما المقام الثاني . . فيشبه صفرة المحموم ، فإنه قد يدوم يوماً
ويومين ، والأوّل يشبه صفرة مريض استحكم مرضه ، فلا يبعد أن يدوم ،
ولا يبعد أن يزول .

فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبيرٌ وتعلُّقٌ بالأسباب في هذه الأحوال ؟
 فاعلم : أنَّ المقامَ الثالثَ ينفي التدبيرَ رأساً ما دامتِ الحالةُ باقيةً ، بل
 يكونُ صاحبُها كالمبهُوتِ .

والمقامُ الثاني ينفي كلَّ تدبيرٍ إلا من حيثُ الفزعُ إلى الله تعالى بالدعاء
 والابتغال ؛ كتدبيرِ الطفلِ في التعلُّقِ بأمِّه فقط .

والمقامُ الأوَّلُ لا ينفي أصلَ التدبيرِ والاختيارِ ، ولكنَّ ينفي بعضَ
 التدبيراتِ ؛ كالتوكلِ على وكيله في الخصومةِ ؛ فإنَّه يتركُ تدبيرَهُ من جهةِ
 غيرِ الوكيلِ ، ولكنَّ لا يتركُ التدبيرَ الذي أشارَ إليه وكيلُهُ به ، أو التدبيرَ الذي
 عرفَهُ من عادتهِ وسنتِهِ دونَ صريحِ إشارتهِ .

فأمَّا الذي يعرفُهُ بإشارتهِ فأنَّ يقولَ له : لستُ أتكلَّمُ إلا في حضورِكَ ،
 فيشتغلُ - لا محالةً - بالتدبيرِ للحضورِ ، ولا يكونُ هذا مناقضاً لتوكُّلهُ عليه ؛
 إذ هو ليسَ فزعاً منه إلى حولِ نفسه وقوَّته في إظهارِ الحجَّةِ ، ولا إلى حولِ
 غيره ، بل من تمامِ توكُّلهِ عليه أنْ يفعلَ ما رسمَهُ له ؛ إذ لو لم يكنْ متوكلاً
 عليه ولا معتمداً له في قوله . . لما حضرَ بقوله .

وأمَّا المعلومُ من عادتهِ واطرادِ سنتِهِ . . فهو أنْ يعلمَ من عادتهِ أنَّه لا يحتاجُ
 الخصمَ إلا من السجِّلِ ، فتمامُ توكُّلهِ إنْ كانَ متوكلاً عليه أنْ يكونَ معولاً
 على سنتِهِ وعادتهِ ووافياً بمقتضاها ، وهو أنْ يحملَ السجِّلَ مع نفسه إليه عندَ
 مخاصمتهِ .

فإذا ؛ لا يستغني عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ، ولو ترك شيئاً من ذلك . . كان نقصاً في توكله ، فكيف يكون فعله نقصاً فيه ؟!

نعم ، بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته ، وقعد ناظراً إلى محتاجته . . فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره ، حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفرغ إلى حوله وقوته ، إذ لم يبق له حول ولا قوة ، وقد كان فرغه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته ، وقد انتهى نهايته ، فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري .

وإذا تأملت هذا . . اندفع عنك كل إشكال في التوكل ، وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل ، وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل ، بل هو على الانقسام ، وسيأتي تفصيله في الأعمال .

فإذا ؛ فرغ الموكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل ؛ لأنه يعلم أنه لولا الوكيل . . لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى .

فإذا ؛ لم يصر مفيداً من حيث إنه حوله وقوته ، بل من حيث إن الوكيل جعله مفيداً لمحتاجته ، وعرفه ذلك بإشارته وسنته .

فإذا ؛ لا حول ولا قوة له إلا بالوكيل ، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل

معناها في حق الوكيل ؛ لأنه ليس خالق حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما ، ولم يكونا مفيدين لولا فعله ، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق ، وهو الله تعالى ؛ إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد ، وهو الذي جعلهما مفيدين ؛ إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد .

فإذا ؛ لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً ، فمن شاهد هذا كذلك . . . كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله^(١) ، وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يُعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ ! وهيئات ! فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد ، ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها . . . كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى ؛ إذ في هذه الكلمة إضافة شيئين إلى الله تعالى فقط ، وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله . . . فهو نسبة الكل إليه ، فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا .

(١) فمنها : ما رواه البخاري (٦٣٨٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً : « . . . فقال : يا عبد الله بن قيس ؛ قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فإنها كنز من كنوز الجنة » ، ومنها : ما رواه الحاكم في « المستدرک » (٥٤٢ / ١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . . . كان دواء من تسعة وتسعين داء ، أيسرها الهم » ، وانظر « الإتحاف » (٤٦٦ / ٩) .

وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين وليين .. فذلك لهذه الكلمة
ولسائر الكلمات ، وأكثر الخلق قيّدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبّين ، وإلى
اللبّين الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ صَادِقاً
مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصاً .. وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » ^(١) ، وحيثُ أطلق من غير ذكر الصدق
والإخلاص .. أراد بالمطلق هذا المقيّد ، كما أضاف المغفرة إلى الإيمان
والعمل الصالح في بعض المواضع ، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض
المواضع ، والمراد به المقيّد بالعمل الصالح ، فالملك لا يُنال بالحديث ،
وحركة اللسان حديثٌ ، وعقد القلب أيضاً حديثٌ ، ولكنه حديثٌ نفسٍ ،
وإنما الصدق والإخلاص وراءهما ، ولا يُنصب سريرُ الملك إلا للمقرّبين ،
وهم المخلصون .

نعم ، لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجاتٌ
عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك ، أما ترى أن الله تعالى لما ذكر
في سورة الواقعة المقرّبين السابقين .. تعرّض لسرير الملك فقال : ﴿ عَلَى
سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ ﴿ ، ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ..
ما زاد على ذكر الماء والظلّ والفواكه والأشجار والحدود العيون ، وكل ذلك
من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ، ويتصوّر ذلك للبهائم

(١) رواه ابن خزيمة في « التوحيد » (٥٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه
أبو يعلى في « مسنده » (٦٢٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والطبراني في
« الأوسط » (١٢٥٧) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنهما مرفوعاً بنحوه .

على الدوام ، وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ؟!

ولو كان لهذه اللذات قدر . لما وسعت على البهائم ، ولما رُفِعَ عنها درجة الملائكة .

أفترى أن أحوال البهائم وهي مسيئة في الرياض ، متعمة بالمياه والأشجار وأصناف المأكولات ، متمعة بالنزوان والسفاد . . أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوي الكمال مغبوبة من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين ؟!

هيهات هيهات ! ما أبعد عن التحصيل من إذا خيّر بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل !

وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه ، وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة . . فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب^(١) ، فكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة . . فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة ، وهؤلاء هم الذين يُقال فيهم : ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ ، وإنما كانوا أضلّ لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها

(١) تقدم الحديث عن القول بالمشابهة ، والأساكفة : جمع إسكاف ، ويطلق على كل صانع ، وهو هنا الخراز الذي يعمل في الأحذية .

الطلب للعجز ، وأما الإنسان . . ففي قوّته ذلك ، والقادر على نيل الكمال
أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال .
وإذا كان هذا كلاماً معترضاً . . فلنرجع إلى المقصود ، فقد بينّا معنى
قول : لا إله إلا الله ، ومعنى قول : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، ومن ليس
قائلاً بهما عن مشاهدة . . فلا يتصور منه حال التوكل .



فإن قلت : ليس في قولك : لا حول ولا قوّة إلا بالله إلا نسبة شيئين
إلى الله ، فلو قال قائل : السماء والأرض خلق الله . . فهل يكون ثوابه مثل
ثوابه ؟

فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ، ولا مساواة بين
الدرجتين ، ولا يُنظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوّة إن جاز
وصفهما بالصغر تجوّزاً ، فليست الأمور بعظم الأشخاص ، بل كلّ عامي
يفهم أنّ الأرض والسماء ليستا من جهة آدميين ، بل هما من خلق الله
تعالى ، فأما الحول والقوّة . . فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة
وطوائف كثيرة ممن يدّعي أنّه يدقّق النظر في الرأي والمعقول حتّى يشقّ
الشعر بحدّة نظره ، فهي مهلكة خطيرة ، ومزلة عظيمة ، هلك فيها
الغافلون ؛ إذ أثبتوا لأنفسهم أمراً ، وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق
سوى الله تعالى ، فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله إياه . . فقد علت رتبته ،
وعظمت درجته ، فهو الذي يصدق قوله : لا حول ولا قوّة إلا بالله .

وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان :

إحداهما : النظرُ إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيَم والمطر وسائر الجمادات .

والثانية : النظرُ إلى اختيار الحيوانات ، وهي أعظمُ العقبتين وأخطرُهُما ، وبقطعِهما^(١) كمالُ سرِّ التوحيد ، فلذلك عظمُ ثوابُ هذه الكلمة ؛ أعني : ثوابَ المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها .

فإذا ؛ رجعَ حالُ التوكلِ إلى التبرِّي من الحول والقوَّة ، والتوكلِ على الواحدِ الحقِّ ، وسيتضحُّ ذلك عندَ ذكرنا تفصيلَ أعمالِ التوكلِ إن شاء اللهُ تعالى .



(١) في النسخ (وكأنه) بدل (وبقطعهما) ، والمثبت من (ق) .

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

اعلم : أنَّ شيئاً منها لا يخرجُ عمّا ذكرناه ، ولكن كلُّ واحدٍ يشيرُ إلى بعضِ الأحوالِ .

فقد قال أبو موسى الدَّيْلِيُّ : قلتُ لأبي يزيدَ : ما التوكلُ ؟ فقال : ما تقولُ أنتَ ؟ قلتُ : إنَّ أصحابنا يقولونَ : لو أنَّ السباعَ والأفاعيَ عن يمينِكَ ويساركِ . . ما تحرَّكَ لذلك سرُّكَ ، فقال أبو يزيدَ : نعم ، هذا قريبٌ ، لكن لو أنَّ أهلَ الجنةِ في الجنةِ يتنعمونَ ، وأهلُ النارِ في النارِ يُعذبونَ ، ثمَّ وقع بك تمييزٌ بينهما . . خرجت من جملةِ التوكلِ ^(١) .

فما ذكره أبو موسى فهو خبرٌ عن أعلى أحوالِ التوكلِ ، وهو المقامُ الثالثُ ، وما ذكره أبو يزيدَ عبارةٌ عن أعزِّ أنواعِ العلمِ الذي هو من أصولِ التوكلِ ، وهو العلمُ بالحكمةِ ، وأنَّ ما فعله اللهُ تعالى فعله بالواجبِ ^(٢) ، فلا تمييزَ بين أهلِ النارِ وأهلِ الجنةِ بالإضافةِ إلى أصلِ العدلِ والحكمةِ ، وهذا أغمضُ أنواعِ العلمِ ، ووراءه سرُّ القدرِ ، وأبو يزيدَ قلَّما يتكلَّمُ إلا عن أعلى المقاماتِ وأقصى الدرجاتِ .

وليس تركُّ الاحترازِ عن الحياتِ شرطاً في المقامِ الأوَّلِ من التوكلِ ، فقد

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٩٥) ، ومعنى (وقع بك تمييز بينهما) : بأن ميَّرت أحدهما عن الآخر ؛ يعني : اخترت لنفسك شيئاً . « إتحاف » (٤٦٩ / ٩) .

(٢) وهذه العبارة أيضاً دائرة في فلك عبارته : (ليس بالإمكان أبدع . . .) .

احترز أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار ؛ إذ سد منافذ الحيّات^(١) ،
إلا أن يُقال : فعل ذلك بيده ولم يتغيّر بسببه سرّه ، أو يُقال : إنّما فعل ذلك
شفقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه ، وإنّما يزول
التوكل بحركة سرّه وتغيّره لأمر يرجع إلى نفسه ، وللنظر في هذا مجال ،
ولكن سيأتي أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ؛ فإن حركة السر من
الحيّات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيّات ؛ إذ لا حول
للحيّات ولا قوّة لها إلا بالله ، وإن احترز . لم يكن اتكاله على تدبيره
وحوله وقوّته في الاحتراز ، بل على خالق الحول والقوّة والتدبير .

وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال : (خلع الأرباب ، وقطع
الأسباب) ، فخلع الأرباب إشارة إلى علوم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة
إلى الأعمال ، وليس فيه تعرّض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمّنه ، فقل
له : زدنا ، فقال : (إلقاء النفس في العبوديّة ، وإخراجها من
الربوبيّة)^(٢) ، وهذا إشارة إلى التبرّي من الحول والقوّة فقط .

وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال : (إن كان لك عشرة آلاف درهم
وعليك دائق دين . لم تأمن أن تموت ويبقى ذلك في عنقك ، ولو كان

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨٣) ، والبيهقي في « الدلائل »
(٤٧٦ / ٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨٠ / ٣٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٠ / ٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٧) .

عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاءً . . لا تيسر من الله تعالى أن يقضيها عنك) ، وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن في المقدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة .

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال : (التعلق بالله تعالى في كل حال) ، فقال السائل : زدني ، فقال : (ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك)^(١) ، فالأول عام للمقامات الثلاث ، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم ؛ إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال : أمّا إليك . . فلا^(٢) ؛ إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب ، وهو حفظ جبريل له ، فتركه ثقة بأن الله تعالى إن أراد . . سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولي لذلك ، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى ، فلم ير معه غيره ، وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز .

وقال أبو سعيد الخزاز : (التوكل اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب)^(٣) ، ولعله يشير إلى المقام الثاني ، فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطرابه بلا سكون إشارة إلى فزعه

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٩٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠ / ١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨٤ / ٦) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٩٨) .

إليه وابتهااله وتضرّعه بين يديه ؛ كاضطرابِ الطفلِ بيدِه إلى أمّه ، وسكونِ قلبِه إلى تمامِ شفقتِها^(١) .

وقال أبو عليّ الدقاقُ : (التوكلُ ثلاثُ درجاتٍ : التوكلُ ، ثمّ التسليمُ ، ثمّ التفويضُ ، فالمتوكلُ يسكنُ إلى وعده ، والمسلمُ يكتفي بعلمِه ، وصاحبُ التفويضِ يرضى بحكمِه)^(٢) ، وهذا إشارةٌ إلى تفاوتِ درجاتِ نظره بالإضافة إلى المنظورِ إليه ، فإنّ العلمَ هو الأصلُ ، والوعدُ يتبعُه ، والحكمُ يتبعُ الوعدَ ، ولا يبعدُ أن يكونَ الغالبُ على قلبِ المتوكلِ ملاحظةُ شيءٍ من ذلك .

وللشيخ في التوكلِ أقاويلُ سوى ما ذكرناه ، فلا نطوّلُ بها ، فإنّ الكشفَ أنفعُ من الرواية والنقلِ .

فهذا ما يتعلّقُ بحالِ التوكلِ ، واللهُ الموفقُ برحمته ولطفه .



(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥١ / ٨) بنحوه .

(٢) رواه القشيري عنه في « رسالته » (ص ٢٩٨) .

بيان أعمال المتوكلين

اعلم : أنَّ العلمَ يورثُ الحالَ ، والحالَ يثمرُ الأعمالَ ، وقد يُظنُّ أنَّ معنى التوكلِ تركُ الكسبِ بالبدنِ ، وتركُ التدبيرِ بالقلبِ ، والسقوطُ على الأرضِ كالخرقةِ الملقاةِ ، وكاللحمِ على الوضغِ ، وهذا ظنُّ الجهَّالِ ، فإنَّ ذلكَ حرامٌ في الشرعِ ، والشرعُ قد أثبتَ على المتوكلينَ ، فكيفَ يُنالُ مقامُ من مقاماتِ الدينِ بمحظوراتِ الدينِ ؟!

بل نكشفُ الغطاءَ عنه ونقولُ :

إنَّما يظهرُ تأثيرُ التوكلِ في حركةِ العبدِ وسعيهِ بعملِهِ إلى مقاصدِهِ^(١) ، وسعيُ العبدِ باختيارِهِ إمَّا أن يكونَ لأجلِ جلبِ نافعٍ هوَ مفقودٌ عندهُ كالكسبِ ، أو لحفظِ نافعٍ هوَ موجودٌ عندهُ كالادخارِ ، أو لدفعِ ضارٍّ لم ينزلْ بهِ كدفعِ الصائلِ والسارقِ والسباعِ ، أو لإزالةِ ضارٍّ قد نزلَ بهِ كالتداوي من المرضِ ، فمقصودُ حركاتِ العبدِ لا تعدو هذهَ الفنونَ الأربعةَ ، وهوَ جلبُ النافعِ ، أو حفظُهُ ، أو دفعُ الضارِّ ، أو قطعُهُ ، فلنذكرُ شرطَ التوكلِ ودرجاتِهِ في كلِّ واحدٍ منها مقروناً بشواهدِ الشرعِ .



(١) في (ج ، د ، ع ، ف) : (بعلمه) بدل (بعمله) .

الفن الأول : في جلب النافع

فنقول فيه : الأسباب التي بها يُجلبُ النافعُ على ثلاثِ درجاتٍ : مقطوعٌ به ، ومظنونٌ ظناً يوثقُ به ، وموهومٌ وهماً لا تثقُ النفسُ به ثقةً تامةً ولا تطمئنُ إليه .

الدرجة الأولى : المقطوعُ به :

وذلك مثلُ الأسبابِ التي ارتبطتِ المسبباتُ بها بتقديرِ الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلفُ ؛ كما إذا كانَ الطعامُ موضوعاً بينَ يديكَ وأنتَ جائعٌ محتاجٌ ، ولكنَّكَ لستَ تمدُّ اليَدَ إليه ، وتقولُ : أنا متوكلٌ ، وشرطُ التوكلِ تركُ السعيِ ، ومدُّ اليَدِ إليه سعيٌّ وحركةٌ ، وكذلك مضغُهُ بالأسنانِ وابتلاعُهُ بإطباقِ أعالي الحنكِ على أسافله !

فهذا جنونٌ محضٌ ، وليسَ مِنَ التوكلِ في شيءٍ ، فإنَّكَ إنِ انتظرتَ أنْ يخلقَ اللهُ فيكَ شعباً دونَ الخبزِ ، أو يخلقَ في الخبزِ حركةً إليك ، أو يسخرَ ملكاً ليمضغه ويوصله إلى معدتك . . فقد جهلتَ سنَّةَ اللهِ تعالى .

وكذلك لو لم تزرعِ الأرضَ وطمعتَ في أنْ يخلقَ اللهُ تعالى نباتاً من غيرِ بذرٍ ، أو تلدَ زوجتُكَ من غيرِ وقاعٍ كما ولدتَ مريمٌ عليها السلامُ ، فكلُّ ذلكَ جنونٌ ، وأمثالُ هذا ممَّا يكثرُ ولا يمكنُ إحصاؤه ، فليسَ التوكلُ في هذا المقامِ بالعملِ ، بل بالحالِ والعلمِ .

أما العلم . فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة ، وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك .

وأما الحال . فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى ، لا على اليد والطعام ، وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج ؟! وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ؟! وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى عليك من يغلبك عليه ، أو يبعث حيّة تزعجك عن مكانك ، وتفرق بينك وبين طعامك ؟!

وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى . . فبذلك فلتفرح ، وعليه فلتعول .

فإذا كان هذا حاله وعلمه . . فليمدّ اليد ، فإنه متوكل .



الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة :

ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيداً ؛ كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرّقها الناس إلا نادراً ، ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطاً في التوكل ، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد

كما سبق ، ولكن فعل ذلك جائز ، وهو من أعلى مقامات التوكل ، ولذلك كان يفعلهُ الخَوَاصُّ (١) .



فإن قلت : فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة .

فاعلم : أن ذلك يخرج عن كونه حراماً بشرطين :

أحدهما : أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدتها ، وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعاً أو ما يقاربهُ ، بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر عن ذكر الله تعالى .

والثاني : أن يكون بحيث يقوى على التقوُّت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة .

فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي ، أو ينتهي إلى حِلَّة أو قرية (٢) ، أو إلى حشيش يزجي به وقته فيحيا به مجاهداً نفسه ، والمجاهدة عماد التوكل ، وعلى هذا كان يعول الخَوَاصُّ ونظراؤه من المتوكلين .

والدليل عليه : أن الخَوَاصَّ كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل

(١) أي : إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى .

(٢) الحِلَّة : المحلة ، وهي منزل القوم .

والركوة ويقول : (هذا لا يقدح في التوكل)^(١) ، وسببه : أنه علم أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض ، وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ، ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش ، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ، ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة ، فإن المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام ، وكذلك يكون له ثوب واحد ، وربما يتخرق فتتكشف عورته ، ولا يوجد المقرض والإبرة في البوادي غالباً عند كل صلاة ، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي .

فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضاً يلتحق بالدرجة الأولى ؛ إلا أنه مظنون ظناً ليس مقطوعاً به ؛ لأنه يحتمل ألا يتخرق الثوب ، أو يعطيه إنسان ثوباً ، أو يجد على رأس البئر من يسقيه ، ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغاً إلى فيه ، فبين الدرجتين فرق ، ولكن الثاني في معنى الأول .

ولهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ، ولا يطرقة طارق فيه ، وجلس متوكلاً . . فهو آثم به ، ساع في إهلاك نفسه ؛ كما روي أن زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعاً وقال : لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي ، فقعد سبعاً ،

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٩٩) .

فكَادَ يَمُوتُ وَلَمْ يَأْتِهِ رِزْقٌ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ؛ إِنَّ أَحْيَيْتَنِي . . فَأَتْنِي بِرِزْقِي
الَّذِي قَسَمْتَ لِي ، وَإِلَّا . . فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ :
وَعَزَّتِي ؛ لَا رِزْقُكَ حَتَّى تَدْخَلَ الْأَمْصَارَ وَتَقْعَدَ بَيْنَ النَّاسِ ، فَدَخَلَ الْمَصْرَ
وَأَقَامَ ، فَجَاءَهُ هَذَا بِطْعَامٍ ، وَهَذَا بِشَرَابٍ ، فَأَكَلَ وَشَرَبَ ، وَأَوْجَسَ فِي
نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَرَدْتَ أَنْ تُذْهَبَ حِكْمَتِي بِزَهْدِكَ فِي
الدُّنْيَا ؟ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي أَنْ أَرْزُقَ عَبْدِي بِأَيْدِي عِبَادِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرْزُقَهُ
بِيَدِي قَدَرْتِي ؟ ! (١) .

فَإِذَا ؛ التَّبَاعُدُ عَنِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا مِرَاغِمَةٌ لِلْحِكْمَةِ ، وَجَهْلٌ بِسُنَّةِ اللَّهِ
تَعَالَى ، وَالْعَمَلُ بِمَوْجِبِ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ الْإِتِّكَالِ عَلَى اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ دُونَ
الْأَسْبَابِ لَا يَنَاقِضُ التَّوَكُّلَ كَمَا ضَرَبْنَاهُ مَثَلًا فِي الْوَكِيلِ بِالْخُصُومَةِ مِنْ قَبْلُ ،
وَلَكِنَّ الْأَسْبَابَ تَنْقَسِمُ إِلَى ظَاهِرَةٍ وَإِلَى خَفِيَّةٍ ، فَمَعْنَى التَّوَكُّلِ : الْإِكْتِفَاءُ
بِالْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ عَنِ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ مَعَ سَكُونِ النَّفْسِ إِلَى مُسَبِّبِ السَّبَبِ
الْخَفِيِّ لَا إِلَى السَّبَبِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا قَوْلُكَ فِي الْقَاعِدِ فِي الْبَلَدِ بِغَيْرِ كَسْبٍ أَهْوَ حَرَامٌ أَوْ مَبَاحٌ أَوْ
مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ ؟

فَاعْلَمْ : أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِحَرَامٍ ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ السِّيَاحَةِ فِي الْبَوَادِي إِذَا لَمْ

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٦) .

يكن مهلكاً نفسه.. فكيف يكون هذا مهلكاً نفسه حتى يكون فعله حراماً ؟
بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ،
والصبر ممكن إلى أن يتفق ، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث
لا طريق لأحد إليه.. ففعله ذلك حرام .

وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة.. فالكسب والخروج
له أولى ، ولكن ليس فعله حراماً إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك
يلزمه الخروج والسؤال والكسب ، وإن كان مشغول القلب بالله تعالى ، غير
مستشرف إلى الناس ، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل
تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله.. فهو أفضل ، وهو من مقامات
التوكل ، وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه ، فإن الرزق يأتيه
لا محالة ، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء ؛ وهو أن العبد لو هرب
من رزقه.. لطلبه ؛ كما لو هرب من الموت.. لأدركه^(١) ، وأنه لو سأل الله
تعالى ألا يرزقه.. لما استجاب له وكان عاصياً ، ولقال له : يا جاهل ؛
كيف أخلقك ولا أرزقك ؟!

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : (اختلف الناس في كل شيء إلا
في الرزق والأجل ، وأجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلا الله تعالى)^(٢).

(١) كما روى هذا مرفوعاً الطبراني في « الأوسط » (٤٤٤١) ، وابن عدي في « الكامل »
(١٩/٦) .

(٢) قوت القلوب (١٩٧/٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتُم على الله حق توكله . . لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدوا خِماصاً وتروحُ بطاناً ، ولزالت بدعائكم الجبالُ » (١) .

وقال عيسى عليه السلام : (انظروا إلى الطير ، لا تزرعُ ولا تحصدُ ولا تدخرُ ، والله تعالى يرزقها يوماً بيوم ، فإن قلتم : نحن أكبرُ بطوناً . . فانظروا إلى الأنعام كيف قيَّضَ اللهُ تعالى لها هذا الخلقَ للرزقِ) (٢) .

وقال أبو يعقوبَ السوسي : (المتوكلون تجري أرزاقُهم على أيدي العبادِ بلا تعبٍ منهم ، وغيرُهم مشغولون مكدودون) (٣) . وقال بعضهم : (العبيدُ كلُّهم في رزقِ الله تعالى ، ولكن بعضهم يأكلُ بذلً كالسؤال ، وبعضهم يتعبُ وانتظارِ كالتجَّارِ ، وبعضهم بامتهانٍ كالصَّناعِ ، وبعضهم بعزٍّ كالصوفيَّةِ ، يشهدون العزيزَ ، فيأخذون رزقَهم من يده ولا يرون الواسطة) (٤) .

(١) كذا في « القوت » (٤ / ٢) ، ورواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) إلى قوله : (وتروحُ بطاناً) ، وأما زيادة : (ولزالت بدعائكم الجبال) . . فقد رواها المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٠٢) من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعاً : « إنكم لو عرفتُم الله حق المعرفة . . لمشيتم على البحور ، ولزال بدعائكم الجبال . . » .

(٢) قوت القلوب (٤ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (٤ / ٢) بنحوه .

(٤) قوت القلوب (٤ / ٢) بزيادة تفصيل .

الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يُتوهمُ إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة :

كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه ، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي فيه الناس كلهم ؛ أعني : مَنْ يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمالٍ مباح ، فأما أخذ الشبهة أو الاكتساب بطريق فيه شبهة . . فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب ، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل ، وهو مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكِيّ بالإضافة إلى إزالة الضرر ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ، ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ، ولا يجلسون في الأمصار ، ولا يأخذون من أحد شيئاً ، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب ، وأمثال هذه الأسباب التي لا يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها .

وقال سهل في التوكل : (إنه ترك التدبير)^(١) ، وقال : (إن الله تعالى خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه ، وإنما حجبهم تدبيرهم)^(١) ، ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر ، فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية .

فإذا ؛ قد ظهر أن الأسباب منقسمة : إلى ما يخرج التعلق بها عن

(١) قوت القلوب (٦ / ٢) .

التوكل ، وإلى ما لا يخرج ، وأن الذي لا يخرج ينقسم : إلى مقطوع به ، وإلى مpton ، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه ، وهو الاتكال على مسبب الأسباب ، فالتوكل فيها بالحال والعلم ، لا بالعمل ، وأما المظنونات . . فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً .

والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات :

الأول : مقام الخواص ونظرائه : وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً فما فوقه ، أو بتيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك ، فإن الذي يحمل الزاد قد يؤخذ زاده أو يضل بعيره ويموت جوعاً ، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه ممكن مع فقده .

المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجده ولكنه في القرى والأمصار : وهذا أضعف من الأول ، ولكنه أيضاً متوكل ؛ لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي سخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه ، لا إلى سكان البلد ؛ إذ يتصور

أَنْ يَغْفُلَ جَمِيعُهُمْ عَنْهُ وَيُضَيِّعُوهُ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى بِتَعْرِيفِهِمْ وَتَحْرِيكِ
دَوَاعِيهِمْ .

المقام الثالث : أَنْ يَخْرُجَ وَيَكْتَسِبَ اكْتِسَاباً عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي
البَابِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ كِتَابِ آدَابِ الْكَسْبِ : وَهَذَا السَّعْيُ أَيْضاً لَا يَخْرُجُهُ
عَنْ مَقَامَاتِ التَّوَكُّلِ إِذَا لَمْ تَكُنْ طُمَأْنِينَةً نَفْسِهِ إِلَى كِفَايَتِهِ وَقُوَّتِهِ وَجَاهِهِ
وَبُضَاعَتِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ رَبِّمَا يَهْلِكُهُ اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَةً فِي لَحْظَةٍ ، بَلْ يَكُونُ نَظَرُهُ
إِلَى الْكَفِيلِ الْحَقِّ بِحِفْظِ جَمِيعِ ذَلِكَ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ لَهُ ، بَلْ يَرَى كَسْبَهُ
وَبُضَاعَتَهُ وَكِفَايَتَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَرَى الْقَلَمَ فِي يَدِ الْمَلِكِ
الْمَوْقَّعِ ، فَلَا يَكُونُ نَظَرُهُ إِلَى الْقَلَمِ ، بَلْ إِلَى قَلْبِ الْمَلِكِ أَنَّهُ بِمَاذَا يَتَحَرَّكُ ،
وَالْيَ مَاذَا يَمِيلُ ، وَبِمَ يَحْكُمُ ؟

ثُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الْمَكْتَسَبُ مَكْتَسَباً لِعِيَالِهِ ، أَوْ لِيَفْرُقَ عَلَى الْمَسَاكِينِ . .
فَهُوَ يَبْدِنَهُ مَكْتَسَبٌ وَبِقَلْبِهِ عَنْهُ مَنْقُطٌ ، فَحَالُ هَذَا أَشْرَفُ مِنْ حَالِ الْقَاعِدِ فِي
بَيْتِهِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْكَسْبَ لَا يَنَافِي حَالَ التَّوَكُّلِ إِذَا رُوعِيَ فِيهِ الشَّرُوطُ
وَانْضَافَ إِلَيْهِ الْحَالُ وَالْمَعْرِفَةُ كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ . . أَنَّ الصَّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا
بُوعِيَ بِالْخِلَافَةِ . . أَخَذَ الْأَثْوَابَ تَحْتَ حُضْنِهِ وَالذِّرَاعُ بِيَدِهِ وَدَخَلَ السُّوقَ يَنَادِي ،
حَتَّى كَرِهَهُ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا : كَيْفَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَقَدْ أَقَمْتَ لَخِلَافَةِ النَّبَوَّةِ ؟
فَقَالَ : لَا تَشْغَلُونِي عَنْ عِيَالِي ؛ فَإِنِّي إِنْ أَضَعْتُهِمْ . . كُنْتُ لِمَا سِوَاهُمْ أَضِيعُ ،

حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، فلمّا رضوا بذلك . . رأى مساعدتهم وتطيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى^(١) .

ويستحيل أن يُقال : لم يكن الصديق رضي الله عنه في مقام التوكل ، فمن أولى بهذا المقام منه ؟! فدلّ على أنه كان متوكلاً لا باعتبار ترك الكسب والسعي ، بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته ، والعلم بأن الله تعالى هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب ، وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره ، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره . . فهو حريص على الدنيا ، ومحب لها ، ولا يصحّ التوكل إلا مع الزهد في الدنيا ، نعم ، يصحّ الزهد دون التوكل ، فإن التوكل مقام وراء الزهد .

وقال أبو جعفر الحداث وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما ، وكان من المتوكلين : (أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق ، كنت أكتسب في كل يوم ديناراً ، ولا أبيت منه دانقاً ، ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام ، بل أخرجته كله قبل الليل)^(٢) .

(١) كذا في « القوت » (١٧/٢) ، وقد روى نحو هذا ابن سعد في « طبقاته » (١٦٨/٣) ، غير أن الصديق رضي الله عنه أوصى برد ما أخذه من بيت المال بعد موته كما سبق بيانه .

(٢) قوت القلوب (١٧/٢) .

وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته ، وكان يقول : (أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضرٌ عندي) (١) .

واعلم : أن الجلوس في رباطات الصوفية مع المعلوم بعيدٌ من التوكل ، فإن لم يكن معلومٌ ووقف ، وأمروا الخادم بالخروج للطلب . . لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ، ولكن أقوى بالحال والعلم ؛ كتوكل المكتسب ، وإن لم يسألوا ، بل قنعوا بما يُحمل إليهم . . فهذا أقوى في توكلهم ، ولكنه بعدَ اشتهار القوم بذلك صار سوقاً ، فهو كدخول السوق ، ولا يكون داخلُ السوق متوكلاً إلا بشروط كثيرة كما سبق .

فإن قلت : فما الأفضل : أن يقعد في بيته ، أو يخرج ويكتسب ؟

فاعلم : أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكرٍ وذكرٍ وإخلاصٍ واستغراقٍ وقتٍ بالعبادة ، وكان الكسب يشوش عليه ذلك ، وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاً ، بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى . . فالقعود له أولى ، وإن كان يضطرب قلبه في البيت ، ويستشرف إلى الناس . . فالكسب أولى ؛ لأن استشراف القلب إلى الناس سؤالٌ بالقلب ، وتركه أهم من ترك الكسب ، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم .

(١) قوت القلوب (١٧ / ٢) .

كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قَدْ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ الْمُرُوزِيَّ أَنْ يُعْطِيَ بَعْضَ الْفُقَرَاءِ شَيْئاً
فَضْلاً عَمَّا كَانَ اسْتَأْجَرَهُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّهُ ، فَلَمَّا وَلَّى . . قَالَ لَهُ أَحْمَدُ : الْحَقُّ
وَأَعْطِهِ ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ ، فَلَحَقَهُ وَأَعْطَاهُ فَأَخَذَهُ ، فَسَأَلَ أَحْمَدُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ :
كَانَ قَدْ اسْتَشْرَفَتْ نَفْسُهُ فَرَدَّ ، فَلَمَّا خَرَجَ . . انْقَطَعَ طَمَعُهُ وَأَيْسَ فَأَخَذَ^(١) .

وَكَانَ الْخَوَاصُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا نَظَرَ إِلَى عَبْدٍ فِي الْعَطَاءِ ، أَوْ خَافَ اعْتِيَادَ
النَّفْسِ لِذَلِكَ . . لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ شَيْئاً^(٢) .

وَقَالَ الْخَوَاصُّ بَعْدَ أَنْ سُئِلَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَاهُ فِي أَسْفَارِهِ : رَأَيْتُ الْخَضِرَ
وَرَضِيَ بِصَحْبَتِي ، وَلَكِنِّي فَارَقْتُهُ خِيفَةً أَنْ تَسْكُنَ نَفْسِي إِلَيْهِ فَيَكُونَ نَقْصاً فِي
تَوَكُّلِي^(٣) .

فَإِذَا ؛ الْمَكْتَسِبُ إِذَا رَاعَى آدَابَ الْكَسْبِ وَشُرُوطَ نَيْيَّتِهِ كَمَا سَبَقَ فِي كِتَابِ
الْكَسْبِ ، وَلَمْ يَقْصِدِ الْاسْتِكْثَارَ ، وَلَمْ يَكُنْ اعْتِمَادُهُ عَلَى بِضَاعَتِهِ وَكَفَايَتِهِ . .
كَانَ مَتَوَكِّلاً .



فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا عَلَامَةُ عَدَمِ اتِّكَالِهِ عَلَى الْبِضَاعَةِ وَالْكَفَايَةِ ؟

فَأَقُولُ : عَلَامَتُهُ : أَنَّهُ إِنْ سُرِقَتْ بِضَاعَتُهُ ، أَوْ خَسِرَتْ تِجَارَتُهُ ، أَوْ تَعَوَّقَ

(١) قوت القلوب (١٧ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (١٧ / ٢) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٩٨) .

أمرٌ مِنْ أُمُورِهِ . . كَانَ رَاضِياً بِهِ ، وَلَمْ تَبْطُلْ طُمَأْنِينَتُهُ ، وَلَمْ يَضْطَرْبْ قَلْبُهُ ،
بَلْ كَانَ حَالُ قَلْبِهِ فِي السَّكُونِ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَاحِداً ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَسْكُنْ إِلَى
شَيْءٍ . . لَمْ يَضْطَرْبْ لِفَقْدِهِ ، وَمَنْ اضْطَرْبَ لِفَقْدِ شَيْءٍ . . فَقَدْ سَكَنَ إِلَيْهِ .

وَكَانَ بَشَرٌ يَعْمَلُ الْمَغَازِلَ ، فَتَرَكَهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبِعَادِيَّ كَاتِبُهُ^(١) : بَلَّغَنِي
أَنَّكَ اسْتَعْنْتَ عَلَى رِزْقِكَ بِالْمَغَازِلِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ
الرِّزْقُ عَلَى مَنْ ؟ فَوْقَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ ، فَأَخْرَجَ آلَةَ الْمَغَازِلِ عَنْ يَدِهِ ، وَقِيلَ :
تَرَكَهَا لَمَّا نَوَّهْتَ بِاسْمِهِ وَقُصِدَ لِأَجْلِهَا^(٢) ، وَقِيلَ : فَعَلَ ذَلِكَ لَمَّا مَاتَ
عِيَالُهُ ، كَمَا كَانَ لِسَفِيَانٍ خَمْسُونَ دِينَاراً يَتَجَرُّ فِيهَا ، فَلَمَّا مَاتَ عِيَالُهُ . .
فَرَّقَهَا^(٣) .

فَإِنْ قُلْتَ : فَكَيْفَ يُصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ لَهُ بَضَاعَةٌ وَلَا يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَهُوَ يَعْلَمُ
أَنَّ الْكَسْبَ بَغَيْرِ بَضَاعَةٍ لَا يُمْكِنُ ؟

فَأَقُولُ : بَأَنَّ يَعْلَمَ أَنَّ الَّذِينَ يَرْزُقُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بَغَيْرِ بَضَاعَةٍ فِيهِمْ كَثْرَةٌ ،
وَأَنَّ الَّذِينَ كَثُرَتْ بَضَاعَتُهُمْ فَسُرِقَتْ وَهَلَكَتْ فِيهِمْ كَثْرَةٌ ، وَأَنَّ يُوْطَّنَ نَفْسَهُ

(١) فِي (أ) : (وَذَلِكَ أَنْ فَلَتَا كَتَبَ إِلَيْهِ) ، وَفِي (ب ، ن ، ف) : (الْبَعْلَوِي) بَدَلَ
(الْبِعَادِي) ، وَفِي (ج) : (التَّعْلَوِي) ، وَفِي (د) : (الْعَبْدِي) .

(٢) فَقِيلَ : الْمَغَازِلُ الْبَشَرِيَّةُ ، وَطَلِبْتَ لِأَجْلِهِ ، وَقَدْ أَشَارَ الْحَافِظُ الزَّبِيدِيُّ فِي « إِتْحَافِهِ »
(٤٨٥ / ٩) إِلَى نِسْبَةِ الْخَبَرِ لِصَاحِبِ « الْقَوْتُ » .

(٣) قَوْتُ الْقُلُوبِ (١٨ / ٢) .

على أن الله تعالى لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته . . فهو خير له ، فلعله لو تركها . . كان سبباً لفساد دينه ؟ وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعاً ، فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعاً خيراً له في الآخرة مهما قضى الله عليه بذلك ، من غير تقصير من جهته ، فإذا اعتقد جميع ذلك . . استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ؛ ففي الخبر : « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة ممّا لو فعله . . لكان فيه هلاكه ، فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه ، فيصرفه عنه ، فيصبح كئيباً حزيناً يتطير بجاره وابن عمه ، من سبقني ؟ من دهاني ؟ وما هو إلا رحمة رحمة الله بها » (١) .
ولذلك قال عمر رضي الله عنه : (لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً ؛ فإنني لا أدري أيُّهما خير لي) (٢) .

ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور . . لم يتصور منه التوكل ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : (لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك ؛ فإنني ما شيمت منه رائحة) (٣) ، هذا كلامه مع علوّ قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ، ولكنه قال : ما أدركته ، ولعله أراد إدراك أقصاه .

(١) كذا في « القوت » (١٢ / ٢) ، وقد رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٤ / ٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) روى هذا ابن المبارك في « الزهد » (٥٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٢ / ١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٢) .

وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ، ولا رازق سواه ، وبأن كل ما يقدّره على العبد من فقر وغنى ، وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد . . لم يكمل حال التوكل ، فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق ، وكذا سائر مقامات الدين من الأحوال والأعمال تنبني على أصولها من الإيمان .

وبالجملة : التوكل مقام مفهوم ، ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال سهل : (مَنْ طَعَنَ عَلَى التَّكْسِبِ . . فَقَدْ طَعَنَ عَلَى السُّنَّةِ ، وَمَنْ طَعَنَ عَلَى تَرْكِ التَّكْسِبِ . . فَقَدْ طَعَنَ عَلَى التَّوْحِيدِ) (١) .

فإن قلت : فهل من دواء يُنتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة ، وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية ؟ فأقول : نعم ، هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان ، وحسن الظن تلقين الله عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾ ، فالإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ، ولذلك قيل : (الشفيعُ بسوء الظن مولع) (٢) .

(١) كذا في « القوت » (٦/٢) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٩) .

(٢) يراد منه أن ذا الشفقة يضع سوء الظن في غير موضعه .

وإذا انضمَّ إلى سوء الظنِّ الجبنُ ، وضعفُ القلبِ ، ومشاهدةُ المتكلمينَ على الأسبابِ الظاهرةِ والباعثينَ عليها . . غلبَ سوءُ الظنِّ وبطلَ التوكلُ بالكليةِ .

بل رؤيةُ الرزقِ من الأسبابِ الخفيةِ أيضاً تبطلُ التوكلُ ، فقد حكي عن عابدٍ أنه عكفَ في مسجدٍ ولم يكنْ له معلومٌ ، فقالَ له الإمامُ : لو اكتسبتَ . . لكانَ أفضلَ لك ، فلم يجبهُ حتَّى أعادَ القولَ ثلاثاً ، فقالَ في الرابعةِ : يهوديٌّ في جوارِ المسجدِ قد ضمنَ لي كلَّ يومٍ رغيفينِ ، فقالَ : إن كانَ صادقاً في ضمانِهِ . . فعكوفُك في المسجدِ خيرٌ لك ، فقالَ : يا هذا ؛ لو لم تكنْ إماماً تقفُ بينَ يدي اللهِ وبينَ العبادِ معَ هذا النقصِ في التوحيدِ . . كانَ خيراً لك^(١) ؛ أي : فضلتَ وعدَ يهوديٍّ على ضمانِ اللهِ تعالى بالرزقِ . وقالَ إمامٌ مسجدٍ لبعضِ المصلِّينَ : من أينَ تأكلُ ؟ فقالَ : يا شيخُ ؛ اصبرَ حتَّى أعيدَ الصلاةَ التي صليتُها خلفك ثمَّ أجيبك^(١) .

وينفعُ في حسنِ الظنِّ بمجيءِ الرزقِ من فضلِ اللهِ تعالى بواسطةِ الأسبابِ الخفيةِ أنْ تسمعَ الحكاياتِ التي فيها عجائبُ صنعِ اللهِ تعالى في وصولِ الرزقِ إلى صاحبهِ ، وفيها عجائبُ قهرِ اللهِ تعالى في إهلاكِ أموالِ التجارِ والأغنياءِ وقتلِهِمْ جوعاً ، كما روي عن حذيفةَ المرعشيِّ وكانَ قد خدَمَ إبراهيمَ بنَ أدهمَ ، فقلَّ له : ما أعجبُ ما رأيتَ منه ؟ فقالَ : بقينا في طريقِ

(١) قوت القلوب (١٥/٢) .

مكة أياماً لم نجد طعاماً ، ثم دخلنا الكوفة ، فأوينا إلى مسجد خراب ،
فنظر إلي إبراهيم وقال : يا حذيفة ؛ أرى بك أثر الجوع ، فقلت : هو
ما رأى الشيخ ، فقال : علي بدواة وقرطاس ، فجلست به ، فكتب : بسم الله
الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ،
وكتب شعراً^(١) :

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ أنا جائعٌ أنا نائعٌ^(٢) أنا عاري
هي سِتَّةٌ وأنا الضَّمينُ لنصفِها فكُنِ الضَّمينَ لنصفِها يا باري
مدحي لغيرك لهبُ نارٍ خضتها فأجز عبيدك من دُخولِ النارِ
ثم دفع إلي الرقعة وقال : اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ،
وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك ، فخرجت ، فأول من لقيني كان رجلاً
على بغلة ، فناولته الرقعة ، فأخذها ، فلما وقف عليها . . بكى وقال :
ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : هو في المسجد الفلاني ، فدفع إلي
صرّة فيها ست مئة دينار ، ثم لقيت رجلاً آخر ، فسألته عن راکب
البغلة ، فقال : هذا نصراني ، فجلست إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة ،
فقال : لا تمسّها ؛ فإنه يجيء الساعة ، فلما كان بعد ساعة . . دخل

(١) البيتان الأول والثاني في « معجم الشعراء » (ص ٤٧٥) للخليع الأصفر الرقي ،
والثلاثة في « المستطرف » (٤٥٦/١) لإبراهيم بن الأدهم .
(٢) النائع : العطشان ، وقيل : إتياع للجائع .

النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله ، وأسلم^(١) .

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري : جعت مرة بالحرم عشرة أيام ، فوجدت ضعفاً ، فحدثني نفسي بالخروج ، فخرجت إلى الوادي لعلّي أجد شيئاً يسكن ضعفي ، فرأيت سلجمة مطروحة^(٢) ، فأخذتها ، فوجدت في قلبي منها وحشة ، وكأنّ قائلاً يقول لي : جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة ؟ فرميت بها ودخلت المسجد ، فقعدت ، فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل ، حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة ، وقال : هذه لك ، فقلت : كيف خصصتني بها ؟ فقال : اعلم أنّا كنا في البحر منذ عشرة أيام ، وأشرقت السفينة على الغرق ، فنذرت إن خلّصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين ، وأنت أول من لقيته ، فقلت : افتحها ، ففتحها ، فإذا فيها سميد مصري ، ولوز مقشر وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا ، وقلت : ردّ الباقي إلى صبيانك هدية مني إليكم ، وقد قبلتها ، ثم قلت في نفسي : رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي ؟^(٣) .

وقال ممشاذ الدينوري : كان عليّ دين ، فاشتغل قلبي بسببه ، فرأيت

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨ / ٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٠٦) واللفظ له .

(٢) السلجمة : واحدة السلجم بوزان جعفر ، وهو النبات المسمّى باللفت ، شبه الفجل .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٢) .

في النوم كأنَّ قائلاً يقولُ : يا بخيلُ ؛ أخذتَ علينا هذا المقدارَ من الدينِ ؟ !
خُذْ ، عليك الأخذُ وعلينا العطاءُ^(١) ، فما حاسبتُ بعدَ ذلكَ بقالاً ولا قصاباً
ولا غيرهما^(٢) .

وحكي عن بنانِ الحمَّالِ قالَ : كنتُ في طريقِ مَكَّةَ أُجيءُ منَ مصرَ ومعِي
زادٌ ، فجاءتني امرأةٌ وقالتْ لي : يا بنانُ ؛ أنتَ حمَّالٌ تحملُ على ظهركَ
الزادَ وتوهمُ أنَّه لا يرزقُك ؟ قالَ : فرميتُ بزادي ، ثمَّ أتى عليَّ ثلاثٌ لم
أكلُ ، فوجدتُ خلخالاً في الطريقِ ، فقلتُ في نفسي : أحمله حتَّى يجيءَ
صاحبُه ، فربَّما يعطيني شيئاً فأردُّه عليه ، فإذا أنا بتلكَ المرأةِ ، فقالتْ لي :
أنتَ تاجرٌ ؟ تقولُ : عسى يجيءُ صاحبُه فأخذُ منه شيئاً ؟ ! ثمَّ رمَتْ إليَّ شيئاً
منَ الدراهمِ وقالتْ : أنفقها ، فاكتفيتُ بها إلى قريبٍ منَ مَكَّةَ^(٣) .

ويُحكى أنَّ بناناً احتاجَ إلى جاريةٍ تخدمُه ، فانبسطَ إلى إخوانِه ، فجمعوا
لَه ثمنَها ، وقالوا : هو ذا يجيءُ النفرُ فنشتري ما يوافقُ ، فلمَّا وردَ النفرُ .
اجتمعَ رأيُهم على واحدةٍ ، وقالوا : إنَّها تصلحُ لَه ، فقالوا لصاحبِها : بكم
هذه ؟ فقالَ : إنَّها ليستُ للبيعِ ، فألحُّوا عليه ، فقالَ : إنَّها لبنانِ الحمَّالِ ،
أهدتها إليه امرأةٌ منَ سمرقندَ ، فحملتُ إلى بنانٍ وذكرَتُ لَه القصَّةَ^(٤) .

(١) في (ب) : (القضاء) بدل (العطاء) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٠٣) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٣) ، ووقع في النسخ : (قريب من مصر) ، والمثبت من
(ق) و « الرسالة القشيرية » .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٤) .

وقيل : كان في الزمن الأول رجل في سفر ومعه قرص ، فقال : إن أكلته . . مت ، فوكل الله عز وجل به ملكاً وقال : إن أكله فارزقه ، وإن لم يأكله . . فلا تعطه غيره ، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله ، وبقي القرص بعده^(١) .

وقال أبو سعيد الخزاز : دخلت البادية بغير زاد ، فأصابتنني فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد^(٢) ، فسُرتُ بأن وصلت ، ثم فكرت في نفسي أني سكنتُ واتكلتُ على غيره ، فآليتُ ألا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها ، فحفرتُ لنفسي في الرمل حفيرةً ، وواريتُ جسدي فيها إلى صدري ، فسمعوا صوتاً في نصف الليل عالياً : يا أهل المرحلة ؛ إنَّ الله تعالى ولياً حبسَ نفسه في هذا الرمل فالحقوه ، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية^(٣) .

وروي أنَّ رجلاً لازمَ بابَ عمر رضي الله عنه ، فقال عمرُ : يا هذا ؛ هاجرتَ إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتعلم القرآن ، فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمرُ ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة ، فجاءه عمرُ فقال له : إنني قد اشتقتُ إليك ، فما الذي شغلك عنا ؟ فقال : إنني قرأتُ القرآن ، فأغنائي عن عمر وآل عمر ، فقال

(١) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٤) .

(٢) المرحلة : القرية .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٠٥) .

عمرُ : رَحِمَكَ اللهُ ، فما وجدتَ فيه ؟ فقالَ : وجدتُ فيه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، فقلتُ : رزقي في السماءِ وأنا أطلبُهُ في الأرضِ ؟! فبكى عمرُ رضيَ اللهُ عنه وقالَ : صدقتَ ، فكانَ عمرُ بعدَ ذلكَ يأتيه ويجلسُ إليه^(١) .

وقالَ أبو حمزة الخراسانيُّ : حججتُ سنةً منَ السنينِ ، فبينما أنا أمشي في الطريقِ . . إذ وقعتُ في بئرٍ ، فنازعَتني نفسي أنَ أستغيثَ ، فقلتُ : لا واللهِ لا أستغيثُ ، فما استتممتُ هذا الخاطرَ حتَّى مرَّ برأسِ البئرِ رجلانِ ، فقالَ أحدهما للآخرِ : تعالَ حتَّى نسدَّ رأسَ هذا البئرِ لئلا يقعَ فيه أحدٌ ، فأتوا بقصبٍ وباريةٍ^(٢) ، وطمثوا رأسَ البئرِ ، فهممتُ أنَ أصيحَ ، فقلتُ في نفسي : إلى مَنْ أصيحُ ؟ هو أقربُ منهما ، وسكنتُ ، فبينما أنا بعدَ ساعةٍ إذ أنا بشيءٍ جاءَ وكشفَ عنَ رأسِ البئرِ وأدلى رجلُهُ ، وكأنَّهُ يقولُ : تعلقُ بي في هممةٍ له كنتُ أعرفُ ذلكَ ، فتعلَّقتُ به فأخرجَني ، فإذا هو سبعٌ ، فمرَّ وهتفَ بي هاتفٌ : يا أبا حمزة ؛ أليسَ هذا أحسنَ ؟ نجَّيناكَ منَ التلفِ بالتلفِ ، فمشيتُ وأنا أقولُ^(٣) :

[من الطويل]

نَهَانِي حَيَائِي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمَ الْهُوَى وَأَغْنَيْتَنِي بِالْفَهْمِ مِنْكَ عَنِ الْكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي إِلَى غَائِبِي وَاللُّطْفُ يُدْرِكُ بِاللُّطْفِ

(١) كذا في « القوت » (٨/٢) ، ورواه بنحوه ابن المبارك في « الزهد » (١٣١) من زيادات نعيم بن حماد ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٧٨٩) مختصراً .

(٢) البارية : الحصير .

(٣) الأبيات لمحمد بن إبراهيم الصوفي . انظر « المحمدون من الشعراء » (ص ١٢٣) .

تَرَاءَيْتَ لِي بِالْغَيْبِ حَتَّى كَأَنَّمَا
أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَخَشَةٌ
وَتُحْيِي مُجِيبًا أَنْتَ فِي الْحُبِّ حَتْفُهُ
تُبَشِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنَّكَ فِي الْكَفِّ
فَتُؤَنِّسُنِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ
وَإِذَا عَجَبْتُ كَوْنُ الْحَيَاةِ مَعَ الْحَتْفِ

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر^(١) ، وإذا قوي الإيمان به ، وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ، ولذلك حبسه عنه . . . تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات ، وإلا . . . فلا يتم أصلاً .



(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٠٥) ، وقد اعترض على المصنف في إيراد هذه القصة ، وقد أجاب عن الاعتراض رحمه الله في « إملائه » ، وكذا التمس لهذا عذراً القاضي ابن العربي المالكي في « أحكام القرآن » (٨٣ / ٣) ، والحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٤٩١ / ٩) .

بيان توكل المعيل

اعلم : أنَّ مَنْ لَهُ عِيَالٌ فَحُكْمُهُ يَفَارِقُ حُكْمَ الْمُنْفَرِدِ ؛ لِأَنَّ الْمُنْفَرِدَ لَا يَصِحُّ تَوَكُّلُهُ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ :

أحدهما : قُدْرَتُهُ عَلَى الْجُوعِ أَسْبُوعاً مِنْ غَيْرِ اسْتِشْرَافٍ وَضِيقِ نَفْسٍ .

والآخر : أَبْوَابُ مِنَ الْإِيمَانِ ذَكَرْنَاهَا ؛ مِنْ جَمَلَتِهَا أَنَّ يَطِيبَ نَفْساً بِالْمَوْتِ إِنْ لَمْ يَأْتِهِ رِزْقُهُ ؛ عَلِماً بِأَنَّ رِزْقَهُ الْمَوْتُ وَالْجُوعُ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ نَقْصَاناً فِي الدُّنْيَا . فَهُوَ زِيَادَةٌ فِي الْآخِرَةِ ، فَيَرَى أَنَّهُ سَيَقُودُ إِلَى خَيْرِ الرِّزْقَيْنِ لَهُ ، وَهُوَ رِزْقُ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ الْمَرَضُ الَّذِي بِهِ يَمُوتُ ، وَيَكُونُ رَاضِياً بِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ كَذَا قُضِيَ وَقُدِّرَ لَهُ ، فَبِهَذَا يَتِمُّ لِلْمُنْفَرِدِ التَّوَكُّلُ .

وَلَا يَجُوزُ تَكْلِيفُ الْعِيَالِ الصَّبْرَ عَلَى الْجُوعِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَرَّرَ عِنْدَهُمُ الْإِيمَانُ بِالتَّوْحِيدِ وَأَنَّ الْمَوْتَ عَلَى الْجُوعِ رِزْقٌ مَغْبُوطٌ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ إِنْ اتَّفَقَ ذَلِكَ نَادِراً ، وَكَذَا سَائِرُ أَبْوَابِ الْإِيمَانِ ، فَإِذَا ؛ لَا يُمْكِنُهُ فِي حَقِّهِمْ إِلَّا تَوَكُّلُ الْمَكْتَسِبِ ، وَهُوَ الْمَقَامُ الثَّلَاثُ ؛ كَتَوَكُّلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذْ خَرَجَ لِلْكَسْبِ^(١) .

فَأَمَّا دُخُولُ الْبُوَادِي وَتَرْكُ الْعِيَالِ تَوَكُّلاً فِي حَقِّهِمْ ، أَوْ الْقَعُودُ عَنْ

(١) رَوَى ذَلِكَ ابْنُ سَعْدٍ فِي « الطَّبَقَاتِ » (١٦٨ / ٣) ، وَالْمُحِبُّ الطَّبْرِيُّ فِي « الرِّيَاضِ النَّصْرَةِ » (٢٠٢ / ١) .

الاهتمام بأمرهم توكلًا في حقهم . . فهذا حرام ، وقد يفضي إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذاً بهم .

بل التحقيق : أنه لا فرق بينه وبين عياله ؛ فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة في الآخرة . . فله أن يتوكل في حقهم ، ونفسه أيضاً عيالٌ عنده ، لا يجوز له أن يضيعها إلا بأن تساعد على الصبر على الجوع مدة ، فإن كان لا يطيقه ، يضطرب عليه قلبه ، وتتشوش عبادته . . لم يجز له التوكل .

ولذلك روي أن أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال له : (لا يصلح لك التصوف ، الزم السوق)^(١) أي : لا تصوف إلا مع التوكل ، ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام .

وقال أبو علي الروذباري : (إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أنا جائع . . فالزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب)^(٢) .

فإذا ؛ بدنه عياله ، وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله ، وإنما يفارقهم في شيء واحد ، وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع ، وليس له ذلك في عياله .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٩/١٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٧٤ ، ٣٠٢) .

(٢) رواه القشيري (ص ٢٦١ ، ٣٠٢) .

وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعاً عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادراً ، وملازمة البلاد والأمصار ، أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ، ولكن مع نوع من الأذى لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر ، والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي ، وكل ذلك من الأسباب ، إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها ، فلم يعدوا تلك أسباباً ، وذلك لضعف إيمانهم ، وشدة حرصهم ، وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة ، واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل .

ومن نظر في ملكوت السماوات والأرض . . انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبّر الملك والملكوت تديراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه ، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ؟ ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ، ثم لما انفصل . . سلط الحب والشفقة على الأم لتكفل به شئت أم أبت ، اضطراباً من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام . . جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف ، فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة

الأم؟! فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف.. أنبت له أسناناً قواطع وطواحن لأجل المضغ، فإذا كبر واستقل.. يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة، فجبنه بعد البلوغ جهل محض؛ لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت؛ فإنه لم يكن قادراً على الاكتساب، والآن قد قدر، فزادت قدرته.

نعم، كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهو الأم أو الأب، وكانت شفقتهم مفرطة جداً، فكان يسقيه ويطعمه في اليوم مرة أو مرتين، وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الشفقة والحب على قلبه، فكذلك قد سلط الله تعالى الشفقة والمودة والرفقة والرحمة على قلوب المسلمين وأهل البلد كافة، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج.. تألم قلبه ورق عليه، وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق عليه واحداً، والآن المشفق عليه ألف وزيادة، ولقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب، وهي مشفق خاص، فما رأوه محتاجاً، ولو رأوه يتيماً.. لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذوه ويكفلوه، فما رُئي إلى الآن في سني الخصب يتيماً قد مات جوعاً، مع أنه عاجز عن الاضطراب، وليس له كافل خاص، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده.

فلماذا ينبغي أن يشغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا؟ وقد

كان المشفق واحداً والمشفق الآن آلاف؟!!

نعم ، كانت شفقة الأم أقوى وأخص ، ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض ، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالاً هو أحسن من حال من له أب وأم ، فيجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ، وبترك التنعم ، والاقتصار على قدر الضرورة ، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول^(١) :

جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بِمَا يَكُونُ فَيَسَّانِ التَّحَرُّكَ وَالسُّكُونُ
جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ وَيُرْزَقُ فِي غَشَاوَتِهِ الْجَنِينُ

فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزاً لصباه ، وأما هذا .. فبالغ قادرٌ على الكسب ، فلا يلتفتون إليه ، ويقولون : هو مثلاً ، فليجتهد لنفسه .

فأقول : إن كان هذا القادر بطالاً .. فقد صدقوا ، فعليه الكسب ، ولا معنى للتوكل في حقه ، فإن التوكل مقام من مقامات الدين يُستعان به على التفرغ لله تعالى ، فما للبطال والتوكل !؟

وإن كان مشغلاً بالله ، ملازماً لمسجد أو بيت ، وهو مواظبٌ على العلم والعبادة .. فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ، ولا يكلفونه ذلك ، بل

(١) البيتان في «تتمة يتيمة الدهر» (١٦٣/٥) لأبي الفرج بن هندو ، و«مرآة الجنان» (٣٨١/٣) لأبي الخير الواسطي .

اشتغاله بالله تعالى يقرّر حبه في قلوب الناس ، حتّى يحملون إليه فوق كفايته ،
 وإنّما عليه ألا يغلق الباب ، ولا يهرب إلى جبل من بين الناس ، وما رُئي إلى
 الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعاً ،
 ولا يرى قط ، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله . . لقدّر عليه ، فإنّ من
 كان لله تعالى . . كان الله عزّ وجلّ له ، ومن اشتغل بالله عزّ وجلّ . . ألقى الله حبه
 في قلوب الناس ، وسخر له القلوب كما سخر قلب الأمّ لولدها .

فقد دبّر الله تعالى الملك والملكوت تدبيراً كافياً لأهل الملك
 والملكوت ، فمن شاهد هذا التدبير . . وثق بالمدبّر ، واشتغل به ، وآمن
 ونظر إلى مدبّر الأسباب لا إلى الأسباب .

نعم ، ما دبّره تدبيراً يصل إلى المشتغل به الحلواء والطيور السمان
 والثياب الرفيعة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة ، وقد يقع ذلك أيضاً
 في بعض الأحوال ، لكن دبّره تدبيراً يصل إلى كلّ مشتغل بعبادة الله تعالى
 في كلّ أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة ، والغالب أنّه يصل
 أكثر منه ، بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية .

فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التّنعّم على الدوام ، ولبس
 الثياب الناعمة ، وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة ،
 وذلك قد لا يحصل من غير اضطراب ، وهو في الغالب أيضاً ليس يحصل مع
 الاضطراب ، وإنّما يحصل نادراً ، وفي النادر أيضاً قد يحصل بغير
 اضطراب ، فأثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته ، فلذلك

لا يطمئن إلى اضطرابه ، بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز عبداً من عباده رزقه وإن سکن إلا نادراً ندوراً عظيماً يُصوّر مثله في حق المضطرب .

فإذا انكشفت هذه الأمور ، وكان معه قوّة في القلب وشجاعة في النفس . . أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال : (وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدينار)^(١) .

وقال وهيب بن الورد : (لو كانت السماء نحاساً ، والأرض رصاصاً ، واهتممت برزقي . . لظننت أنني مشرك)^(١) .

فإذا فهمت هذه الأمور . . فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ، ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه ، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه . . أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع بين إفلاسين ؛ إفلاس عن وجود المقام ذوقاً ، وإفلاس عن الإيمان به علماً .

فإذا ؛ عليك بالقناعة بالنزر القليل ، والرضا بالقوت ؛ فإنه يأتيك - لا محالة - وإن فررت منه ، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا تحتسب ، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل . . شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة ، فما

(١) قوت القلوب (٩ / ٢) .

ضمنَ إلا الرزقَ الذي تدومُ به حياته ، وهذا المضمونُ مبدولٌ لكلِّ من اشتغلَ بالضامنِ واطمأنَّ إلى ضمانِهِ ، فإنَّ الذي أحاطَ به تدبيرُ الله تعالى من الأسبابِ الخفية للرزقِ أعظمُ ممَّا ظهرَ للخلقِ ، بل مداخلُ الرزقِ لا تُحصى ، ومجاريه لا يُهتدى إليها ، وذلكَ لأنَّ ظهورَهُ على الأرضِ وسببُهُ في السماءِ ، قالَ الله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وأسرارُ السماءِ لا يُطلعُ عليها ، ولهذا دخلَ جماعةٌ على الجنيدِ فقالوا : نطلبُ الرزقَ ، فقالَ : إن علمتُم أيَّ موضعٍ هو . . فاطلبوه ، قالوا : فنسألُ الله ، قالَ : إن علمتُم أنَّه ينساكم . . فذكروه ، فقالوا : ندخلُ البيتَ ونتوكَّلُ وننظرُ ما يكونُ ، فقالَ : التوكُّلُ على التجربة شكٌّ ، قالوا : فما الحيلةُ ؟ قالَ : تركُ الحيلةِ^(١) .

وقالَ أحمدُ بنُ عيسى الخِرَّازُ : كنتُ في البادية ، فنالني جوعٌ شديدٌ ، فغلبتني نفسي أن أسألَ الله تعالى طعاماً ، فقلتُ : ليسَ هذا منُ فعالِ المتوكِّلينَ ، فطالبتني أن أسألَ الله عزَّ وجلَّ صبراً ، فلمَّا هممتُ بذلكَ . . سمعتُ هاتفاً يهتفُ بي ويقولُ :

وَيَزْعُمُ أَنَّهُ مِنَّا قَرِيبٌ وَأَنَا لَا نُضَيِّعُ مَنْ أَتَانَا
وَيَسْأَلُنَا الْقَرَى جُهْدًا وَصَبْرًا كَأَنَّا لَا نَرَاهُ وَلَا يَرَانَا^(٢)

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٠٢) ، وقد رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٣٥/٧) عن جعفر الخلدي وكان بحضرة الجنيد .
(٢) كذا الخبر عند الكلاباذي في « التعرف » (ص ١٥٠) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٠/٥) .

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه ، وقوي قلبه ، ولم يضعف بالجبين باطنه ، وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى . . كان مطمئن النفس أبداً ، واثقاً بالله عز وجل ، فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئناً .

فإذا ؛ تمام التوكل بقناعة من جانب ، ووفاء بالمضمون من جانب ، والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق ، فاقنع وجرب . . تشاهد صدق الوعد تحقيقاً بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ، ولا تكن في توكلك منتظراً للأسباب ، بل لمسبب الأسباب ، كما لا تكون منتظراً لقلم الكاتب ، بل لقلب الكاتب ، فإنه أصل حركة القلم ، والمحرك الأول واحد ، فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد ، أو يقعد في الأمصار وهو خامل .

وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم ؛ فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ، وبثوب حسن يليق بأهل الدين . . فهذا يأتيه من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب على الدوام ، بل يأتيه أضعافه ، فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن شهارة بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب .

فلاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين ، وهو بالعلماء أقبح ؛ لأن شرطهم القناعة ، والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه ، إلا إذا أراد ألا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فإن الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ؛ لأنه تفرغ لله عز وجل ، وإعانة للمعطي على نيل الثواب .

ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى . . علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيماً عن الأحقق المرزوق والعاقلي المحروم ، فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه ؛ إذ لو رزق كل عاقل وحرّم كل أحمق . . لظن أن العقل رزق صاحبه ، فلمّا رأوا خلافة . . علموا أن الرازق غيرهم ، ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم .

قال الشاعر^(١) :

وَلَوْ كَانَتْ الْأَرْزَاقُ تَجْرِي عَلَى الْحِجَا هَلَكُنْ إِذَا مِنْ جَهْلِهِنَّ الْبَهَائِمُ



(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه » (١٧٨ / ٣) .

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم : أنَّ مثالَ الخلقِ معَ الله تعالى مثالُ طائفةٍ مِنَ السَّوَالِ وقفوا في ميدانٍ على بابِ قصرِ الملكِ وهم محتاجونَ إلى الطعامِ ، فأخرجَ إليهم غلماناً كثيرةً ومعهم أرغفةٌ مِنَ الخبزِ ، وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين ، وبعضهم رغيفاً رغيفاً ، ويجتهدوا في ألا يغفلوا عن واحدٍ منهم ، وأمرَ منادياً حتَّى نادى فيهم : أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلماني إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغي أن يطمئنَّ كلُّ واحدٍ منكم في موضعه ، فإنَّ الغلمانَ مسحرونَ وهم مأمورونَ بأن يوصلوا إليكم طعامكم ، فمن تعلقَ بالغلمانِ وآذاهم وأخذَ رغيفين ؛ فإذا فُتِحَ بابُ الميدانِ وخرج . . أتبعتهُ بسلام يكون موكلاً به إلى أن أتقدمَ لعقوبته في ميعادٍ معلومٍ عندي ولكنني أخفيه ، ومن لم يؤذِ الغلمانَ وقنعَ برغيفٍ واحدٍ أتاهُ مِنْ يَدِ الغلامِ وهو ساكنٌ . . فإنني أخصُّه بخلعةٍ سنِّيَّةٍ في الميعادِ المذكورِ لعقوبةٍ الآخِرِ ، ومن ثبتَ في مكانه ولكنه أخذَ رغيفين . . فلا عقوبةَ عليه ولا خلعةَ له ، ومن أخطأَ غلماني فما أوصلوا إليه شيئاً ، فباتَ الليلةَ جائعاً غيرَ متسَخِّطٍ على الغلمانِ ولا قائلٍ : ليتَّ أوصلَ إليَّ رغيفاً . . فإنني غداً أستوزرُهُ وأفوضُ ملكي إليه .

فانقسمَ السَّوَالُ إلى أربعةِ أقسامٍ :

قسمٌ غلبتْ عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبةِ الموعودةِ ، وقالوا :

مِنَ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ فَرَجٌ ، وَنَحْنُ الْآنَ جَائِعُونَ ، فَبَادِرُوا إِلَى الْغُلَامَانِ فَأَذَوْهُمْ
وَأَخَذُوا الرَغِيفَيْنِ ، فَسَبَقَتِ الْعَقُوبَةُ إِلَيْهِمْ فِي الْمِيعَادِ الْمَذْكُورِ ، فَندَمُوا وَلَمْ
يَنْفَعَهُمُ النَّدَمُ .

وَقَسَمُ تَرَكَوا التَّعَلُّقَ بِالْغُلَامَانِ خَوْفَ الْعَقُوبَةِ ، وَلَكِنْ أَخَذُوا رَغِيفَيْنِ لَغَلْبَةِ
الْجُوعِ ، فَسَلِمُوا مِنَ الْعَقُوبَةِ ، وَمَا فَازُوا بِالْخَلْعَةِ .

وَقَسَمُ قَالُوا : إِنَّا نَجْلِسُ بِمَرَأَى مِنَ الْغُلَامَانِ حَتَّى لَا يَخْطِئُونَا ، وَلَكِنَّا
لَا نَأْخُذُ إِذَا أَعْطَوْنَا إِلَّا رَغِيفًا وَاحِدًا ، وَنَقْنَعُ بِهِ ، فَلَعَلَّنَا نَفُوزُ بِالْخَلْعَةِ ،
فَفَازُوا بِهَا .

وَقَسَمُ رَابِعٌ اخْتَفَوْا فِي زَوَايَا الْمِيدَانِ ، وَانْحَرَفُوا عَنْ مَرَأَى أَعْيُنِ
الْغُلَامَانِ ، وَقَالُوا : إِنْ اتَّبَعُونَا وَأَعْطَوْنَا . قَنَعْنَا بِرَغِيفٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ
أَخْطَئُونَا . قَاسَيْنَا شِدَّةَ الْجُوعِ اللَّيْلَةَ ، فَلَعَلَّنَا نَقْوِي عَلَى تَرْكِ التَّسَحُّطِ ،
فَنَنَالَ رَتَبَةَ الْوِزَارَةِ وَدَرَجَةَ الْقَرَبِ عِنْدَ الْمَلِكِ ، فَمَا نَفَعَهُمْ ذَلِكَ ؛ إِذْ تَبِعَهُمُ
الْغُلَامَانُ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ وَأَعْطَوْا كُلَّ وَاحِدٍ رَغِيفًا وَاحِدًا ، وَجَرَى مِثْلُ ذَلِكَ
أَيَّامًا ، حَتَّى اتَّفَقَ عَلَى النَّدْوِ أَنْ اخْتَفَى ثَلَاثَةٌ فِي زَاوِيَةٍ وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِمْ أَبْصَارُ
الْغُلَامَانِ ، وَشَغَلَهُمْ شُغْلٌ صَارَفَ عَنْ طَوْلِ التَّفْتِيشِ ، فَبَاتُوا فِي جُوعٍ شَدِيدٍ ،
فَقَالَ اثْنَانِ مِنْهُمْ : لَيْتَنَا تَعَرَّضْنَا لِلْغُلَامَانِ وَأَخَذْنَا طَعَامَنَا ، فَلَسْنَا نَطِيقُ الصَّبْرَ ،
وَسَكَتَ الثَّلَاثُ إِلَى الصَّبَاحِ ، فَنَالَ دَرَجَةَ الْقَرَبِ وَالْوِزَارَةَ .

فَهَذَا مِثَالُ الْخَلْقِ ، فَالْمِيدَانُ هُوَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَبَابُ الْمِيدَانِ الْمَوْتُ ،

والميعادُ المجهولُ يومُ القيامةِ ، والوعدُ بالوزارةِ هوَ الوعدُ بالشهادةِ للمتوكلِ
إذا ماتَ جائعاً راضياً من غيرِ تأخيرٍ ذلكَ إلى ميعادِ القيامةِ ؛ لأنَّ الشهداءَ
أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزقونَ ، والمتعلِّقُ بالغلماَنِ هوَ المتعدِّي في الأسبابِ ،
والغلماَنُ المسخَّرونَ همُ الأسبابُ ، والجالسُ في ظاهرِ الميدانِ بمرأى
الغلماَنِ همُ المقيمونَ في الأمصارِ في الرباطاتِ والمساجدِ على هيئةِ
السكونِ ، والمختفونَ في الزوايا همُ السائحونَ في البوادي على هيئةِ
التوكلِ ، والأسبابُ تتبعُهُم ، والرزقُ يأتيهِم إلا على سبيلِ الندورِ ، فإن
ماتَ واحدٌ منهمُ جائعاً راضياً . . فلهُ الشهادةُ والقربُ مِنَ اللَّهِ تعالى .

وقد انقسمَ الخلقُ إلى هذهِ الأقسامِ الأربعةِ ، فلعلَّ مِنْ كُلِّ مئةٍ تعلَّقَ
بالأسبابِ تسعونَ ، وأقامَ سبعةً مِنَ العشرةِ الباقيةِ في الأمصارِ متعرِّضينَ
للسببِ بمجرَّدِ حضورِهِم واشتغالِهِم ، وساحَ في البوادي ثلاثةً ، وتسحَّطَ
منهُمُ اثنانِ ، وفازَ بالقربِ واحدٌ ، ولعلَّهُ كذلكَ كانَ في الأعصارِ السالفةِ ،
وأما الآنَ . . فالتاركُ للأسبابِ لا ينتهي إلى واحدٍ مِنْ عشرةِ آلافِ .



الفن الثاني : في التعرّض لأسباب الأضرار

فَمَنْ حَصَلَ لَهُ مَالٌ بِإِرْثٍ أَوْ كَسْبٍ أَوْ سُؤَالٍ أَوْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ . . فَلَهُ فِي ادِّخَارِهِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ :

الحالة الأولى : أَنْ يَأْخُذَ قَدْرَ حَاجَتِهِ فِي الْوَقْتِ ، فَيَأْكُلَ إِنْ كَانَ جَائِعاً ، وَيَلْبَسَ إِنْ كَانَ عَارِياً ، وَيَشْتَرِيَ مَسْكناً مَخْتَصِراً إِنْ كَانَ مُحْتَاجاً ، وَيَفْرِقَ الْبَاقِيَ فِي الْحَالِ ، وَلَا يَأْخُذُ وَلَا يَدَّخِرُ إِلَّا الْقَدْرَ الَّذِي يَدْرِكُ بِهِ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَيَدَّخِرُهُ عَلَى هَذِهِ النِّيَّةِ ، فَهَذَا هُوَ الْوَفَاءُ بِمَوْجِبِ التَّوَكُّلِ تَحْقِيقاً ، وَهِيَ الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا .

الحالة الثانية المقابلة لهذه ، المخرجة له عن حدود التوكل : أَنْ يَدَّخِرَ لِسَنَةٍ فَمَا فَوْقَهَا ، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ أَصْلاً ، وَقَدْ قِيلَ : (لَا يَدَّخِرُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ : الْفَأْرَةُ ، وَالنَّمْلَةُ ، وَابْنُ آدَمَ)^(١) .

الحالة الثالثة : أَنْ يَدَّخِرَ لِأَرْبَعِينَ يَوْماً فَمَا دُونَهَا ، فَهَذَا هَلْ يَوْجِبُ حَرَمَانَهُ عَنِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ الْمَوْعُودِ فِي الْآخِرَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ ؟ اخْتَلَفُوا فِيهِ : فَذَهَبَ سَهْلٌ إِلَى أَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ التَّوَكُّلِ ، وَذَهَبَ الْخَوَاصُّ إِلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ بِأَرْبَعِينَ يَوْماً ، وَيَخْرُجُ بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْأَرْبَعِينَ .

(١) قوت القلوب (٤ / ٢) .

وقال أبو طالب المكي : لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضاً^(١).

وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم ، يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل ، فأما التقدير بعد ذلك . . فلا مدرك له ، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ، ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضاً على درجات ، وكذلك السابقون ، وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير في مثل هذا .

بل التحقيق : أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل ، وأما عدم أمل البقاء . . فيبعد اشتراطه ولو في نفس ؛ فإن ذلك كالممتنع وجوده ، وأما الناس . . فمتفاوتون في طول الأمل وقصره ، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات ، وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان ، وبينهما درجات لا حصر لها ، فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة ، وتقيده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد ؛ فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما يرخص الأمل فيه ، ولكن استحقاق موسى ليل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوماً لسر جرت به

(١) قوت القلوب (٢ / ٢٠) ، وقد نقل كلام سهل والخواص .

وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور ، كما قال عليه الصلاة والسلام :
(إِنَّ اللَّهَ خَمَّرَ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً)^(١) لَأَنَّ اسْتِحْقَاقَ تِلْكَ الطِينَةِ
لِلتَّخْمِيرِ كَانَ مَوْقُوفاً عَلَى مَدَّةٍ مَبْلُغُهَا مَا ذَكَرَ .

فإذا ؛ ما وراء السنة لا يُدْخَرُ لَهُ إِلَّا بِحَكْمِ ضَعْفِ الْقَلْبِ ، والركون إلى
ظاهر الأسباب ، فهو خارج عن مقام التوكل ، غير واثق بإحاطة التدبير من
الوكيل الحق بخفايا الأسباب ، فإن أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات
تتكرر بتكرّر السنين غالباً ، ومن ادّخر لأقل من سنة . . فله درجة بحسب
قصر أمله ، ومن كان أمله شهرين . . لم تكن درجته كدرجة من أمل شهراً ،
ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرتبة .

ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل ألا يدّخر أصلاً ، فإن
ضعف قلبه ؛ فكلما قل ادخاره . . كان فضله أكثر ، وقد روي في الفقيه
الذي أمر صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه
وكفناه ببردته ، فلما دفنه . . قال لأصحابه : « إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ
كَالقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَلَوْ لَا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ . . لُبُعَتْ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ
الضَّاحِيَةِ » ، قلنا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « كَانَ صَوَّاماً قَوَّاماً كَثِيرَ

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠ / ١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦٣ / ٨) ،
والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٠٩) موقوفاً على سلمان أو ابن مسعود
رضي الله عنهما ، ووقع في بعض النسخ عدم رفع الحديث ، قال البيهقي عقب روايته :
(وروي ذلك من وجه آخر ضعيف عن التيمي مرفوعاً ، وليس بشيء) .

الذكر لله تعالى ، غير أنه كان إذا جاءه الشتاء . . . ادّخر حُلَّةَ الصيفِ لصيفه ،
وإذا جاء الصيفُ . . . ادّخر حُلَّةَ الشتاءِ لشتائه » ، ثم قال : « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ
اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ . . . » الحديث^(١) .

وليس الكوزُ والشفرةُ وما يُحتاجُ إليه على الدوامِ في معنى ذلك ،
فادخارُهُ لا ينقصُ الدرجةَ ، وأما ثوبُ الشتاءِ . . . فلا يُحتاجُ إليه في الصيفِ ،
وهذا في حقِّ مَنْ لا ينزعجُ قلبُهُ بتركِ الادخارِ ، ولا تستشرفُ نفسه إلى
أيدي الخلقِ ، بل لا يلتفتُ قلبُهُ إلا إلى الوكيلِ الحقِّ .

فإن كان يستشعرُ في نفسه اضطراباً يشغلُ قلبَهُ عنِ العبادةِ والذكرِ
والفكرِ . . . فالادخارُ له أولى ، بل لو أمسكَ ضيعةً يكونُ دخلُها وافياً بقدرِ
كفايته ، وكان لا يتفرَّغُ قلبُهُ إلا به . . . فذلك له أولى ؛ لأنَّ المقصودَ إصلاحُ
القلوبِ لتجرّدِ لذكرِ الله تعالى ، وربَّ شخصٍ يشغلهُ وجودُ المالِ وربَّ
شخصٍ يشغلهُ عدمُهُ ، والمحذورُ ما يشغلُ عنِ الله تعالى ، وإلا . . . فالدنيا
في عينيها غيرُ محذورةٍ ، لا وجودُها ولا عدمُها .

ولذلك بُعثَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أصنافِ الخلقِ ، وفيهمُ
التجارُ والمحترفونُ وأهلُ الحرفِ والصناعاتِ ، فلم يأمرِ التاجرَ بتركِ
تجارتهِ ، ولا المحترفَ بتركِ حرفتهِ ، ولا أمرَ التاركَ لهما بالاشتغالِ بهما ،

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥٠٣ / ٩) : (رواه صاحب « القوت » بسنده إلى
شهر بن حوشب عن أبي أمامة رضي الله عنه) .

بل دعا الكل إلى الله تعالى ، وأرشدَهُمْ إلى أن فوزَهُمْ ونجاتَهُمْ في انصرافِ قلوبِهِمْ عن الدنيا إلى الله تعالى ، وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب ، فصوابُ الضعيفِ ادخارُ قدرِ حاجتِهِ ، كما أن صوابَ القوي تركُ الادخارِ ، وهذا كله حكمُ المتفردِ .

فأما المعيلُ . . فلا يخرجُ عن حدِّ التوكلِ بادخارِ قوتِ سنةٍ لعيالِهِ ؛ جبراً لضعفِهِمْ ، وتسكيناً لقلوبِهِمْ ، وادخارُ أكثرَ مِنْ ذلكَ مبطلٌ للتوكلِ ؛ لأنَّ الأسبابَ تتكررُ عندَ تكرُّرِ السنينِ ، فادخارُ ما يزيدُ عليه مصدرُهُ ضعفُ قلبِهِ ، وذلكَ يناقضُ قوَّةَ التوكلِ ، فالمتوكلُ عبارةٌ عن موحِدٍ قويِّ القلبِ ، مطمئنٍّ النفسِ إلى فضلِ الله تعالى ، واثقٍ بتدبيرِهِ دونَ وجودِ الأسبابِ الظاهرةِ .

وقد ادخَرَ رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم لعيالِهِ قوتَ سنةٍ^(١) ، ونهى أُمَّ أيمنَ وغيرها أنْ تدَّخِرَ لَهُ شيئاً لغدٍ^(٢) ، ونهى بلالاً عن الادخارِ في كسرةِ خبزٍ ادخَرها ليفطرَ عليها ، فقال : «أنفقْ بلالاً ، ولا تخشَ مِنْ ذِي العرشِ إقلاقاً»^(٣) ،

(١) كما في « البخاري » (٢٩٠٤) ، و« مسلم » (١٧٥٧) بلفظ : (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق على أهله نفقة سنة ، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله) ، ولفظ الترمذي (١٧١٩) : (كان يعزل نفقة أهله سنة) .

(٢) قوت القلوب (٢٠ / ٢) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٤١ / ١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٠ / ٢) =

وقال له : « إذا سُئِلْتَ . . فلا تمنع ، وإذا أُعْطِيت . . فلا تخبئ » ^(١) ،
فالاقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم .

وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال . . تيمم مع قرب الماء ، ويقول :
« ما يدريني ، لعلّي لا أبلغه » ^(٢) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادّخر . . لم ينقص ذلك من توكله ؛ إذ كان
لا يثق بما ادّخره ، ولكنه تركه تعليماً للأقوياء من أمته ، فإن أقوياء أمته ضعفاء
بالإضافة إلى قوّته وادّخر عليه الصلاة والسلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه
وفي عياله ، ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته ، ثم أخبر أن الله تعالى يحب أن
تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ^(٣) ؛ تطيباً لقلوب الضعفاء ، حتى
لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط ، فيتركون الميسور من الخير عليهم ؛
لعجزهم عن منتهى الدرجات ، فما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلا رحمة
للعالمين كلّهم ، على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم .

وإذا فهمت هذا . . علمت أن الادّخار قد يضر بعض الناس وقد

= (٣٧٤ / ٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٨٣) ، وكان المدّخر صبرة من تمر ،
لا كسرة خبز ، وروايته بالبناء على الضم في (بلال) ، ومن نوّنه ونصبه فلمناسبة
(إقلالاً) له ، وللمزاوجة في الكلام .

(١) رواه الحاكم في « المستدرک » (٣١٦ / ٤) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (٢٨٨ / ١) ، وابن
أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٠٨ / ٢) .

لا يضرُّ ، ويدلُّ عليه ما روى أبو أمامة الباهليُّ رضي الله عنه : أنَّ بعضَ أصحابِ الصِّفةِ توفِّيَ ، فما وُجدَ له كفنٌ ، فقالَ صلى الله عليه وسلَّم : « فَتَّشُوا ثَوْبَهُ » ، فوجدوا فيه دينارين في داخلِ إزارِهِ ، فقالَ صلى الله عليه وسلَّم : « كَيْتَانِ »^(١) ، وقد كانَ غيرُهُ مِنَ المسلمينَ يموتُ ويخلفُ أموالاً ولا يقولُ ذلكَ في حقِّهِ ، وهذا يحتملُ وجهين ؛ لأنَّ حالَهُ يحتملُ حالين :

أحدهما : أَنَّهُ أرادَ (كَيْتَانِ) مِنَ النارِ ؛ كما قالَ تعالى : ﴿ فَتُكَوَّى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ، وذلك إذا كانَ حالُهُ إظهارَ الزهدِ والفقرِ والتوكلِ مع الإفلاسِ عنه ، فهو نوعُ تلبيسٍ .

والثاني : ألا يكونَ ذلكَ عن تلبيسٍ ، فيكونَ المعنيُّ بهِ النقصانَ عن درجةِ كمالِهِ ؛ كما ينقصُ من جمالِ الوجهِ أثرُ كيتينِ في الوجهِ ، وذلك لا يكونُ عن تلبيسٍ ، فإنَّ كلَّ ما يخلفُهُ الرجلُ فهو نقصانٌ عن درجتهِ في الآخرةِ ؛ إذ لا يُؤتى أحدٌ مِنَ الدنيا شيئاً إلا نقصَ بقدرِهِ مِنَ الآخرةِ .

وأما بيانُ أنَّ الادخارَ مع فراغِ القلبِ عن المدخرِ ليسَ من ضرورتهِ بطلانُ التوكلِ . . فيشهدُ له ما رُوِيَ عن بشرٍ ؛ قالَ الحسينُ المغازليُّ من أصحابِهِ : كنتُ عندهُ ضحوةً مِنَ النهارِ ، فدخلَ رجلٌ كهلاً أسمرٌ خفيفُ العارضينِ ، فقامَ إليه بشرٌ ، قالَ : وما رأيتهُ قامَ لأحدٍ غيرِهِ ، قالَ : ودفعَ إليَّ كفاً من دراهمَ وقالَ : اشترِ لنا من أجودِ ما تقدِرُ عليه مِنَ الطعامِ الطيبِ ، وما قالَ

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٣ / ٥) .

لي قطُّ مثلَ ذلك . قال : فجئتُ بالطعام ، فوضعتُهُ ، فأكلَ معهُ وما رأيتهُ
أكلَ معَ غيره ، قال : فأكلنا حاجتنا ، وبقيَ مِنَ الطعامِ شيءٌ كثيرٌ ، فأخذهُ
الرجلُ وجمعهُ في ثوبِهِ وحملهُ معهُ وانصرفَ ، فعجبتُ مِنْ ذلكَ وكرهتُهُ لَهُ ،
فقالَ لي بشرٌ : لعلَّكَ أنكرتَ فعلَهُ ؟ قلتُ : نعم ، أخذَ بقيَّةَ الطعامِ مِنْ غيرِ
إِذْنٍ ، فقالَ : ذاكَ أخونا فتحَّ الموصليُّ ، زارنا اليومَ مِنَ الموصليِّ ، وإنَّما
أرادَ أَنْ يَعْلَمَنا أَنَّ التوكلَ إذا صحَّ . . لم يضرَّ معهُ الادخارُ^(١) .



(١) قوت القلوب (١٩ / ٢) .

الفن الثالث: في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف^(١)

اعلم : أنَّ الضررَ قد يعرضُ للخوفِ في نفسٍ أو مالٍ ، وليسَ من شرطِ التوكلِ تركُ الأسبابِ الدافعةِ رأساً ، أمّا في النفسِ . . فكالنومُ في الأرضِ المَسْبُوعَةِ^(٢) ، أو في مجرى السيلِ مِنَ الوادي ، أو تحتَ الجدارِ المائلِ والسقفِ المنكسرِ ، فكلُّ ذلكَ منهىٌّ عنه ، وصاحبهُ قد عرَّضَ نفسهُ للهلاكٍ بغيرِ فائدةٍ .

نعم ، تنقسمُ هذه الأسبابُ إلى مقطوعٍ بها ، وإلى مظنونةٍ ، وإلى موهومةٍ ، فتركُ الموهومِ منها مِنْ شرطِ التوكلِ ، وهي التي نسبتُها إلى دفعِ الضررِ نسبةً الكيِّ والرقيةِ ؛ فإنَّ الكيِّ والرقيةَ قد تقدَّم على المحذورِ دفعاً لما يُتَوَقَّعُ ، وقد يُستعملُ بعدَ نزولِ المحذورِ للإزالةِ ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم لم يصفِ المتوكلينَ إلا بتركِ الكيِّ والرقيةِ والطيرةِ ، ولم يصفهمُ بأنَّهم إذا خرجوا إلى موضعٍ باردٍ لم يلبسوا جبةً ، والجبةُ تلبسُ دفعاً للبردِ المتوقعِ ، وكذلك كلُّ ما في معناها مِنَ الأسبابِ .

نعم ، الاستظهارُ بأكلِ الثومِ مثلاً عندَ الخروجِ إلى سفرٍ في الشتاءِ تهييجاً لقوَّةِ الحرارةِ مِنَ الباطنِ . . ربَّما يكونُ مِنْ قبيلِ التعمُّقِ في الأسبابِ والتعويلِ

(١) في النسخ : (المتعرض) بدل (المعرض) ، والمثبت من (ق) .

(٢) أي : ذات سبع .

عليها ، فيكادُ يقربُ مِنَ الكَيِّ ، بخلافِ الجَبَّةِ .

ولتركِ الأسبابِ الدافعةِ وإنْ كانتْ مقطوعةً وجهٌ إذا نالَ الضررُ مِنْ إنسانٍ ، فَإِنَّهُ إذا أمكنهُ الصبرُ وأمكنهُ الدفعُ والتشفيُّ . . فشرطُ التوكلِ الاحتمالُ والصبرُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ .

وقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ . وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ .

وقَالَ تَعَالَى : ﴿ نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ وهذا في أذى الناسِ .

وَأَمَّا الصبرُ عَلَى أذى الحَيَّاتِ والسباعِ والعقاربِ . . فتركُ دفعِها ليسَ مِنَ التوكلِ في شيءٍ ؛ إذْ لا فائدةَ فيه ، ولا يَرَادُ السعيُّ ولا تركُ السعيِّ لِعَيْنِهِ ، بَلْ لِإِعَانَتِهِ عَلَى الدِّينِ ، وترتُبُ الأسبابُ ههنا كترتُبُها في الكسبِ وجلبِ النافعِ ، فلا نطوِّلُ بالإعادةِ .

وكذلكَ في الأسبابِ الدافعةِ عَنِ المَالِ ، فلا ينقصُ التوكلُ بإغلاقِ بابِ البيتِ عِنْدَ الخُرُوجِ ، ولا بَأَنْ يعقلَ البعيرُ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ أسبابٌ عُرِفَتْ بِسَنَةِ اللهِ تَعَالَى ؛ إِمَّا قَطْعًا ، وإِمَّا ظَنًّا ، وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَعْرَابِيِّ لَمَّا أَنْ أَهْمَلَ الْبَعِيرَ وَقَالَ : تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » (١) .

(١) رواه الترمذي (٢٥١٧) .

وقال تعالى : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ .

وقال في كيفية صلاة الخوف : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ .

وقال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ فَاسْرِ يَعَادِي لَيْلًا ﴾ ، والتحصن بالليل

اختفاء عن أعين العدو نوع تسبب .

واختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار عن أعين الأعداء دفعاً

للضرر^(١) .

وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعاً قطعاً كقتل الحيّة والعقرب ؛ فإنه

دافع قطعاً ، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون

كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه .

فإن قلت : فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه

ولم يتحرك .

فأقول : وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه ، فلا ينبغي

أن يغررك ذلك المقام ، فإنه وإن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح للاقتداء

بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات ، وليس ذلك

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) .

شرطاً في التوكل ، وفيه أسرارٌ لا تقفُ عليها ما لم تنته إليها .

فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أنني قد وصلت إليه ؟

فأقول : الواصل لا يحتاج إلى طلبِ العلامات ، ولكن من العلامات السابقة عليه أن يُسخرَ لك كلبٌ هو معك في إهابك يُسمى الغضب ، فلا يزال يعضُّك ويعضُّ غيرك ، فإن سُخرَ لك هذا الكلبُ بحيث إذا هُيجَ وأُشلي . . لم يستل إلا بإشارتك ، وكان مسخرًا لك ، فربما ترتفعُ درجتك إلى أن يسخرَ لك الأسد الذي هو ملك السباع ، وكلبُ دارك أولى بأن يكون مسخرًا لك من كلبِ البوادي ، وكلبُ إهابك أولى بأن يُسخرَ من كلبِ دارك ، فإذا لم يُسخرَ لك الكلبُ الباطن . . فلا تطمع في استسحارِ الكلبِ الظاهر .

فإن قلت : فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذراً من العدو ، وأغلق بابه حذراً من اللص ، وعقلَ بعيره حذراً من أن ينطلق . . فبأي اعتبار يكون متوكلاً ؟

فأقول : يكون متوكلاً بالعلم والحال .

فأمّا العلم . . فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع . . لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل يدفع الله تعالى إياه ، فكم من باب يُغلق ولا ينفع ، وكم من بعير يُعقل ويموت أو يفلت ، وكم من أخذ سلاحه يُقتل أو يُغلب ! فلا تتكل على هذه الأسباب أصلاً ، بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل

في الوكيل بالخصومة ؛ فإنه وإن حضر وأحضر السجل . . فلا يتكل على نفسه وعلى سجله ، بل على كفاية الوكيل وقوته .

وأما الحال . . فهو أن يكون راضياً بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ، ويقول : اللهم ؛ إن سلّطت على ما في البيت من يأخذه . . فهو في سبيلك ، وأنا راضٍ بحكمك ؛ فإنني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها ، أو عارية أو وديعة فتستردها ؟ ولا أدري أنها رزقي ، أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزقٌ غيري ؟ وكيفما قضيت . . فأنا راضٍ به ، وما أغلقت الباب تحصناً من قضائك وتسحطاً له ، بل جرياً على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب .

فإذا كان هذا حاله ، وذلك الذي ذكرناه علمه . . لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب .

ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت . . فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى ، وإن لم يجده ، بل وجدته مسروقاً ؛ نظر إلى قلبه ، فإن وجدته راضياً أو فرحاً بذلك عالماً أنه ما أخذ الله ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة . . فقد صحّ مقامه في التوكل ، وظهر له صدقه ، وإن تألم قلبه به ، ووجد قوة الصبر . . فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل ؛ لأن التوكل مقام بعد الزهد ، ولا يصحّ الزهد إلا ممن لا يأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي ، بل قد يكون على العكس منه ، فكيف يصحّ له التوكل ؟!

نعم ، قد صحَّ له مقامُ الصبرِ إن أخفاه ولم يظهرْ شكواه ، ولم يكثرْ سعيه في الطلبِ والتجسسِ ، وإن لم يقدرْ على ذلك حتَّى تأذَّى بقلبه ، وأظهرَ الشكوى بلسانه ، واستقصى الطلبَ بيديه . . فقد كانتِ السرقةُ مزيداً له في ذنبه من حيثُ إنَّه ظهرَ له قصوره عن جميعِ المقاماتِ ، وكذبُه في جميعِ الدعاوى ، فبعدَ هذا ينبغي أن يجتهدَ حتَّى لا يصدِّقَ نفسه في دعاويها ، ولا يتدلَّى بحبلِ غرورها ، فإنَّها خداعةٌ أمارةٌ بالسوءِ مدعيةٌ للخيرِ .

فإن قلتَ : فكيف يكونُ للمتوكلِ مالٌ حتَّى يؤخذَ ؟

فأقولُ : المتوكلُ لا يخلو بيته من متاع ؛ كقصعةٍ يأكلُ فيها ، وكوزٍ يشربُ منه ، وإناءٍ يتوضأُ منه ، وجرابٍ يحفظُ به زاده ، وعصاً يدفعُ بها عدوه ، وغير ذلك من ضروراتِ المعيشة من أثاثِ البيتِ ، وقد يدخلُ في يده مالٌ وهو يمسكه ليجدَ محتاجاً فيصرفه إليه ، فلا يكونُ ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله ، وليس من شرطِ التوكلِ إخراجُ الكوزِ الذي يشربُ منه ، والجرابِ الذي فيه زاده ، وإنَّما ذلك في المأكولِ ، وفي كلِّ مالٍ زائدٍ على قدرِ الضرورة ؛ لأنَّ سنَّةَ الله تعالى جاريةٌ بوصولِ الخيرِ إلى الفقراءِ المتوكلينَ في زوايا المساجدِ ، وما جرتِ السنَّةُ بترقية الكيزانِ والأمتعة في كلِّ يومٍ ولا في كلِّ أسبوعٍ ، والخروجُ عن سنَّةِ الله تعالى ليس شرطاً في التوكلِ .

ولذلك كَانَ الْخَوَاصُّ يَأْخُذُ فِي السَّفَرِ الْحَبْلَ وَالرَّكُوعَ وَالْمَقْرَاضَ وَالْإِبْرَةَ
دُونَ الزَّادِ^(١) ؛ لِأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى جَارِيَةٌ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَلَا يَحْزَنُ إِذَا أَخَذَ مَتَاعَهُ الَّذِي هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ
وَلَا يَأْسَفَ عَلَيْهِ ؟ فَإِنْ كَانَ لَا يَشْتَهِيهِ . . فَلَمْ أَمْسِكْهُ وَأَغْلَقَ الْبَابَ عَلَيْهِ ؟
وإِنْ كَانَ أَمْسِكْهُ لِأَنَّهُ يَشْتَهِيهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ . . فَكَيْفَ لَا يَتَأَذَّى قَلْبُهُ
وَلَا يَحْزَنُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهِيهِ ؟

فَأَقُولُ : إِنَّمَا كَانَ يَحْفَظُهُ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى دِينِهِ ؛ إِذْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ الْخَيْرَ لَهُ
فِي أَنْ يَكُونَ لَهُ ذَلِكَ الْمَتَاعُ . وَلَوْلَا أَنَّ الْخَيْرَ لَهُ فِيهِ . . لَمَا رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى
وَلَمَا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، فَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِتَيْسِيرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ
تَعَالَى مَعَ ظَنِّهِ أَنَّ ذَلِكَ مَعِينٌ لَهُ عَلَى أَسْبَابِ دِينِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَهُ
مَقْطُوعًا بِهِ ؛ إِذْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ خَيْرَتُهُ فِي أَنْ يُتَلَّى بِفَقْدِ ذَلِكَ حَتَّى يَنْصَبَ فِي
تَحْصِيلِ غَرَضِهِ ، وَيَكُونَ ثَوَابُهُ فِي التَّعَبِ وَالنَّصَبِ أَكْثَرَ ، فَلَمَّا أَخَذَهُ اللَّهُ
تَعَالَى مِنْهُ بِتَسْلِيْطِ اللَّصِّ . . تَغَيَّرَ ظَنُّهُ ؛ لِأَنَّهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَاثِقٌ بِاللَّهِ
حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ ، فَيَقُولُ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ أَنَّ الْخَيْرَ لِي كَانَتْ فِي
وَجُودِهَا إِلَى الْآنَ وَالْخَيْرُ الْآنَ لِي فِي عَدَمِهَا . . لَمَا أَخَذَهَا مِنِّي .

فَبِمَثَلِ هَذَا الظَّنِّ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنْدَفَعَ عَنْهُ الْحُزْنُ ؛ إِذْ بِهِ يَخْرُجُ عَنْ أَنْ يَكُونَ

(١) رَوَى ذَلِكَ عَنْهُ الْقَشِيرِيُّ فِي « الرِّسَالَةِ » (ص ٢٩٩) .

فرحُهُ بالأسبابِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا أسبابٌ ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَسَّرُهَا مَسَبُّ
الأسبابِ عنايةً بِهِ وتلطُّفاً ، وهو كالمریضِ بَيْنَ يَدَيِ الطَّيِّبِ الشَّفِيقِ يَرْضَى بِمَا
يَفْعَلُهُ ، فَإِنْ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْغِذَاءَ .. فرحَ وقالَ : لولا أَنَّهُ عَرَفَ أَنَّ الْغِذَاءَ يَنْفَعُنِي
وَقَدْ قَوَّيْتُ عَلَى احْتِمَالِهِ .. لما قَرَّبَهُ إِلَيَّ ، وَإِنْ أَخَّرَ عَنْهُ الْغِذَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ
أَيْضاً .. فرحَ وقالَ : لولا أَنَّ الْغِذَاءَ يَضُرُّنِي وَيَسُوقُنِي إِلَى الْمَوْتِ .. لما حَالَ
بَيْنِي وَبَيْنَهُ .

وَكُلُّ مَنْ لَا يَعْتَقِدُ فِي لَطْفِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَعْتَقِدُهُ الْمَرِيضُ فِي الْوَالِدِ
الْمَشْفُقِ الْحَاضِقِ بِعِلْمِ الطَّبِّ .. فلا يَصِحُّ مِنْهُ التَّوَكُّلُ أَصْلًا ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ
تَعَالَى ، وَعَرَفَ أَفْعَالَهُ ، وَعَرَفَ سُنَّتَهُ فِي إِصْلَاحِ عِبَادِهِ .. لَمْ يَكُنْ فَرَحُهُ
بِالْأَسْبَابِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيُّ الْأَسْبَابِ خَيْرٌ لَهُ ؛ كَمَا قَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ : (لَا أَبَالِي أَصْبَحْتُ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي أَيُّهُمَا خَيْرٌ لِي) (١) ،
فكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا يَبَالِيَ الْمُتَوَكِّلُ يُسْرِقُ مَتَاعَهُ أَوْ لَا يُسْرِقُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي
أَيُّهُمَا خَيْرٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، فَكَمْ مِنْ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ سَبَبَ
هَلَاكِ الْإِنْسَانِ ، وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ يُتَلَّى بِوَاقِعَةٍ لِأَجْلِ غِنَاهُ يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ
فَقِيرًا .



(١) أوردته الحارث المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في
« إتحافه » (٣٠٤ / ٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه :

الأول : أن يغلق الباب ، ولا يستقصي في أسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه أغلاقاً كثيرة ، فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ، ولكن يشده بشريط ويقول : (لولا الكلاب .. ما شدته أيضاً)^(١) .

الثاني : ألا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه السراق ، فيكون هو سبب معصيتهم ؛ إذ إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ، ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة .. قال له : خذها ، فلا حاجة لي إليها ، قال : لم ؟ قال : يوسوس إلي العدو أن اللص قد أخذها^(٢) .

فكأنه احترز من أن يعصي السارق ، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ، ولذلك قال أبو سليمان : (هذا من ضعف قلوب الصوفية ،

(١) قوت القلوب (٣٣ / ٢) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٧ / ٢) أنه كان يقول : (من دخل بيتي فأخذ شيئاً .. فهو له حلال ، أما أنا .. فلا أحتاج إلى قفل ولا إلى مفتاح) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٧ / ١) ، وخبر مالك مفرداً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٤ / ٢) ، وليس فيه ذكر للمغيرة ، بل قالها للحارث بن نبهان .

هَذَا قَدْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا ، فَمَا عَلَيْهِ مِنْ أَخْذِهَا ؟ !^(١) .

الثالثُ : أَنَّ مَا يُضْطَرُّ إِلَى تَرْكِهِ فِي الْبَيْتِ يَنْبَغِي أَنْ يَنْوِيَ عِنْدَ خُرُوجِهِ الرِّضَا بِمَا يَقْضِي اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ مِنْ تَسْلِيْطِ سَارِقٍ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُ : مَا يَأْخُذُهُ السَّارِقُ . . فَهُوَ مِنْهُ فِي حَلٍّ ، أَوْ هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ فَقِيْرًا . . فَهُوَ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ، وَإِنْ لَمْ يَشْرَطِ الْفَقْرَ . . فَهُوَ أَوْلَى ، وَيَكُونُ لَهُ نِيَّانٌ : لَوْ أَخَذَهُ غَنِيٌّ أَوْ فَقِيْرٌ :

إِحْدَاهُمَا : أَنْ يَكُونَ مَالُهُ مَانِعًا لَهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، فَإِنَّهُ رَبَّمَا يَسْتَغْنِي بِهِ فَيَتَوَانَى عَنِ السَّرْقَةِ بَعْدَهُ ، وَقَدْ زَالَ عَصِيَانُهُ بِأَكْلِ الْحَرَامِ لَمَّا أَنْ جَعَلَهُ فِي حَلٍّ .

وَالثَّانِيَةُ : أَلَّا يَظْلَمَ مُسْلِمًا آخَرَ ، فَيَكُونُ مَالُهُ فِدَاءً لِمَالِ مُسْلِمٍ آخَرَ ، وَمَهْمَا نَوَى حِرَاسَةَ مَالٍ غَيْرِهِ بِمَالٍ نَفْسِهِ ، أَوْ نَوَى دَفْعَ الْمَعْصِيَةِ عَنِ السَّارِقِ ، أَوْ تَخْفِيفَهَا عَلَيْهِ . . فَقَدْ نَصَحَ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَامْتَثَلَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا »^(٢) ، وَنَصْرَةُ الظَّالِمِ بِمَنْعِهِ مِنَ الظُّلْمِ ، وَعَفْوُهُ عَنْهُ إِعْدَامٌ لِلظُّلْمِ وَمَنْعٌ لَهُ .

وَلِيَتَحَقَّقْ أَنَّ هَذِهِ النِّيَّةَ لَا تَضُرُّهُ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهَا مَا يَسْلُطُ

(١) قوت القلوب (١/٢٦٧) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٣) .

السارق ويغيّر القضاء الأزلي ، ولكنه تتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله . .
 كان له بكل درهم سبع مئة درهم ؛ لأنه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ . .
 حصل له الأجر أيضاً ؛ كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن
 ترك العزل وأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش
 فقتل في سبيل الله تعالى وإن كان لم يولد له^(١) ؛ لأنه ليس إليه من أمر الولد
 إلا الوقاع ، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء . . فليس إليه ، فلو خلق . .
 لكان ثوابه على فعله ، وفعله لم يعدم ؛ فكذلك أمر السرقة .

الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقاً . . فينبغي ألا يحزن ، بل يفرح إن
 أمكنه ويقول : لولا أن الخير كانت فيه . . لما سلبه الله تعالى ، ثم إن لم
 يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل . . فلا يبالغ في طلبه وإساءة الظن
 بالمسلمين ، وإن كان قد جعله في سبيل الله . . فيترك طلبه ، فإنه قد قدمه
 ذخيرة لنفسه إلى الآخرة ، فإن أعيد إليه . . فالأولى ألا يقبله بعد أن كان قد
 جعله في سبيل الله عز وجل ، وإن قبله . . فهو في ملكه في ظاهر العلم ؛
 لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين .
 وقد روي أن ابن عمر رضي الله عنهما سرق ناقة ، فطلبها حتى أعيأ ،

(١) كذا الخبر في « القوت » (٣٣ / ٢) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) .
 « إتحاف » (٥١٢ / ٩) .

ثُمَّ قَالَ : فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؛ إِنَّ نَاقَتَكَ فِي مَكَانٍ كَذَا ، فَلَبَسَ نَعْلَهُ وَقَامَ ، ثُمَّ قَالَ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، وَجَلَسَ ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَا تَذْهَبُ فَتَأْخُذَهَا ؟ فَقَالَ : إِنِّي كُنْتُ قُلْتُ : فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) .

وَقَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ : رَأَيْتُ بَعْضَ إِخْوَانِي فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَقُلْتُ : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ قَالَ : غَفَرَ لِي وَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ ، وَعَرَضَ عَلَيَّ مَنَازِلِي فِيهَا فَرَأَيْتُهَا ، قَالَ : وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَثِيبٌ حَزِينٌ ، فَقُلْتُ : قَدْ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ وَغُفِرَ لَكَ وَأَنْتَ حَزِينٌ ؟ ! فَتَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي لَا أَزَالُ حَزِينًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قُلْتُ : وَلِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ مَنَازِلِي مِنَ الْجَنَّةِ .. رُفِعَتْ لِي مَقَامَاتٌ فِي عِلِّيِّينَ مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا فِيمَا رَأَيْتُ ، فَفَرَحْتُ بِهَا ، فَلَمَّا هَمَمْتُ بِدُخُولِهَا .. نَادَى مَنَادٌ مِنْ فَوْقِهَا : اصْرَفُوهُ عَنْهَا ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ لَهُ ، إِنَّمَا هَذِهِ لِمَنْ أَمْضَى السَّبِيلَ ، فَقُلْتُ : وَمَا أَمْضَى السَّبِيلَ ؟ فَقِيلَ لِي : كُنْتَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ إِنَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ تَرْجِعُ فِيهِ ، فَلَوْ كُنْتَ أَمْضَيْتَ السَّبِيلَ .. لَأَمْضَيْنَا لَكَ ^(٢) .

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْعَبَادِ بِمَكَّةَ أَنَّهُ كَانَ نَائِمًا بِجَنْبِ رَجُلٍ مَعَهُ هَمِيَانٌ ، فَانْتَبَهَ الرَّجُلُ فَفَقَدَ هَمِيَانَهُ ، فَاتَّهَمَهُ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : كَمْ كَانَ فِي هَمِيَانِكَ ؟ فَذَكَرَهُ ، فَحَمَلَهُ إِلَى الْبَيْتِ وَوَزَنَهُ مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَعْلَمَهُ أَصْحَابُهُ أَنَّهُمْ

(١) قوت القلوب (٣٣ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (٣٤ / ٢) .

كانوا أخذوا الهميانَ مزحاً معه ، فجاءَ هوَ وأصحابُهُ وردُّوا الذهبَ ، فأبى وقالَ : خذهُ حلالاً طيباً ، فما كنتُ لأعودَ في مالٍ أخرجتُهُ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ ، فلمْ يقبلْ ، فألحُّوا عليه ، فدعا ابناً له وجعلَ يصرُّهُ صُراً ويبيِّعُ بها إلى الفقراءِ حتَّى لمْ يبقَ منه شيءٌ^(١) .

فهكذا كانتْ أخلاقُ السلفِ ، وكذلك مَنْ أخذَ رغيماً ليعطيهُ فقيراً ، فغابَ عنه . . . كانَ يكرهُ ردَّهُ إلى البيتِ بعدَ إخراجِهِ ، فيعطيهِ فقيراً آخرَ ، وكذلك يفعلُ في الدراهمِ والدنانيرِ وسائرِ الصدقاتِ^(٢) .



الخامسُ - وهوَ أقلُّ الدرجاتِ - : ألا يدعُو على السارقِ الذي ظلمهُ بالأخذِ ، فإنْ فعلَ . . بطلَ توكلُهُ ، ودلَّ ذلكَ على كراهتِهِ وتأسُّفِهِ على ما فاتَ ، وبطلَ زهدُهُ ، وإنْ بالغَ فيه . . بطلَ أيضاً أجرُهُ فيما أصيبَ به ، ففي الخبرِ : « مَنْ دعا على مَنْ ظلمهُ . . فقد انتصر »^(٣) .

وحكي أنَ الربيعَ بنَ خُثيمٍ سُرِقَ فرسُهُ ، وكانَ ثمنُهُ عشرينَ ألفاً ، وكانَ قائماً يصلي فلمْ يقطعْ صلاتَهُ ، ولمْ ينزعجْ لطلبِهِ ، فجاءَهُ قومٌ يعزُّونَهُ ،

(١) قوت القلوب (٣٤ / ٢) يرويه عن بعض الأسياف عن شيخ كان بمكة من العباد .

(٢) قوت القلوب (٣٤ / ٢) ، وقال بعده : (وهذا طريق قد عفا أثره ، ودرس خبره ، فمن عمل به . . فقد أحياه وأظهره ، وقد كان قديماً طريقاً إلى الله تعالى عليه السابلة من الأولياء) .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٥٢) .

فَقَالَ : أَمَا إِنِّي قَدْ كُنْتُ رَأَيْتُهُ وَهُوَ يَحُلُّهُ ، قِيلَ : وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَزَجِرَهُ ؟
 قَالَ : كُنْتُ فِيمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ - يَعْنِي : الصَّلَاةَ - قَالَ : فَجَعَلُوا
 يَدْعُونَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : لَا تَفْعَلُوا وَقُولُوا خَيْراً ؛ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهَا صَدَقَةً
 عَلَيْهِ^(١) .

وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ فِي شَيْءٍ قَدْ كَانَ سُرِقَ لَهُ : أَلَا تَدْعُو عَلَى ظَالِمِكَ ؟ قَالَ :
 مَا أَحَبُّ أَنْ أَكُونَ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ ، قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ لَوْ رُدَّ عَلَيْكَ ؟ قَالَ :
 لَا أَخْذُهُ وَلَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنِّي كُنْتُ قَدْ أَحْلَلْتُهُ لَهُ^(٢) .

وَقِيلَ لِآخَرَ : ادْعُ اللَّهَ عَلَى مَنْ ظَلَمَكَ ، فَقَالَ : مَا ظَلَمَنِي أَحَدٌ ، ثُمَّ
 قَالَ : إِنَّمَا ظَلَمَ نَفْسَهُ ، أَلَا يَكْفِيهِ الْمُسْكِينُ ظَلْمُهُ لِنَفْسِهِ حَتَّى أَزِيدَهُ
 شَرًّا^(٣) ! ؟

وَأَكْثَرُ بَعْضُهُمْ شَتَمَ الْحَجَّاجَ عِنْدَ بَعْضِ السَّلَفِ فِي ظُلْمِهِ ، فَقَالَ :
 لَا تَغْرُقْ فِي شَتْمِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْتَصِفُ لِلْحَجَّاجِ مِمَّنْ انْتَهَكَ عَرْضَهُ كَمَا
 يَنْتَصِفُ مِنْهُ لِمَنْ أَخَذَ مَالَهُ وَدَمَهُ^(٤) .

(١) قوت القلوب (٣٤ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (٣٤ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (٣٤ / ٢) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية »
 (٢ / ٢٧٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٢٨٤) بنحوه ، ولفظه هنا في « القوت »
 (٣٤ / ٢) .

وفي الخبر : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُظْلَمُ الْمَظْلَمَةُ ، فَلَا يَزَالُ يَشْتُمُ ظَالِمَهُ وَيَسُبُّهُ حَتَّى يَكُونَ بِمَقْدَارِ مَا ظَلَمَهُ ، ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عَلَيْهِ مَطَالِبَةٌ بِمَا زَادَ عَلَيْهِ يُقْتَصَرُ لَهُ مِنَ الْمَظْلُومِ »^(١) .



السادس : أَنْ يَغْتَمَّ لِأَجْلِ السَّارِقِ وَعَصْيَانِهِ وَتَعَرُّضِهِ لِعَذَابِ اللَّهِ ، وَيَشْكُرَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ جَعَلَهُ مَظْلُومًا وَلَمْ يَجْعَلْهُ ظَالِمًا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ نَقْصَانًا فِي دُنْيَاهُ لَا نَقْصَانًا فِي دِينِهِ ، فَقَدْ شَكََا بَعْضُ النَّاسِ إِلَى عَالِمٍ أَنَّهُ قُطِعَ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ وَأُخِذَ مَالُهُ ، فَقَالَ : إِنْ لَمْ يَكُنْ غَمُّكَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَسْتَحِلُّ هَذَا أَكْثَرَ مِنْ غَمِّكَ بِمَالِكَ . . . فَمَا نَصَحْتَ لِلْمُسْلِمِينَ^(٢) .

وَسُرِقَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْفَضِيلِ دَنَانِيرٌ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ ، فَرَأَاهُ أَبُوهُ وَهُوَ يَبْكِي وَيَحْزَنُ ، فَقَالَ : أَعَلَى الدَّنَانِيرِ تَبْكِي ؟ ! فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنْ عَلَى الْمُسْكِينِ أَنَّهُ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا تَكُونُ لَهُ حِجَّةٌ^(٢) .

وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : ادْعُ عَلَى مَنْ ظَلَمَكَ ، فَقَالَ : إِنِّي مُشْغُولٌ بِالْحُزَنِ عَلَيْهِ عَنِ الدَّعَاءِ عَلَيْهِ^(٢) ، فَهَذِهِ أَخْلَاقُ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .



(١) أورده ابن بطال في « شرحه لصحيح البخاري » (١٨٦/١٠) عن عمر بن عبد العزيز بلاغاً ، ومعناه مروي عند الترمذي (٣٥٥٢) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « مَنْ دَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدْ انْتَصَرَ » ، ولفظه هنا في « القوت » (٣٤/٢) .

(٢) قوت القلوب (٣٤/٢) .

الفن الرابع : استيعي في إزالة الضرر كمداداة المرض وأمثاله

اعلم : أنَّ الأسبابَ المزيلَةَ للضررِ أيضاً تنقسمُ إلىِ مقطوعٍ بهِ ؛ كالماءِ المزيلِ لضررِ العطشِ ، والخبزِ المزيلِ لضررِ الجوعِ ، وإلىِ مظنونٍ ؛ كالقصدِ ، والحجامةِ ، وشربِ الدواءِ المسهلِ ، وسائرِ أبوابِ الطبِّ ؛ أعني : معالجةَ البرودةِ بالحرارةِ ، والحرارةِ بالبرودةِ ، وهيِ الأسبابُ الظاهرةُ في الطبِّ ، وإلىِ موهومٍ ؛ كالكيِّ والرقيةِ .

أمَّا المقطوعُ بهِ . . فليسَ مِنَ التوكلِ تركُهُ ، بلْ تركُهُ حرامٌ عندَ خوفِ الموتِ .

وأمَّا الموهومُ . . فشرطُ التوكلِ تركُهُ ؛ إذْ بهِ وصفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المتوكلينَ ، وأقواها الكيُّ ، ويليهِ الرقيةُ ، والطيرةُ آخرُ درجاتِها ، والاعتمادُ عليها والاتكالُ إليها غايةُ التعمُّقِ في ملاحظةِ الأسبابِ .

وأمَّا الدرجةُ المتوسطةُ وهيِ المظنونةُ ؛ كالمداواةِ بالأسبابِ الظاهرةِ عندَ الأطباءِ . . ففعله ليسَ مناقضاً للتوكلِ ؛ بخلافِ الموهومِ ، وتركُهُ ليسَ محظوراً ؛ بخلافِ المقطوعِ بهِ ، بلْ قد يكونُ أفضلَ مِنْ فعلِهِ في بعضِ الأحوالِ ، وفي حقِّ بعضِ الأشخاصِ ، فهيِ على درجةٍ بينَ الدرجتينِ .

ويدلُّ على أنَّ التداويَّ غيرُ مناقضٍ للتوكلِ فعلُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وقولهُ ، وأمرُهُ بهِ .

أَمَّا قَوْلُهُ . . فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ ، عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ ، وَجَهْلُهُ مَنْ جَهْلُهُ ، إِلَّا السَّامَ » ^(١) يعني : الموت .
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ » ^(٢) .

وَسُئِلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الدَّوَاءِ وَالرُّقْيِ : هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ شَيْئاً ؟ فَقَالَ : « هِيَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ » ^(٣) .

وَفِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ : « مَا مَرَرْتُ بِمَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مُرْ أَمَّتَكَ بِالْحِجَامَةِ » ^(٤) .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ بِهَا وَقَالَ : « احْتَجِمُوا لِسَبْعَ عَشْرَةَ ، وَتِسْعَ عَشْرَةَ ، وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ ، لَا يَتَبَيَّغُ بِكُمْ الدَّمُ فَيَقْتُلَكُمْ » ^(٥) ، فَذَكَرَ أَنَّ تَبَيُّغَ الدَّمِ سَبَبُ الْمَوْتِ ، وَأَنَّهُ قَاتِلٌ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَيَّنَّ أَنَّ إِخْرَاجَ الدَّمِ خِلَاصٌ مِنْهُ ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ إِخْرَاجِ الدَّمِ الْمَهْلِكِ مِنَ الْإِهَابِ وَبَيْنَ إِخْرَاجِ الْعَقْرَبِ مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ ، وَإِخْرَاجِ الْحَيَّةِ مِنَ الْبَيْتِ ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ

(١) كَذَا فِي « الْقَوَات » (٢١ / ٢) ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي « الْمَصْنَفِ » (٢٣٨٨٤) ،

وَالطَّبْرَانِيُّ فِي « الْأَوْسَطِ » (١٥٨٧) ، وَالْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٤٠١ / ٤) .

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٨٥٥) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٠٣٨) ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي « الْكَبِيرِ » (٢٥٤ / ٢٤) .

(٣) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٠٦٥) ، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٤٣٧) .

(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٠٥٢) ، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٤٧٩) .

(٥) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٠٥١) وَلَمْ يَذْكُرِ التَّبَيُّغَ ، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٤٨٦) ، وَالتَّبَيُّغُ : هِيَجَانُ الدَّمِ حَتَّى تَظْهَرَ حَمْرَتُهُ فِي الْبَدَنِ .

التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلاً .
وفي خبر مقطوع : « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر . .
كان له دواء من داء سنة »^(١) .

وأما أمره . . فقد أمر صلى الله عليه وسلم غير واحد من الصحابة بالتداوي والحمية^(٢) ، وقطع لسعد بن معاذ عرقاً ؛ أي : فصدّه^(٣) ، وكوى سعد بن زرارة^(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه وكان رمد العين : « لا تأكل من هذا - يعني : الرطب - وكل من هذا ؛ فإنه أوفق لك » ؛ يعني : سلقاً قد طبخ بدقيق شعير^(٥) .

وقال عليه الصلاة والسلام لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين :

- (١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٣٨٧ / ١) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٠٠ / ٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣٤٠ / ٩) .
- (٢) تقدم قريباً قوله صلى الله عليه وسلم : « تداووا » ، وسيأتي في قصة علي وصهيب رضي الله عنهما في الحمية .
- (٣) كما هو عند مسلم (٢٢٠٨) .
- (٤) كما هو عند ابن ماجه (٣٤٩٢) ، ثم مات رضي الله عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ميتة سوء لليهود ، يقولون : أفلا دفع عن صاحبه ، وما أملك له ولا لنفسي شيئاً » .
- (٥) رواه أبو داود (٣٨٥٦) ، والترمذي (٢٠٣٧) ، وابن ماجه (٣٤٤٢) .

« تَأْكُلُ تَمْرًا وَأَنْتَ رَمِدٌ !؟ » فَقَالَ : إِنِّي آكُلُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ ، فَتَبَسَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) .

وَأَمَّا فَعْلُهُ . . فَقَدْ رُويَ فِي حَدِيثٍ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَكْتَحِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَيَحْتَجِمُ كُلَّ شَهْرٍ ، وَيَشْرَبُ الدَّوَاءَ كُلَّ سَنَةٍ ^(٢) .

وَتَدَاوَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ مِنَ الْعَقْرِبِ وَغَيْرِهَا ^(٣) .
وَرُويَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ . . صُدِعَ رَأْسُهُ ، فَكَانَ يَغْلِفُهُ بِالْحَنَاءِ ^(٤) .
وَفِي خَبَرٍ : أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَتْ بِهِ قَرْحَةٌ . . جَعَلَ عَلَيْهَا حَنَاءً ^(٥) ،

(١) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢١ / ٢) ، وقد رواه من غير طريقهم ابن عدي في « الكامل » (٤٣٣ / ٣) .

(٣) روى الطبراني في « الكبير » (٢٨٧ / ٢) عن جبلة بن الأزرق رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى جنب جدار كثير الأحجرة صلى ظهراً وعصراً ، فلما جلس في الركعتين . . خرجت عقرب فلدغته ، ففشي عليه ، فرقاه الناس ، فلما أفاق . . قال : « شفاني الله وليس برقيتكم » .

وروى في « الأوسط » (١٠٩) عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى . . تقمح كفاً من شونيز ويشرب عليه ماءً وعسلاً .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٧٨٥٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٢٥) .

(٥) رواه الترمذي (٢٠٥٤) ، وابن ماجه (٣٥٠٢) .

وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً^(١) .

وما روي في مداويه عليه الصلاة والسلام وأمره بذلك خارج عن الحصر ، وقد صنف في ذلك كتابٌ وسُميَ طب النبي صلى الله عليه وسلم^(٢) .

وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات : أن موسى عليه السلام اعتلَّ بعلة ، فدخل عليه بنو إسرائيل ، فعرفوا علة ، فقالوا له : لو تداويت بكذا . . لبرئت ، فقال : لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء ، فطالت علة ، فقالوا له : إن دواء هذه العلة معروف مجرب ، وإننا نتداوى به فبرأ ، فقال : لا أتداوى ، فدامت علة ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزتي ؛ لا أبرئك حتى تتداوى بما ذكروه لك ، فقال لهم : داووني بما ذكرتم ، فداووه ، فبرأ ، فأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه ، أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك عليّ ؟! من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟! ^(٣) .

- (١) فعند البخاري (٥٧٤٥) ، ومسلم (٢١٩٤) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح . . قال النبي صلى الله عليه وسلم بإصبعه هكذا - ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها - : « باسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ؛ ليشفى به سقيمنا بإذن ربنا » .
- (٢) وهما كتابان مشهوران بهذا الاسم ، أحدهما للحافظ أبي بكر بن السني ، والثاني للحافظ أبي نعيم الأصبهاني . « إتحاف » (٥١٩/٩) .
- (٣) قوت القلوب (٢١/٢) .

وروي في خبر آخر : أن نبياً من الأنبياء شكاً علّة يجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض^(١) ، وشكاً نبياً آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن ؛ فإنّ فيهما القوّة . قيل : هو الضعف عن الجماع^(٢) .

وقد روي أن قوماً شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم ، فأوحى الله تعالى إليه : مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل ؛ فإنه يحسن الولد ، ويُفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يُصورُ الله تعالى الولد ، وقد كانوا يطعمون الحبالى السفرجل ، والنساء الرطب^(٢) .

فهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنّة بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة ، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب ، فكما أن الخبز دواء الجوع ، والماء دواء العطش . . فالسكنجيين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال ، لا يفارقه إلا في أحد أمرين :

أحدهما : أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جليّ واضح يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص ، فمن أدرك ذلك بالتجربة . . التحق في حقه بالأوّل .

والثاني : أن الدواء سهل ، والسكنجيين يسكن الصفراء بشروطٍ آخر في الباطن ، وأسباب في المزاج ، ربّما يتعدّر الوقوف على جميع شروطها ،

(١) قوت القلوب (٢/٢١) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٢) .

وربّما يفوت بعضُ الشروطِ ، فيتقاعدُ الدواءُ عنِ الإسْهالِ ، وأمّا زوالُ العطشِ . . فلا يستدعي - سوى الماء - شروطاً كثيرةً ، وقد يتفقُ منِ العوارضِ ما يُوجبُ دوامَ العطشِ معَ كثرةِ شربِ الماءِ ، ولكنهُ نادرٌ .

واختلافُ الأسبابِ أبداً ينحصرُ في هذينِ الفئتينِ ، وإلا . . فالمسبّبُ يتلو السببَ - لا محالةً - مهما تَمَّتْ شروطُ السببِ ، وكلُّ ذلكَ بتدبيرِ مسببِ الأسبابِ وتسخيرِهِ وترتيبِهِ بحكمِ حكمتهِ وكمالِ قدرتهِ ، فلا يضرُّ المتوكلُ استعمالُهُ مَعَ النظرِ إلى مسببِ الأسبابِ دونَ الطبيبِ والدواءِ ، فقد رُوِيَ عنِ موسى عليه السلامُ أَنَّهُ قَالَ : يا ربِّ ؛ ممّنِ الدواءُ والشفاءُ ؟ فقالَ تعالى : منّي ، قالَ : فما يصنعُ الأطباءُ ؟ قالَ : يأكلونَ أرزاقَهُمْ ، ويطيّبونَ نفوسَ عبادي حتّى يأتِيَ شفاؤي أو قبضي^(١) .

فإذا ؛ معنى التوكلِ معَ التداوي التوكلُ بالعلمِ والحالِ كما سبقَ في فنونِ الأعمالِ الدافعةِ للضررِ الجالبةِ للنفعِ ، وأمّا تركُ التداوي رأساً . . فليسَ شرطاً فيه .

فإن قلتَ : فالكفيُّ أيضاً منِ الأسبابِ الظاهرةِ النفعِ .

فأقولُ : ليسَ كذلكَ ؛ إذِ الأسبابُ الظاهرةُ مثلُ الفصدِ والحجامةِ وشربِ المسهلِ وسقيِ المبرّداتِ للمحرورِ ، وأمّا الكفيُّ ؛ فلو كانَ مثلها في

(١) قوت القلوب (٢٢ / ٢) .

الظهور . . لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، وقلما يُعتادُ الكيُّ في أكثر البلاد ، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب ، فهو من الأسباب الموهومة كالرَّقِي^(١) ، إلا أنه يتميزُّ عنه بأمر ، وهو أنه إحراقُ النارِ في الحالِ مع الاستغناء عنه ، فإنه ما من وجع يُعالجُ بالكيِّ إلا وله دواءٌ يغني عنه ليس فيه إحراقٌ ، فالإحراقُ بالنارِ جرحٌ مخربٌ للبنىة ، محذورُ السراية ، مع الاستغناء عنه ، بخلافِ الفصدِ والحجامة ، فإن سرايتهما بعيدة ، ولا يسدُّ مسدَّهما غيرُهما .

ولذلك نهى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الكيِّ دونَ الرَّقِي ، وكلِّ واحدٍ منهما بعيدٌ عن التوكل^(٢) .

وروي أنَّ عمرانَ بنَ الحصينِ اعتلَّ ، فأشاروا عليه بالكيِّ ، فامتنع ، فلم يزالوا به ، وعزمَ عليه الأميرُ حتَّى اکتوى ، فكانَ يقولُ : (كنتُ أرى نوراً وأسمعُ صوتاً ، وتسلمُ عليَّ الملائكةُ ، فلما اکتويتُ . . انقطعَ ذلك عني)^(٣) ، وكانَ يقولُ : (اکتوينا كيَّاتٍ ، فواللهِ ؛ ما أفلحنَ ولا أنجحنَ)^(٤) ،

(١) مصدر ، يقال : رقاہ رَقِيًّا ورَقِيًّا ، وعند الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥٢٠ / ٩) جعله جمع رقية ، فهو الرَّقِي .

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٠) ولفظه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « الشفاء في ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنهى أمتي عن الكي » .

(٣) كذا في « القوت » (٢٢ / ٢) ، والسياق عنده ، ورواه بنحوه أحمد في « المسند » (٤٢٧ / ٤) .

(٤) رواه أبو داود (٣٨٦٥) .

ثُمَّ تَابَ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مَا كَانَ يَجِدُ مِنْ
أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ .

وَقَالَ لِمَطْرِفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْكَرَامَةِ الَّتِي كَانَ أَكْرَمَنِي اللَّهُ
بِهَا ، قَدْ رَدَّهَا عَلَيَّ) ، بَعْدَ أَنْ كَانَ أَخْبَرَهُ بِفَقْدِهَا ^(١) .

فَإِذَا ؛ الْكَيْ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ هُوَ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِالْمُتَوَكِّلِ ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ
فِي اسْتِنَابِطِهِ إِلَى تَدْبِيرٍ ، ثُمَّ هُوَ مُوْهُومٌ ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى شِدَّةِ مِلَاحِظَةِ
الْأَسْبَابِ وَعَلَى التَّعَمُّقِ فِيهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .



(١) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢٢ / ٢) .

بيان أن ترك التداوي قد يُخمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل ، وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم : أن الذين تداؤوا من السلف لا ينحسرون ، ولكن قد ترك التداوي أيضاً جماعة من الأكابر ، فربما يُظن أن ذلك نقصان ؛ لأنه لو كان كاملاً . . لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله .

وقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له في مرضه : لو دعونا لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب قد نظر إليّ وقال : إني فعّال لما أريد^(١) .

وقيل لأبي الدرداء في مرضه : ما تشتهي ؟ قال : ذنوبي ، قيل : فما تشتهي ؟ قال : مغفرة ربّي ، قالوا : ألا ندعو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضني^(٢) .

وقيل لأبي ذرٍّ وقد رمدت عيناه : لو داويتهما ، قال : إني عنهما مشغولٌ ، فقيل : لو سألت الله تعالى أن يعافيك ، فقال : أسأله فيما هو أهم عليّ منهما^(٣) .

(١) كذا في « القوت » (٢٣ / ٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤ / ١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٣ / ٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٨ / ١) .

(٣) قوت القلوب (٢٣ / ٢) .

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج ، ف قيل له : لو تداويت ، فقال : قد هممت ثم ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً ، وكان فيهم الأطباء ، فهلك المداوي والمداوي ، ولم تغن الرقي شيئاً^(١) .

وكان أحمد ابن حنبل يقول : (أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره)^(٢) ، وكان به علل ، فلا يخبر المتطبب بها أيضاً إذا سأله^(٣) .

وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكل ؟ قال : إذا دخل عليه الضر في جسمه والنقص في ماله . . فلم يلتفت إليه شغلاً بحاله ، وينظر إلى قيام الله تعالى عليه^(٤) .

فإذا ؛ منهم من ترك التداوي وراءه ، ومنهم من كرهه ، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاليهم إلا بحصر الصوارف عن التداوي ، فنقول : إن لترك التداوي أسباباً :

السبب الأول : أن يكون المريض من المكاشفين ، وقد كُشف بأنه

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٠٧) .

(٢) قوت القلوب (٢٢ / ٢) .

(٣) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٥٢٢ / ٩) ، والمتطبب : متعاطي علم الطب وقد لا يعرفه معرفة جيدة .

(٤) قوت القلوب (٢٣ / ٢) .

انتهى أجله ، وأن الدواء لا ينفعه ، ويكون ذلك معلوماً عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق ، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوي من هذا السبب ؛ فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث : (إنما هن أختاك) ، وما كان لها إلا أخت واحدة ، ولكن كانت امرأته حاملاً ، فولدت أنثى^(١) ، فعلم أنه كان قد كُشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كُشف أيضاً بانتهاء أجله ، وإلا . . فلا يُظنُّ به إنكار التداوي وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوي وأمر به .

السبب الثاني : أن يكون المريض مشغولاً بحاله وبخوف عاقبته وإطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض ، فلا يتفرغ قلبه للتداوي ؛ شغلاً بحاله ، وعليه يدل كلام أبي ذرٍّ إذ قال : (إنني عنهما مشغول) ، وكلام أبي الدرداء إذ قال : (إنما أشتكي ذنوبي) ، فكان تألم قلبه خوفاً من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته ، أو كالخائف الذي يُحمل إلى ملك من الملوك ليقتل ، إذا قيل له : ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول : أنا مشغول عن ألم الجوع ، فلا يكون ذلك إنكاراً لكون الخبز نافعاً من الجوع ، ولا طعناً فيمن أكل .

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٧٥٢ / ٢) .

ويقربُ مِنْ هَذَا اشتغالُ سهلِ رضيَ اللهُ عَنْهُ حيثُ قيلَ لَهُ : ما القوتُ ؟
 فقالَ : هو الحيُّ القيُّومُ ، فقيلَ : إِنَّمَا سألْنَاكَ عَنِ القَوَامِ ، فقالَ : القوامُ هو
 العلمُ ، قيلَ : سألْنَاكَ عَنِ الغِذَاءِ ، قالَ : الغِذَاءُ هو الذِّكْرُ ، قيلَ : سألْنَاكَ
 عَنِ طَعْمَةِ الجَسَدِ ، قالَ : ما لك وللجسدِ ؟! دَعْ مَنْ تَوَلَّاهُ أَوَّلًا يَتَوَلَّاهُ
 آخِرًا ، إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ عِلَّةٌ . . فرَدَّهُ إِلَى صَانِعِهِ ، أَمَا رَأَيْتَ الصَّنْعَةَ إِذَا عَابَتْ . .
 رَدُّوْهَا إِلَى صَانِعِهَا حَتَّى يَصْلَحَهَا ؟^(١) .

السَّبَبُ الثَّالِثُ : أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ مَزْمَنَةً والدَّوَاءُ الَّذِي يُؤْمَرُ بِهِ بِالإِضَافَةِ إِلَى
 عِلَّتِهِ مَوْهُومُ النِّفَعِ ، جَارٍ مَجْرَى الْكَيِّ وَالرَّقِيَّةِ ، فَيَتْرَكُهُ الْمُتَوَكِّلُ ، وَإِلَيْهِ يَشِيرُ
 قَوْلُ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ إِذْ قَالَ : (ذَكَرْتُ عَادًا وَثُمُودَ وَفِيهِمُ الْأَطْبَاءُ ، فَهَلَكَ
 الْمَدَاوِي وَالْمَدَاوِي) أَيُّ : إِنَّ الدَّوَاءَ غَيْرُ مَوْثُوقٍ بِهِ ، وَهَذَا قَدْ يَكُونُ كَذَلِكَ
 فِي نَفْسِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ عِنْدَ الْمَرِيضِ كَذَلِكَ لِقَلَّةِ مِمَارَسَتِهِ لِلطَّبِّ ، وَقَلَّةِ
 تَجَرِبَتِهِ لَهُ ، فَلَا يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ كَوْنُهُ نَافِعًا ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الطَّبِيبَ
 الْمَجْرَّبَ أَشَدَّ اعْتِقَادًا فِي الْأَدْوِيَةِ مِنْ غَيْرِهِ ، فَتَكُونُ الثِّقَةُ وَالظَّنُّ بِحَسَبِ
 الْاعْتِقَادِ ، وَالْاعْتِقَادُ بِحَسَبِ التَّجَرِبَةِ .

وَأَكْثَرُ مَنْ تَرَكَ التَّدَاوِي مِنَ الْعِبَادِ وَالزَّهَّادِ هَذَا مُسْتَنْدُهُمْ ؛ لِأَنَّهُ يَبْقَى
 الدَّوَاءُ عِنْدَهُ شَيْئًا مَوْهُومًا لَا أَصْلَ لَهُ ، وَذَلِكَ صَحِيحٌ فِي بَعْضِ الْأَدْوِيَةِ عِنْدَ

(١) قوت القلوب (١٩/٢) .

مَنْ عَرَفَ صِنَاعَةَ الطَّبِّ ، غَيْرُ صَحِيحٍ فِي الْبَعْضِ ، وَلَكِنْ غَيْرُ الطَّبِيبِ قَدْ يَنْظُرُ إِلَى الْكُلِّ نَظْرًا وَاحِدًا ، فَيَرَى التَّدَاوِيَّ تَعَمُّقًا فِي الْأَسْبَابِ كَالْكَيِّ وَالرَّقِّي ، فَيَتْرَكُهُ تَوَكُّلاً .



السَّبَبُ الرَّابِعُ : أَنْ يَقْصِدَ الْعَبْدُ بِتَرْكِ التَّدَاوِيَّ اسْتِبْقَاءَ الْمَرْضَى ؛ لِيَنَالَ ثَوَابَ الْمَرْضَى بِحَسَنِ الصَّبْرِ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ لِيَجَرِّبَ نَفْسَهُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الصَّبْرِ ، فَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَابِ الْمَرْضَى مَا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ ، فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِ ، فَإِنْ كَانَ صَلَبَ الْإِيْمَانِ . . شُدَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ ، وَإِنْ كَانَ فِي إِيْمَانِهِ ضَعْفٌ . . خُفِّفَ عَنْهُ الْبَلَاءُ » (١) .

وَفِي الْخَبَرِ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجَرِّبُ عَبْدَهُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَجَرِّبُ أَحَدَكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ أَسْوَدَ مُحْتَرَقًا » (٢) .

وَفِي حَدِيثٍ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا . .

(١) كَذَا فِي « الْقَوْتِ » (٢٤ / ٢) ، وَرَوَاهُ بَنُحُوهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٨) ، وَابْنُ مَاجَهَ (٤٠٢٣) .

(٢) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « الْمَرَضِ وَالْكَفَارَاتِ » (٢٧) ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي « الْكَبِيرِ » (١٦٦ / ٨) .

ابتلاءه ، فإن صبر . . اجتباؤه ، فإن رضي . . اصطفاؤه » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تحبون أن تكونوا كالحمير الصيالة لا تمرضون ولا تسقمون ؟ ! » (٢) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (تجد المؤمن أصح شيء قلباً وأمرضه جسماً ، وتجد المنافق أصح شيء جسماً وأمرضه قلباً) (٣) .

فلما عظم الشناء على المرض والبلاء . . أحب قوم المرض واغتيموه ؛ لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان فيهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ، ويقاسي العلة ، ويرضى بحكم الله تعالى ، ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه ، وعلموا أن صلاتهم قعوداً مثلاً مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياماً مع العافية والصحة ، ففي الخبر : « إن الله تعالى يقول لملائكته : اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل ؛ فإنه في وثاقي ، إن أطلقته . . أبدلته لحماً خيراً

- (١) كذا في « القوت » (٢٥ / ٢) ، وينحوه رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٥٤) ، وبلغه ذكره صاحب « الفردوس » (٩٧١) من حديث علي رضي الله عنه .
- (٢) كذا في « القوت » (٢٤ / ٢) ، ورواه الروياني في « مسنده » (١٥٤٤) ، وينحوه البيهقي في « الشعب » (٩٣٩٣) ، وقال : (وسألت عنه - الحمير الصيالة - بعض أهل الأدب ، فزعم أنه أراد حمير الوحش التي تصول ، وهو أصح الحيوانات جسماً ، وأقيمت الباء مقام الواو) .
- (٣) رواه أحمد في « الزهد » (٩٠٤) .

مِنْ لَحْمِهِ ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ ، وَإِنْ تَوَفَّيْتَهُ . . تَوَفَّيْتَهُ إِلَى رَحْمَتِي « (١) .

وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ
النَّفُوسُ » (٢) ، فَقِيلَ : مَعْنَاهُ : مَا دَخَلَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْمَصَائِبِ ،
وَالِيهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

وَكَانَ سَهْلٌ يَقُولُ : (تَرْكُ التَّدَاوِي وَإِنْ ضَعَفَ عَنِ الطَّاعَاتِ وَقَصَرَ عَنِ
الْفَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنَ التَّدَاوِي لِأَجْلِ الطَّاعَاتِ) (٣) .

وَكَانَتْ بِهِ عِلَّةٌ عَظِيمَةٌ ، فَلَمْ يَكُنْ يَتَدَاوَى مِنْهَا ، وَكَانَ يَدَاوِي النَّاسَ
مِنْهَا ، وَكَانَ إِذَا رَأَى الْعَبْدَ يَصَلِّي مِنْ قَعُودٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَعْمَالَ الْبِرِّ مِنَ
الْأَمْرَاضِ ، فَيَتَدَاوَى لِلْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ وَالنُّهُوضِ إِلَى الطَّاعَةِ . . يَعْجَبُ مِنْ
ذَلِكَ وَيَقُولُ : (صَلَاتُهُ مِنْ قَعُودٍ مَعَ الرِّضَا بِحَالِهِ أَفْضَلُ مِنَ التَّدَاوِي لِلْقُوَّةِ
وَالصَّلَاةِ قَائِمًا) (٣) .

وَسُئِلَ عَنْ شَرْبِ الدَّوَاءِ ، فَقَالَ : (كُلُّ مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنَ الدَّوَاءِ
فَإِنَّمَا هُوَ سَعَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الضَّعْفِ ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ . .
فَهُوَ أَفْضَلُ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الدَّوَاءِ وَلَوْ كَانَ هُوَ الْمَاءُ الْبَارِدَ . . يُسْأَلُ عَنْهُ

(١) قوت القلوب (٢٥/٢) ، وبنحوه رواه أحمد في « المسند » (١٥٩/٢) ، وابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٦) .

(٢) قوت القلوب (٢٥/٢) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١٣) ، وابن الجوزي في « ذم الهوى » (١٤٨) من قول عمر بن عبد العزيز .

(٣) قوت القلوب (٢٣/٢) .

لَمْ أَخَذَتْ ؟ وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ . . فلا سؤال عليه (١) .

وكان مذهبهُ ومذهبُ البصريينَ تضعيفَ النفسِ بالجوعِ وكسرِ الشهواتِ ؛
لعلِّمَهُمْ بأنَّ ذرَّةً مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ مثلَ الصَّبْرِ والرِّضَا والتَّوَكُّلِ أَفْضَلُ مِنْ
أَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ (١) ، والمرضُ لا يمنعُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ
إِلَّا إِذَا كَانَ أَلْمُهُ غَالِباً مَدْهَشاً .

وَقَالَ سَهْلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ : (عِلُّ الْأَجْسَامِ رَحْمَةٌ ، وَعِلُّ الْقُلُوبِ عَقُوبَةٌ) (١) .



السَّبَبُ الْخَامِسُ : أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ قَدْ سَبَقَ لَهُ ذُنُوبٌ وَهُوَ خَائِفٌ مِنْهَا ،
عَاجِزٌ عَنْ تَكْفِيرِهَا ، فَيَرَى الْمَرَضَ إِذَا طَالَ تَكْفِيرًا ، فَيَتْرَكَ التَّدَاوِيَّ خَوْفًا مِنْ أَنْ
يَسْرَعَ زَوَالُ الْمَرَضِ ؛ فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَزَالُ الْحُمَّى وَالْمَلِيلَةُ
بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ كَالْبُرْدَةِ مَا عَلَيْهِ ذَنْبٌ وَلَا خَطِيئَةٌ » (٢) .

وَفِي الْخَبَرِ : « حُمَّى يَوْمِ كَفَّارَةٍ سَنَةٍ » (٣) ، فَقِيلَ : لِأَنَّهَا تَهْدُ قُوَّةَ سَنَةٍ ،

(١) قوت القلوب (٢٣ / ٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٤ / ٢) ، ورواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٩٤٣٣) ولفظه :
« إِنْ الْحُمَّى وَالْمَلِيلَةُ لَا يَزَالَانِ بِالْمُؤْمِنِ وَإِنْ ذَنْبُهُ مِثْلُ أَحَدٍ ، فَمَا يَدْعَاةُ وَعَلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ
مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ » ، وعند الترمذي (٢٠٨٦) : « إِنَّمَا مِثْلُ الْمَرِيضِ إِذَا بَرَأَ وَصَحَّ
كَالْبُرْدَةِ تَقَعُ مِنَ السَّمَاءِ فِي صَفَائِهَا وَلَوْنِهَا » ، والمليلة : حرارة يجدها المرء ، وهي
حُمَّى فِي الْعِظَامِ .

(٣) كذا في « القوت » (٢٤ / ٢) ، ورواه تمام في « فوائده » (٤٧٩) ، والقضاعي في
« مسند الشهاب » (٦٢) .

وقيل : للإنسان ثلاث مئة وستون مفصلاً ، فتدخل الحمى في جميعها ، ويجد من كل واحد المأ ، فيكون كل ألم كفارة يوم^(١) .

ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى . . سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل ألا يزال محموماً ، فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رضي الله عنه^(٢) .

وسأل ذلك طائفة من الأنصار ، فكانت الحمى لا تزيلهم^(٣) .

ولما قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَذْهَبَ اللَّهُ كَرِيمَتِهِ . . لَمْ يَرْضَ لَهُ ثَوَاباً دُونَ الْجَنَّةِ » . . قَالَ : فَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ مَنْ يَتَمَنَّى الْعَمَى^(٤) .

وقال عيسى عليه السلام : (لا يكون عالماً مَنْ لَمْ يَفْرَحْ بِدُخُولِ الْمَصَائِبِ وَالْأَمْرَاضِ عَلَى جَسَدِهِ وَمَالِهِ لِمَا يَرْجُو فِي ذَلِكَ مِنْ كَفَارَةِ خَطَايَاهُ)^(٥) .

وروي أن موسى عليه السلام نظر إلى عبدٍ عظيم البلاء ، فقال :

(١) قوت القلوب (٢٤ / ٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٤ / ٢) .

(٣) منهم أبي بن كعب رضي الله عنه ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٩٤٩٧) عنه قال : (اللهم ؛ إني أسألك ألا تزال الحمى مضارعة لجسد أبي بن كعب حتى يلقاك ، لا تمنعه من صلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيلك) ، فارتكبه الحمى مكانه ، فلم تفارقه حتى مات ، وكان في ذلك يشهد الصلاة ويصوم ويحج ويعتمر ويغزو .

(٤) كذا في « القوت » (٢٤ / ٢) ، والحديث رواه الترمذي (٢٤٠١) .

(٥) قوت القلوب (٢٤ / ٢) .

يا ربّ ؛ ارحمهُ ، فقال تعالى : كيف ارحمُهُ ممّا به ارحمُهُ ؛ أي : به أكفرُ ذنوبُهُ ، وأزيدُ في درجاتِهِ^(١) .

السببُ السادسُ : أن يستشعرَ العبدُ من نفسه مبادي البطرِ والطغيانِ بطولِ مدّةِ الصّحةِ ، فيتركَ التداويَ خوفاً من أن يعاجله زوالُ المرضِ فتعاوده الغفلةُ والبطرُ والطغيانُ ، أو طولُ الأملِ والتسويفُ في تداركِ الفائتِ وتأخيرِ الخيراتِ ؛ فإنّ الصّحةَ عبارةٌ عن قوّةِ الصفاتِ ، وبها ينبعثُ الهوى وتتحرّكُ الشهواتُ ، وتدعو إلى المعاصي ، وأقلّها أن تدعو إلى التّنعّمِ في المباحاتِ ، وهو تضييعُ للأوقاتِ ، وإهمالُ للربحِ العظيمِ في مخالفةِ النفسِ وملازمةِ الطاعاتِ .

وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . لم يخلِه عن التنبيهِ بالأمراضِ والمصائبِ ، ولذلك قيلَ : (لا يخلو المؤمنُ من علةٍ أو قلةٍ أو ذلّةٍ)^(٢) .
وقد روي أن الله تعالى يقولُ : (الفقرُ سجنِي ، والمرضُ قيدي ، أحبسُ به من أحبُّ من خلقي)^(٢) .

فإذا كانَ في المرضِ حبسٌ عن الطغيانِ وركوبِ المعاصي . . فأئني خيراً

(١) قوت القلوب (٢٤ / ٢) ، وقال الله تعالى في تصديق ذلك : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، فأخبر أن ترك الرحمة لهم من الأمراض لطفاً بهم ورحمة بالمنة لهم . « إتحاف » (٥٢٧ / ٩) .

(٢) قوت القلوب (٢٤ / ٢) .

يزيدُ عليه؟! ولم ينبغي أن يشتغل بعلاجه مَنْ يخافُ ذلكَ على نفسه؟!
فالعافيةُ في تركِ المعاصي ؛ فقد قال بعضُ العارفينَ لإنسانٍ : كيفَ كنتَ
بعدي ؟ قالَ : في عافيةٍ ، قالَ : إن كنتَ لم تعصِ اللهَ . . فأنتَ في عافيةٍ ،
وإن كنتَ قد عصيتهُ . . فأني داءٌ أدوا من المعصيةِ؟! ما عوفي من
عصى الله (١) .

وقالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ لما رأى زينةَ النبطِ بالعراقِ في يومِ عيدِهِمُ :
ما هذا الذي أظهِروه ؟ قالوا : يا أميرَ المؤمنين ؛ هذا يومُ عيدٍ لهمُ ،
فقالَ : كلُّ يومٍ لا نعصي اللهَ تعالى فيه فهو لنا عيدٌ (١) .

وقالَ تعالى : ﴿ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ ، قيلَ :
العوافي ، وقالَ : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ ، وكذلك إذا استغنى
بالعافية .

وقالَ بعضهمُ : إنما قالَ فرعونُ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ لطولِ العافية ؛ لأنه
لبثَ أربعَ مئةِ سنةٍ لم يُصدِّعْ له رأسٌ ، ولم يُحمَّ له جسمٌ ، ولم يضربْ عليه
عرقٌ ؛ فادَّعى الربوبيةَ لعنه اللهُ ، ولو أخذتهُ الشقيقةُ كلَّ يومٍ . . لشغلتهُ عن
الفضولِ فضلاً عن دعوى الربوبية (١) .

وقد قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَكثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ » (٢) ،

(١) قوت القلوب (٢ / ٢٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٧) ، والنسائي (٤ / ٤) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) .

وقيل : (الحمى رائد الموت)^(١) ، فهي تذكرة به ، ودافعة للتسويق .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ ، قيل : يفتنون بأمراض يختبرون بها^(٢) .

ويقال : إنَّ العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب . . قال له ملك الموت : يا غافل ؛ جاءك مني رسول بعد رسول فلم تجب^(٣) ؟ !

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام لم يُصابوا فيه بنقص في نفس أو مال^(٤) .

وقالوا : لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يُروّع روعة ، أو يُصاب ببلية ، حتى روي أن عمار بن ياسر تزوج امرأة ، فلم تكن تمرض ، فطلقها^(٥) ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عرضت عليه امرأة ، فذكر من

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٤) عن سعيد بن جبير ، ومرسلاً عن الحسن (٧٣) ، وفي (ج ، د ، ن ، ع) : (بريد) بدل (رائد) ، وهي كذلك في « القوت » (٢٦ / ٢) ، ورواها كذلك أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٩ / ١٠) عن أبي حفص النيسابوري .

(٢) قوت القلوب (٢٦ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (٢٦ / ٢) ، والمعنى : فلم تجب إلا أن آتيك بنفسي أضربك ضربة أقطع منك الوتين . « إتحاف » (٥٢٩ / ٩) .

(٤) قوت القلوب (٢٦ / ٢) .

(٥) قوت القلوب (٢٦ / ٢) .

وصفها حتى همَّ أن يتزوجها ، فقيل : وإنَّها ما مرضت قط ، فقال : « لا حاجة لي فيها »^(١) .

وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع ؛ كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ؟ ما أعرفه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إليك عني ، مَنْ أراد أن ينظر إلى رجلٍ مِنْ أهل النار . . فلينظر إلى هذا »^(٢) ، وهذا لأنَّه وردَ في الخبر : أنَّ الحمى حظُّ كلِّ مؤمنٍ مِنَ النارِ^(٣) .

وفي حديث أنسٍ وعائشة رضي الله عنهما : قيل : يا رسول الله ؛ هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال : « نعم ، مَنْ ذكر الموت في كلِّ يومٍ عشرين مرَّةً » ، وفي لفظٍ آخر : « الذي يذكر ذنوبه فتحزنه »^(٤) ،

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٥٥ / ٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٦ / ٢) ، وقد رواه أبو داود (٣٠٨٩) ، إذ قال الرجل : وما الأسقام ؟ والله ما مرضت قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُمْ عِنا ، فلست منا » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٥٧) ، وعند الترمذي (٢٠٨٨) ، وابن ماجه (٣٤٧٠) أنه صلى الله عليه وسلم قال للذي وعك : « أبشر ، فإن الله يقول : هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا ؛ لتكون حظه من النار في الآخرة » .

(٤) كذا بروايته في « القوت » (٢٦ / ٢) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها ، ولفظه أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يوم =

ولا شك في أنَّ ذكر الموتِ على المريضِ أغلبُ .

فلَمَّا أنْ كَثُرَتْ فوائدُ المرضِ . . رأى جماعةٌ تركَ الحيلةَ في زوالِها ؛ إذْ رأوا لأنفسِهِمْ مزيداً فيها ، لا مِنْ حيثُ رأوا التداويَ نقصاناً ، وكيفَ يكونُ نقصاناً وقد فعلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟!



= خمسة وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات على فراشه . . أعطاه الله أجر شهيد .

بيان الرد على من قال : إن ترك الشداوي أفضل بكل حال

فلو قال قائل : إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لغيره ، وإلا . . فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء .

فيقال له : فينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبئح الدم ، فإن قيل : إن ذلك أيضاً شرط . . فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحّيها عن نفسه ؛ إذ الدم يلدغ الباطن ، والعقرب تلدغ الظاهر ، فأئى فرق بينهما ؟

فإن قال : وذلك أيضاً شرط التوكل .

فيقال : ينبغي ألا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبّة ، وهذا لا قائل به ، ولا فرق بين هذه الدرجات ؛ فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سبته .

ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية^(١) . . بلغهم الخبر أن به موتاً ذريعاً ووباءً عظيماً ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لا ندخل على الوباء فنلقي بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى : بل ندخل ونتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ،

(١) موضع من أعمال دمشق ، يقع في شمال حوران .

ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ ، فرجعوا إلى عمر رضي الله عنه فسألوه عن رأيه ، فقال : نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ؟! فقال عمر : نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلاً وقال : أرايتم لو كان لأحدكم غنم ، فنزل بها وادياً له شعبتان ؛ إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة . . رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة . . رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم ، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف لیسأله عن رأيه وكان غائباً ، فلما أصبحوا . . جاء عبد الرحمن ، فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : الله أكبر ! فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم بالوباء بأرض . . فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها . . فلا تخرجوا فراراً منه » ، ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع بالناس من الجابية^(١) .

فإذا ؛ كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل ؟

(١) رواه بمرفوعه البخاري (٥٧٢٩) ، ومختصراً مسلم (٢٢١٩) .

فإن قلت : فلم نهى عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء وسبب الوباء في الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوي الفرار من المضر ، والهواء هو المضر ، فلم لم يرخص فيه ؟

فاعلم : أنه لا خلاف في أن الفرار عن المضر غير منهي عنه ؛ إذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح ، وهذا لا يدل على المقصود ، ولكن الذي ينقدح فيه - والعلم عند الله تعالى - أن الهواء لا يضر من حيث يلاقي ظاهر البدن ، بل من حيث دوام الاستنشاق له ، فإنه إذا كان فيه عفونة ، ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء . . أثر فيها بطول الاستنشاق ، فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن ، فالخروج من البلد لا يخلص غالباً من الأثر الذي استحکم من قبل ، ولكنه يتوهم الخلاص ، فيصير هذا من جنس الموهومات ، كالرقي والطيرة وغيرهما ، ولو تجرد هذا المعنى . . لكان مناقضاً للتوكل ولم يكن منهيّاً عنه ، ولكن صار منهيّاً عنه ؛ لأنه انضاف إليه أمر آخر ، وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج . . لما بقي في البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون وانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام ، وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم ، فيكون ذلك سعيّاً في إهلاكهم تحقيقاً ، وخلصهم منتظراً ، كما أن خلاص الأصحاء منتظراً ، فلو أقاموا . . لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ، ولو خرجوا . . لم يكن الخروج قاطعاً بالخلاص ، وهو قاطع في إهلاك الباقيين ،

والمسلمون كالبنيان يشدُّ بعضُهُ بعضاً ، والمؤمنون كالجسد الواحد ؛ إذا اشتكى منه عضوٌ . . تداعى إليه سائرُ أعضائه .

فهذا هو الذي ينقدحُ عندنا في تعليلِ النهي ، وينعكسُ هذا فيمن لم يقدمْ بعدُ على البلدِ ؛ فإنه لم يؤثرِ الهواءُ في باطنِهِمْ ، ولا بأهلِ البلدِ حاجةٌ إليهِمْ .

نعم ، لو لم يبقَ في البلدِ إلا مطعونون ، وافتقروا إلى المتعهدين ، وقدمَ عليهم قومٌ . . فربما كان ينقدحُ استحبابُ الدخولِ ههنا لأجلِ الإعانة ، ولا يُنهى عن الدخولِ ؛ لأنه تعرّضَ لضررٍ موهومٍ على رجاءِ دفعِ ضررٍ عن بقيّةِ المسلمين ، ولهذا شُبّهَ الفرارُ من الطاعونِ في بعضِ الأخبارِ بالفرارِ من الزحفِ^(١) ؛ لأنَّ فيه كسراً لقلوبِ بقيّةِ المسلمين ، وسعيّاً في إهلاكِهِمْ .

فهذه أمورٌ دقيقةٌ ، فمن لا يلاحظُها ، وينظرُ إلى ظواهرِ الأخبارِ والآثارِ . . يتناقضُ عندهُ أكثرُ ما يسمعهُ ، وغلطُ العبّادِ والزهادِ في مثلِ هذا يكثرُ ، وإنما شرفُ العلمِ وفضيلتهُ لأجلِ ذلك .

❦ ❦ ❦

(١) فقد روى أحمد في « المستد » (٨٢ / ٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً :
« الفار من الطاعون كالفار من الزحف » .

فإن قلت : ففي ترك التداوي فضلٌ كما ذكرت ، فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوي لينال الفضل ؟

فنقول : فيه فضلٌ بالإضافة إلى مَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ لِيَكْفُرَهَا ، أَوْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ طُغْيَانَ الْعَافِيَةِ وَغَلَبَةَ الشَّهَوَاتِ ، أَوْ احتَاجَ إِلَى مَا يَذْكُرُهُ الْمَوْتُ لَغَلْبَةِ الْغَفْلَةِ ، أَوْ احتَاجَ إِلَى نَيْلِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَقَامَاتِ الرَّاظِينَ وَالْمُتَوَكِّلِينَ ، أَوْ قَصُرَتْ بَصِيرَتُهُ عَنِ الْإِطْلَاعِ عَلَى مَا أَوْدَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَدْوِيَةِ مِنْ لَطَائِفِ الْمَنَافِعِ حَتَّى صَارَ فِي حَقِّهِ مُوْهُوماً كَالرَّقِيِّ ، أَوْ كَانَ شُغْلُهُ بِحَالِهِ يَمْنَعُهُ عَنِ التَّدَاوِي ، وَكَانَ التَّدَاوِي يَشْغَلُهُ عَنْ حَالِهِ لُضْعْفِهِ عَنِ الْجَمْعِ ، فَإِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي رَجَعَتِ الصَّوَارِفُ فِي تَرْكِ التَّدَاوِي ، وَكُلُّ ذَلِكَ كِمَالَاتٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى بَعْضِ الْخَلْقِ ، وَنَقْصَانٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى دَرَجَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَلْ كَانَ مَقَامُهُ أَعْلَى مِنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ كُلِّهَا ؛ إِذْ كَانَ حَالُهُ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ مُشَاهِدَتُهُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ وَجُودِ الْأَسْبَابِ وَفَقْدِهَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظَرٌ فِي الْأَحْوَالِ إِلَّا إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ ، وَمَنْ كَانَ هَذَا مَقَامَهُ . . . لَمْ تَضُرَّهُ الْأَسْبَابُ ، كَمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الرِّغْبَةَ فِي الْمَالِ نَقْصٌ ، وَالرِّغْبَةُ عَنِ الْمَالِ كِرَاهَةٌ لَهُ وَإِنْ كَانَتْ كِمَالاً فَهُوَ أَيْضاً نَقْصٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَنْ يَسْتَوِي عِنْدَهُ وَجُودُ الْمَالِ وَعَدْمُهُ ، فَاسْتَوَاءُ الْحَجَرِ وَالذَّهَبِ أَكْمَلُ مِنَ الْهَرَبِ مِنَ الذَّهَبِ دُونَ الْحَجَرِ ، وَكَانَ حَالُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَوَاءَ الْمَدْرِ وَالذَّهَبِ عِنْدَهُ ، وَكَانَ لَا يَمْسُكُهُ لِتَعْلِيمِ الْخَلْقِ مَقَامَ الزَّهْدِ ، فَإِنَّهُ مَنْتَهَى قُوَّتِهِمْ ، لَا لَخَوْفِهِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ إِمْسَاكِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْلَى رَتَبَةً مِنْ أَنْ تَغْرَهُ

الدنيا ، وقد عُرِضَتْ عليه خزائنُ الأرضِ فأبى أن يقبلها^(١) ، فكذلك يستوي عنده مباشرة الأسبابِ وتركها لمثل هذه المشاهدة .

وإنما لم يترك استعمالَ الدواءِ جرياً على سنّةِ الله تعالى ، وترخيصاً لأَمَّتِهِ فيما تمسُّ إليه حاجتهم ، مع أنه لا ضررَ فيه ، بخلاف ادخارِ الأموال ، فإنَّ ذلك يعظمُ ضرره .

نعم ، التداوي لا يضرُّ إلا من حيث رؤيةُ الدواءِ نافعاً دونَ خالقِ الدواءِ ، وهذا قد نُهي عنه ، ومن حيث إنَّه قد يُقصدُ به الصحةُ لِيُستعانَ بها على المعاصي ، وذلك منهيٌّ عنه ، والمؤمنُ في غالبِ الأمرِ لا يقصدُ ذلك ، وأحدُ من المؤمنين لا يرى الدواءَ نافعاً بنفسه ، بل من حيث إنَّه جعله اللهُ تعالى سبباً للنفع ، كما لا يرى الماءَ مروياً ولا الخبزَ مشبعاً ، فحكمُ التداوي في مقصوده كحكمِ الكسبِ ؛ فإنه إن اكتسبَ للاستعانةِ على الطاعةِ أو على المعصية . . كان له حكمُها ، وإن اكتسبَ للتنعمِ بالمباح . . فله حكمه .

فقد ظهرَ بالمعاني التي أوردناها أن تركَ التداوي قد يكونُ أفضلَ في بعضِ الأحوالِ ، وأنَّ التداوي قد يكونُ أفضلَ في بعضٍ ، وأنَّ ذلك يختلفُ

(١) فقد روى الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً . . . » .

باختلاف الأحوال والأشخاص والنيّات ، وأنّ واحداً من الفعل والترك ليس شرطاً في التوكل ، إلا ترك الموهومات ؛ كالكيّ والرّقي ، فإنّ ذلك تعمّق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين .



بيان أحوال المتوكل في إظهار المرض وكمثاله

اعلم : أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر ، وهو من أعلى المقامات ؛ لأن الرضا بحكم الله تعالى والصبر على بلائه معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، فكتمان أسلم عن الآفات ، ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صححت فيه النية والقصد ، ومقاصد الإظهار ثلاثة :

الأول : أن يكون غرضه التداوي ، فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا في معرض الشكاية ، بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المتطبيب أوجاعه^(١) ، وكان أحمد ابن حنبل يخبر بأمراض يجردها ويقول : (إنما أصف قدرة الله تعالى في)^(١) .

الثاني : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به ، وكان مكيناً في المعرفة ، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض ، بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم ، وقال الحسن البصري : (إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ، ثم ذكر أوجاعه .. لم يكن ذلك شكوى)^(١) .

(١) قوت القلوب (٢٨ / ٢) .

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممّن تليق به القوة والشجاعة ويُستبعد منه العجز ، كما روي أنّه قيل لعليّ رضي الله عنه في مرضه : كيف أنت ؟ قال : بشر ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك ، وظنّوا أنّه شكايّة ، فقال : أتجلّد على الله ؟! ^(١) فأحبّ أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علّم به من القوة والصرامة ، وتأدّب فيه بتأديب النبيّ صلى الله عليه وسلّم إيّاه ؛ حيث مرض عليّ كرّم الله وجهه فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو يقول : اللهم ؛ صبرني على البلاء ، فقال له صلى الله عليه وسلّم : « لقد سألت الله تعالى البلاء ، فسل الله العافية » ^(٢) .

فبهذه النيات يُرخص في ذكر المرض ، وإنّما يُشترط ذلك ؛ لأنّ ذكره شكايّة ، والشكوى من الله تعالى حرام ؛ كما ذكرناه في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة .

ويصير الإظهار شكايّة بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى ، فإنّ خلا عن قرينة التسخط وعن النيات التي ذكرناها . . فلا يُوصف بالتحريم ، ولكن يُحكم فيه بأنّ الأولى تركه ؛ لأنّه ربّما يوهّم الشكايّة ، ولأنّه ربّما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ، ومن

(١) قوت القلوب (٢٨/٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٩/٢) ، ورواه الترمذي (٣٥٢٧) ولم يذكر أن القائل هو علي رضي الله عنه ، وعينه (٣٥٦٤) .

ترك التداوي توكلًا . . فلا وجه في حقه للإظهار ؛ لأن الاستراحة إلى الدواء أحسن من الاستراحة إلى الإفشاء .

وقد قال بعضهم : (مَنْ بَثَّ . . لَمْ يَصْبِرْ)^(١) .

وقيل في معنى قوله تعالى : ﴿ فَصَبِّرْ جَمِيلٌ ﴾ : لا شكوى فيه^(٢) .

وقيل ليعقوب عليه السلام : ما الذي أذهب بصرَكَ ؟ قال : مُرُّ الزمان وطولُ الأحزان ، فأوحى الله تعالى إليه : تفرَّغْتَ لشكواي إلى عبادي ؟ فقال : يا ربُّ ؛ أتوبُ إليك^(٣) .

وروي عن طاووس ومجاهد أنهما قالا : يُكْتَبُ على المريض أنينه في مرضه ، وكانوا يكرهون أنين المريض ؛ لأنه إظهارٌ معنى يقتضي الشكوى ، حتى قيل : ما أصاب إبليسُ لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه ، فجعل الأنينُ حظَّهُ منه^(٤) .

وفي الخبر : « إذا مرضَ العبدُ . . أوحى الله تعالى إلى الملكين : انظرا ما يقولُ لعواده ؛ فإن حمدَ الله وأثنى بخير . . دعوا له ، وإن شكا وذكرَ شرًّا . . قالا : كذلك تكونُ »^(٥) .

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٦٢ / ١٣ / ٨) عن مسلم بن يسار مرفوعاً .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٠٦ / ١٢ / ٧) عن حبان بن أبي جبلة مرفوعاً مع الخبر السابق .

(٣) كذا في « القوت » (٢٨ / ٢) ، ورواه هناد في « الزهد » (٧٨٣) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٨ / ٢) ، وعن مجاهد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٩٣٥) .

(٥) قوت القلوب (٢٨ / ٢) ، ورواه مالك في « الموطأ » (٩٤٠ / ٢) عن عطاء بن يسار =

وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام ، فكان بعضهم إذا مرض . . أغلق بابه ، فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم ، منهم فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول : (أشتهي أن أمرض بلا عواد)^(١) ، وقال : (لا أكره العلة إلا لأجل العواد)^(٢) .



تم كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

وصلى الله على خيرته من خلفه محمد النبي وآله الطاهرين وسلم تسليماً

يتلوه كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

= مرسلاً ، وأسنده موصولاً ابن عبد البر في « التمهيد » (٤٧ / ٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، كلهم رواه بنحوه .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٦ / ٨) .

(٢) قوت القلوب (٢٨ / ٢) بتمام السياق .

كِتَابُ
الْمَحَبَّةِ وَالشُّوْقِ
وَالْإِسْرَافِ وَالضُّبَا

وهو الكتاب السادس من ربيع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نزهة قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا وخضرته ،
وصفى أسرارهم عن ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على
بساط عزته ، ثم تجلّى لها بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته ، ثم
كشف لها عن سُبُحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها
بكنه جلاله حتى تاهت في بقاء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت لملاحظة
كنه الجلال . . غشيها من الدهش ما غبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلما
همت بالانصراف آيسة . . نوديت من سرادقات الجمال : صبراً أيها الآيس
عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول
غرقى في بحر معرفته ، ومحتركة بنار محبته .

والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته ، وعلى آله وأصحابه
سادة الخلق وأئمتهم ، وقادة الحق وأزمته ، وسلم كثيراً .

أما بعد :

فإن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا
من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع
من توابعها ؛ كالشوق ، والأنس ، والرضا ، وأخواتها ، ولا قبل المحبة

مقامٌ إلا وهو مقدّمةٌ من مقدماتها ؛ كالتوبة ، والصبر ، والزهد ، وغيرها .
وسائر المقامات إن عزَّ وجودها . . فلم تخلُ القلوبُ عن الإيمانِ
بإمكانها ، وأمّا محبةُ اللهِ تعالى . . فقد عزَّ الإيمانُ بها ، حتّى أنكرَ بعضُ
العلماءِ إمكانها ، وقال : (لا معنى لها إلا المواظبةُ على طاعةِ اللهِ تعالى ،
وأمّا حقيقةُ المحبةِ . . فمحالٌ إلا مع الجنسِ والمثالِ) ، ولمّا أنكروا
المحبةَ . . أنكروا الأنسَ ، والشوقَ ، ولذّةَ المناجاةِ ، وسائرَ لوازمِ الحبِّ
وتوابعه ، فلا بدَّ من كشفِ الغطاءِ عن هذا الأمرِ .

ونحنُ نذكرُ في هذا الكتابِ بيانَ شواهدِ الشرعِ في المحبةِ ، ثمَّ بيانَ
حقيقتها وأسبابها ، ثمَّ بيانَ أن لا مستحقَّ للمحبةِ إلا اللهُ تعالى ، ثمَّ بيانَ أن
أعظمَ اللذاتِ لذّةُ النظرِ إلى وجهِ اللهِ تعالى ، ثمَّ بيانَ سببِ زيادةِ لذّةِ النظرِ في
الآخرةِ على المعرفةِ في الدنيا ، ثمَّ بيانَ الأسبابِ المقويّةِ لحبِّ اللهِ تعالى ،
ثمَّ بيانَ السببِ في تفاوتِ الناسِ في الحبِّ ، ثمَّ بيانَ السببِ في قصورِ
الأفهامِ عن معرفةِ اللهِ تعالى ، ثمَّ بيانَ معنى الشوقِ ، ثمَّ بيانَ محبةِ اللهِ تعالى
للعبدِ ، ثمَّ القولَ في علاماتِ محبةِ العبدِ لله تعالى ، ثمَّ بيانَ معنى الأنسِ باللهِ
تعالى ، ثمَّ بيانَ معنى الانبساطِ في الأنسِ ، ثمَّ القولَ في معنى الرضا وبيانَ
فضيلتهِ ، ثمَّ بيانَ حقيقتهِ ، ثمَّ بيانَ أن الدعاءَ وكرهةَ المعاصي لا تناقضُهُ ،
وكذا الفرارُ من المعاصي ، ثمَّ بيانَ حكاياتٍ وكلماتٍ للمحبّين متفرقةٍ .

فهذه جميعُ بياناتِ هذا الكتابِ .



بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم : أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض ، وكيف يفرض ما لا وجود له ؟! (١) ، وكيف يُفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ؟! فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب .

ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ، وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه .

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ؛ إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ؛ ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » (٢) .

وفي حديث آخر : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » (٣) .

(١) هذا إنكار على من أنكر المحبة أصلاً . « إتحاف » (٥٤٦ / ٩) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١١ / ٤) ، وأبو رزين هو لقيط بن عامر رضي الله عنه ، وسياق المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٥٠ / ٢) .

(٣) كذا في « القوت » (٥٠ / ٢) ، وبلفظه رواه أحمد في « المسند » (٢٠٧ / ٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديثه أيضاً : =

وفي حديث آخر : « لا يؤمنُ العبدُ حتَّى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناسِ أجمعين » ، وفي رواية : « ومن نفسه »^(١) .

كيف وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ الآية ، وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار !؟

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله »^(٢) .

ويروى أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ إنني أحبك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « استعد للفقير » ، فقال : إنني أحب الله تعالى ، فقال : « استعد للبلاء »^(٣) .

= « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ... » الحديث .

(١) رواه البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤) واللفظ له ، والرواية الثانية أوردها صاحب « القوت » (٥٠ / ٢) بلفظ : « ومن نفسك » ، وهي عند البخاري (٦٦٣٢) ، وسيأتي الخبر تاماً .

(٢) كذا في « القوت » (٥٠ / ٢) ، وقد رواه الترمذي (٣٧٨٩) وتماه : « ... وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبي » .

(٣) كذا في « القوت » (٥٠ / ٢) وقال : (والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلي وهو الله تعالى المبلي ، فلما ذكر محبته ... أخبره بالبلاء ليصبر على أخلاقه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ ، فدل على أحكامه وبلائه ، والفقير من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذكر محبته ... دله على اتباع أوصافه ؛ ليقتفي آثاره) ، وقد =

وعن عمر رضي الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيت بين أبي بن يخذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » (١) .

وفي الخبر المشهور : أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميئ خليله ؟! فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيب ؟! فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض (٢) .

وهذا لا يجدّه إلا عبد يحب الله بكل قلبه ، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء . . انزعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيرهُ حتى يلتفت إليه .

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه : « اللهم ؛ ارزقني حبك

= روى الترمذي (٢٣٥٠) أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأحبك (ثلاث مرات) ، فقال : « إن كنت تحبني . . فأعدّ للفقر تجفافاً ؛ فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى متناه » ، وروى البيهقي في « الشعب » (١٣٩٧) أن رجلاً قال له صلى الله عليه وسلم : إني أحبك ، قال : « فاستعد للفاقة » .

- (١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٨ / ١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٧٧٩) .
 (٢) رواه الخلد في « فوائده » (ص ٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤٨) عن محمد بن المنكدر ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩ / ١٠) عن دكين الفزاري .

وَحَبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحَبَّ مَا يَقْرُبُنِي إِلَى حَبِّكَ ، وَاجْعَلْ حَبَّكَ إِلَيَّ مِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ « (١) .

وجاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ متى الساعةُ ؟ فَقَالَ : « مَا أَعَدَدْتُ لَهَا ؟ » فَقَالَ : مَا أَعَدَدْتُ لَهَا كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ ، إِلَّا أَنِّي أَحَبُّ اللهُ وَرَسُولُهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » ، قَالَ أَنَسٌ : فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرَحُوا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُمْ بِذَلِكَ (٢) .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : (مَنْ ذَاقَ مِنْ خَالِصِ مَحَبَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . . شَغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ طَلَبِ الدُّنْيَا ، وَأَوْحَشَهُ عَنْ جَمِيعِ الْبَشْرِ) (٣) .

وَقَالَ الْحَسَنُ : (مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ . . أَحَبَّهُ ، وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا . . زَهَدَ فِيهَا ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يَلْهُو حَتَّى يَغْفُلَ ، فَإِذَا تَفَكَّرَ . . حَزَنَ) (٤) .

وَقَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَانِيُّ : (إِنَّ مِنْ خَلْقِ اللهِ خَلْقًا مَا يَشْغَلُهُمُ الْجَنَانُ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ عَنْهُ ، فَكَيْفَ يَشْتَغِلُونَ عَنْهُ بِالدُّنْيَا !) (٥) .

(١) رواه الترمذي (٣٤٩٠) .

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٩) عن بديل بن ميسرة .

(٥) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص ١١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٨ / ١٠) .

وَيُرَوَّى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ قَدْ نَحَلَتْ أَيْدَانَهُمْ ، وَتَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهُمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : مَا الَّذِي بَلَغَ بِكُمْ مَا أَرَى ؟ فَقَالُوا : الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ ، فَقَالَ : حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُؤْمِنَ الْخَائِفَ ، ثُمَّ جَاوَزَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ آخَرِينَ ، فَإِذَا هُمْ أَشَدُّ نَحُولًا وَتَغْيِيرًا ، فَقَالَ : مَا الَّذِي بَلَغَ بِكُمْ مَا أَرَى ؟ قَالُوا : الشَّوْقُ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَكُمْ مَا تَرْجُونَ ، ثُمَّ جَاوَزَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ آخَرِينَ ، فَإِذَا هُمْ أَشَدُّ نَحُولًا وَتَغْيِيرًا ، كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الْمَرَاثِي مِنَ النُّورِ ، فَقَالَ : مَا الَّذِي بَلَغَ بِكُمْ مَا أَرَى ؟ قَالُوا : نَحْبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَالَ : أَنْتُمْ الْمُقَرَّبُونَ ، أَنْتُمْ الْمُقَرَّبُونَ^(١) .

وَقَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ نَائِمٍ فِي الثَّلَجِ ، فَقُلْتُ : أَمَا تَجِدُ الْبَرْدَ ؟ فَقَالَ : مَنْ شَغَلَهُ حُبُّ اللَّهِ . . . لَمْ يَجِدِ الْبَرْدَ^(٢) .

وَعَنْ سُرِيِّ السَّقَطِيِّ قَالَ : تُدْعَى الْأُمَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْبِيَائِهَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَيُقَالُ : يَا أُمَّةَ مُوسَى ، وَيَا أُمَّةَ عِيسَى ، وَيَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، غَيْرَ الْمُحِبِّينَ لِلَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِنَّهُمْ يُنَادُونَ : يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ؛ هَلُمُّوا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَتَكَادُ قُلُوبُهُمْ تَنْخَلَعُ فَرَحًا^(٣) .

وَقَالَ هَرْمُ بْنُ حَيَانَ : (الْمُؤْمِنُ إِذَا عَرَفَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . . . أَحَبَّهُ ، وَإِذَا

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨ / ١٠) .

(٢) وفي (أ) وحدها : (قائم) بدل (نائم) ، وقريب من هذا الخبر ما رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٩٦) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٩) .

أحبته . . أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه . . لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا ، وتروحه في الآخرة (١) .

وقال يحيى بن معاذ : (عفوهُ يستغرق الذنوبَ فكيف رضوانهُ ؟! ورضوانهُ يستغرق الآمالَ ، فكيف حبه ؟! وحبُّهُ يدهش العقولَ ، فكيف وُدُّهُ ؟! وودُّهُ ينسي ما دونه ، فكيف لطفهُ ؟!) (٢) .

وفي بعض الكتب : (عدي ؛ أنا - وحقك - لك محبٌ ، فبحقي عليك كن لي محباً) (٣) .

وقال يحيى بن معاذ : (مثقالُ خردلةٍ من الحبِّ أحبُّ إليَّ من عبادةٍ سبعينَ سنةً بلا حبٍّ) (٤) .

وقال يحيى بن معاذ : (إلهي ؛ إنني مقيمٌ بفنائك ، مشغولٌ بشنائك ، صغيراً أخذتني إليك ، وسربلتني بمعرفتِكَ ، وأمكنتني من لطفِكَ ، ونقلتني في الأحوالِ ، وقلبتني في الأعمالِ ، سترأ وتوبةً ، وزهداً وشوقاً ، ورضاً وحباً ، تسقيني من حياضِكَ ، وتهملني في رياضِكَ ، ملازماً لأمرِكَ ،

(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٢) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٢) .

(٣) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٩) ، والقشيري في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٢٦) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٥٢٧) .

ومشغوفاً بقولك ، ولما طرَّ شاربِي ، ولاح طائلي^(١) . . فكيف أنصرفُ اليومَ
عنك كبيراً ، وقد اعتدتُ هذا منك صغيراً ؟! فلي ما بقيتُ حولك دندنَةً ،
وبالضراعةِ إليك هممةً ؛ لأنِّي محبٌّ ، وكلُّ محبٍّ بحبيبه مشغوفٌ ، وعن
غير حبيبه مصروفٌ) .

وقد وردَ في حبِّ الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخلُ في حصرٍ
حاصرٍ ، وذلك أمرٌ ظاهرٌ ، وإنما الغموضُ في تحقيق معناه ، فلنشتغلُ به .



(١) في (ق) : (ولاح طائري) بدل (ولاح طائلي) .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم : أنَّ المطلبَ مِنْ هَذَا الفصلِ لَا يَنكشِفُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْمَحَبَّةِ فِي نَفْسِهَا ، ثُمَّ مَعْرِفَةِ شُرُوطِهَا وَأَسْبَابِهَا ، ثُمَّ النَّظَرِ بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَحْقِيقِ مَعْنَاهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى .

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَحَقَّقَ : أَنَّهُ لَا تُتَصَوَّرُ مَحَبَّةٌ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةٍ وَإِدْرَاكِ ؛ إِذْ لَا يَحِبُّ الْإِنْسَانُ مَا لَا يَعْرِفُهُ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُتَصَوَّرْ أَنْ يَتَصَفَّ بِالْحَبِّ جَمَادٌ ، بَلْ هُوَ مِنْ خَاصِيَّةِ الْحَيِّ الْمَدْرِكِ .

ثُمَّ الْمَدْرَكَاتُ فِي أَنْفُسِهَا تَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُوَافِقُ طَبْعَ الْمَدْرِكِ وَيَلَائِمُهُ وَيُلْذُهُ ، وَإِلَى مَا يَنَافِيهِ وَيَنَافِرُهُ وَيُؤْلِمُهُ ، وَإِلَى مَا لَا يُوَثِّرُ فِيهِ بِإِيلَامٍ وَإِلْذَاذٍ ، فَكُلُّ مَا فِي إِدْرَاكِهِ لَذَّةٌ وَرَاحَةٌ . . فَهُوَ مُحَبَّبٌ عِنْدَ الْمَدْرِكِ ، وَمَا فِي إِدْرَاكِهِ أَلَمٌ . . فَهُوَ مَبْغُوضٌ عِنْدَ الْمَدْرِكِ ، وَمَا يَخْلُو عَنِ اسْتِعْقَابِ أَلَمٍ وَلَذَّةٍ فَلَا يَوْصَفُ بِكَوْنِهِ مُحَبَّبًا وَلَا مَكْرُوهًا .

فَإِذَا ؛ كُلُّ لَذِيذٍ مُحَبَّبٌ عِنْدَ الْمَلْتَذِّ بِهِ ، وَمَعْنَى كَوْنِهِ مُحَبَّبًا : أَنَّ فِي الطَّبْعِ مِيلًا إِلَيْهِ ، وَمَعْنَى كَوْنِهِ مَبْغُوضًا : أَنَّ فِي الطَّبْعِ نَفْرَةً عَنْهُ ، فَالْحَبُّ : عِبَارَةٌ عَنْ مِيلِ الطَّبْعِ إِلَى الشَّيْءِ الْمُلْذِّ ، فَإِنْ تَأَكَّدَ ذَلِكَ الْمِيلُ وَقَوِيَ سُمِّيَ عَشَقًا ، وَالبَغْضُ : عِبَارَةٌ عَنْ نَفْرَةِ الطَّبْعِ عَنِ الْمَوْلَمِ الْمُتَعَبِّ ، فَإِذَا قَوِيَ . . سُمِّيَ مَقْتًا ، فَهَذَا أَصْلٌ فِي حَقِيقَةِ مَعْنَى الْحَبِّ لَا بَدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ .

الأصل الثاني : أَنَّ الحبَّ لَمَّا كَانَ تابِعاً للإدراكِ والمعرفة... انقسم - لا محالة - بحسبِ انقسامِ المدركاتِ والحواسِّ ، فلكلِّ حاسةٍ إدراكٌ لنوعٍ مِنَ المدركاتِ ، ولكلِّ واحدٍ منها لذةٌ في بعضِ المدركاتِ ، وللطبعِ بسببِ تلكَ اللذةِ ميلٌ إليها ، فكانتْ محبوباتٍ عندَ الطبعِ السليمِ ، فلذةُ العينِ في الإبصارِ ، وإدراكِ المبصراتِ الجميلةِ ، والصورةِ المليحةِ الحسنةِ المستلذةِ . ولذةُ الأذنِ في النغماتِ الطيبةِ الموزونةِ ، ولذةُ الشمِّ في الروائحِ الطيبةِ ، ولذةُ الذوقِ في الطعومِ ، ولذةُ اللمسِ في اللينِ والنعومةِ .

ولَمَّا كانتْ هذهِ المدركاتُ بالحواسِّ ملذَّةً... كانتْ محبوبةً ؛ أي : كَانَ للطبعِ السليمِ ميلٌ إليها ، حتَّى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : الطيبُ والنساءُ ، وَجُعِلَ قَرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(١) ، فَسَمَّى الطيبَ محبوباً ، ومعلومٌ أَنَّهُ لَا حَظَّ للعينِ والسمعِ فِيهِ ، بَلْ لِلشَّمِّ فَقَطْ ، وَسَمَّى النساءَ محبوباتٍ ، وَلَا حَظَّ فِيهِنَّ إِلَّا للبصرِ واللمسِ دُونَ الشَّمِّ والذوقِ والسمعِ ، وَسَمَّى الصَّلَاةَ قَرَّةَ عَيْنٍ ، وَجَعَلَهَا أَبْلَغَ المحبوباتِ ، ومعلومٌ أَنَّهُ لَيْسَ تحظى بها الحواسُّ الخمسُ ، بَلْ حَسٌّ سَادِسٌ مَظِنَّةٌ

(١) رواه النسائي (٦١/٧) ، وأحمد في « المسند » (١٢٨/٣) دون زيادة كلمة (ثلاث) ، والمصنف تبع في ذكرها صاحب « القوت » (٢٤٩/٢) ، وقد نقل الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣١١/٥) نقولاً عن الحفاظ تفيد خطأ زيادتها رواية ومعنى ؛ إذ الصلاة ليست من الدنيا إلا على تأول شديد ، وإنما جاء الحديث بلفظ : « حُبِّبَ » مبنياً للمجهول دلالة على أن ذلك لم يكن من جبلته وطبعه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مجبوراً على ذلك الحب رحمة للعباد ورفقاً بهم ، كما أفاده الشارح نقلاً عن الطيبي .

القلب ، لا يدركه إلا مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ .

ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ، فإن كَانَ الْحَبُّ مقصوراً على مدركات الحواس الخمس ، حَتَّى يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُدْرِكُ بالحواس ، وَلَا يُتَمَثَّلُ فِي الْخِيَالِ ؛ فَلَا يُحِبُّ . . فإذا قَدْ بَطَلَتْ خَاصِيَّةُ الْإِنْسَانِ ، وَمَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنَ الْحَسِّ السَّادِسِ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْهُ إِمَّا بِالْعَقْلِ أَوْ بِالنُّورِ أَوْ بِالْقَلْبِ أَوْ بِمَا شئتَ مِنَ الْعِبَارَاتِ . . فلا مَشَاحَّةَ فِيهَا .

وهيهات ! فالبصيرة الباطنة أقوى مِنَ الْبَصَرِ الظَّاهِرِ ، وَالْقَلْبُ أَشَدُّ إِدْرَاكاً مِنَ الْعَيْنِ ، وَجَمَالُ الْمَعَانِي الْمَدْرَكَةِ بِالْعَقْلِ أَعْظَمُ مِنْ جَمَالِ الصُّوَرِ الظَّاهِرَةِ لِلْأَبْصَارِ ، فَتَكُونُ - لَا مُحَالَةً - لَذَّةُ الْقَلْبِ بِمَا يَدْرِكُهُ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرِيفَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَجَلُّ عَنْ أَنْ تَدْرِكَهَا الْحَوَاسُّ . . أتمَّ وَأَبْلَغَ ، فَيَكُونُ مِيلُ الطَّبَعِ السَّلِيمِ وَالْعَقْلِ الصَّحِيحِ إِلَيْهِ أَقْوَى ، وَلَا مَعْنَى لِلْحَبِّ إِلَّا الْمِيلُ إِلَى مَا فِي إِدْرَاكِهِ لَذَّةٌ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ ، فَلَا يَنْكِرُ إِذَا حَبَّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا مَنْ قَعَدَ بِهِ الْقُصُورُ فِي دَرَجَةِ الْبَهَائِمِ ، فَلَمْ يَجَاوِزْ إِدْرَاكَ الْحَوَاسِّ أَصْلاً .



الأصلُ الثالثُ : أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْفَى أَنَّهُ يُحِبُّ نَفْسَهُ ، وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ قَدْ يُحِبُّ غَيْرَهُ لِأَجْلِ نَفْسِهِ ، وَهَلْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحِبَّ غَيْرَهُ لِدَايَتِهِ لَا لِأَجْلِ نَفْسِهِ ؟ هَذَا مِمَّا قَدْ يَشْكُلُ عَلَى الضَّعْفَاءِ ، حَتَّى يَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ لِدَايَتِهِ مَا لَمْ يَرْجِعْ مِنْهُ حَظٌّ إِلَى الْمُحِبِّ سِوَى إِدْرَاكِ دَايَتِهِ .

والحقُّ أنَّ ذلكَ متصوَّرٌ وموجودٌ ، فلنبيِّن أقسامَ المحبةِ وأسبابَها .
 وبيانهُ : أنَّ المحبوبَ الأوَّلَ عندَ كلِّ حيٍّ نفسُهُ وذاتُهُ ، ومعنى حُبِّهِ
 لنفسِهِ : أنَّ في طبعِهِ ميلاً إلى دوامِ وجودِهِ ، ونفرةً عن عَدَمِهِ وهلاكِهِ ؛ لأنَّ
 المحبوبَ بالطبعِ هو الملائمُ للمحبِّ ، وأيُّ شيءٍ أتمَّ ملاءمةً لَهُ مِنْ نَفْسِهِ
 ودوامِ وجودِهِ ؟ وأيُّ شيءٍ أعظمُ مضادَّةً ومنافرةً لَهُ مِنْ عَدَمِهِ وهلاكِهِ ؟
 فلذلكَ يحبُّ الإنسانُ دوامَ الوجودِ ، ويكرهُ الموتَ والقتلَ ، لا لمجردِ
 ما يخافُهُ بعدَ الموتِ ، ولا لمجردِ الحذرِ مِنْ سكراتِ الموتِ ، بلْ لو
 اختُطفَ مِنْ غيرِ ألمٍ ، وأميتَ مِنْ غيرِ ثوابٍ ولا عقابٍ . . لم يرضَ بِهِ ،
 وكانَ كارهاً لذلكَ ، ولا يحبُّ الموتَ والعَدَمَ المحضَ إلا لمقاساةِ ألمٍ في
 الحياةِ ، ومهما كانَ مبتلىً ببلاءٍ . . فمحبوبُهُ زوالُ البلاءِ ، فإنَّ أحبَّ
 العَدَمِ . . لم يحبَّهُ لأنَّهُ عَدَمٌ ، بلْ لأنَّ فيه زوالَ البلاءِ ، فالهلاكُ والعَدَمُ
 ممقوتٌ ، ودوامُ الوجودِ محبوبٌ .

وكما أنَّ دوامَ الوجودِ محبوبٌ . . فكمالُ الوجودِ أيضاً محبوبٌ ؛ لأنَّ
 الناقصَ فاقداً للكمالِ ، والنقصُ عَدَمٌ بالإضافةِ إلى القدرِ المفقودِ ، وهو
 هلاكٌ بالنسبةِ إليه ، والهلاكُ والعَدَمُ ممقوتٌ في الصفاتِ وكمالُ الوجودِ ؛
 كما أنَّه ممقوتٌ في أصلِ الذاتِ ، ووجودُ صفاتِ الكمالِ محبوبٌ ؛ كما أنَّ
 دوامَ أصلِ الوجودِ محبوبٌ ، وهذه غريزةٌ في الطباعِ بحكمِ سُنَّةِ اللهِ تعالى ،
 ولن تجدَ لسنَّةِ اللهِ تبديلاً .

فإذا ؛ المحبوبُ الأوَّلُ للإنسانِ ذاتهُ ، ثمَّ سلامةُ أعضائه ، ثمَّ مالهُ ،

وولده ، وعشيرته ، وأصدقائه ، فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة ؛ لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها ، والمال محبوب لأنه أيضاً آلة في دوام الوجود وكماله ، وكذا سائر الأسباب ، فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها ، بل لارتباط حظها في دوام الوجود وكماله بها ، حتى إنه ليحب ولده - وإن كان لا يناله منه حظ ، بل يتحمل المشاق لأجله - لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه ؛ لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً .

نعم ، لو خيّر بين قتله وقتل ولده ، وكان طبعه باقياً على اعتداله . . أثر بقاء نفسه على بقاء ولده ؛ لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه ، وليس هو بقاءه المحقق .

وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كثيراً بهم ، قوياً بسببهم ، متجماً بمكانهم ؛ فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان ، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة .

فإذا ؛ المحبوب الأول عند كل حي ذاته ، وكمال ذاته ، ودوام ذلك كله ، والمكروه عنده ضد ذلك ، فهذا هو أول الأسباب .

السبب الثاني : الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت

القلوب على حبٍّ مَنْ أَحْسَنَ إليها ، وبغضٍ مَنْ أَسَاءَ إليها .

وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ، لا تجعل لفاجرٍ عندي يداً فيحبه قلبي »^(١) ، أشار إلى أَنَّ حبَّ القلب للمحسن اضطرارٌ لا يُستطاع دفعُهُ ، وهو جبلَّة وفطرة لا سبيلَ إلى تغييرها ، وبهذا السبب قد يحبُّ الإنسانُ الأجنبيَّ الذي لا قرابةَ بينه وبينه ولا علاقة .

وهذا إذا حُققَ . . رجع إلى السببِ الأوَّلِ ، فإنَّ المحسنَ مَنْ أمدَّ بالمالِ والمعونة ، وسائرِ الأسبابِ الموصلةِ إلى دوامِ الوجودِ وكمالِ الوجودِ ، وحصولِ الحظوظِ التي بها يتهيأُ الوجودُ ، إلا أنَّ الفرقَ بينهما أنَّ أعضاءَ الإنسانِ محبوبةٌ لأنَّ بها كمالَ وجودِهِ ، وهي عينُ الكمالِ المطلوبِ ، فأما المحسنُ . . فليسَ هوَ عينَ الكمالِ المطلوبِ ، ولكنَّ قد يكونُ سبباً له ؛ كالطبيبِ الذي يكونُ سبباً في دوامِ صحَّةِ الأعضاء ، ففرقٌ بينَ حبِّ الصحَّةِ وبينَ حبِّ الطبيبِ الذي هوَ سببُ الصحَّةِ ؛ إذ الصحَّةُ مطلوبةٌ لذاتها ، والطبيبُ محبوبٌ لا لذاته ، بل لأنَّه سببٌ للصحَّةِ ، وكذلك العلمُ محبوبٌ ، والأستاذُ محبوبٌ ، ولكنَّ العلمُ محبوبٌ لذاته ، والأستاذُ محبوبٌ لكونه سببَ العلمِ المحبوبِ ، وكذلك الطعامُ والشرابُ محبوبٌ ،

(١) كذا في « القوت » (٤٨ / ٢) ، قال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٢٠١١] من حديث معاذ ، وأبو موسى المديني في كتاب « تضييع العمر والأيام » من طريق أهل البيت مرسلأ ، وأسانيده ضعيفة) . « إتحاف » (١٤٨ / ٦) .

والدنانيرُ محبوبةٌ ، لكن الطعامُ محبوبٌ لذاته ، والدنانيرُ محبوبةٌ لأنها وسيلةٌ إلى الطعام .

فإذا ؛ يرجعُ الفرقُ إلى تفاوتِ الرتبة ، وإلا . . فكلُّ واحدٍ يرجعُ إلى محبةِ الإنسانِ نفسه .

فكأنَّ مَنْ أَحَبَّ المحسنَ لإحسانِهِ فما أَحَبَّ ذاتهُ تحقيقاً ، بلُ أَحَبَّ إحسانَهُ ، وهوَ فعلٌ مِنْ أفعاليهِ ، لو زال . . زالَ الحبُّ معَ بقاءِ ذاتهُ تحقيقاً ، ولو نقصَ . . نقصَ الحبُّ ، ولو زادَ . . زادَ ، ويتطَرَّقُ إليه الزيادةُ والنقصانُ بحسَبِ زيادةِ الإحسانِ ونقصانِهِ .

السببُ الثالثُ : أن يحبَّ الشيءَ لذاته ، لا لحظَّ يُنالُ منه وراءَ ذاته ، بلُ تكونُ ذاتهُ عينَ حظِّهِ ، وهذا هوَ الحبُّ الحقيقيُّ البالغُ الذي يُوثقُ بدوامِهِ ، وذلكَ كحبِّ الجمالِ والحسنِ ، فإنَّ كلَّ جمالٍ فهوَ محبوبٌ عندَ مدركِ الجمالِ ، وذلكَ لعينِ الجمالِ ؛ لأنَّ إدراكَ الجمالِ فيه عينُ اللذةِ ، واللذةُ محبوبةٌ لذاتها لا لغيرها .

ولا تظنَّ أنَّ حبَّ الصورِ الجميلةِ لا يُتصوَّرُ إلا لأجلِ قضاءِ الشهوةِ ؛ فإنَّ قضاءَ الشهوةِ لذَّةٌ أخرى قد تُحبُّ الصورُ الجميلةُ لأجلِها ، وإدراكُ نفسِ الجمالِ أيضاً لذيدٌ ، فيجوزُ أن يكونَ محبوباً لذاته .

وكيف يُنكرُ ذلكَ والخضرةُ والماءُ الجاري محبوبانِ لا يُشربُ الماءُ ولا لتؤكلَ الخضرةُ أو يُنالَ منها حظٌّ سوى نفسِ الرؤيةِ ؟!

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبُهُ الخضرة والماء الجاري^(١) ، والطباعُ السليمةُ قاضيةٌ باستلذاذِ النظرِ إلى الأنوارِ ، والأزهارِ ، والأطيّارِ المليحةِ الألوانِ الحسنةِ النقشِ ، المتناسبةِ الشكلِ ، حتّى إنّ الإنسانَ لتتفرّجُ عنه الغمومُ والهمومُ بالنظرِ إليها ، لا لطلبِ حظٍّ وراءَ النظرِ .

فهذه الأسبابُ ملذّةٌ ، وكلُّ لذيذٍ محبوبٌ ، وكلُّ حسنٍ وجمالٍ فلا يخلو إدراكُهُ عن لذّةٍ ، ولا أحدٌ ينكرُ كونَ الجمالِ محبوباً بالطبعِ ، فإن ثبتَ أنّ اللهَ تعالى جميلٌ . . . كان - لا محالةً - محبوباً عندَ مَنْ انكشفَ له جماله وجلاله ، كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ »^(٢) .



الأصلُ الرابعُ : في بيانِ معنى الحسنِ والجمالِ .

اعلمُ : أنّ المحبوسَ في مضيقِ الخيالاتِ والمحسوساتِ ربّما يظنُّ أنّه لا معنى للحسنِ والجمالِ إلا تناسُبُ الخلقةِ والشكلِ ، وحسنُ اللونِ وكونُ البياضِ مشرباً بالحمرةِ ، وامتدادُ القامةِ ، إلى غيرِ ذلك ممّا يُوصفُ مِنْ جمالِ شخصِ الإنسانِ ، فإنّ الحسنَ الأغلبَ على الخلقِ حسنُ الإبصارِ ،

(١) إذ روى ابن عدي في « الكامل » (٣٢٩ / ٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري .

(٢) رواه مسلم (٩١) .

وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص ، فيظنُّ أنَّ ما ليس مبصراً ، ولا متخيلاً متشكلاً ، ولا متلوّناً متقدّراً . . فلا يُتصوّرُ حسنه ، وإذا لم يُتصوّرُ حسنه . . لم يكن في إدراكه لذة ، فلم يكن محبوباً ، وهذا خطأ ظاهرٌ ؛ فإنَّ الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة ، فإنّا نقولُ : هذا خطُّ حسن ، وهذا صوتُ حسن ، وهذا فرسُ حسن ، بل نقولُ : هذا ثوبٌ حسن ، وهذا إناءٌ حسن ، فأَيُّ معنى لحسن الصوت والخطِّ وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصور ؟!

ومعلومٌ أنَّ العين تستلذُّ النظرَ إلى الخطِّ الحسن ، والأذن تستلذُّ استماع النغماتِ الحسنة الطيِّبة ، وما من شيءٍ من المدركات إلا وهو منقسمٌ إلى حسنٍ وقبيح ، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء ؟ فلا بدَّ من البحث عنه ، وهذا بحثٌ يطول ، ولا يليقُ بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرِّحُ بالحقِّ ونقولُ : كلُّ شيءٍ فجماله وحسنة في أن يحضرَ كماله اللائقُ به الممكنُ له ، فإذا كان جميعُ كمالاته الممكنة حاضرة . . فهو في غاية الجمال ، وإن كان الحاضرُ بعضها . . فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرسُ الحسنُ هو الذي جمعَ كلَّ ما يليقُ بالفرس ؛ من هيئة ، وشكل ، ولون ، وحسنِ عدو ، وتيسرِ كركٍ وفرٍّ عليه ، والخطُّ الحسنُ كلُّ ما جمعَ ما يليقُ بالخطِّ ؛ من تناسبِ الحروف ، وتوازيها ، واستقامة ترتيبها ، وحسنِ انتظامها ، ولكلِّ شيءٍ كمالٌ يليقُ به ، وقد يليقُ بغيره ضده ، فحسنُ كلِّ شيءٍ في كماله الذي يليقُ به ، فلا يحسنُ الإنسانُ بما

يحسنُ بهِ الفرسُ ، ولا يحسنُ الخطُّ بما يحسنُ بهِ الصوتُ ، ولا تحسنُ
الأواني بما تحسنُ بهِ الثيابُ ، وكذلك سائرُ الأشياءِ .

فإن قلتَ : فهذه الأشياءُ وإن لم تُدركْ جميعُها بحسنِ البصرِ ؛
مثلُ الأصواتِ والطعومِ والأرائحِ . . فإنَّها لا تنفكُ عن إدراكِ الحواسِّ
لها ، فهي محسوساتٌ ، وليس يُنكرُ الحسنُ والجمالُ للمحسوساتِ ،
ولا يُنكرُ حصولُ اللذةِ بإدراكِ حسنِها ، وإنَّما يُنكرُ ذلكَ في غيرِ المدركِ
بالحواسِّ .

فاعلمُ : أنَّ الحسنَ والجمالَ موجودٌ في غيرِ المحسوساتِ ؛ إذ يُقالُ :
هَذَا خَلْقٌ حَسَنٌ ، وهَذَا عِلْمٌ حَسَنٌ ، وهَذِهِ سِيرَةٌ حَسَنَةٌ ، وهَذِهِ أَخْلَاقٌ
جَمِيلَةٌ ، وإنَّما الأخلاقُ الجميلةُ يُرادُ بها العلمُ والعقلُ والعفةُ والشجاعةُ
والتقوى والكرمُ والمروءةُ وسائرُ خِلالِ الخيرِ ، وشيءٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ
لا يُدركُ بالحواسِّ الخمسِ ، بل يُدركُ بنورِ البصيرةِ الباطنةِ ، وكلُّ هَذِهِ
الخصالِ الجميلةِ محبوبةٌ ، والموصوفُ بها محبوبٌ بالطبعِ عِنْدَ مَنْ عَرَفَ
صِفَاتِهِ .

وآيَةُ ذَلِكَ وَأَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ : أَنَّ الطَّبَاعَ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الْأَنْبِيَاءِ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى حُبِّ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ
يُشَاهِدُوا ، بَلْ عَلَى حُبِّ أَرْبَابِ الْمَذَاهِبِ ؛ مِثْلِ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ

وغيرهم ، حتَّى إنَّ الرجلَ قدَّ يجاوزُ به حُبُّه لصاحبِ مذهبه حدَّ العشقِ ، فيحملُهُ ذلكَ على أنْ ينفقَ جميعَ أموالِه في نصرَةِ مذهبه والذبُّ عنه ، ويخاطرَ بروحه في قتالِ مَنْ يطعنُ في إمامِه ومتبوعِه ، فكمْ مِنْ دمٍ أريقَ في نصرَةِ أربابِ المذاهبِ ، وليتَ شعري مَنْ يحبُّ الشافعيَّ مثلاً فلمْ يحبُّه ولمْ يشاهدْ قطُّ صورته ؟! ولو شاهدَهُ ربَّما لمْ يستحسنْ صورته ، فاستحسانُهُ الذي حمَلَهُ على إفراطِ الحبِّ هوَ لصورته الباطنة ، لا لصورته الظاهرة ؛ فإنَّ صورته الظاهرة قد انقلبتْ تراباً مع الترابِ ، وإنَّما يحبُّه لصفاته الباطنة ؛ مِنْ الدينِ ، والتقوى ، وغزارة العلمِ ، والإحاطة بمداركِ الدينِ ، وانتهاضِه لإفاضة علمِ الشرعِ ، ونشرِه هذه الخيراتِ في العالمِ ، وهذه أمورٌ جميلة لا يُدركُ جمالُها إلا بنورِ البصيرة ، فأما الحواسُّ . . فقاصرة عنها .

وكذلكَ مَنْ يحبُّ أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه ويفضُّله على غيره ، أو يحبُّ عليّاً رضي الله تعالى عنه ويفضُّله ويتعصَّبُ له ، فلا يحبُّهم إلا لاستحسانِ صورهم الباطنة ؛ مِنْ العلمِ ، والدينِ ، والتقوى ، والشجاعة ، والكرمِ وغيرِه ، فمعلومٌ أنَّ مَنْ يحبُّ الصديقَ رضي الله عنه مثلاً ليسَ يحبُّ لحمه وعظمه وجلده وأطرافه وشكله ؛ إذ كلُّ ذلك قد زال وتبدَّل وانعدم ، ولكن بقي ما كانَ الصديقُ به صديقاً ، وهي الصفاتُ المحمودَةُ التي هي مصادِرُ السيرِ الجميلة ، فكانَ الحبُّ باقياً بقاء تلك الصفاتِ مع زوالِ جميعِ الصورِ .

وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة ؛ إذ علم حقائق الأمور ، وقدر على حمل نفسه عليها ؛ بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير تشعب عن هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ، ومحلّهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ ، فهو المحبوب بالحقيقة ، وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله .

فاذا ؛ الجمال موجود في السير ، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة . . لم يوجب ذلك حباً ، فالمحسوب مصدر السيرة الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة ، والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة ، وهو محبوب بالطبع ، وغير مدرك بالحواس ، حتى إن الصبي المخلّي وطبعه إذا أردنا أن نحبّ إليه غائباً أو حاضراً حياً أو ميتاً . . لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة ، فمهما اعتقد ذلك . . لم يتمالك في نفسه ولم يقدر ألا يحبه ، فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابع التي لا تدرك بالحواس ؟

بل لما وصف الناس حاتماً بالسخاء ، ووصفوا خالداً بالشجاعة . . أحبّتهم القلوب حباً ضرورياً ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ،

ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير . . . غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحصانه إلى المحييين ؛ لبعده المزار وتناهي الديار .

فإذا ؛ ليس حب الإنسان مقصوداً على من أحسن إليه ، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحصانه إلى المحب ؛ لأن كل جمال وحسن فهو محبوب ، والصورة ظاهرة وباطنة ، والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصورة الظاهرة بالبصر الظاهر ، والصورة الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة . . لا يدركها ، ولا يلتذ بها ، ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة . . كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فستان بين من يحب نقشاً مصوراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة ، وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الرابع^(١) : المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب ؛ إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ، ولكن بمجرد تناسب

(١) من أسباب المحبة ، وكذا وقع العد في (أ) : (الرابع) ، وفي باقي النسخ (الخامس) ، وهو مشكل ، وقول المصنف الآتي : إنها خمسة . . على تفريع السبب الثالث إلى : حب الإحسان مجرداً ، وحب الجمال مجرداً . وكلاهما مجموعان في قوله في السبب الثالث : (حب الشيء لذاته ، لا لحظ يُنال منه وراء ذاته) .

الأرواح ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »^(١) ، وقد حققنا ذلك في كتابِ آدابِ الصحبةِ ، عندَ ذكرِ الحبِّ في الله ، فليُطلبَ منه ؛ لأنه أيضاً مِنْ عجائبِ أسبابِ الحبِّ .

فإذا ؛ ترجعُ أقسامُ الحبِّ إلى خمسةِ أسبابٍ :

وهو حبُّ الإنسانِ وجودَ نفسهِ وكمالِهِ وبقائه .

وَحُبُّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ فيما يرجعُ إلى دوامِ وجودِهِ ويعينُ على بقاءِهِ ودفعِ المهلكاتِ عنه .

وَحُبُّ مَنْ كَانَ مُحْسِنًا فِي نَفْسِهِ إِلَى النَّاسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُحْسِنًا إِلَيْهِ .

وَحُبُّ لِكُلِّ مَا هُوَ جَمِيلٌ فِي ذَاتِهِ ، سواءً كَانَ مِنَ الصُّورِ الظَّاهِرَةِ أَوْ الْبَاطِنَةِ .

وَحُبُّ لِمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَنَاسِبَةٌ خَفِيَّةٌ فِي الْبَاطِنِ .

فلو اجتمعتْ هذهِ الأسبابُ في شخصٍ واحدٍ . . تضاعفَ الحبُّ لا محالةً ؛ كما لو كَانَ لِلْإِنْسَانِ وَلَدٌ جَمِيلُ الصُّورَةِ ، حَسَنُ الْخَلْقِ ، كَامِلُ الْعِلْمِ ، حَسَنُ التَّدْيِيرِ ، مُحْسِنٌ إِلَى الْخَلْقِ وَمُحْسِنٌ إِلَى الْوَالِدِ . . كَانَ مُحْبُوبًا - لا محالةً - غَايَةَ الْحَبِّ .

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨) .

وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ؛ فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال . . كان الحب - لا محالة - في أعلى الدرجات .

فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى ، فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .



بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وَأَنَّ مَنْ أَحَبَّ غَيْرَ اللَّهِ لَا مِنْ حَيْثُ نَسَبَتْهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . . فذلِكَ لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى ، وَأَنَّ حُبَّ الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمودٌ ؛ لَأَنَّهُ عَيْنُ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى ، وكذا حُبُّ الْعُلَمَاءِ وَالْأَتْقِيَاءِ ؛ لِأَنَّ مُحِبَّ الْمُحِبُّوبِ مُحِبُّبٌ ، وَرَسُولَ الْمُحِبُّوبِ مُحِبُّبٌ ، وَمُحِبَّ الْمُحِبُّوبِ مُحِبُّبٌ ، وكلُّ ذلِكَ يَرْجِعُ إِلَى حُبِّ الْأَصْلِ ، فلا يجاوزُهُ إِلَى غَيْرِهِ ، فلا محبوبَ بِالْحَقِيقَةِ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَائِرِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، ولا مستحقٌّ لِلْمَحَبَةِ سِوَاهُ .

وإيضاحه : بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة في حقِّ الله تعالى بجماليتها ، ولا يُوجدُ في غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة في حقِّ الله تعالى ، ووجودها في حقِّ غيره وهمٌّ وتخيُّلٌ ، وهو مجازٌ محضٌ ، لا حقيقة له ، ومهما ثبت ذلك . . انكشف لكلِّ ذي بصيرة ضدُّ ما تخيَّله ضعفاءُ العقولِ والقلوبِ ؛ مِنْ استحالةِ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى تحقيقاً ، وبأنَّ التحقيقَ يقتضي ألا يُحبَّ أحدٌ غيرُ اللَّهِ تَعَالَى .



فأما السببُ الأوَّلُ : وهو حُبُّ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَبِقَاءَهُ وَكَمَالَهُ وَدَوَامَ وَجُودِهِ ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله :

فهذه جبلَّة كلِّ حيٍّ ، ولا يُصوِّرُ أَنْ ينفكَّ عنها ، وهذا يقتضي غاية

المحبة لله تعالى ، فإنَّ مَنْ عرف نفسه ، وعرف ربّه .. عرف قطعاً أنّه لا وجود له مِنْ ذاته ، وإنّما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده مِنْ الله وبالله وإلى الله ، فهو المخترع الموجد له ، وهو المبقّي له ، وهو المكمل لوجوده ؛ بخلق صفات الكمال ، وخلق الأسباب الموصلة إليه ، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا .. فالعبدُ مِنْ حيث ذاته لا وجود له مِنْ ذاته ، بل هو محوٌ محضٌ وعدمٌ صرفٌ لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالكٌ عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقصٌ بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته .

وبالجملة : فليس في الوجود شيءٌ له بنفسه قوامٌ إلا القيوم الحي الذي هو قائمٌ بذاته ، وكلُّ ما سواه قائمٌ به ، فإنَّ أحبَّ العارف ذاته ووجود ذاته مستفادٌ مِنْ غيره .. فبالضرورة يحبُّ المفيد لوجوده والمديم له إنَّ عرفه خالقاً موجداً ، ومخترعاً مبقياً ، وقیوماً بنفسه ، ومقوماً لغيره ، فإنَّ كان لا يحبّه .. فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة ، تنعدم بانعدامها ، وتضعفُ بضعفها ، وتقوى بقوّتها .

ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : (مَنْ عرف ربّه .. أحبه ، وَمَنْ عرف الدنيا .. زهد فيها)^(١) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٩) عن بديل بن ميسرة .

وكيف يُتصوَّرُ أن يحبَّ الإنسان نفسه ولا يحبَّ ربَّه الذي به قوامُ نفسه ؟ !

ومعلومٌ أنَّ المبتلى بحرَّ الشمسِ لمَّا كان يحبُّ الظلَّ . . فيحبُّ بالضرورةِ الأشجارَ التي بها قوامُ الظلِّ ، وكلُّ ما في الوجودِ بالإضافةِ إلى قدرةِ الله تعالى . . فهو كالظلِّ بالإضافةِ إلى الشجرِ ، والنورِ بالإضافةِ إلى الشمسِ ؛ فإنَّ الكلَّ من آثارِ قدرتهِ ، ووجودُ الكلِّ تابعٌ لوجودِهِ ، كما أنَّ وجودَ النورِ تابعٌ للشمسِ ، ووجودُ الظلِّ تابعٌ للشخصِ .

بل هذا المثالُ صحيحٌ بالإضافةِ إلى أوهامِ العوامِّ ؛ إذ تخيَّلوا أنَّ النورَ أثرُ الشمسِ ، وفائضٌ منها ، وموجودٌ بها ، وهو خطأٌ محضٌ ؛ إذ انكشفَ لأربابِ القلوبِ انكشافاً أظهرَ من مشاهدةِ الأبصارِ أنَّ النورَ حاصلٌ من قدرةِ الله تعالى اختراعاً عندَ وقوعِ المقابلةِ بينَ الشمسِ وبينَ الأجسامِ الكثيفةِ ؛ كما أنَّ نورَ الشمسِ وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصلٌ من قدرةِ الله تعالى ، ولكنَّ الغرضَ منَ الأمثلةِ التفهيمُ ، فلا يُطلبُ فيها الحقائقُ .

فإذا ؛ إن كان حبُّ الإنسانِ نفسه ضرورياً . . فحبُّه لمن به قوامه أولاً ودوامه ثانياً ؛ في أصلهِ وصفاته ، وظاهرهِ وباطنهِ وجواهرهِ وأعراضهِ . . أيضاً ضروريٌّ إن عرفَ ذلكَ كذلكَ ، ومنَّ خلا عن هذا الحبِّ . . فلأنَّه اشتغلَ بنفسِهِ وشهواتِهِ ، وذهلَ عن ربِّهِ وخالفِهِ ، فلم يعرفهُ حقَّ معرفتهِ ، وقصَرَ نظره على شهواتِهِ ومحسوساتِهِ ، وهو عالمُ الشهادةِ الذي يشاركه

البهائم في التنعم به ، والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطاق أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة ، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .



وأما السبب الثاني : وهو حبه من أحسن إليه :

فواساه بماله ، ولاطفه بكلامه ، وأمدّه بمعونته ، وانتدب لنصرته ، وقمع أعداءه ، وقام بدفع شرّ الأشرار عنه ، وانتفض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه ؛ فإنه محبوب - لا محالة - عنده ، وهذا بعينه يقتضي ألا يحب إلا الله تعالى ؛ فإنه لو عرف حق المعرفة . . لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط .

فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده . . فليست أعداها ؛ إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ، ولكننا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى .

ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتصرف فيها كيف تشاء ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط ؛ فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذي أنعم بخلقه ، وخلق ماله ، وخلق قدرته ، وخلق إرادته

وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه، وصرف وجهه إليك، وألقى في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك، ولولا كل ذلك.. لما أعطاك حبة من ماله؟

ومهما سلط الله عليه الدواعي، وقرّر في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله.. كان مقهوراً مضطراً في التسليم، لا يستطيع مخالفته، فالمحسن هو الذي اضطره وسخره لك، وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل، وأما يده.. فواسطة يصل بها إحسان الله تعالى إليك، وصاحب اليد مضطراً في ذلك اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن، لا من حيث هو واسطة.. كنت جاهلاً بحقيقة الأمر، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه، أما الإحسان إلى غيره.. فمحال من المخلوقين؛ لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل؛ إما آجل وهو الثواب، وإما عاجل وهو المنّة والاستسحار، أو الثناء والصيت، والاشتهار بالسخاء والكرم، أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة.

وكما أن الإنسان لا يلقي ماله في البحر؛ إذ لا غرض له فيه.. فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده، وأما أنت.. فليست مقصوداً، بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب؛ بسبب قبضك المال، فقد استسخرَكَ في القبض للتوصل إلى غرض نفسه، فهو إذاً محسن إلى نفسه، ومعتاض عمّا

بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده . . لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً ألبتة ، فإذا ؛ هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين :

أحدهما : أنه مضطّر بتسليط الله الدواعي عليه ، فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير ، فإنه لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه ؛ لأنه من جهة الأمير مضطّر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ، ولا يقدر على مخالفته ، ولو خلاه الأمير ونفسه . . لما سلم ذلك ؛ فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه . . لم يذل حبة من ماله ؛ حتى سلط الله الدواعي عليه ، وألقى في نفسه أن حظه ديناً ودنيا في بذله ، فبذله لذلك .

والثاني : أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله . . فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً ، بل الحظوظ كلها أعواض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان في الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل ، وذلك محال من غير الله تعالى ، فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم ، ولأجلهم ، لا لحظ وغرض يرجع إليه ؛ فإنه يتعالى عن الأغراض .

فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه في حق

غيره محالٌ وممتنعٌ امتناع الجمع بين السواد والبياض ، فهو المنفردُ بالوجود والإحسان ، والطول والامتنان .

فإن كان في الطبع حبُّ المحسن . . فينبغي ألا يحبُّ العارفُ إلا الله تعالى ؛ إذ الإحسان من غيره محالٌ ، فهو المستحقُّ لهذه المحبة وحده ، وأما غيره . . فيستحقُّ المحبة على الإحسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .



وأما السببُ الثالثُ : وهو حبُّك للمحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه :

وهذا أيضاً موجودٌ في الطباع ؛ فإنه إذا بلغك خبرُ ملكٍ عالمٍ عابدٍ عادلٍ ، رفيقٍ بالناس ، متلطّفٍ بهم ، متواضعٍ لهم ، وهو في قطرٍ من أقطار الأرض بعيدٌ عنك ، وبلغك خبرُ ملكٍ آخرٍ ظالمٍ متكبرٍ ، فاسقٍ متهتكٍ شريرٍ ، وهو أيضاً بعيدٌ عنك . . فإنك تجدُ في قلبك تفرقةً بينهما ؛ إذ تجدُ في القلب ميلاً إلى الأوّل ، وهو الحبُّ ، ونفرةً عن الثاني ، وهو البغضُ ، مع أنك آيسٌ من خير الأوّل وآمنٌ من شرّ الثاني ؛ لانقطاع طمعك عن التوغّل إلى بلادِهِما ، فهذا حبُّ المحسن من حيث إنه محسنٌ فقط ، لا من حيث إنه محسنٌ إليك ، وهذا أيضاً يقتضي حبَّ الله تعالى ، بل يقتضي ألا يحبُّ غيره أصلاً إلا من حيث إنه يتعلّقُ منه بسببٍ ، فإن الله تعالى هو المحسنُ إلى الكافة والمتفضّلُ على جميع أصناف الخلائق ؛ أولاً : بإيجادِهِم ، وثانياً :

بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم ، وثالثاً : بترفيهم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم ، وإن لم تكن في مظان الضرورة ، ورابعاً : بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زيتهم ، وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم .

ومثال الضروري من الأعضاء : الرأس ، والقلب ، والكبد ، ومثال المحتاج إليه : العين ، واليد ، والرجل ، ومثال الزينة : استقواس الحاجبين ، وحمرة الشفتين ، وتلوّن العينين ، إلى غير ذلك ممّا لو فات . لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة .

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان : الماء والغذاء ، ومثال الحاجة : الدواء ، واللحم ، والفواكه ، ومثال المزايا والزوائد : خضرة الأشجار ، وحسن أشكال الأنوار والأزهار ، ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة .

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان ، بل لكل نبات ، بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الثرى^(١) .

فإذا ؛ هو المحسن ، وكيف يكون غيره محسناً وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ؟ ! فإنه خالق الحسن ، وخالق المحسن ، وخالق الإحسان ،

(١) وفي نسخة الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥٦٣ / ٩) : (الفرش) بدل (الثرى) .

وخالق أسباب الإحسان ، فالحبُّ بهذه العلة لغيره أيضاً جهلٌ محضٌ ، ومن عرف ذلك . . لم يحبَّ بهذه العلة إلا الله تعالى .



وأما السبب الرابع : وهو حبُّ كلِّ جميلٍ لذاتِ الجمالِ ، لا لحظُّ يُنالُ منه وراء إدراكِ الجمالِ :

فقد بيَّنا أنَّ ذلكَ مجبولٌ في الطباعِ ، وأنَّ الجمالَ ينقسمُ إلى جمالِ الصورةِ الظاهرةِ المدركةِ بعينِ الرأسِ ، وإلى جمالِ الصورةِ الباطنةِ المدركةِ بعينِ القلبِ ونورِ البصيرةِ ، والأوَّلُ يدركُهُ الصبيانُ والبهائمُ ، والثاني يختصُّ بدركِهِ أربابُ القلوبِ ، ولا يشارِكُهُم فيه مَنْ لا يعلمُ إلا ظاهراً من الحياة الدنيا .

وكلُّ جمالٍ فهو محبوبٌ عندَ مدركِ الجمالِ ، فإنْ كانَ مدركاً بالقلبِ . . فهو محبوبٌ بالقلبِ ، ومثالُ هذا في المشاهدةِ : حبُّ الأنبياءِ والعلماءِ وذوي المكارمِ السنيَّةِ والأخلاقِ المرضيَّةِ ؛ فإنَّ ذلكَ متصوِّراً مع تشوُّشِ صورةِ الوجهِ وسائرِ الأعضاء ، وهو المرادُ بحسنِ الصورةِ الباطنةِ ، والحسنُ لا يدركُهُ .

نعم ، يدركُ الحسنُ آثارَهُ الصادرةَ منه الدالةُ عليه ، حتَّى إذا دلَّ القلبُ عليه . . مالَ القلبُ إليه فأحبهُ ، فمنَّ يحبُّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، أو الصديقَ رضيَ اللهُ تعالى عنه ، أو الشافعيَّ رحمهَ اللهُ تعالى عليه . . فلا

يحبُّهُمْ إلا لحسنِ ما ظهرَ لَهُ مِنْهُمْ ، وليسَ ذلكَ لحسنِ صورِهِمْ ، ولا لحسنِ أفعالِهِمْ ، بلْ دَلَّ حسنُ أفعالِهِمْ على حسنِ الصفاتِ التي هي مصدرُ الأفعالِ ، إِذِ الأفعالُ آثارُ صادرةٌ عنها ، ودالةٌ عليها .

فَمَنْ رأى حسنَ تصنيفِ المصنِّفِ ، وحسنَ شعرِ الشاعرِ ، بلْ حسنَ نقشِ النقاشِ وبناءِ البناءِ . . انكشفَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الأفعالِ صفاتُهُمُ الجميلةُ الباطنةُ التي يرجعُ حاصلُها عندَ البحثِ إلى العلمِ والقدرةِ ، وكلِّمَا كَانَ المعلومُ أشرفَ وأتمَّ جمالاً وعظمةً . . كَانَ العلمُ أشرفَ وأجملَ ، وكذا المقدورُ كلِّمَا كَانَ أعظمَ رتبةً وأجلَّ منزلةً . . كَانَتِ القدرةُ عليه أجَلَّ رتبةً وأشرفَ قدراً .

وأجلُّ المعلوماتِ هوَ اللهُ تعالى ، فلا جرمَ أحسنُ العلومِ وأشرفُها معرفةُ اللهِ تعالى ، وكذلك ما يقاربهُ ويختصُّ بهِ فشرفُهُ على قدرِ تعلُّقهِ بهِ (١) .

فإذا ؛ جمالُ صفاتِ الصديقينَ الذينَ تحبُّهُمْ القلوبُ طبعاً ترجعُ إلى ثلاثةِ أمورٍ :

أحدها : علمُهُمُ باللهِ تعالى وملائكتهِ وكتبِهِ ورسولِهِ وشرائعِ أنبيائِهِ .

(١) وإنما شرفه لأنه معرفة لأفعال الله تعالى ، ومعرفة للطريق الذي يقرب العبد من الله تعالى ، والأمر الذي يسهل به الوصول إلى معرفة الله والقرب منه ، وكل معرفة خارجة عن ذلك . . فليس فيها كبير شرف . « إتحاف » (٥٦٣ / ٩) .

والثاني : قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله تعالى بالإرشاد والسياسة .

والثالث : تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير ، الجاذبة إلى طريق الشر .

وبمثل هذا يُحبُّ الأنبياءُ والعلماءُ والخلفاءُ والملوكُ الذين هم أهلُ العدلِ والكرمِ ، فانسبَّ هذه الصفاتِ إلى صفاتِ الله تعالى .

أمَّا العلمُ : فأين علمُ الأولينَ والآخرينَ مِنْ علمِ الله تعالى الذي يحيطُ بالكلِّ إحاطةً خارجةً عن النهايةِ ؛ حتَّى لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ ؟

وقد خاطبَ الخلقَ كلُّهم فقال عز وجل : ﴿ وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، بل لو اجتمعَ أهلُ الأرضِ والسمااءِ على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيلِ خلقِ نملةٍ أو بعوضةٍ . . لم يطلعوا على عُشرِ عُشرِ ذلك ! ولا يحيطون بشيءٍ مِنْ علمه إلا بما شاء ، والقدرُ اليسيرُ الذي علمه الخلائقُ كلُّهم فبتعليمه علموه ؛ كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ .

فإن كانَ جمالُ العلمِ وشرْفُهُ أمراً محبوباً ، وكانَ هوَ في نفسه زينةً وكمالاً للموصوفِ به . . فلا ينبغي أن يُحبَّ بهذا السببِ إلا الله تعالى ، فعلمُ العلماءِ جهلٌ بالإضافةِ إلى علمه ، بل مَنْ عرفَ أعلمَ أهلِ زمانه وأجهلَ أهلِ زمانه . . استحالَ أن يُحبَّ بسببِ العلمِ الأجهلِ ويتركَ الأعلمَ ، وإن كانَ

الأجهل لا يخلو عن علم ما بتفاصيل معيشته ، والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ؛ لأنَّ الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يُتصور في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد ، وفصل علم الله سبحانه على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ؛ إذ معلوماته لا نهاية لها ، ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهي أيضاً كمال ، والعجز نقص ، وكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب ، وإدراكه لذيد ، حتى إنَّ الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة عليّ وخالد - رضي الله تعالى عنهما - وغيرهما من الشجعان ، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران ، فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ، ويورث ذلك حباً في القلب ضرورياً للمتصف به ، فإنه نوع كمال .

فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة ، وأوسعهم ملكاً ، وأقواهم بطشاً ، وأقهرهم للشهوات ، وأجمعهم لخبائث النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره . ما منتهى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا نفعاً ولا ضرراً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولسانه من الخرس ، وأذنه من الصمم ، وبدنه من المرض ،

ولا يُحتاجُ إلى عدٍّ ما يعجزُ عنه في نفسه وغيره ممَّا هوَ على الجملة متعلِّقُ قدرته ، فضلاً عمَّا لا تتعلَّقُ به قدرته من ملكوتِ السماواتِ وأفلاكِها وكواكبِها ، والأرضِ وجبالِها وبحارِها ورياحِها وصواعقِها ومعادِنِها ونباتِها وحيواناتِها وجميعِ أجزائها ، فلا قدرةَ له على ذرَّةٍ منها .

وما هوَ قادرٌ عليه من نفسه وغيره فليستْ قدرته من نفسه وبِنفسِهِ ، بل اللهُ خالقُهُ وخالقُ قدرته ، وخالقُ أسبابِهِ ، والممكِّنُ له من ذلك ، ولو سلَّطَ بعوضاً على أعظمِ ملكٍ وأقوى شخصٍ من الحيواناتِ . . لأهلكهُ ، فليسَ للعبدِ قدرةٌ إلا بتمكينِ مولاهُ ، كما قالَ في أعظمِ ملوكِ الأرضِ ذي القرنينِ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، فلم يكنْ جميعُ ملكِهِ وسلطنتِهِ إلا بتمكينِ اللهِ تعالى إيَّاهُ في جزءٍ من الأرضِ ، والأرضُ كُلُّها مدرةٌ بالإضافةِ إلى أجسامِ العالمِ ، وجميعِ الولاياتِ التي يحظى بها الناسُ من الأرضِ غيرةٌ من تلكَ المدرةِ ، ثم تلكَ الغيرةُ أيضاً من فضلِ اللهِ تعالى وتمكينِهِ ، فيستحيلُ أن يحبَّ عبداً من عبادِ اللهِ تعالى لقدرته وسياستِهِ ، وتمكينِهِ واستيلائِهِ وكمالِ قوَّتِهِ . . ولا يحبُّ اللهُ تعالى لذلك ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، فهوَ الجبَّارُ القاهرُ ، والعليمُ القادرُ ، السماواتُ مطوياتٌ بيمينِهِ ، والأرضُ وما عليها في قبضتِهِ ، وناصيةُ جميعِ المخلوقاتِ في قبضةِ قدرته ، إن أهلكَهُم من عندِ آخرِهِم . . لم ينقصْ من سلطَانِهِ وملكِهِ ذرَّةٌ ، وإن خلقَ أمثالَهُم ألفَ مرَّةٍ . . لم يغيَ بخلِقِهِ ، ولا يمسُّه لغوبٌ ولا فتورٌ في اختراعِهِ ، فلا قدرةَ ولا قادرَ إلا وهوَ أثرٌ من آثارِ قدرته ، فلهُ الجمالُ والبهاءُ ، والعظمةُ

والكبرياء ، والقهر والاستيلاء ، فإن كان يُتصوَّرُ أن يُحبَّ قادرٌ لكمال قدرته . . فلا يستحقُّ الحبَّ بكمال القدرة سواءً أصلاً .

وأما صفة التنزُّه عن العيوب والنقائص ، والتقديس عن الرذائل والخبائث : فهو أحد موجبات الحب ، ومقتضيات الحسن والجمال في الصورة الباطنة ، والأنبياء والصدِّيقون وإن كانوا منزَّهين عن العيوب والخبائث . . فلا يُتصوَّرُ كمال التقديس والتنزيه إلا للواحد الحق ، الملك القدوس ، ذي الجلال والإكرام .

وأما كلُّ مخلوق . . فلا يخلو عن نقص وعن نقائص ، بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخَّراً مضطراً هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده ، وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره ، فإنَّ منتهى الكمال أقلُّ درجاته ألا يكون عبداً مسخَّراً لغيره وقائماً بغيره ، وذلك محالٌ في حقِّ غيره ، فهو المنفرد بالكمال ، المنزَّه عن النقص ، المقدَّس عن العيوب ، وشرح وجوه التقديس والتنزيه في حقه عن النقائص يطول ، وهو من أسرار علوم المكاشفات ، فلا نطوِّلُ بذكره .

فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً . . فلا تتمُّ حقيقته إلا له ، وكمال غيره وتنزُّهه لا يكون مطلقاً ، بل بالإضافة إلى ما هو أشدُّ منه نقصاناً ، كما أنَّ للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمار ، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس ، وأصل النقص شاملٌ لكلِّ ، وإنَّما يتفاوتون في درجات النقصان .

فإذا ؛ الجميل محبوب ، والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ند له ،
 الفرد الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له ، الغني الذي لا حاجة له ،
 القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب
 لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات
 والأرض ، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ،
 ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذي لا أول
 لوجوده ، الأبدى الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم
 إمكان عدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ،
 جبار الأرض والسماوات ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة
 والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال ، والبهاء
 والجمال ، والقدرة والكمال ، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول ،
 وتخرس في وصفه الألسنة ، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز
 عن معرفته ، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيّد
 الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين : « لا أحصي ثناء عليك ، أنت
 كما أثنيت على نفسك »^(١) ، وقال سيّد الصديقين رضي الله عنه : (سبحان
 من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته)^(٢) ، فالعجز
 عن درك الإدراك إدراك .

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٤٩٥) .

فليت شعري مَنْ ينكرُ إمكانَ حبِّ الله تعالى تحقيقاً ويجعلُهُ مجازاً..
أينكرُ أنَّ هذه الأوصافَ هي مِنْ أوصافِ الجمالِ والمحامدِ ، ونعوتِ
الكمالِ والمحاسنِ ، أو ينكرُ كونَ الله تعالى موصوفاً بها ، أو ينكرُ كونَ
الكمالِ والجمالِ والبهاءِ والعظمةِ محبوباً بالطبعِ عندَ مَنْ أدركَهُ !؟

فسبحانَ مَنْ احتجبَ عن بصائرِ العميانِ غيرةً على جمالِهِ وجلالِهِ أنْ يطلعَ
عليهِ إلا مَنْ سبقَتْ لَهُ منه الحسنَى ! الذين هُمْ عَنْ نارِ الحجابِ مبعدونَ ،
وترك الخاسرينَ في ظلماتِ العمى يتيهونَ ، وفي مسارحِ المحسوساتِ
وشهواتِ البهائمِ يترددونَ ، يعلمونَ ظاهراً مِنَ الحياةِ الدنيا ، وهُمْ عَنْ
الآخرةِ هُمْ غافلونَ ، الحمدُ لله ، بل أكثرُهُمْ لا يعلمونَ .

والحبُّ بهذا السببِ^(١) أقوى مِنَ الحبِّ بالإحسانِ ؛ لأنَّ الإحسانَ يزيدُ
وينقصُ ، ولذلك أوحى اللهُ تعالى إلى داودَ عليه السلامُ : (إِنَّ أَوْدَ الْأَوْدَاءِ
إِلَيَّ مَنْ عَبْدَنِي بغيرِ نوالٍ ، لكنْ لِيُعْطِيَ الربوبيةَ حقَّها)^(٢) .

وفي الزبورِ : (مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ عَبْدَنِي لجنَّةٍ أو نارٍ ، لو لمْ أخلقْ جنَّةً
ولا ناراً.. ألمْ أكنْ أهلاً أنْ أَطاعَ !؟)^(٣) .

ومرَّ عيسى عليه السلامُ على طائفةٍ مِنَ العبادِ قد نحلوا ، فقالوا : نخافُ

(١) التعرف على صفات الكمال المطلق للذات الأحدية ، مع الإقرار بالعجز المطلق عن
دركها .

(٢) قوت القلوب (٥٦ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (٥٦ / ٢) .

النارَ ونرجو الجنة ، فقال لهم : مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتُم ، ومرّ بقوم آخرين كذلك ، فقالوا : نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله ، فقال : أنتم أولياء الله حقاً ، معكمُ أمرتُ أن أقيم^(١) .

وقال أبو حازم : (إنني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب ، فأكون كالعبدِ السوء ؛ إن لم يخف .. لم يعمل ، وكالأجيرِ السوء ؛ إن لم يُعط .. لم يعمل)^(٢) .

وفي الخبر : « لا يكوننَّ أحدُكم كالأجيرِ السوء ؛ إن لم يُعط أجراً .. لم يعمل ، ولا كالعبدِ السوء ؛ إن لم يخف .. لم يعمل »^(٣) .



وأما السببُ الخامسُ للحبِّ : فهو المناسبةُ والمشاكلةُ :

لأنَّ شبهَ الشيءِ منجذبٌ إليه ، والشكلُ إلى الشكلِ أميلُ ، ولذلك ترى الصبيَّ يألفُ الصبيَّ ، والكبيرَ يألفُ الكبيرَ ، ويألفُ الطيرُ نوعَهُ ، وينفرُ منْ

(١) كذا في « القوت » (٥٦ / ٢) ، وروى أبو نعيم في « الحلية » (٨ / ١٠) نحوه .

(٢) كذا في « القوت » (٥٦ / ٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٢ / ٣) بنحوه ، وقد رواه عن حكيم من الحكماء ابنُ المبارك في « الزهد » (٢١٩) وفيه زيادة : (ولكن يستخرج مني حب ربي عز وجل ما لم يستخرج مني غيره) .

(٣) كذا في « القوت » (٥٦ / ٢) ، حيث قال بعد إirاده لكلام أبي حازم المدني : (وقد روينا معنى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يكون أحدكم كالعبدِ السوء ؛ إن خاف .. عمل ، ولا كالأجيرِ السوء ؛ إن لم يعط أجراً .. لم يعمل ») ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده أصلاً) . « إتحاف » (٥٦٧ / ٩) .

غير نوعه ، وأنسُ العالمِ بالعالمِ أكثرُ منه بالمحترفِ ، وأنسُ النجارِ بالنجارِ أكثرُ من أنسه بالفلاح ، وهذا أمرٌ تشهدُ به التجربة ، وتشهدُ له الأخبارُ والآثارُ كما استقصيناهُ في بابِ الأخوةِ في الله من كتابِ آدابِ الصحبة ، فليطلبُ منه .

وإذا كانتِ المناسبةُ سببَ التحابِّ . . فالمناسبةُ قد تكونُ في معنى ظاهرٍ ؛ كمناسبةِ الصبيِّ الصبيِّ في معنى الصبا ، وقد يكونُ خفياً حتَّى لا يُطلعُ عليه ؛ كما ترى من الاتحادِ الذي يتفقُ بينَ شخصينِ من غيرِ ملاحظةِ جمالٍ ، أو طمعٍ في مالٍ أو غيره ، كما أشارَ إليه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قالَ : « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »^(١) ، والتعارفُ هو التناسُبُ ، والتناكرُ هو التباينُ^(٢) .

وهذا السببُ أيضاً يقتضي حبَّ الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجعُ إلى المشابهة في الصورِ والأشكالِ ، بل إلى معانٍ باطنةٍ يجوزُ أن يُذكرَ بعضها في الكتبِ ، وبعضُها لا يجوزُ أن يُسطرَ ، بل يُتركُ تحتَ غطاءِ الغيرةِ حتَّى يعثرَ عليه السالكونَ للطريقِ إذا استكملوا شرطَ السلوكِ .

فالذي يُذكرُ هو قربُ العبدِ من الله عزَّ وجلَّ في الصفاتِ التي أمرَ فيها

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨) .

(٢) أي : ما تناسب منها في عالم الأزل . . حصل بينهما الائتلاف في عالم الشهادة ، وما تباين هناك . . أوجب حصول الاختلاف ههنا . « إتحاف » (٥٦٨ / ٩) .

بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل : (تخلقوا بأخلاق الله)^(١) ، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية ؛ من العلم ، والبر ، والإحسان ، واللطيف ، وإفاضة الخير والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، لا بمعنى طلب القرب بالمكان ، بل بالصفات .

وأما ما لا يجوز أن يُسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي . . فهي التي يومئ إليها قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق .

وأوضح من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ، ولذلك أسجد له ملائكته .

ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة^(٢) .

وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى

(١) إذ روى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧) من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعاً : « لله مئة وسبعة عشر خلقاً ، من جاء بخلق منها . . أدخله الله الجنة » ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ .

(٢) لأنه أنموذج من نور الله تعالى ، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة ، وإن كان لا يرقى إلى ذروة المساواة ، وهذا ربما هزك للتفطن لسر الآية . « إتحاف » (٥٦٨ / ٩) .

صورته»^(١) ، حتَّى ظنَّ القاصرون أنَّ لا صورةَ إلا الصورةُ الظاهرةُ المدركةُ بالحواسِّ ، فشَبَّهوا وجسَّموا وصوَّروا ، تعالى اللهُ ربُّ العالمينَ عمَّا يقولُ الجاهلونَ علواً كبيراً .

وإليه الإشارةُ بقوله تعالى لموسى عليه السلامُ : مرضتُ فلم تعدني ، فقالَ : يا ربُّ ؛ وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : مرضَ عبدي فلانُ فلم تعدهُ ، ولو عدتهُ .. لو جدتني عندهُ^(٢) .

وهذه المناسبةُ لا تظهرُ إلا بالمواظبةِ على النوافلِ بعدَ إحكامِ الفرائضِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالى : « ولا يزالُ العبدُ يتقَرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أحبُّهُ ، فإذا أحببتهُ .. كنتُ سمعهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرهُ الذي يبصرُ بهِ ، ولسانهُ الذي ينطقُ بهِ » .

وهذا موضعٌ يجبُ قبضُ عنانِ القلمِ فيه ، فقد تحزَّبَ الناسُ فيه : إلى قاصرينَ مالوا إلى التشبيهِ الظاهرِ ، وإلى غالينَ مسرفينَ جاوزوا حدَّ المناسبةِ إلى الاتحادِ وقالوا بالحلولِ ، حتَّى قالَ بعضهم : (أنا الحقُّ) ، وضلَّ النصارى في عيسى عليه السلامُ فقالوا : (هو الإلهُ) ، وقال آخرونَ منهم :

(١) رواه مسلم (٢٦١٢ / ١١٥) .

(٢) روى مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم ؛ مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب ؛ كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته .. لو جدتني عنده ؟ ... » الحديث .

(تدرّج الناسوت باللاهوت) ، وقال آخرون : (اتحد به)^(١) .

وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل ، واستحالة الاتحاد والحلول ، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر . . . فهم الأقلون ، ولعلّ أبا الحسين النوري عن هذا المقام كان ينظر ؛ إذ غلبه الوجد في قول القائل : [من الكامل]
لا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وِدَادِكَ مَنَزِلًا تَحَيَّرُ الْأَلْبَابُ عِنْدَ نُزُولِهِ
فلم يزل يعدو في وجدِه على أجمة قصبٍ قد قُطِعَتْ وبقيت أصولها ،
حتى تشققت قدماه وتورمتا ، ومات من ذلك^(٢) .

وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها ، وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجوداً .

فهذه هي المعلومة من أسباب الحب ، وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً ، وفي أعلى الدرجات لا في أدناها ، فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى فقط ، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط .

ثم كل من يحب واحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يُصوّر أن

(١) تقدم هذا السياق للمصنف ، وقد ألح المصنف في معالجة هذه الأغلوطة في عدد من مؤلفاته ؛ كـ « المنقذ من الضلال » (ص ٧٠) ، و « المقصد الأسنى » (ص ١٠٦) ، و « ميزان العمل » (ص ٢٠٧) ، و « مشكاة الأنوار » (ص ٤٢) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٤٢/٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٤) ، وأورده الطوسي في « اللمع » (ص ٣٦٣) .

يحبّ غيره لمشاركته إِيَّاهُ في السببِ ، والشركةُ نقصانٌ في الحبِّ ، وغضُّ
 مِنْ كمالِهِ ، ولا ينفردُ أحدٌ بوصفِ محبوبٍ إلا وقد يُوجدُ له شريكٌ فيه ، فإن
 لم يُوجدْ . . فيمكنُ أن يُوجدَ ، إلا اللهَ تعالى ، فإنه موصوفٌ بهذه
 الأوصافِ التي هي نهايةُ الجلالِ والكمالِ ، ولا شريكَ له في ذلك وجوداً ،
 ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ ذلك إمكاناً ، فلا جرمَ لا يكونُ في حبه شركةٌ ، فلا
 يتطرَّقُ النقصانُ إلى حبه ؛ كما لا تتطرَّقُ الشركةُ إلى صفاته ، فهو المستحقُّ
 إذاً لأصلِ المحبةِ ولكمالِ المحبةِ استحقاقاً لا يُساهمُ فيه أصلاً .



بيان أنَّ أَجَلَ اللذات وأَعْلَاهَا معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنَّه لا يُتَصَوَّرُ أن يُؤثر عليها لذة أخرى إلا من حُرِمَ هذه اللذة

اعلم : أنَّ اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامعٌ لجملةٍ من القوى والغرائز ، ولكلِّ قوةٍ وغريزةٍ لذةٌ ، ولذتها في نيلها لمقتضى طبيعتها الذي خلقت له ، فإنَّ هذه الغرائز ما رُكِّبَتْ في الإنسان عبثاً ولا هزلاً ، بل خلقت كلُّ قوةٍ وغريزةٍ لأمرٍ من الأمور هو مقتضاها بالطبع ، فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام ، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبيعتها ، وغريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام ، فلا جرم لذتها في نيل الغذاء الذي هو مقتضى طبيعتها ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والاشتغال ، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها ؛ فكَذلك في القلب غريزة تُسمى النور الإلهي ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ، وقد تُسمى العقل ، وقد تُسمى البصيرة الباطنة ، وقد تُسمى نور الإيمان واليقين^(١) ، ولا معنى للاشتغال بالأسامي ؛ فإنَّ الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظنُّ أنَّ الاختلاف واقعٌ في المعاني ؛ لأنَّ الضعيف

(١) وكل ذلك تعبيرات عن عين في القلب منزهة عن نقائص العين الظاهرة . « إتحاف »
(٥٧١ / ٩) .

يطلب المعاني من الألفاظ ، وهو عكس الواجب^(١) .

فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيَّلة ولا محسوسة ؛ كإدراكه خلق العالم ، وافتقاره إلى خالق قدير مدبر حكيم ، موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلاً ؛ بشرط ألا يفهم من لفظ العقل ما يُدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ، ولهذا ذمُّه بعض الصوفية ، وإلا . . فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم ، وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات ؛ فلا ينبغي أن تدم ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها ، فمقتضى طبيعتها المعرفة والعلم ، وهي لذتها ، كما أن مقتضى طبع سائر الغرائز هو لذتها .

وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة ، حتَّى إن الذي يُنسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به ، والذي يُنسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به ، وحتَّى إن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدي بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة ، فالعالم باللعب بالشطرنج على خستته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم ، وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية ، وهي منتهى الكمال .

ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغازاة العلم ؛ لأنه يستشعر

(١) فإن دائرة المعاني أوسع من دائرة الألفاظ ، فلا تكاد الألفاظ تحيط بها كما ينبغي .

« إتحاف » (٥٧١ / ٩) .

عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه ، فيعجب بنفسه ويلتذ به .

ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوته السماوات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى إن الذي يعرف بواطن أحوال الناس ويخبرها . . يجد له لذة ، وإن جهله . . يتقاضاه طبعه أن يفحص عنه .

فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رئاسته . . كان ذلك ألدّ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة . . فهو أشهى عنده وألدّ من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير . . كان ذلك أطيب عنده وألدّ من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدّحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشدّ ، وحبّه له أكثر ، لأن لذته فيه أعظم .

فهذا استبان أن ألدّ المعارف أشرفها ، وأشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ما هو أجلّ والأكمل والأشرف والأعظم . . فالعلم به ألدّ العلوم - لا محالة - وأشرفها وأطيبها .

وليت شعري هل في الوجود شيء أجلّ وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلّها ، ومكملها ومرتبّها ، ومبدئها ومُعِيدِها ، ومدبّرِها

ومزيتها ؟ وهل يُتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادي جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟!

فإن كنت لا تشك في ذلك . . فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات . . هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها ، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها ، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار .

وبهذا تبين أن العلم لذيد ، وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين ، فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ؛ أعني : لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولاً ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرئاسة ، وهي مختلفة بالضعف والقوة ؛ كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر الشهوة ، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال ، وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة . . علم أنها ألد عند من الروائح الطيبة ، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر

اللاعبُ بالشطرنجِ على اللعبِ وتركِ الأكلِ .. فيعلمُ به أنَّ لذةَ الغلبةِ في الشطرنجِ أقوى عندهُ من لذةِ الأكلِ .

فهذا معيارٌ صادقٌ في الكشفِ عن ترجيحِ اللذاتِ ، فنعودُ ونقولُ :

اللذاتُ تنقسمُ إلى ظاهرةٍ ؛ كلذاتِ الحواسِّ الخمسِ ، وإلى باطنةٍ ؛ كلذةِ الرئاسةِ والغلبةِ والكرامةِ والعلمِ وغيرها ؛ إذ ليستْ هذهِ اللذةُ للعينِ ، ولا للأنفِ ، ولا للأذنِ ، ولا للمسِّ ، ولا للذوقِ ، والمعاني الباطنةُ أغلبُ على ذوي الكمالِ من اللذاتِ الظاهرةِ فلو خيَّرَ الرجلُ بينَ لذةِ الهريسةِ والدجاجِ المسمَّنِ واللوزينجِ وبينَ لذةِ الرئاسةِ وقهرِ الأعداءِ ونيلِ درجةِ الاستيلاءِ ؛ فإنَّ كانَ المخيَّرُ خسيسَ الهمةِ ، ميَّتَ القلبُ ، شديدَ النهمِ^(١) .. اختارَ الهريسةَ والحلاوةَ ، وإنَّ كانَ عاليَ الهمةِ ، كاملَ العقلِ .. اختارَ الرئاسةَ ، وهانَ عليهِ الجوعُ والصبرُ عن ضرورةِ القوتِ أياماً كثيرةً ، فاختيارُهُ للرئاسةِ يدلُّ على أنَّها ألذُّ عندهُ من المطعوماتِ الطيبةِ .

نعم ، الناقصُ الذي لمْ تكملْ معانيه الباطنةُ بعدُ ؛ كالصبيِّ ، أو الذي ماتتْ قواه الباطنةُ كالمعتوهِ .. لا يبعدُ أنْ يؤثرَ لذةُ المطعوماتِ على لذةِ الرئاسةِ ، وكما أنَّ لذةَ الرئاسةِ والكرامةِ أغلبُ اللذاتِ على مَنْ جاوزَ نقصانَ الصبا والعتةِ .. فلذةُ معرفةِ اللهِ تعالى ، ومطالعةِ جمالِ حضرةِ الربوبيةِ ، والنظرِ إلى أسرارِ الأمورِ الإلهيةِ ألذُّ من الرئاسةِ التي هي أعلى اللذاتِ الغالبةِ على الخلقِ .

(١) في (أ) : (شديد النهم) ، وفي غير (ص) : (شديد البهيمية) .

وغاية العبارة عنه أن يُقال : فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهم من قرّةِ أعينٍ ، وإنّه أعدّ لهم ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطرٌ على قلبٍ بشرٍ .

وهذا الآن لا يعرفه إلا مَنْ ذاق اللذتين جميعاً ، فإنه - لا محالة - يؤثرُ التبتُّلُ والتفرُّدُ والفكرُ والذكرُ ، وينغمسُ في بحارِ المعرفةِ ، ويتركُ الرئاسةَ ، ويستحقِرُ الخلقَ الذين يرأسُهُمْ ؛ لعلِّمه بفناءِ رئاستِهِ وفناءِ مَنْ عليه رئاستُهُ ، وكونِهِ مشوباً بالكدوراتِ التي لا يُتصوَّرُ الخلوُّ عنها ، وكونِهِ مقطوعاً بالموتِ الذي لا بدَّ مِنْ إتيانِهِ مهما أخذتِ الأرضُ زخرفها وازيّنتْ وظنَّ أهلُها أنّهم قادرونَ عليها ، فيستعظمُ بالإضافةِ إليها لذّةَ معرفةِ الله تعالى ، ومطالعةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ونظامِ مملكتهِ مِنْ أعلىِ عليينَ إلى أسفلِ السافلينَ ؛ فإنّها خاليةٌ عنِ المزاحماتِ والمكدّراتِ ، متسعةٌ للمتواردينَ عليها ، لا تضيقُ عنهم بكبرِها ، وإنّما عرضُها مِنْ حيثُ التقديرُ السماواتِ والأرضُ ، وإذا خرجَ النظرُ عنِ المقدّراتِ . . فلا نهايةَ لعرصِها ، فلا يزالُ العارفُ بمطالعتها في جنةِ عرضِها السماواتِ والأرضُ ، يرتعُ في رياضِها ، ويقطفُ مِنْ ثمارِها ، ويكرعُ في حياضِها ، وهو آمنٌ مِنْ انقطاعِها ؛ إذ ثمارُ هذهِ الجنةِ غيرُ مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ .

ثمّ هي أبديةٌ سرمديةٌ ، لا يقطعُها الموتُ ؛ إذ الموتُ لا يهدمُ محلّ معرفةِ الله تعالى ، ومحلّها الروحُ الذي هو أمرٌ ربّانيٌّ سماويٌّ ، وإنّما الموتُ يغيّرُ أحوالَها ، ويقطعُ شواغلَها وعوائقَها ، ويخليها مِنْ حبسِها ،

فَأَمَّا أَنْ يَعدَمَهَا . . فلا ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ . . . الآية ، ولا تظنَّ أَنَّ هَذَا مَخْصُوصٌ بِالْمَقْتُولِ فِي الْمَعْرَكَةِ ، فَإِنَّ لِلْعَارِفِ بِكُلِّ نَفْسٍ دَرَجَةَ أَلْفِ شَهِيدٍ ، وَفِي الْخَبَرِ : أَنَّ الشَّهِيدَ يَتَمَنَّى فِي الْآخِرَةِ أَنْ يُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا لِيَقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى ؛ لِعَظَمِ مَا يَرَاهُ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ^(١) ، وَأَنَّ الشَّهَدَاءَ يَتَمَنُونَ لَوْ كَانُوا عُلَمَاءَ^(٢) ؛ لِمَا يَرُونَهُ مِنْ عُلُوِّ دَرَجَةِ الْعُلَمَاءِ .

فَإِذَا ؛ جَمِيعُ أَقْطَارِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِيدَانُ الْعَارِفِ ، يَتَبَوَّأُ مِنْهُ حَيْثُ يَشَاءُ ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَتَحَرَّكَ إِلَيْهَا بِجَسَمِهِ وَشَخْصِهِ ، فَهُوَ مِنْ مَطَالَعَةِ جَمَالِ الْمَلَكُوتِ فِي جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكُلُّ عَارِفٍ فَلَهُ مِثْلُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضِيقَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَصْلًا ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي سَعَةِ مَتَنَزَّهَاتِهِمْ بِقَدْرِ تَفَاوُتِهِمْ فِي اتِّسَاعِ نَظَرِهِمْ وَسَعَةِ مَعَارِفِهِمْ ، وَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْحَصْرِ تَفَاوُتُ دَرَجَاتِهِمْ .

فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لَذَّةَ الرِّئَاسَةِ - وَهِيَ بَاطِنَةٌ - أَقْوَى فِي ذَوِي الْكَمَالِ مِنْ لَذَاتِ الْحَوَاسِّ كُلِّهَا ، وَأَنَّ هَذِهِ اللَّذَّةَ لَا تَكُونُ لِبَهِيمَةٍ وَلَا لَصَبِيٍّ وَلَا لِمَعْتَوَةٍ ، وَأَنَّ

(١) رواه البخاري (٢٧٩٥) ، ومسلم (١٨٧٧) .

(٢) عقد الإمام ابن عبد البر فصلاً في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٩ / ١) أورد فيه الأخبار في تفضيل العلماء على الشهداء .

لذّة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذّة الرئاسة ، ولكن يؤثرون الرئاسة .

فأمّا معنى كون معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته وأسرار ملكه أعظم لذّة من الرئاسة . . فهذا يختص بمعرفة من نال رتبة المعرفة وذاقها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له ؛ لأن القلب معدن هذه القوّة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذّة الوقاع على لذّة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحان على لذّة شمّ البنفسج عند العنبر ؛ لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذّة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلمت حاسة شمّه . . أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال : (من ذاق . . عرف) .

ولعمري ؛ طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذّة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها ؛ فإنّها أيضاً معارف وعلوم ، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية .

فأمّا من طال فكره في معرفة الله سبحانه ، وقد انكشف له من أسرار ملك الله تعالى ولو الشيء اليسير . . فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوّة فرجه وسروره ، وهذا ممّا لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى .

فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني : (إن لله تعالى عبداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ؟) (١) .
ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني يا أبا محفوظ ؛ أي شيء أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت ، فقال : ذكر الموت ، فقال : وأي شيء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ، فقال : وأي شيء القبر ؟ فقال : خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال : وأي شيء هذا ؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببته . . أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة . . كفاك جميع هذا (٢) .

وفي أخبار عيسى عليه السلام : (إذا رأيت التقي مشغولاً في طلب الرب تعالى . . فقد ألهاه ذلك عما سواه) (٣) .

ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان ، قلت : فانت ؟ قال : علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه (٤) .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٥٧٥ / ٩) .

(٢) قوت القلوب (٥٦ / ٢) .

(٣) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » في « إتحافه » (٥٧٥ / ٩) وقال : (وحدثني بعض الأشياخ عن منصور الحربي وغيره أنه رأى بشر بن الحارث في النوم . .) .

وعن علي بن الموفق قال : رأيتُ في النوم كأنني أُدخلتُ الجنة ، فرأيتُ رجلاً قاعداً على مائدةٍ ومَلَكَانِ عن يمينه وشماله يلقيانِهِ مِنْ جميع الطيباتِ وهو يأكلُ ، ورأيتُ رجلاً قائماً على بابِ الجنةِ يتصفَّحُ وجوهَ الناسِ ، فيدخلُ بعضاً ويردُّ بعضاً ، قال : ثمَّ جاوزتُهُما إلى حظيرةِ القدسِ ، فرأيتُ في سرادقِ العرشِ رجلاً قد شخَصَ ببصرِهِ ينظرُ إلى الله تعالى لا يطفُئُ ، فقلتُ لرضوان : مَنْ هذا ؟ فقال : معروفُ الكرخي ، عبدُ الله لا خوفاً مِنْ نارِهِ ولا شوقاً إلى جَنَّتِهِ ، بل حبّاً لَهُ ، فأباحَهُ النظرَ إليه إلى يومِ القيامةِ ، وذكرَ أَنَّ الآخرينَ بشرُ بنُ الحارثِ وأحمدُ ابنُ حنبلٍ (١) .

ولذلك قال أبو سليمان الداراني : (مَنْ كَانَ اليَوْمَ مشغولاً بنفسِهِ . . فهو غداً مشغولٌ بنفسِهِ ، وَمَنْ كَانَ اليَوْمَ مشغولاً بربِّهِ . . فهو غداً مشغولٌ بربِّهِ) (٢) .

وقال الثوريُّ لرابعة : ما حقيقةُ إيمانِكَ ؟ قالتُ : ما عبدتهُ خوفاً مِنْ نارِهِ ولا حبّاً لجَنَّتِهِ فأكونَ كالأجيرِ السوءِ ، بل عبدتهُ حبّاً لَهُ وشوقاً إليه .

وقالتُ في معنى المحبةِ نظماً (٣) :

[من المتقارب]

أَحِبُّكَ حُبِّينِ حُبُّ الْهَوَى وَحُبّاً لَأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ

(١) قوت القلوب (٥٦/٢) .

(٢) قوت القلوب (٥٧/٢) .

(٣) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٠/١٥٦) .

فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَىٰ فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الْحُجُبِ حَتَّىٰ أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحفظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحيين وأقواهما .

ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكياً عن ربه تعالى : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١) .

وقد يتعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إني أقول : (يا رب ، يا الله . . فأجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال ؛ لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليساً ينادي جلسه) ، وقال : (إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية . . رماه الخلق بالحجارة) أي : يخرج كلامه عن حد عقولهم ، فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً^(٢) .

فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهي قرّة العين التي لا تعلم

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

(٢) عزاهما الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥٧٨ / ٩) لصاحب « القوت » .

نفسٌ ما أخفي لها منها ، وإذا حصلت . . انمحقتِ الهمومُ والشهواتُ كُلُّها ،
وصارَ القلبُ مستغرقاً بنعيمِها ، فلو أُلقيَ في النارِ . . لم يحسَّ بها
لاستغراقِهِ ، ولو عُرضَ عليه نعيمُ الجنةِ . . لم يلتفتْ إليه لكمالِ نعيمِهِ ،
وبلوغِهِ الغايةَ التي ليسَ فوقها غايةٌ .

وليتَ شعري مَنْ لا يفهمُ إلا حبَّ المحسوساتِ . . كيف يؤمنُ بلذَّةِ النظرِ
إلى وجهِ اللهِ تعالى وما له صورةٌ ولا شكلٌ ؟! وأيُّ معنى لوعدِ اللهِ تعالى بهِ
عبادَهُ وذكرِهِ أَنَّهُ أعظمُ النعمِ ؟

بل مَنْ عرفَ اللهَ . . عرفَ أَنَّ اللذاتِ المفرَّقةَ بالشهواتِ المختلفةِ كُلُّها
تنطوي تحتَ هذهِ اللذَّةِ ، كما قال بعضهم^(١) :

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ فَاسْتَجَمَعَتْ مُذْ رَأَيْتُكَ أَلْعَيْنُ أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسَدُهُ وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صِرْتُ مَوْلَائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَا دِينِي وَدُنْيَائِي
ولذلكَ قال بعضهم^(٢) :

وَهَجَرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نَارِهِ وَوَضْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهِ
وما أرادوا بهذا إلا إشارَةَ القلبِ في معرفةِ اللهِ تعالى على لذةِ الأكلِ

(١) الأبيات لمحمد بن داود الأصفهاني في «ديوانه» (ص ٣٢) ، وهي مما نسب إلى
الحلاج في «ديوانه» (٨٣) .

(٢) انظر «شرح نهج البلاغة» (١٥٧/١٠) .

والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدنٌ تمتع الحواس ، فأما القلب . . فلذته في لقاء الله تعالى فقط .

ومثال أطوار الخلق في لذاتهم ما نذكره : وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده ألد من سائر الأشياء ، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب ، فيستحقر معها لذة اللعب ، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء ، فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ، ثم تظهر لذة الرئاسة والعلو والتكاثر ، وهي آخر لذات الدنيا وأغلبها وأقواها ، كما قال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ . . . ﴾ الآية ، ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ، فيستحقر معها جميع ما قبلها ، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز ، وحب النساء والزينة في سن البلوغ ، وحب الرئاسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين ، وهي الغاية العليا ، وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشغل بملاعبة النساء وطلب الرئاسة . . فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرئاسة ويشغل بمعرفة الله تعالى ، والعارفون يقولون : ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ فسوف تعلمون .



بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم : أنَّ المدركات تنقسم :

إلى ما يدخل في الخيال ؛ كالصور المتخيلة ، والأجسام المتلونة المتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات .

والى ما لا يدخل في الخيال ؛ كذات الله تعالى ، وكل ما ليس بجسم ؛ كالعلم ، والقدرة ، والإرادة ، وغيرها .

ومن رأى إنساناً ثم غصَّ بصره . . وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر . . أدرك تفرقة بينهما ، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين ؛ لأنَّ الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة ، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإنَّ صورة المرئي صارت بالرؤية أتمَّ انكشافاً ووضوحاً ، وهو كشخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ، ثمَّ رُئي عند تمام الضوء ، فإنه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف .

فإذا ؛ الخيال أول الإدراك ، والرؤية هي استكمال إدراك الخيال ، وهو غاية الكشف ، وسُمِّي ذلك رؤيةً لأنه غاية الكشف ، لا لأنه في العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً . . استحقَّ أن يُسمَّى رؤيةً .

وإذا فهمت هذا في المتخيلات . . فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل في الخيال أيضاً لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى ، والثانية استكمال لها ، وبين الثانية والأولى من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئي ، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية ، وهذه التسمية حق ؛ لأن الرؤية سُميت رؤية لأنها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي ، ولا بد من ارتفاع الحجاب لحصول الرؤية ، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل . . فذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات ، وما غلب عليها من الصفات البشرية . . فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال .

بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة ؛ كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار ، والقول في سبب كونه حجاباً يطول^(١) ، ولا يليق بهذا العلم ، ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ لَنْ تَرِنِي ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ﴾ أي : في الدنيا ، والصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج^(٢) .

(١) المراد : كون الوجود في الحياة الدنيا حجاباً .

(٢) والمراد من التصحيح هنا : تأكيد قضية امتناع تمام المشاهدة في الحياة الدنيا ، بل لا بد من تجاوز قنطرتها ، وهذا ما اختارته الصديقة عائشة رضي الله عنها كما هو عند =

فإذا ارتفع الحجابُ بالموت . . بقيت النفسُ ملوثةً بكدورات الدنيا ، غيرَ منفكةٍ عنها بالكلية ، وإن كانت متفاوتةً ؛ فمنها ما تراكمَ عليه الخبثُ والصدأ ، فصارَ كالمرآة التي فسَدَ بطولِ تراكمِ الخبثِ جوهرُها ، فلا تقبلُ الإصلاحَ والتصقيلَ ، وهؤلاء همُ المحجوبونَ عن ربِّهم أبدَ الآبادِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، ومنها ما لم ينتهِ إلى حدِّ الرين والطبع ، ولم يخرجْ عن قبولِ التزكية والتصقيلِ ، فيعرضُ على النارِ عرضاً يجمعُ منه الخبثُ الذي هو متدنسٌ به ، ويكونُ العرضُ على النارِ بقدرِ الحاجةِ إلى التزكية ، وأقلُّها لحظةٌ خفيفةٌ ، وأقصاها في حقِّ المؤمنين كما وردتْ به الأخبارُ سبعةُ آلافِ سنةٍ .

ولن ترتحلَ نفسٌ عن هذا العالمِ إلا ويصحبُها غبرةٌ وكدورةٌ ما وإن قلتَ ، ولذلك قال اللهُ تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ تُنْجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴾ ، فكلُّ نفسٍ مستيقنةٌ للورودِ على النارِ وغيرُ مستيقنةٍ للصدورِ عنها ، فإذا أكملَ اللهُ تطهيرَها وتزكيتها ، وبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، ووقعَ الفراغُ عن جملةٍ ما وعدَ به الشرعُ مِنَ العرضِ والحسابِ وغيرِهِ ، ووافى استحقاقُ الجنةِ ، وذلكَ وقتٌ مبهمٌ لم يطلع اللهُ

= البخاري (٣٢٣٤) ، ومسلم (١٧٧) إذ قالت : (من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه . . فقد أعظم الفرية) ، ولمسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » .

عليه أحداً من خلقه ؛ فإنه واقعٌ بعدَ القيامةِ ، ووقتُ القيامةِ مجهولٌ . . فعندَ ذلكَ يستعدُّ بصفائه ونقاائه عن الكدوراتِ - حيثُ لا يرهقُ وجهه غبرةٌ ولا قترَةٌ - لأنَّ يتجلَّى فيه الحقُّ سبحانه وتعالى ، فيتجلَّى له تجلياً يكونُ انكشافُ تجليهِ بالإضافةِ إلى ما علمه كانكشافِ تجلي المرئياتِ بالإضافةِ إلى ما تخيَّلهُ ، وهذه المشاهدةُ والتجلي هي التي تُسمَّى رؤيةً .

فإذا ؛ الرؤيةُ حقٌّ بشرطٍ ألا يفهمَ منَ الرؤيةِ استكمالَ الخيالِ في متخيَّلٍ متصوَّرٍ مخصوصٍ بجهةٍ ومكانٍ ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يتعالى عنه ربُّ الأربابِ علواً كبيراً ، بل كما عرفتُه في الدنيا معرفةً حقيقيةً تامةً من غيرِ تخيُّلٍ وتصوُّرٍ وتقديرٍ شكلٍ وصورةٍ ، فتراه في الآخرةِ كذلك .

بل أقولُ : المعرفةُ الحاصلةُ في الدنيا بعينها هي التي تُستكملُ ، فتبلغُ كمالَ الكشفِ والوضوحِ وتنقلبُ مشاهدةً ، ولا يكونُ بينَ المشاهدةِ في الآخرةِ والمعلومِ في الدنيا اختلافٌ إلا من حيثُ زيادةُ الكشفِ والوضوحِ ، كما ضربنا منَ المثالِ في استكمالِ الخيالِ بالرؤيةِ ، فإذا لم يكنْ في معرفةِ الله تعالى إثباتُ صورةٍ وجهةٍ . . فلا يكونُ في استكمالِ تلكَ المعرفةِ بعينها وترقيتها في الوضوحِ إلى غايةِ الكشفِ أيضاً جهةً وصورةً ؛ لأنها هي بعينها لا تفرقُ منها إلا في زيادةِ الكشفِ ، كما أنَّ الصورةَ المرئيةَ هي المتخيَّلةُ بعينها إلا في زيادةِ الكشفِ^(١) .

(١) هذه القطعة النفيسة في تحقيق معنى الرؤية لمن ليس كمثله شيء سبحانه لا تنبؤ قيد خاطر عما حققه المتكلمون من أهل السنة والجماعة ، غير أنها بلغة غير معهودة =

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ ، إذ تمامُ النور لا يؤثرُ إلا في زيادةِ الكشفِ ، ولهذا لا يفوزُ بدرجةِ النظرِ والرؤية إلا العارفون في الدنيا ؛ لأنَّ المعرفةَ هي البذرُ الذي ينقلبُ في الآخرةِ مشاهدةً كما تنقلبُ النواةُ شجرةً ، والحبُّ زرعاً ، ومن لا نواةَ في أرضِهِ . . فكيف يحصلُ له نخلٌ وشجرٌ ؟ ومن لم يزرعِ الحبَّ . . فكيف يحصدُ الزرعَ ؟ فكذلك مَنْ لم يعرفِ الله تعالى في الدنيا . . فكيف يراه في الآخرةِ !؟

ولمَّا كانتِ المعرفةُ على درجاتٍ متفاوتةٍ . . كانَ التجلّي أيضاً على درجاتٍ متفاوتةٍ ، فاختلافُ التجلّي بالإضافةِ إلى اختلافِ المعارفِ كاختلافِ النباتِ بالإضافةِ إلى اختلافِ البذورِ ، إذ تختلفُ - لا محالة - بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها .

ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً ، وَلَأَبِي بَكْرٍ خَاصَّةً »^(١) ، فلا ينبغي أن يُظنَّ أنَّ غيرَ أبي بكرٍ ممَّن هوَ دونهُ يجدُ من لذةِ النظرِ والمشاهدةِ ما يجدهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه ، بل لا يجدُ إلا عُشرَ عَشِيرِهِ إن كانت معرفتهُ في الدنيا عُشرَ عَشِيرِ معرفةِ أبي بكرٍ ، ولمَّا فضلَ

= عندهم ، وبزيادةِ استبصار لا تدانيه تحقيقاتهم وكلماتهم ، بل هي وراء أسوار علم الكلام وإن تطابقا انتهاءً .

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢١٦/٥) ، والحاكم في « المستدرک » (٧٨/٣) ، وأبو نعیم في « الحلیة » (١٢/٥) ، وابن عساکر في « تاریخ دمشق » (١٥٩/٣٠) .

الناس بسرٍّ وقرٍّ في صدره . . فضِّل - لا محالة - بتجلُّ انفراد به ، وكما أنك ترى في الدنيا مَنْ يؤثرُ لذة الرئاسة على المنكوح والمطعوم ، وترى مَنْ يؤثرُ لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السماوات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرئاسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعاً . . فكَذلك يكونُ في الآخرة قومٌ يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ؛ إذ يرجعُ نعيمُها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إثارة لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر ما الخلق مشغولون به .

ولذلك لما قيل لرابعة : ما تقولين في الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار .
فبيّنت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة ، بل إلى رب الجنة .

وكلُّ مَنْ لم يعرف الله في الدنيا . . فلا يراه في الآخرة ، وكلُّ مَنْ لم يجد لذة المعرفة في الدنيا . . فلا يجد لذة النظر في الآخرة ؛ إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، فلا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يُحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته ، فإن ذلك هو منتهى لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي ، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى . . فلا لذة له في غيره ، بل ربما يتأذى به .

فإذا ؛ نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ،
فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان .



فإن قلت : فلذة الرؤية إن كانت لها نسبة إلى لذة المعرفة . . فهي قليلة
وإن كانت أضعافها ؛ لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة ، فتضاعفها إلى حد
قريب لا يتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها .

فاعلم : أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة مصدره الخلو عن المعرفة ،
فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة
وقلبه مشحون بعلائق الدنيا . . فكيف يدرك لذتها ؟

فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت
عليهم الجنة في الدنيا بدلاً عنها . . لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة
مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذة اللقاء والمشاهدة ؛ كما لا نسبة للذة
خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى
ذوقها ، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع ، وإظهار عظم التفاوت بينهما
لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول :

لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب :

أحدها : كمال جمال المعشوق ونقصانه : فإن اللذة في النظر إلى
الأجمل أكمل لا محالة .

والثاني : كمالُ قوّة الحبّ والشهوة والعشق : فليس التذاذُ من اشتدّ عشقه كالتذاذِ من ضعفت شهوته وحبّه .

والثالث : كمالُ الإدراك : فليس التذاذُ برؤية المعشوق في ظلمة ، أو من وراء سترٍ رقيق أو من بعد . . كالتذاذِ بإدراكه على قربٍ من غير سترٍ ، وعند كمالِ الضوء ، ولا إدراكُ لذة المضاجعة مع ثوبٍ حائلٍ كإدراكها مع التجرّد .

والرابع : اندفاعُ العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب : فليس التذاذُ الصحيح الفارغ المتجرّد للنظر إلى المعشوق . . كالتذاذِ الخائف المذعور ، أو المريض المتألم ، أو المشغول قلبه بمهمٍّ من المهمّات .

فقدّر عاشقاً ضعيفَ العشق ، ينظرُ إلى وجهِ معشوقه من وراء سترٍ رقيقٍ على بعدٍ ، بحيثُ يمنعُ انكشافَ كنهِ صورته ، في حالةِ اجتماعٍ عليه عقاربُ وزنابيرُ تؤذيه وتلدغه وتشغلُ قلبه ، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذةٍ ما من مشاهدةٍ معشوقه ، فلو طرأت على الفجأة حالةٌ انتهك بها السترُ ، وأشرق بها الضوء ، واندفع عنه المؤذيات ، وبقي سليماً فارغاً ، وهجمت عليه الشهوة القويّة والعشق المفرط حتّى بلغ أقصى الغايات . . فانظر كيف تتضاعفُ اللذة حتّى لا يبقى للأولى إليها نسبة يُعتدُّ بها .

فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة ، فالسترُ الرقيقُ مثالٌ للبدنِ والاشتغال به ، والعقاربُ والزنابيرُ مثالٌ للشهوات المتسلّطة على الإنسان ؛

مِنَ الجوعِ والعطشِ والغضبِ والغمِّ والحزنِ ، وضعفُ الشهوةِ والحبِّ مثالٌ
لقصورِ النفسِ في الدنيا ونقصانِها عن الشوقِ إلى الملأِ الأعلى والتفاتِها إلى
أسفلِ السافلين ، وهوَ مثلُ قصورِ الصبيِّ عن ملاحظةِ لذَّةِ الرئاسةِ والتفاتِهِ إلى
اللعبِ بالعصفورِ .

والعارفُ وإن قوَّيت في الدنيا معرفتَهُ فلا يخلو عن هذه المشوَّشاتِ ،
ولا يُصوِّرُ أن يخلو عنها ألبتة .

نعم ، قد تضعفُ هذه العوائقُ في بعضِ الأحوالِ ولا تدومُ ، فلا جرمَ
يلوحُ من جمالِ المعرفةِ ما يبهتُ العقلَ ، وتعظمُ لذَّتُهُ بحيثُ يكادُ القلبُ
يتفطرُ لعظمتِهِ ، ولكنْ يكونُ ذلكَ كالبرقِ الخاطفِ ، وقلَّما يدومُ ، بلْ
يعرضُ من الشواغلِ والأفكارِ والخواطرِ ما يشوشُهُ وينغصُهُ ، وهذه ضرورةٌ
دائمةٌ في هذه الحياةِ الفانيةِ ، فلا تزالُ هذه اللذَّةُ منغصَّةً إلى الموتِ ،
وإنَّما الحياةُ الطيِّبةُ بعدَ الموتِ ، وإنَّما العيشُ عيشُ الآخرةِ ﴿وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

وكلُّ مَنْ انتهى إلى هذه الرتبةِ . . فإنه يحبُّ لقاءَ اللهِ تعالى ، فيحبُّ
الموتَ ولا يكرهُهُ إلا من حيثُ ينتظرُ زيادةَ استكمالٍ في المعرفةِ ، فإنَّ
المعرفةَ كالبذرِ ، وبحرُ المعرفةِ لا ساحلَ له ، والإحاطةُ بكنهِ جلالِ اللهِ
محالٌ ، فكلَّما كثرتِ المعرفةُ باللهِ وبصفاتهِ وأفعالهِ وبأسرارِ مملكتهِ
وقوَّيت . . كثرَ النعيمُ في الآخرةِ وعظُمَ ؛ كما أنَّه كلما كثرَ البذرُ وحسُنَ . .

كثُرَ الزرعُ وحُسُنَ ، ولا يمكنُ تحصيلُ هذا البذرِ إلا في الدنيا ، ولا يُزرعُ إلا في صعيدِ القلبِ ، ولا حصادَ إلا في الآخرة .

ولهذا قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ الله »^(١) ، لأنَّ المعرفةَ إنما تكملُ وتكثُرُ وتتسعُ في العمرِ الطويلِ بمداومةِ الفكرِ ، والمواظبةِ على المجاهدةِ ، والانقطاعِ عنِ علائقِ الدنيا ، والتجرُّدِ للطلبِ ، ويستدعي ذلكُ زماناً لا محالة .

فمَنْ أَحَبَّ الموتَ . . أَحَبَّهُ لَأَنَّهُ رَأَى نَفْسَهُ واقفاً في المعرفةِ ، بالغاً إلى منتهى ما يُسَّرَ لَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ الموتَ . . كَرِهَهُ لَأَنَّهُ كَانَ يَوْمِلُ مزيدَ معرفةٍ تحصلُ لَهُ بطولِ العمرِ ، ورَأَى نَفْسَهُ مقصّراً عما تحتملهُ قُوَّتُهُ لو عُمِّرَ ، فهذا سببُ كراهةِ الموتِ وحبِّهِ عندَ أهلِ المعرفةِ .

وأما سائرُ الخلقِ . . فنظرُهُمْ مقصورٌ على شهواتِ الدنيا إن اتسعت . . أَحَبُّوا البقاءَ ، وإن ضاقت . . تمنَّوا الموتَ ، وكلُّ ذلكَ حرمانٌ وخسرانٌ مصدرُهُ الجهلُ والغفلةُ ، فالجهلُ والغفلةُ مغرسُ كلِّ شقاوةٍ ، والعلمُ والمعرفةُ أساسُ كلِّ سعادةٍ .

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٥٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، ولفظه : « السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل » ، وعند الترمذي (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره ، وحسن عمله » .

فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق ؛ فإنه المحبة المفرطة
القوية ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ومعنى كونها
ألذ من سائر اللذات عند ذوي الكمال ، وإن لم تكن كذلك عند ذوي
النقصان ، كما لم تكن الرئاسة ألد من المطعومات عند الصبيان .



فإن قلت : فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة ؟

فاعلم : أن الناس قد اختلفوا في ذلك ، وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى
هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ،
ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته هل تخلق
في عينه أو في جبهته ؟ بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو
غيرها ؛ فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له .

والحق فيه : أن القدرة الأزلية واسعة ، فلا يجوز أن نحكم عليها
بالقصور عن أحد الأمرين ، لهذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة
من الجائزين . . فلا يدرك إلا بالسمع ، والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة
من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ؛ ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر
الألفاظ الواردة في الشرع يجري على ظاهره ؛ إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا
لضرورة ، والله تعالى أعلم .



بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم : أنَّ أسعدَ الخلقِ حالاً في الآخرةِ أقواهُمُ حبّاً لله تعالى ، فإنَّ الآخرةَ معناها القدومُ على الله تعالى ودرُكُ سعادةٍ لقاءِهِ ، وما أعظمَ نعيمَ المحبِّ إذا قدِمَ على محبوبِهِ بعدَ طولِ شوقِهِ ، وتمكَّنَ مِنْ دوامِ مشاهدتِهِ أبداً الآبَادِ مِنْ غيرِ منغصٍ ومكدرٍ ، وَمِنْ غيرِ رقيبٍ ومزاحمٍ ، وَمِنْ غيرِ خوفٍ انقطاعٍ ، إلا أنَّ هذا النعيمَ على قدرِ قوَّةِ الحبِّ ، فكلُّما ازدادَ الحبُّ .. ازدادتِ اللذةُ ، وإنَّما يكتسبُ العبدُ حبَّ الله تعالى في الدنيا .

وأصلُ الحبِّ لا ينفكُّ عنه مؤمنٌ ؛ لأنَّهُ لا ينفكُّ عن أصلِ المعرفةِ ، وأما قوَّةُ الحبِّ واستيلاؤُهُ حتَّى ينتهي إلى الاستهتارِ الذي يُسمَّى عشقاً .. فذلك ينفكُّ عنه الأكثرونَ ، وإنَّما يحصلُ ذلك بسببين :

أحدهما : قطعُ علائقِ الدنيا وإخراجُ حبِّ غيرِ الله مِنَ القلبِ :

فإنَّ القلبَ مثلُ الإناءِ الذي لا يتسعُ للخلِّ مثلاً ما لم يخرج منه الماءُ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ ، وكمالُ الحبِّ في أنَّ يحبَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بكلِّ قلبِهِ ، وما دامَ يلتفتُ إلى غيرِهِ .. فزاويةٌ مِنْ قلبِهِ مشغولةٌ بغيرِهِ ، فبقدرِ ما يشتغلُ بغيرِ الله ينقصُ منه حبُّ الله ، وبقدرِ ما يبقى مِنْ الماءِ في الإناءِ ينقصُ مِنَ الخلِّ المصبوبِ فيه .

والى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ ، بل هو معنى قولك : لا إله إلا الله ؛ أي : لا معبود ولا محبوب سواه ، وكل محبوب فإنه معبود ، فإن العبد هو المقيّد ، والمعبود هو المقيّد به ، وكل محب فهو مقيّد بما يحبه .

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أبغضُ إلهٍ عبدٌ في الأرضِ الهوى »^(١) .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَالَ : لا إلهَ إلا اللهُ مُخلصاً . . دخلَ الجنةَ »^(٢) ، ومعنى الإخلاص : أن يخلص قلبه لله ، فلا يبقى فيه شركةٌ لغير الله ، فيكون الله محبوب قلبه ، ومعبود قلبه ، ومقصود قلبه فقط .

ومن هذا حاله . . فالدنيا سجنه ؛ لأنها مانعةٌ له عن مشاهدة محبوبه ، وموته خلاصٌ من السجن ، وقدومٌ على المحبوب ، فما حال من ليس له إلا محبوبٌ واحدٌ ، وقد طال إليه شوقه ، وتمادى عنه حبسه ، فخلّى من السجن ، ومكّن من المحبوب ، وروّح بالأمن أبد الآباد ؟!

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٣ / ٨) بنحوه .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٤ / ٩) ،

وتمامه عند الطبراني : قيل : وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله عز وجل » .

فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ، ومنه حب الأهل ، والمال ، والولد ، والأقارب ، والعقار ، والدواب ، والبساتين ، والمنتزهات ، حتّى إن المتفرّج بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار . . ملتفت إلى نعيم الدنيا ، ومتعرّض لنقصان حب الله تعالى بسببه فبقدر ما أنس بالدنيا . . فينقص أنسه بالله ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرّتها ، فالدنيا والآخرة ضرّتان ، وهما كالشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوي القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين .

وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والانقياد إليهما بزمam الخوف والرجاء ، فما ذكرناه من المقامات ، كالنوبة ، والصبر ، والزهد ، والخوف ، والرجاء . . هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة ، وهو تخلية القلب عن غير الله ، وأوّل الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ، ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا ، وفي المال والجاه ، وكل حظوظ الدنيا ، حتّى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتّى يتسع بعده لنزول معرفة الله تعالى وحبّه فيه .

فكل ذلك مقدمات تطهير القلب ، وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة

بقوله عليه الصلاة والسلام : « الطهورُ شطرُ الإيمانِ »^(١) ، كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة .



السبب الثاني لقوة المحبة : قوة معرفة الله تعالى واتساعها ، واستيلاؤها على القلب :

وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش ، وهو الشطر الثاني ، ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة ، وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله لها مثلاً حيث قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾^(٢) ، وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ ، فهي المعرفة ، ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، فالعمل الصالح كالحمال لهذه المعرفة وكالخادم ، وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ، ثم في إدامة طهارته ، فلا يُرادُ العمل إلا لهذه المعرفة .

وأما العلم بكيفية العمل . . فيُرادُ للعمل ، فالعلم هو الأول وهو الآخر ،

(١) رواه مسلم (٢٢٣) .

(٢) فعرفنا أن لها أصلاً ثابتاً في القلوب بما أمدّها به من النظر والاعتبار ، وعرّفنا أن لها فروعاً تنشأ منها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها . « إتحاف » (٥٨٧ / ٩) .

وإنَّما الأوَّلُ علمُ المعاملة ، وغرضُ العملُ ، وغرضُ المعاملةِ صفاءُ القلبِ وطهارتهُ ؛ ليتضحَ فيه جليَّةُ الحقِّ ، ويتزيَّنَ بعلمِ المعرفةِ ، وهو علمُ المكاشفةِ .

ومهما حصلتْ هذه المعرفةُ . . تبعَتْها المحبَّةُ بالضرورةِ ، كما أنَّ مَنْ كانَ معتدلاً المزاجِ إذا أبصرَ الجميلَ وأدركَهُ بالعينِ الظاهرةِ . . أحبَّهُ ومالَ إليه ، ومهما أحبَّهُ . . حصلتِ اللذةُ ، فاللذةُ تتبعُ المحبَّةَ بالضرورةِ والمحبَّةُ تتبعُ المعرفةَ بالضرورةِ ، ولا يُوصلُ إلى هذه المعرفةِ بعدَ انقطاعِ شواغلِ الدنيا مِنَ القلبِ إلا بالفكرِ الصافي ، والذكرِ الدائمِ ، والجِدِّ البالغِ في الطلبِ ، والنظرِ المستمرِّ في الله وفي صفاته ، وملكوتِ سماواتِهِ وسائرِ مخلوقاتِهِ .

والواصلون إلى هذه الرتبةِ ينقسمون :

إلى الأقوياء ، ويكونُ أوَّلُ معرفتهمُ باللهِ تعالى ، ثمَّ بهِ يعرفونَ غيرهَ .
وإلى الضعفاءِ ، ويكونُ أوَّلُ معرفتهمُ بالأفعالِ ، ثمَّ يترقونَ منها إلى الفاعلِ .

وإلى الأوَّلِ الإشارةُ بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ومنه نظرَ بعضهم حيثُ قيلَ له : بِمَ عرفتَ ربَّكَ ؟ فقال : عرفتُ ربِّي برَّبِّي ، ولولا ربِّي . . لما عرفتُ ربِّي ^(١) .

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥١٤) .

والى الثاني الإشارة بقوله تعالى : ﴿ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ الآية ، وبقوله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين ، وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن ؛ عند الأمر بالتدبر ، والتفكير ، والاعتبار ، والنظر ؛ في آيات خارجة عن الحصر .



فإن قلت : كلا الطريقين مشكل ، فأوضح لنا منهما ما يُستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة .

فاعلم : أن الطريق الأعلى وهو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق .. فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق ، فلا فائدة في إيرادِه في الكتب .

وأما الطريق الأسهل الأدنى .. فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإنما قصرَت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر ، واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس ، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته ، وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية ؛ إذ ما من ذرة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلا

وفيه عجائب وآيات تدلُّ على كمالِ قدرةِ الله تعالى وكمالِ حكمته ، ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك ممَّا لا يتناهى ، ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ ، فالخوضُ فيه انغماسٌ في بحارِ علومِ المكَاشفةِ ، فلا يمكنُ أن يُتَظَلَّلَ به على علومِ المعاملة ، ولكن يمكنُ الرَّمْزُ إلى مثالٍ واحدٍ على الإيجازِ ؛ ليقعَ التنبيهُ لجنسِهِ ، فنقولُ :

أسهلُ الطريقينِ النظرُ إلى الأفعالِ ، فلنتكلَّمُ فيها ، ولتركِ الأعلى ، ثم الأفعالُ الإلهيةُ كثيرةٌ ، فلنطلبَ أقلَّها وأحقَّرها وأصغرَها ، ولننظرُ في عجائبها .

فأقلُّ المخلوقاتِ هي الأرضُ وما عليها ؛ أعني : بالإضافةِ إلى الملائكةِ وملَكوتِ السماواتِ ، فإنَّكَ إنْ نظرتَ فيها مِنْ حيثُ الجسمُ والعظمُ في الشخصِ . . فالشمسُ على ما ترى مِنْ صغرِ حجمِها هي مثلُ الأرضِ مئةً ونيفاً وستينَ مرةً ، فانظرُ إلى صغرِ الأرضِ بالإضافةِ إليها ، ثم انظرُ إلى صغرِ الشمسِ بالإضافةِ إلى فلكِها الذي هي مركوزةٌ فيه ؛ فإنَّه لا نسبةَ لها إليه ، وهي في السماءِ الرابعةِ ، وهي صغيرةٌ بالإضافةِ إلى ما فوقها مِنْ السماواتِ ، ثم السماواتُ السبعُ في الكرسيِّ كحلقةٍ في فلاةٍ ، والكرسيُّ في العرشِ كذلك !

فهذا نظرٌ إلى ظاهرِ الأشخاصِ مِنْ حيثُ المقاديرُ ، وما أحقرَ الأرضَ كُلَّها بالإضافةِ إليها ، بل ما أصغرَ الأرضَ بالإضافةِ إلى البحارِ ، فقد قالَ

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض »^(١) ، ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض .

ثم انظر إلى آدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه ، فانظر إلى البعوض على صغر قدره ، وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات ؛ إذ خلق له خرطوماً مثل خرطوميه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة ، فأثبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ، ودبر في بطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبّره في سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغازية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات ، هذا في شكله وصفاته .

ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه ، وعرفه أن غذاءه دم الإنسان ، ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدّد الرأس ، وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده أصلاً) . « إتحاف » (٥٨٩ / ٩) .

حتَّى يضع خرطومَه في واحدٍ منها ، ثمَّ كيف قوَّاهُ حتَّى يغرز فيه الخرطومَ ، وكيف علَّمَه المصَّ والتجرُّعَ للدمِ ، وكيف خلق الخرطومَ مع دقَّتِه مجوِّفاً حتَّى يجري فيه الدَّمُ الرقيقُ ، وينتهي إلى باطنِه ، ويتشرَّ في سائر أجزائه ويغذِّيه ، ثمَّ كيف عرَّفَه أنَّ الإنسانَ يقصِّدُه بيده ، فعلَّمَه حيلة الهرب واستعداد آتِه ، وخلق له السمعَ الذي يسمعُ به حفيفَ حركة اليد وهي بعدُ بعيدةٌ منه ، فيترك المصَّ ويهربُ ، ثمَّ إذا سكنت اليدُ يعودُ .

ثمَّ انظر كيف خلق له حدقتين حتَّى يبصرَ مواضعَ غذائه ، فيقصِّدُه مع صغرِ حجمِ وجهه ، وانظر إلى أنَّ حدقة كلِّ حيوانٍ صغيرٍ لمَّا لم تحتملْ حدقتُه الأجفانَ لصغره ، وكانت الأجفانُ مصقلةً لمرآة الحدقة عن القذى والغبار . . خلق للبعوضِ والذبابِ يدين ، فتنظرُ إلى الذبابِ فتراهُ على الدوامِ يمسحُ حدقتيه بيديه ، وأمَّا الإنسانُ والحيوانُ الكبيرُ . . فخلق لحدقتيه الأجفانَ حتَّى ينطبقَ أحدهما على الآخرِ ، وأطرافُهُما حادةٌ ، فيجمعُ الغبارَ الذي يلحقُ الحدقةَ ويرميه إلى أطرافِ الأهدابِ ، وخلق الأهدابَ السودَ لتجمعَ ضوءَ العينِ ، وتعينَ على الإبصارِ ، وتحسِّنَ صورةَ العينِ ، وتشبكها عندَ هيجانِ الغبارِ ، فينظرَ من وراءِ شبَّاك الأهدابِ ، واشتباكها يمنعُ دخولَ الغبارِ ولا يمنعُ الإبصارَ .

وأمَّا البعوضُ فخلق لها حدقتين مصقلتين من غيرِ أجفانٍ ، وعلَّمَهَا كيفيةَ التصقيلِ باليدينِ .

والفراش لأجل ضعف إبصارها.. تراها تتهافت على السراج ؛ لأن بصرها ضعيف ، فهي تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى ضوء المسكين السراج بالليل.. ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء ، فلا يزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه إليه ، فإذا جاوزة ورأى الظلام.. ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد ، فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق .

ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها ، بل صورة الآدمي في الإكباب على شهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار ؛ إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ، ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ، ويتقيّد بها ، ويهلك هلاكاً مؤبداً ، فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش ؛ فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت.. تخلّصت في الحال ، والآدمي يبقى في النار أبداً الآباد أو مدّة مديدة ، ولذلك كان ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : « إني ممسك بحجزكم عن النار ، وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش »^(١) .

فهذه لمعة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهها.. عجزوا عن

(١) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

حقيقتها ، ولم يطلعوا على أمورٍ جليّةٍ مِنْ ظاهرِ صورتِها ، فأما خفايا معانيها . . فلا يطلعُ عليها إلا اللهُ تعالى .

ثمَّ في كلِّ حيوانٍ ونباتٍ أعجوبةٌ وأعاجيبٌ تخصُّه لا يشاركه فيها غيره ، فانظرْ إلى النحلِ وعجائبِها ، وكيفَ أوحى اللهُ تعالى إليها حتَّى اتخذتْ مِنَ الجبالِ بيوتاً وَمِنَ الشجرِ ومما يعرشونَ ، وكيفَ استخرجَ مِنْ لعابِها الشمعَ والعسلَ ، وجعلَ أحدهما ضياءً والآخرَ شفاءً ، ثمَّ لو تأملتَ عجائبَ أمرِها في تناولِها الأزهارَ والأنوارَ ، واحترازِها عن النجاساتِ والأقذارِ ، وطاعتِها لواحدٍ مِنْ جملتها هوَ أكبرُها شخصاً ، وهوَ أميرُها ، ثمَّ ما سخرَ اللهُ له أميرَها مِنَ العدلِ والإنصافِ بينها ، حتَّى إنَّهُ ليقْتلُ على بابِ المنفذِ كلَّ ما وقعَ منها على نجاسةٍ . . لقضيتَ منها عجباً آخرَ العجبِ إن كنتَ بصيراً في نفسك ، وفارغاً مِنْ همِّ بطنِكَ وفرجِكَ وشهواتِ نفسك في معاداةِ أقرانِكَ وموالاةِ إخوانِكَ .

ثمَّ دَعْ عنكَ جميعَ ذلكَ ، وانظرْ إلى بنائِها بيوتَها مِنَ الشمعِ ، واختيارِها مِنْ جملةِ الأشكالِ الشكلَ المسدَّسَ ، فلا تبني بيتاً مستديراً ، ولا مربعاً ، ولا مخمساً ، بلْ مسدَّساً ؛ لخاصيَّةٍ في شكلِ المسدَّسِ يقصرُ فهمُ المهندسينَ عَنْ دركِها ، وهوَ أَنَّ أوسعَ الأشكالِ وأحوالها المستديرةُ وما يقربُ منها ، فإنَّ المربعَ يخرجُ مِنْهُ زوايا ضائعةٌ ، وشكلُ النحلِ مستديرٌ مستطيلٌ ، فتركَ المربعَ حتَّى لا تضيعَ الزوايا فتبقى فارغةً ، ثمَّ لو بناها مستديرةً . . ل بقيتْ خارجَ البيوتِ فرجٌ ضائعةٌ ، فإنَّ الأشكالَ المستديرةَ إذا

اجتمعت . . لم تجتمع متراصة ، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة . . إلا المسدس ، وهذه خاصية هذا الشكل ، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قدّه لطفاً به وعنايةً بوجوده وما هو محتاج إليه ، ليتها بعيشه .

فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع لطفه وامتنانه .

فاعتبر بهذه اللعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ، ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ؛ فإنّ القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلّهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه ، بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يُسمّى علماً في جنب علم الله تعالى .

فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى . . فانبد الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم ، فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له .



بيان اسباب في تفاوت الناس في الحب

اعلم : أنَّ المؤمنينَ مشتركونَ في أصلِ الحبِّ لاشتراكِهِمْ في أصلِ المحبَّةِ ، ولكنَّهُمْ متفاوتونَ لتفاوتِهِمْ في المعرفةِ وفي حبِّ الدنيا ؛ إذ الأشياءُ إنّما تتفاوتُ بتفاوتِ أسبابِها ، وأكثرُ الناسِ ليسَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ تعالى إلا الصفاتُ والأسماءُ التي قرعتْ سمعَهُمْ ، فتلقَّوها وحفظوها ، وربَّما تخيَّلوا لها معانيَ يتعالى عنها ربُّ الأربابِ ، وربَّما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيَّلوا لها معنىً فاسداً ، بل آمنوا بها إيمانَ تسليمٍ وتصديقٍ ، واشتغلوا بالعملِ وتركوا البحثَ ، وهؤلاءِ همُ أهلُ السلامةِ مِنْ أصحابِ اليمينِ والمتخيَّلونَ همُ الضالونَ ، والعارفونَ بالحقائقِ همُ المقرَّبونَ .

وقد ذكرَ اللهُ تعالى حالَ الأصنافِ الثلاثةِ في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ . . . ﴿ الآية .

وإن كنتَ لا تفهمُ الأمورَ إلا بالأمثلةِ . . فلنضربَ لتفاوتِ الحبِّ مثلاً ، فنقولُ :

أصحابُ الشافعيِّ مثلاً يشتركونَ في حبِّ الشافعيِّ رحمهُ اللهِ ، الفقهاءُ منهمُ والعوامُّ ؛ لأنَّهُمْ يشتركونَ في معرفةِ فضلهِ ودينهِ وحسنِ سيرتِهِ ومحامدِ خصالِهِ ، ولكنَّ العاميَّ يعرفُ علمَهُ مجملاً ، والفقيرُ يعرفُهُ مفصلاً ، فتكونُ معرفةُ الفقيرِ بهِ أتمَّ ، وإعجابُهُ بهِ وحبُّهُ له أشدَّ ، فمَنْ رأى تصنيفَ مصنفٍ

فاستحسنه وعرف به فضله.. أحبه لا محالة ، ومال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب.. تضاعف - لا محالة - حبه ؛ لأنه تضاعفت معرفته بعلمه ، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعتة.. ازداد به معرفة ، وازداد له حباً ، وكذا سائر الصناعات والفضائل .

فالعامي قد يسمع أن فلاناً مصنف ، وأنه حسن التصنيف ، ولكن لا يدري ما في التصنيف ، فيكون له معرفة مجملة ، ويكون له بحسبه ميل مجمل ، والبصير إذا فتش عن التصانيف ، واطلع على ما فيها من العجائب.. تضاعف حبه لا محالة ؛ لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف .

والعالم بجمليته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامي يعلم ذلك ويعتقده ، وأما البصير.. فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ، ويتحير فيه لبه ، ويزداد بسببه - لا محالة - عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه ، فيزداد له حباً ، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعاً.. استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حباً .

وبحر هذه المعرفة - أعني : معرفة عجائب صنع الله تعالى - بحر لا ساحل له ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له .

ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله تعالى مثلاً لكونه محسناً إليه ، منعماً عليه ، ولم يحبّه لذاته . . ضعفَتْ محبته ؛ إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء . وأما من يحبّه لذاته ، ولأنّه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته . . فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه .

فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة ، والتفاوت في المحبة هو سبب التفاوت في سعادة الآخرة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .



بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

اعلم : أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف ، وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه .

وإنما قلنا : إنه أظهر الموجودات وأجلاها . . لمعنى لا تفهمه إلا بمثال ، وهو أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخط مثلاً . . كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات ، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ؛ إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك . . لا نعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه ؛ كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته ، أمّا حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً . . فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه . . لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد ، وهو مع ذلك جلي واضح .

ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة ؛ من حجر ومدر ، ونبات

وشجر ، وحيوانٍ وسماءٍ ، وأرضٍ وكوكبٍ ، وبرٍّ وبحرٍ ، ونارٍ وهواءٍ ،
وجوهرٍ وعرضٍ ، بلْ أَوَّلُ شاهدٍ عليه أنفسنا ، وأجسامنا ، وأوصافنا ،
وتقلُّبُ أحوالنا ، وتغيُّرُ قلوبنا ، وجميعُ أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا .

وأظهرُ الأشياءِ في علمنا أنفسنا ، ثمَّ محسوساتنا بالحواسِّ الخمسِ ، ثمَّ
مدركاتنا بالعقلِ والبصيرةِ ، وكلُّ واحدٍ مِنْ هذهِ المدركاتِ له مُدركٌ واحدٌ ،
وشاهدٌ واحدٌ ، ودليلٌ واحدٌ ، وجميعُ ما في العالمِ شواهدٌ ناطقةٌ وأدلةٌ
شاهدةٌ بوجودِ خالقها ومدبرها ، ومصرِّفها ومحركها ، ودالَّةٌ على علمه
وقدرته ، ولطفه وحكمته ، والموجوداتُ المدركةُ لا حصرَ لها .

فإنَّ كانتَ حياةُ الكاتبِ ظاهرةً عندنا ، وليسَ يشهدُ لها إلا شاهدٌ واحدٌ ،
وهو ما أحسنا به مِنْ حركةٍ يديه . . فكيفَ لا يظهرُ عندنا ما لا يُتصوَّرُ في
الوجودِ شيءٌ داخلَ نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهدٌ عليه ، وعلى عظمته
وجلاله ، إذ كلُّ ذرَّةٍ فإنَّها تنادي بلسانِ حالها أنَّه ليسَ وجودُها بنفسِها ،
ولا حركتها بذاتها ، وأنَّها تحتاجُ إلى موجدٍ ومحركٍ لها ، يشهدُ بذلكَ أولاً
تركيبُ أعضائنا ، وائتلافُ عظامنا ولحومنا وأعصابنا ، ومنابتُ شعورنا ،
وتشكُّلُ أطرافنا ، وسائرُ أجزائنا الظاهرةِ والباطنةِ ، فإنَّا نعلمُ أنَّها لمْ تأتلفْ
بأنفسِها ؛ كما نعلمُ أنَّ يدَ الكاتبِ لمْ تتحرَّكْ بنفسِها ، ولكنْ لَمَّا لمْ يبقَ في
الوجودِ شيءٌ مدركٌ ومحسوسٌ ومعقولٌ وحاضرٌ وغائبٌ إلا وهو شاهدٌ
ومعرِّفٌ . . عَظُمَ ظهورُهُ ، فانبهرتِ العقولُ ودهشتْ عن إدراكه ، فإنَّ
ما تقصُرُ عن فهمه عقولنا فله سببان :

أحدهما : خفاؤه في نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله .

والآخر : ما يتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ؛ لا لخباء النهار واستتاره ، لكن لشدة ظهوره ؛ فإن بصر الخفاش ضعيف يهرؤه نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه .

فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره !

ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ؛ فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى إنه لا ضد له . . عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض . . أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد . . أشكل الأمر .

ومثاله : نور الشمس المشرق على الأرض ، فإننا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها . . لكننا نعلم أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها ،

وهي السواد والبياض وغيرهما ، فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد ، وفي الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء .. فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس ، وأظلمت المواضع .. أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء ، واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور ، لهذا مع أن النور أظهر المحسوسات ؛ إذ به تدرك سائر المحسوسات .

فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره .. انظر كيف تصوّر استبهاً أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ، فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير .. لانهدت السماوات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدركت بذلك التفرقة بين الحالين ، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره .. لأدركت التفرقة بين الشئيين في الدلالة ، ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء .

فهذا هو السبب في قصور الأفهام .

وأما من قويت بصيرته ، ولم تضعف مئته .. فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ، ولا يعرف غيره ، ويعلم أنه ليس في الوجود إلا الله

تعالى ، وأفعاله أثرٌ من آثارِ قدرته ، فهي تابعةٌ له ، فلا وجودَ لها بالحقيقةِ
دونه ، وإنما الوجودُ للواحدِ الحقِّ الذي بهِ وجودُ الأفعالِ كلها ، ومن هذه
حالُهُ فلا ينظرُ في شيءٍ من الأفعالِ إلا ويرى فيه الفاعلَ ، ويذهلُ عن الفعلِ
من حيثُ إنَّه سماءٌ وأرضٌ وحيوانٌ وشجرٌ ، بل ينظرُ فيه من حيثُ إنَّه صنعُ
الواحدِ الحقِّ ، فلا يكونُ نظرهُ مجاوزاً له إلى غيره ، كمنَ نظرَ في شعرِ
إنسانٍ أو خطِّه أو تصنيفه ورأى فيه الشاعرَ والمصنِّفَ ، ورأى آثارَهُ من حيثُ
إنَّه أثرُهُ ، لا من حيثُ إنَّه حبرٌ وعفصٌ وزاجٌ مرقومٌ على بياضٍ ، فلا يكونُ
قد نظرَ إلى غيرِ المصنِّفِ .

وكلُّ العالمِ تصنيفُ اللهِ تعالى ، فمنَ نظرَ إليه من حيثُ إنَّه فعلُ اللهِ ،
وعرفَهُ من حيثُ إنَّه فعلُ اللهِ ، وأحبهُ من حيثُ إنَّه فعلُ اللهِ . . لم يكنِ ناظراً
إلا في اللهِ ، ولا عارفاً إلا باللهِ ، ولا محبباً إلا للهِ وكانَ هوَ الموحدَ الحقَّ
الذي لا يرى إلا اللهَ ، بل لا ينظرُ إلى نفسه من حيثُ نفسه ، بل من حيثُ إنَّه
عبدُ اللهِ ، فهذا هوَ الذي يُقالُ فيه : إنَّه فني في التوحيدِ ، وإنَّه فني عن
نفسِهِ ، وإليه الإشارةُ بقولِ مَنْ قالَ : (كُنَّا بِنَا ، ففنيْنَا عَنَّا^(١)) ، فبقينا بلا
(نحنُ) .

فهذه أمورٌ معلومةٌ عندَ ذوي البصائرِ ، أشكلتْ لضعفِ الأفهامِ عن
دركِها ، وقصورِ قدرةِ العلماءِ بها عن إيضاحِها وبيانِها بعبارةٍ مفهومةٍ موصلةٍ

(١) في (أ) : (فغبنا) بدل (ففنيْنَا) .

للمغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم ، واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم ممّا لا يعنيههم .

فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلّها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً ، وهو مستغرق الهم بشهواته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها^(١) ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله تعالى خارقاً للعادة عجباً . انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً ، فقال : سبحان الله ! وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات المألوفة وكلّها شواهد قاطعة ولا يحسّ بشهادتها ؛ لطول الأنس بها .

ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً ، ثم انقشعت غشاوة عينه ، فامتدّ بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة . لخيف على عقله أن ينبهر ؛ لعظم تعجّبه من شهادة هذه العجائب لخالقها .

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سدّ على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة ، والسباحة في بحارها الواسعة ،

(١) ولهذا قال المصنف كما سيأتي في (بيان محبة الله للعبد ومعناها) : (الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق) ، وسبب هذا السبق هو الضعف وطول الإلف .

فالناسُ في طلبِهم معرفةَ الله كالمدهورِ الذي يُضربُ بهِ المثلُ إذا كانَ راكباً
لحماره وهو يطلبُ حمارةً ، والجلياتُ إذا صارتَ مطلوبةً . . صارتَ
معتاصةً ، فهذا سرُّ هذا الأمرِ ، فليُحققْ ، ولذلك قيلَ^(١) : [من البسيط]

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمِهِ لَا يَعْرِفُ الْقَمَرَا
لَكِنْ بَطْنَتْ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً فَكَيْفَ يُعْرِفُ مَنْ بِالْعُرْفِ قَدْ سَتَرَا



(١) البيتان لذي الرمة في «ديوانه» (١١٦٣/٢) ، وانظر «طبقات الأولياء»
(ص ٥١٨) .

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم : أنَّ مَنْ أنكرَ حقيقةَ المحبةِ لله تعالى . . فلا بدَّ وأنَّ ينكرَ حقيقةَ الشوقِ ، إذ لا يُتصوَّرُ الشوقُ إلا إلى محبوبٍ ونحنُ نثبتُ وجودَ الشوقِ إلى الله تعالى وكونَ العارفِ مضطراً إليه بطريقِ الاعتبارِ والنظرِ بأنوارِ البصائرِ ، وبطريقِ الأخبارِ والآثارِ .

أما الاعتبارُ :

فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحبِّ ، فكلُّ محبوبٍ يُشتاقُ إليه في غيبته لا محالة ، فأما الحاصلُ الحاضرُ فلا يُشتاقُ إليه ؛ فإن الشوقَ طلبٌ وتشوُّفٌ إلى نيلِ أمرٍ ، والموجودُ لا يُطلبُ .

ولكن بيانهُ : أنَّ الشوقَ لا يُتصوَّرُ إلا إلى شيءٍ أدركَ مِنْ وجهٍ ولم يُدركَ مِنْ وجهٍ ، فأما ما لا يُدركُ أصلاً . . فلا يُشتاقُ إليه ، فإنَّ مَنْ لم يرَ شخصاً ولم يسمعَ وصفه . . لا يُتصوَّرُ أنْ يشتاقَ إليه ، وما أدركَ بكماله لا يُشتاقُ إليه ، وكمالُ الإدراكِ بالرؤية ، فمَنْ كانَ في مشاهدةٍ محبوبه مداوماً للنظرِ إليه . . لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ له شوقٌ ، ولكنَّ الشوقَ إنما يتعلَّقُ بما أدركَ مِنْ وجهٍ ولم يُدركَ مِنْ وجهٍ ، وهو مِنْ وجهين :

الأوَّلُ : هو أن يتضحَ الشيءُ اتضاحاً ما ، ولكنه محتاجٌ إلى استكمالٍ ،

ولا ينكشف إلا بمثالٍ من المشاهدات ، فنقول مثلاً : مَنْ غابَ عنه معشوقُهُ وبقيَ في قلبه خياله . . فيشتاقُ إلى استكمالِ خياله بالرؤية ، فلو انمحيَ عن قلبه ذكرُهُ وخياله ومعرفته حتى نسيه . . لم يُتصوّرْ أن يشتاقَ إليه ، ولو رآه . . لم يُتصوّرْ أن يشتاقَ في وقتِ الرؤية ، فمعنى شوقه : تشوّقُ نفسه إلى استكمالِ خياله ، وكذلك قد يراه في ظلمةٍ بحيث لا تنكشفُ له حقيقةُ صورته ، فيشتاقُ إلى استكمالِ رؤيته ، وتمامُ الانكشافِ في صورته بإشراقِ الضوءِ عليه .

والثاني : أن يرى وجهَ محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائرَ محاسنه . فيشتاقُ لرؤيته وإن لم يرها قط ، ولم يثبت في نفسه خيالٌ صادرٌ عن الرؤية ، ولكنه يعلمُ أن له عضواً وأعضاءاً جميلةً ، ولم يدرك تفصيلَ جمالها بالرؤية ، فيشتاقُ إلى أن ينكشفَ له ما لم يره قط .

والوجهانِ جميعاً متصوّرانِ في حقِّ الله تعالى ، بل هما لازمانِ بالضرورة لكلِّ العارفينَ ، فإنَّ ما اتضح للعارفينَ من الأمورِ الإلهية وإن كان في غايةِ الوضوح فكأنه من وراءِ سترٍ رقيقٍ ، فلا يكونُ متضحاً غايةَ الاتضاح ، بل يكونُ مشوباً بشوائبِ التخيُّلاتِ ، فإنَّ الخيالَ لا يفتَرُ في هذا العالمِ عن التمثيلِ والمحاكاةِ لجميعِ المعلوماتِ ، وهي مكدراتٌ للمعارفِ ومنغصاتٌ ، وكذلك ينضافُ إليها شواغلُ الدنيا ، فإنَّما كمالُ الوضوحِ بالمشاهدةِ وتمامِ إشراقِ التجلّي ولا يكونُ ذلك إلا في الآخرة ، وذلك بالضرورةِ يوجبُ الشوقَ ؛ فإنه منتهى محبوبِ العارفينَ ، فهذا هو أحدُ

نوعي الشوق ، وهو استكمالُ الوضوح فيما اتضح اتضاحاً ما .

الثاني : أنَّ الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما ينكشف لكلِّ عبدٍ من العباد بعضها ، وتبقى أمورٌ لا نهاية لها غامضةٌ ، والعارفُ يعلمُ وجودها ، وكونها معلومةٌ لله تعالى ، ويعلمُ أنَّ ما غابَ عن علمه من المعلومات أكثرُ ممَّا حضر ، فلا يزالُ متشوّقاً إلى أن يحصلَ له أصلُ المعرفة فيما لم يحصلَ ممَّا بقيَ من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً ، لا معرفةً واضحةً ، ولا معرفةً غامضةً .

والشوقُ الأوَّلُ ينتهي في الدارِ الآخرةَ بالمعنى الذي يُسمَّى رؤيةً ولقاءً ومشاهدةً ، ولا يُتصوَّرُ أن يسكنَ في الدنيا .

وقد كان إبراهيمُ بنُ أدهمَ من المشتاقين ، فقال : قلتُ ذاتَ يومٍ : يا ربِّ ؛ إن أعطيتَ أحداً من المحبِّين لك ما يسكنُ به قلبُهُ قبلَ لقاءِكَ . فأعطني ذلك ، فقد أضربُ بي القلقُ ، قال : فرأيتُ في النومِ أنَّه أوقفني بين يديه وقال : يا إبراهيمُ ؛ أما استحييتَ مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكنُ به قلبُكَ قبلَ لقاءِي ؟ ! وهل يسكنُ المشتاقُ قبلَ لقاءِ حبيبهِ ؟ ! فقلتُ : يا ربِّ ؛ تهتُ في حبِّكَ ، فلم أدِرِ ما أقولُ ، فاغفرْ لي ، وعلمَّني ما أقولُ ، فقال : قلْ : اللهم ؛ رضني بقضائِكَ ، وصبرْني على بلائِكَ ، وأوزعني شكرَ نعمائِكَ !^(١) .

(١) كذا في « القوت » (٦١ / ٢) ، ورواه عنه بغير الدعاء السراج القاري في « مصارع العشاق » (٢٧٨ / ١) .

فإذا ؛ هذا الشوق يسكن في الآخرة ، وأما الشوق الثاني . . فيشبه ألا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة ؛ إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى ، وهو محال ؛ لأن ذلك لا نهاية له ، ولا يزال العبد عالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم ، ولا يبعد أن تكون الطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدة أبد الآباد ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلاً عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل ، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلاً ، فإن كان ذلك غير مبذول . . فيكون النعيم واقفاً على حد لا يتضاعف ، ولكن يكون مستمراً على الدوام .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ تَوْرَهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمْ لَنَا نُورًا ﴾ محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْظِرُونَا نَقِيسَ مِنْ تَوْرِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ يدل على

أَنَّ الْأَنْوَارَ لَا بَدَّ وَأَنْ يُتَزَوَّدَ أَصْلُهَا فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَزْدَادُ فِي الْآخِرَةِ إِشْرَاقًا ،
فَأَمَّا أَنْ يَتَجَدَّدَ نُورٌ . . فلا .

وَالْحَكْمُ فِي هَذَا بِرَجْمِ الظُّنُونِ مَخْطَرٌ ، وَلَمْ يَنْكَشِفْ لَنَا بَعْدُ فِيهِ مَا يُوثِّقُ
بِهِ ، فَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَزِيدَنَا عِلْمًا وَرَشْدًا ، وَيَرِينَا الْحَقَّ حَقًّا .
فَهَذَا الْقَدْرُ مِنْ أَنْوَارِ الْبَصَائِرِ كَاشِفٌ لِحَقَائِقِ الشُّوقِ وَمَعَانِيهِ .



وَأَمَّا شَوَاهِدُ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ . . فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى :

فَمِمَّا اشْتَهَرَ مِنْ دَعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ :
« اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَبِرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَذَّةَ
النَّظَرِ إِلَيَّ وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، وَشَوْقًا إِلَيَّ لِقَائِكَ » (١) .

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِكَعْبٍ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَحْصَى آيَةٍ ؛ يَعْنِي : فِي التَّوْرَةِ ،
فَقَالَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَيَّ لِقَائِي ، وَإِنِّي إِلَيَّ لِقَائِهِمْ
لَأَشَدُّ شَوْقًا ، قَالَ : وَمَكْتُوبٌ إِلَيَّ جَانِبُهَا : مَنْ طَلَبَنِي . . وَجَدَنِي ، وَمَنْ
طَلَبَ غَيْرِي . . لَمْ يَجِدْنِي ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : أَشْهَدُ إِنِّي لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا (٢) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٩١ / ٥) ، والحاكم في « المستدرک » (٥١٦ / ١) ، وقد
رواه أيضا الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٧) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦٠٤ / ٩) : (نقله صاحب « القوت » ، وأغفله
العراقي ، والذي رواه أبو الدرداء مرفوعاً هو قوله : يقول الله تعالى : من طلبني . . =

وفي أخبار داوود عليه السلام : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : (يا داوود ؛ أبلغ أهل أرضي أَنِّي حبيبٌ لِمَنْ أَحَبَّنِي ، وجليسٌ لِمَنْ جالَسَنِي ، ومؤنسٌ لِمَنْ أَنَسَ بذكرِي ، وصاحبٌ لِمَنْ صاحَبَنِي ، ومختارٌ لِمَنْ اختارَنِي ، ومطيعٌ لِمَنْ أطاعَنِي ، ما أَحَبَّنِي عبدٌ أعلمُ ذلكَ يقيناً مِنْ قلبِهِ إلا قبلتهُ لنفسي ، وأحببتهُ حباً لا يتقدَّمُ عليه أَحَدٌ مِنْ خلقي ، مَنْ طلبَنِي بالحقِّ . . وجدَنِي ، وَمَنْ طلبَ غيري . . لم يجدَنِي ، فارفضوا يا أهلَ الأرضِ ما أنتمُ عليه مِنْ غرورها ، واهلمُّوا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ، وأنسوا بي . . أوأنسكُم وأسارعُ إلى محببتِكُم ، فإنِّي خلقتُ طينةَ أحبائي مِنْ طينةِ إبراهيمَ خليلي وموسى نجيبِي ، ومحمدٍ صفيي ، وخلقتُ قلوبَ المشتاقينَ مِنْ نوري ، ونعمتها بجلالي) (١) .

وروي عن بعض السلف أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أوحى إلى بعض الصديقين : إن لي عباداً مِنْ عبادي يحبُّوني وأحبُّهم ، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهم ، ويذكرونني وأذكُرهم ، وينظرونَ إليَّ وأنظرُ إليهم ، فإن حذوت طريقهم . . أحببتك ، وإن عدلت عنهم . . مقتك ، قال : يا رب ؛ وما علامتهم ؟

= وجدني ، ومن طلب غيري . . لم يجدني) ، وحديث : « طال شوق الأبرار . . . » أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقد روى المقدسي في « الترغيب في الدعاء » (١٩) عن أحمد بن مخلد الخراساني القولين مع زيادة دون رفع أو وقف .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٠٥ / ٩) .

قَالَ : يراعون الظلالَ بالنهارِ كما يراعي الراعي الشفيقُ غنمَهُ ، ويحْتُون إلى غروبِ الشمسِ كما تحنُّ الطيرُ إلى أوكارِها عندَ الغروبِ ، فإذا جنَّهم الليلُ ، واختلطَ الظلامُ ، وفُرشتِ الفرشُ ، ونُصبتِ الأسرةُ ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبهِ . . نصبوا لي أقدامَهُمْ ، وافتَرشوا لي وجوهَهُمْ وناجَوني بكلامي ، وتملَّقوا لي بإنعامي ، فبينَ صارخٍ وبكاءٍ ، وبينَ متأوِّهٍ وشاكٍ ، وبينَ قائمٍ وقاعدٍ ، وبينَ راکعٍ وساجدٍ ، بعيني ما يتحمَّلونَ مِنْ أَجلي ، وبسمعي ما يشتكونَ مِنْ حَبِّي ، أَوَّلُ ما أعطيتُهُمُ ثلاثاً : أَقذفُ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ فيخبرونَ عَنِّي كما أخبرُ عَنْهُمْ ، والثانيةُ : لو كانتِ السماواتُ والأرضُ وما فيهما في موازينِهِمْ لاستقلَّتْها لَهُمْ ، والثالثةُ : أَقبلُ بوجهي عليهم ، فترى مَنْ أَقبلتُ بوجهي عليه يعلمُ أَحَدٌ ما أريدُ أَنْ أعطيه ؟! (١) .

وفي أخبار داوودَ عليه السلامُ : أَنَّ اللهَ تعالى أوحى إليه : يا داوودُ ؛ إلى كمَ تذكرُ الجنةَ ولا تسألني الشوقَ إليَّ ؟! قَالَ : يا ربِّ ؛ مَنْ المشتاقونَ إليك ؟ قَالَ : إِنَّ المشتاقينَ إليَّ الذينَ صَفَّيتُهُمْ مِنْ كُلِّ كدرٍ ، وأنبهتُهُمْ بالحدَرِ ، وخرقتُ مِنْ قلوبِهِمْ إليَّ خرقاً ينظرونَ إليَّ ، وإنِّي لأحملُ قلوبَهُمْ بيدي فأضعُها على سَمائي ، ثُمَّ أدعو نجباءً ملائكتي ، فإذا اجتمعوا . . سجدوا لي ، فأقولُ : إِنِّي لَمْ أدعُكُمْ لتسجدوا لي ، ولكنِّي دعوتُكُمْ لأعرضَ عليكم قلوبَ المشتاقينَ إليَّ ، وأباهي بكمُ أهلَ الشوقِ إليَّ ، وإنَّ قلوبَهُمْ

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٠) .

لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض .
يا داوود ؛ إنني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، ونعمتها بنور
وجهي ، واتخذتهم لنفسي محدثين ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى
الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إليّ يزدادون في كل يوم
شوقاً .

قال داوود : يا رب ؛ أرني أهل محبتك ، فقال : يا داوود ؛ انت جبل
لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفساً ، فيهم شباب ، وفيهم كهول ، وفيهم
مشايخ ، فإذا أتيتهم . . فأقرئهم مني السلام ، وقل لهم : إن ربكم يقرئكم
السلام ويقول لكم : ألا تسألون حاجة ؟ فإنكم أحبابي وأصفيائي
وأوليائي ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم .

فأتاهم داوود عليه السلام ، فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في
عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام . . نهضوا ليتفرقوا
عنه ، فقال داوود : إنني رسول الله إليكم ، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم ،
فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض ،
فقال داوود : إنني رسول الله إليكم ، وهو يقرئكم السلام ، ويقول لكم : ألا
تسألون حاجة ؟ ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم ؟ فإنكم أحبابي
وأصفيائي وأوليائي ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم ، وأنظر إليكم
في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة .

قال : فجرت الدموع على خدودهم .

فقال شيخهم : سبحانك سبحانك ، نحنُ عبيدك وبنو عبيدك ، فاغفر لنا ما قطعَ قلوبنا عن ذكرِكَ فيما مضى مِنْ أعمارنا .

وقال الآخرُ : سبحانك سبحانك ، نحنُ عبيدك وبنو عبيدك ، فامننْ علينا بحسنِ النظرِ فيما بيننا وبينك .

وقال الآخرُ : سبحانك سبحانك ، نحنُ عبيدك وبنو عبيدك ، أفنجترىءُ على الدعاءِ وقد علمتَ أنه لا حاجةَ لنا في شيءٍ مِنْ أمورنا ؟! فأدم لنا لزومَ الطريقِ إليك ، وأتممْ بذلكِ المنَّةَ علينا .

وقال الآخرُ : نحنُ مقصرون في طلبِ رضاك ، فأعنا عليه بجودك .

وقال الآخرُ : مِنْ نطفةٍ خلقتنا ، ومننتَ علينا بالتفكيرِ في عظمتِكَ ، أفيجترىءُ على الكلامِ مَنْ هوَ مشغولٌ بعظمتِكَ متفكرٌ في جلالِكَ ، وطلبتنا الدنُوَّ مِنْ نورِكَ .

وقال الآخرُ : كلَّتْ ألسنتنا عن دعائكِ لعظيمِ شأنِكَ ، وقربِكَ مِنْ أوليائكِ ، وكثرةِ منِّكَ على أهلِ محبتِكَ .

وقال الآخرُ : أنتَ هديتَ قلوبنا لذكركِ ، وفرغتنا للاشتغالِ بكِ ، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرِكَ .

وقال الآخرُ : قد عرفتَ حاجتنا ، إنما هيَ النظرُ إلى وجهِكَ .

وقال الآخرُ : كيفَ يجترىءُ العبدُ على سيِّدهِ ، إذ أمرتنا بالدعاءِ بجودِكَ . . فهبْ لنا نوراً نهتدي بهِ في الظلماتِ مِنْ أطباقِ السماواتِ .

وقال الآخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا^(١) .

وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا ، وتفضلت به علينا .

وقال الآخر : لا حاجة لنا في شيء من خلقك ، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك .

وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها ، وقلبي عن الاشتغال بالآخرة .

وقال الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك ، فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك .

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم : قد سمعت كلامكم ، وأجبتكم إلى ما أحييتم ، فليفارق كل واحد منكم صاحبه ، وليتخذ لنفسه سرباً ، فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي .

فقال داود : يا رب ، بم نالوا هذا منك ؟ قال : بحسن الظن ، والكف عن الدنيا وأهلها ، والخلوات بي ، ومناجاتهم لي ، وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ، ولم يشتغل بشيء من ذكرها ، وفرغ قلبه لي ، واختارني على جميع خلقي ، فعند ذلك أعطف عليه ، وأفرغ نفسه ، وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه ، حتى ينظر إلي نظر الناظر بعينه إلى

(١) في (ب) : (أن تقبل علينا بوجهك) ، وكذا في (ع) (بزيادة :) (وتديم رغبتنا) .

الشيء ، وأريه كرامتي في كل ساعة ، وأقربه من نور وجهي ، إن مرض .
 مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش . . أرويته ، وأذيقه
 طعم ذكري ، فإذا فعلت ذلك به يا داوود . . عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ،
 ولم أحببها إليه ، لا يفتّر عن الاشتغال بي يستعجلني القدوم ، وأنا أكره أن
 أميته ؛ لأنه موضع نظري من بين خلقي ، لا يرى غيري ولا أرى غيره ، فلو
 رأيته يا داوود وقد ذابت نفسه ، ونحل جسمه ، وتهشمت أعضاؤه ، وانخلع
 قلبه ، إذا سمع بذكري أباهي به ملائكتي وأهل سماواتي . . يزداد خوفاً
 وعبادةً ، وعزتي وجلالي يا داوود ؛ لأقعدته في الفردوس ، ولأشفي
 صدره من النظر إليّ حتى يرضى وفوق الرضا^(١) .

وفي أخبار داوود عليه السلام أيضاً : (قل لعبادي المتوجهين إلى
 محبتي : ما ضرّكم إذا احتجبت عن خلقي ، ورفعت الحجاب فيما بيني
 وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم ؟ وما ضرّكم ما زويت عنكم من الدنيا
 إذا بسطت ديني لكم ؟ وما ضرّكم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي ؟^(٢) .

وفي أخبار داوود عليه السلام أيضاً : أن الله تعالى أوحى إليه : (تزعم
 أنك تحبني ؟ فإن كنت تحبني . . فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبي
 وحبها لا يجتمعان في قلب ، يا داوود ؛ خالص حبيبي مخالصةً ، وخالط
 أهل الدنيا مخالطةً ، ودينك فقلدنيه ، ولا تقلد دينك الرجال ، أمّا ما استبان

(١) نقله صاحب « القوت » بطوله . « إتحاف » (٦٠٧/٩) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٠٧/٩) .

لَكَ مِمَّا وَاَفَقَ مَحَبَّتِي . . فَتَمَسَّكَ بِهِ ، وَأَمَّا مَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ . . فَقُلْذَنِيهِ ، حَقًّا
 عَلَيَّ أَنِّي أَسَارِعُ إِلَى سِيَاسَتِكَ وَتَقْوِيمِكَ ، وَأَكُونُ قَائِدَكَ وَدَلِيلَكَ أُعْطِيكَ مِنْ
 غَيْرِ أَنْ تَسْأَلَنِي ، وَأَعَيْنُكَ عَلَى الشَّدَائِدِ ، فَإِنِّي قَدْ حَلَفْتُ عَلَى نَفْسِي أَنِّي
 لَا أَثِيبُ عَبْدًا إِلَّا عَبْدًا قَدْ عَرَفْتُ مِنْ طَلِبَتِهِ وَإِرَادَتِهِ إِلقاءَ كَنَفِهِ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَأَنَّهُ
 لَا غِنَى بِهِ عَنِّي ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ . . نَزَعْتُ الذَّلَّةَ وَالْوَحْشَةَ عَنْكَ ، وَأَسْكَنْتُ
 الْغِنَى قَلْبَكَ ، فَإِنِّي قَدْ حَلَفْتُ عَلَى نَفْسِي أَنَّهُ لَا يَطْمِئُنُّ عَبْدٌ لِي إِلَى نَفْسِهِ يَنْظُرُ
 إِلَى فَعَالِهَا . . إِلَّا وَكَلَّتُهُ إِلَيْهَا ، أَضْفِ الْأَشْيَاءَ إِلَيَّ ، لَا تَضَادَّ عَمَلُكَ فَتَكُونَ
 مُتَعَنِّيًا ، وَلَا يَنْتَفِعَ بِكَ مَنْ يَصْحَبُكَ ، وَلَا تَحْدَّ لِمَعْرِفَتِي حَدًّا ، فَلَيْسَ لَهَا
 غَايَةٌ ، وَمَتَى طَلَبْتَ مِنِّي الزِّيَادَةَ . . أُعْطِكَ ، وَلَا تَحْدَّ لِلزِّيَادَةِ مِنِّي حَدًّا ، ثُمَّ
 أَعْلَمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِي نَسَبٌ ، فَلْتَعْظُمْ رَغْبَتُهُمْ
 وَإِرَادَتُهُمْ عِنْدِي . . أَبْخُ لَهُمْ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ
 عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، ضَعْنِي بَيْنَ عَيْنَيْكَ ، وَانْظُرْ إِلَيَّ بِبَصَرِ قَلْبِكَ ، وَلَا تَنْظُرْ
 بِعَيْنَيْكَ الَّتِي فِي رَأْسِكَ إِلَى الَّذِينَ حَجَبْتُ عَنْهُمْ عَنِّي فَأَمْرَجُوهَا وَسَخْتُ
 بِانْقِطَاعِ ثَوَابِي عَنْهَا^(١) ؛ فَإِنِّي حَلَفْتُ بِعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَفْتَحُ ثَوَابِي لِعَبْدٍ دَخَلَ
 فِي طَاعَتِي لِلتَّجَرِبَةِ وَالتَّسْوِيفِ ، تَوَاضَعُ لِمَنْ تَعَلَّمُهُ ، وَلَا تَطَاوُلُ عَلَى
 الْمُرِيدِينَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَهْلُ مَحَبَّتِي مَنْزِلَةَ الْمُرِيدِينَ عِنْدِي . . لَكَانُوا لَهُمْ أَرْضًا
 يَمْشُونَ عَلَيْهَا .

(١) أَمْرَجُوهَا : أَفْسَدُوهَا . وَفِي (أ) : (فَأَسْرَجُوهَا وَسَمَحْتُ) ، وَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ ، وَفِي
 (د) : (فَأَمْرَجُوهَا وَسَخَطْتُ) .

يا داوود ؛ لأن تخرجَ مريداً مِنْ سكرةٍ هَوَ فيها ، تستنقذهُ ، فأكتبكَ
عندي جهبذاً ، وَمَنْ كتبتهُ عندي جهبذاً . لا تكونُ عليهِ وحشةٌ ولا فاقةٌ إلى
المخلوقين .

يا داوود ؛ تمسكُ بكلامي ، وخذْ مِنْ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ، لا تؤتينُ منها
فأحجبَ عنكَ محبَّتي ، لا تؤيسُ عبادي مِنْ رحمتي . . أقطعُ شهوتَكَ لي ،
فإنما أبحثُ الشهواتِ لضعفةِ خلقي ، ما بالُ الأقوياءِ أَنْ ينالوا الشهواتِ فإنها
تنقصُ حلاوةَ مناجاتي ، وإنما عقوبةُ الأقوياءِ عندي في موضعِ التناولِ ،
أدنى ما يصلُ إليهمُ أَنْ أحجبَ عقولَهُمْ عني ، فإنِّي لم أَرْضَ الدنيا لحبيبي
ونزهتهُ عنها .

يا داوود ؛ لا تجعلُ بيني وبينكَ عالماً يحجبُكَ بسكرِهِ عن محبَّتي ،
أولئك قطعُ الطريقِ على عبادي المريدين ، استعنْ على تركِ الشهواتِ
بإدمانِ الصومِ ، وإيَّاكَ والتجربةَ في الإفطارِ ، فإنَّ محبَّتي للصومِ إدمانهُ^(١) .

يا داوود ؛ تحبُّ إليَّ بمعاداةِ نَفْسِكَ ، امنعها الشهواتِ أنظرُ إليك ،
وترى الحجبَ بيني وبينكَ مرفوعةً ، إنَّما أداريكَ مداراةً لتقوى على ثوابي إذا
مننتُ بهِ عليك ، وإنِّي أحبُّهُ عنكَ وأنتَ متمسكٌ بطاعتي^(٢) .

وأوحى اللهُ تعالى إلى داوودَ عليه السلامُ : (يا داوودُ ؛ لو يعلمُ

(١) وفي (أ) : (يعجبي من الصومِ إدمانهُ) .

(٢) ساقه صاحب « القوت » بطوله . « إتحاف » (٦٠٨ / ٩) .

المدبرون عني كيف انتظاري لهم ، ورفقي بهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم . . لماتوا شوقاً إليّ ، وتقطعت أوصالهم من محبتي .
يا داوود ؛ هذه إرادتي في المدبرين عني ، فكيف إرادتي في المقبلين عليّ ؟

يا داوود ؛ أخرج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني ، وأرحم ما أكون بعدي إذا أدبر عني ، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إليّ ^(١) .
فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يُحصى تدلّ على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وأما تحقيق معناها . . فيكشف بما سبق .



(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٨) .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم : أنَّ شواهد القرآن متظاهرة على أنَّ الله تعالى يحبُّ عبده ، فلا بدَّ من معرفة معنى ذلك ، ولنقدِّم الشواهد على محبته .

فقد قال الله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

ولذلك ردَّ سبحانه على من ادعى أنَّه حبيب الله فقال : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ .

وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « إذا أحبَّ الله تعالى عبداً . . لم يضره ذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له - ثم تلا - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ ^(١) ، ومعناه : أنَّه إذا أحبه . . تاب عليه قبل الموت ، فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام .

(١) كذا في « القوت » (٥٠ / ٢) ، حيث قال قبله : (وروينا عن إسماعيل بن أبان ، عن أنس . .) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ١٧٨) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٣٢) ، ورواه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (٥٥ / ١٨) من طريق القشيري ، وأما لفظ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » مفرداً . . فقد رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ . . . رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ . . . وَضَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ . . . أَحَبَّهُ اللَّهُ » (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ . . . كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ . . . » الحديث (٣) .

وقال زيد بن أسلم : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيُحِبُّ الْعَبْدَ حَتَّى يَبْلُغَ مِنْ حَبِّهِ لَهُ أَنْ يَقُولَ : اْعْمَلْ مَا شِئْتَ ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ) (٤) .

وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣٨٧ / ١) ، والحاكم في « المستدرک » (٣٣ / ١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٥ / ٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧٦) بنحوه ، ودون زيادة : « ومن أكثر ذكر الله . . . » وهي عند ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٧) .

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢) .

(٤) كذا في « القوت » (٥٠ / ٢) ، وأصله عند البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) واللفظ له .

النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط ، وقد بينّا أنّ الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضاً ، وأنّ الجمال والإحسان تارة يُدرك بالبصر ، وتارة يُدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كلّ واحد منهما ، فلا يختصّ بالبصر .

فأمّا حبّ الله تعالى للعبد . . فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً ، بل الأسمي كلّها إذا أُطلقت على الله تعالى وعلى غير الله . . لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً ، حتّى إنّ اسم الوجود الذي هو أعمّ الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد ، بل كلّ ما سوى الله تعالى وجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع ، وإنّما الاستواء في إطلاق الاسم .

نظيره : اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ؛ إذ معنى الجسميّة وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلاً ، فليست الجسميّة لأحدهما مستفادة من الآخر ، وليس كذلك اسم الوجود لله تعالى ولا لخلقه .

وهذا التباعد في سائر الأسمي أظهر ؛ كالعلم ، والإرادة ، والقدرة ، وغيرها ، فكلّ ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق ، وواضع اللغة إنّما وضع هذه الأسمي أولاً للخلق ، فإنّ الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها في حقّ الخالق بطريق الاستعارة والتجوّز والنقل . والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ، وهذا

إنما يُتصوَّرُ في نفسٍ ناقصةٍ فاتها ما يوافقها ، فتستفيدُ بنيله كمالاً ، فتلتدُّ بنيله ، وهذا محالٌ على الله تعالى ، فإنَّ كلَّ كمالٍ وجمالٍ وبهاءٍ وجلالٍ ممكنٌ في حقِّ الإلهية فهو حاضرٌ وحاصلٌ وواجبُ الحصولِ أبداً وأزلاً ، ولا يُتصوَّرُ تجدُّده ولا زواله ، فلا يكونُ له إلى غيره نظرٌ من حيثُ إنه غيره ، بل نظرُهُ إلى ذاته وإلى أفعاله فقط ، وليسَ في الوجودِ إلا ذاته وأفعاله .

ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميثني رحمه الله لما قرىء عليه قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، فقال : (بحقَّ يحبُّهم ، فإنه ليسَ يحبُّ إلا نفسه) ، على معنى أنَّ الكلَّ ، وأنَّ ليسَ في الوجودِ غيره ، فمن لا يحبُّ إلا نفسه وأفعالَ نفسه وتصانيفَ نفسه . . فلا يجاوزُ حُبَّهُ ذاته وتوابعَ ذاته من حيثُ هي متعلِّقةٌ بذاته ، فهو إذاً لا يحبُّ إلا نفسه .

وما وردَ مِنَ الألفاظِ في حُبِّه لعباده . . فهو مؤوَّلٌ ، ويرجعُ معناه إلى كشفِ الحجابِ عن قلبه حتَّى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه إيَّاه من القربِ منه ، وإلى إرادته ذلكَ به في الأزلِ ، فحُبُّه لِمَنْ أحبَّهُ أزليٌّ مهما أضيفَ إلى الإرادةِ الأزليةِ التي اقتضتْ تمكينَ هذا العبدِ مِنْ سلوكِ طرقِ القربِ ، وإذا أُضيفَ إلى فعله الذي يكشفُ الحجابَ عن قلبِ عبده . . فهو حادثٌ يحدثُ بحدوثِ السببِ المقتضي له ، كما قال الله تعالى : « ولا يزالُ يتقَرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أحبَّهُ »^(١) ، فيكونُ تقَرُّبُهُ بالنوافلِ سبباً لصفاءِ باطنه ، وارتفاعِ الحجابِ

(١) كذا في جميع النسخ : (ولا يزالُ يتقرب . . .) .

عن قلبه ، وحصوله في درجة القرب من ربه ، وكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به ، فهو معنى حبه .

ولا يفهم هذا إلا بمثال : وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ، ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه ؛ لميل الملك إليه ؛ إما لينصره بقوته ، أو ليسترخ بمشاهدته ، أو ليستشيره في رأيه ، أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه ، فيقال : إن الملك يحبه ، ويكون معناه : ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائم له .

وقد يقرب عبداً ولا يمنع من الدخول عليه ، لا للانتفاع به والاستنجاد ، ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك ، وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً ، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه . . يقال : قد أحبه ، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب . . يقال : قد توصل وحبب نفسه إلى الملك .

فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني ، لا بالمعنى الأول ، وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط ألا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله تعالى في البعد من صفات البهائم والسباع والشیاطين ، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريباً . . فصار قريباً ، فقد تغير ، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد ، فقد

تغيّر وصفُ العبدِ والربِّ جميعاً ، إذ صارَ قريباً بعدَ أنْ لم يكنْ ، وهوَ محالٌّ في حقِّ اللهِ تعالى ؛ إذ التغيُّرُ عليه محالٌّ ، بل لا يزالُ في نعوتِ الكمالِ والجلالِ على ما كانَ عليه في أزلي الآزالِ .

ولا ينكشفُ هذا إلا بمثالِ القربِ بينَ الأشخاصِ : فإنَّ الشخصينِ قد يتقاربانِ بتحركِهما جميعاً ، وقد يكونُ أحدهما ثابتاً ، فيتحرَّكُ الآخرُ ، فيحصلُ القربُ بتغيُّرٍ في أحدهما من غيرِ تغيُّرٍ في الآخرِ ، بل القربُ في الصفاتِ أيضاً كذلك ، فإنَّ التلميذَ يطلبُ القربَ من درجةِ أستاذه في كمالِ العلمِ وجماله ، والأستاذُ واقفٌ في كمالِ علمه غيرُ متحرِّكٍ بالنزولِ إلى درجةِ تلميذه ، والتلميذُ متحرِّكٌ مترقِّ من حضيضِ الجهلِ إلى يفاعِ العلمِ ، فلا يزالُ دائماً في التغيُّرِ ، والترقيِّ إلى أنْ يقربَ من أستاذه ، والأستاذُ ثابتٌ غيرُ متغيِّرٍ ؛ فكَذلكَ ينبغي أنْ يُفهمَ ترقِّي العبدِ في درجاتِ القربِ ، فكلِّما صارَ أكملَ صفَةً ، وأتمَّ علماً وإحاطةً بحقائقِ الأمورِ ، وأثبتَ قوَّةً في قهرِ الشيطانِ وقمعِ الشهواتِ ، وأظهرَ نزاهةً عن الرذائلِ . . صارَ أقربَ من درجةِ الكمالِ ، ومنتهى الكمالِ لله تعالى ، وقربُ كلِّ واحدٍ من الله تعالى بقدرِ كمالِهِ .

نعم ، قد يقدرُ التلميذُ على القربِ من الأستاذِ وعلى مساواتِهِ وعلى مجاوزتِهِ ، وذلكَ في حقِّ الله تعالى محالٌّ ، فإنَّهُ لا نهايةَ لكمالِهِ ، وسلوكُ العبدِ في درجاتِ الكمالِ متناهٍ ، ولا ينتهي إلا إلى حدٍّ محدودٍ ، فلا مطمعَ لَهُ في المساواةِ .

ثم درجاتُ القربِ تتفاوتُ تفاوتاً لا نهايةَ له أيضاً ؛ لأجلِ انتفاءِ النهايةِ عن ذلك الكمالِ .

فإذا ؛ محبةُ الله للعبدِ تقريبهُ من نفسه بدفعِ الشواغلِ والمعاصي عنه ، وتطهيرِ باطنه عن كدوراتِ الدنيا ، ورفعِ الحجابِ عن قلبه حتى يشاهدهُ كأنه يراه بقلبه ، وأما محبةُ العبدِ لله . . فهو ميلُهُ إلى دركِ هذا الكمالِ الذي هو مفلسٌ عنه فاقدٌ له ، فلا جرمَ يشتاقُ إلى ما فاتهُ ، وإذا أدركَ منه شيئاً . . يلتذُّ به ، والشوقُ والمحبةُ بهذا المعنى محالٌّ على الله تعالى .



فإن قلتَ : محبةُ الله تعالى للعبدِ أمرٌ ملتبسٌ ، فبِمَ يعرفُ العبدُ أنه حبيبُ الله ؟

فأقولُ : يُستدلُّ عليه بعلاماته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أحبَّ الله عبداً . . ابتلاه ، فإذا أحبه الحبُّ البالغُ . . اقتناه » ، قيلَ : وما اقتناه ؟ قالَ : « لم يتركْ له أهلاً ولا مالاً »^(١) .

فعلامَةُ محبةِ الله للعبدِ أن يوحشه من غيره ، ويحولَ بينه وبين غيره ، قيلَ لعيسى عليه السلام : لم لا تشتري حماراً فتركبه ؟ فقالَ : أنا أعزُّ

(١) قوت القلوب (٢٤٣/١) ، ورواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٤٩٩) ، والدولابي في « الكنى والأسماء » (٤٦/١) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٦٨) كلهم من حديث أبي عتبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً .

على الله تعالى مِنْ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْ نَفْسِهِ بِحِمَارٍ^(١) .

وفي الخبر : « إذا أحبَّ الله عبداً . . ابتلاه ، فإن صبر . . اجتباؤه ، فإن رضي . . اصطفاؤه »^(٢) .

وقال بعض العلماء : (إذا رأيتك تحبُّه ، ورأيتك يبتليك . . فاعلم أنه يريد أن يصافيك)^(٣) .

وقال بعض المريدين لأستاذه : قد طولتُ بشيءٍ من المحبة ، فقال : يا بني ، هل ابتلاك بمحسوبٍ سواه فآثرت عليه إيَّاه ؟ قال : لا ، قال : فلا تطمع في المحبة ؛ فإنه لا يعطيها عبداً حتَّى يبلوه^(٤) .

وقد قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « إذا أحبَّ الله عبداً . . جعل له واعظاً من نفسه ، وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه »^(٥) .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٢٨٥) .

(٢) كذا في « القوت » (٥٣ / ٢) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٧١) من حديث علي كرم الله وجهه .

(٣) قوت القلوب (٥٣ / ٢) .

(٤) قوت القلوب (٥٣ / ٢) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ : « إذا أراد الله بعبده خيراً . . ») . « إتحاف » (٦١٤ / ٩) ، ورواه معلقاً أبو نعيم في « الحلية » (٩٩ / ١٠) عن الحارث المحاسبى ، و (٢٦٤ / ٢) من كلام ابن سيرين .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . بصره بعيوب نفسه » (١) .

فأخص علامات حبه لله ؛ فإن ذلك يدل على حب الله .
وأما الفعل الدال على كونه محبوباً . . فهو أن يتولى الله تعالى أمره ؛
ظاهرة وباطنه ، سره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ،
والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظاهره وباطنه ،
والجاعل همومه همّاً واحداً ، والمبغض للدنيا في قلبه ، والموحش له من
غيره ، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه
وبين معرفته ، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله تعالى للعبد .
فلنذكر الآن علامات محبة العبد لله تعالى ؛ فإنها أيضاً علامات حب الله
للعبد .



(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه .

القول في علامات محبة الله تعالى

اعلم : أنَّ المحبةَ قد يدَّعيها كلُّ أحدٍ ، وما أسهلَ الدعوى وما أعزَّ المعنى ، فلا ينبغي أن يغترَّ الإنسانُ بتلبسِ الشيطانِ وخداعِ النفسِ مهما ادَّعت محبةَ الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلاماتِ ، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة .
والمحبةُ شجرةٌ طيبةٌ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء ، وثمارُها تظهرُ على القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، وتدلُّ تلك الآثارُ الفائضةُ منها على القلبِ والجوارحِ على المحبةِ دلالةُ الدخانِ على النارِ ، ودلالةُ الثمارِ على الأشجارِ ، وهي كثيرةٌ .



فمنها : حبُّ لقاءِ الحبيبِ بطريقِ الكشفِ والمشاهدةِ في دارِ السلامِ :
فلا يتصورُ أن يحبَّ القلبُ محبوباً إلا ويحبُّ مشاهدتهُ ولقاءهُ ، وإذا علم أنه لا وصولَ إلا بالارتحالِ مِنَ الدنيا ومفارقتها بالموتِ . . فينبغي أن يكون محباً للموتِ غيرَ فارٍّ منه ، فإنَّ المحبَّ لا يثقلُ عليه السفرُ عن وطنِهِ إلى مستقرٍّ محبوبِهِ ليتنعمَ بمشاهدتهِ ، والموتُ مفتاحُ اللقاءِ وبابُ الدخولِ إلى المشاهدةِ .

قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ . . أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ » (١) .

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) .

وقال حذيفة عند الموت : (حبيبٌ جاءَ على فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندمَ) (١) .

وقال بعضُ السلفِ : (ما مِنْ خصلةٍ أحبُّ إلى الله أن تكونَ في العبدِ بعدَ حبِّ لقاءِهِ مِنْ كثرةِ السجودِ) (٢) ، فقدَّمَ حبَّ لقاءِ الله على السجودِ .

وقد شرطَ الله سبحانهُ لحقيقةِ الصدقِ في الحبِّ القتلَ في سبيلِ الله حيثُ قالوا : إِنَّا نَحِبُّ اللهَ ، فجعلَ القتلَ في سبيلِ الله وطلبَ الشهادةِ علامتهُ فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ يُقَتِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ .

وفي وصيةِ أبي بكرٍ لعمرَ رضي الله عنهما : (الحقُّ ثَقِيلٌ ، وهوَ مع ثقلِهِ مَرِيءٌ ، والباطلُ خَفِيفٌ ، وهوَ مع خِفَّتِهِ وَبِئٌ ، فَإِنْ حَفِظْتَ وَصِيَّتِي . . لم يكنْ غَائِبٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ المَوْتِ وهوَ مَدْرُكُكَ ، وَإِنْ ضَيَّعْتَ وَصِيَّتِي . . لم يكنْ غَائِبٌ أَبْغَضَ إِلَيْكَ مِنَ المَوْتِ وَلَنْ تَعْجِزَهُ) (٣) .

ويروى عنُ إسحاقَ بنِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ قال : حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ عبدَ اللهَ بنَ جحشٍ قالَ لَهُ يَوْمَ أَحَدٍ : أَلَا نَدْعُو اللهَ تَعَالَى ، فَخَلَّوْا فِي نَاحِيَةٍ ، فَدَعَا عبدُ اللهَ بنُ جحشٍ فَقَالَ : يَا رَبِّ ؛ إِنِّي أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِذَا لَقِيتُ العَدُوَّ

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٣٥٨) ، والحاكم في « المستدرک » (٥٠٢/٤) .

(٢) قوت القلوب (٥١/٢) .

(٣) كذا في « القوت » (٥١/٢) ، ورواها بنحوها ابن المبارك في « الزهد » (٩١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧/١) .

غداً . . فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، ويبقر بطني، فإذا لقيتك غداً . . قلت: يا عبد الله؛ من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: (فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط)، قال سعيد بن المسيب: (أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله)^(١).

وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان: (لا يكره الموت إلا مريب)^(٢)؛ لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه.

وقال البويطي لبعض الزهاد: أتحب الموت؟ فكأنه توقف، فقال: لو كنت صادقاً . . لأحيته، وتلا قوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، فقال الرجل: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا يتمنين أحدكم الموت »^(٣)، فقال: إنما قاله لضر نزل به؛ لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه^(٤).

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٧٦/٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٨/١) مع قول ابن المسيب بعده.

(٢) قوت القلوب (٥١/٢).

(٣) رواه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٤) نقله صاحب «القوت». («إتحاف» (٦١٧/٩)، ونقل قوله بعده: (لأن التائب إذا صدقت توبته . . طلب الموت خشية الحول عن حاله، فإذا كان كذلك . . كان هو حال التائب الذي هو حبيب الله).

فإن قلت : فمن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محباً لله ؟

فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا ، والتأسف على فراق الأهل والمال والولد ، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى ؛ لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن الناس متفاوتون في الحب .

ويدل على التفاوت ما روي أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة . . عاتبة قريش في ذلك وقالوا : أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ؟! فقال : والله ؛ لقد أنكحت إياها وإنني لأعلم أنه خير منها ، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا : وكيف وهي أختك وهو مولاك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه . . فلينظر إلى سالم » (١) .

فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه ، فيحبه ويحب أيضاً غيره ، فلا جرم يكون نعيمه بقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .

وأما السبب الثاني للكراهة . . فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة

(١) كذا في « القوت » (٥١ / ٢) ، وروى المرفوع منه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٧ / ١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولفظه : « إنه يحب الله تعالى حقاً من قلبه » .

وليس يكره الموت ، وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لا يدل على ضعف الحب ، وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيب عليه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهي له داره ويعد له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل ، خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلاً ، وعلامته : الدؤوب في العمل ، واستغراق الهم في الاستعداد .

ومنها : أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه : فيلزم مشاق العمل ، ويجتنب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى ، ومتقرباً إليه بالنوافل ، وطالباً عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه .

وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، ومن بقي مستمراً على متابعة الهوى . . فمحبوبه ما يهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه ، كما قيل^(١) :

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما أريد

(١) البيت لابن المنجم الواعظ . انظر « فوات الوفيات » (٢ / ٣٠١) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨ / ٢٦٨) .

بل الحبُّ إذا غلبَ . . قمعَ الهوى ، فلم يبقَ له تنعمٌ بغيرِ المحبوبِ ،
 كما روي أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام . . انفردت عنه ،
 وتخلت للعبادة ، وانقطعت إلى الله تعالى ، فكان يدعوها إلى فراشه نهاراً
 فتدفعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلاً سوفته إلى النهار وقالت : يا يوسف ،
 إنما كنتُ أحبُّك قبل أن أعرفه ، فأما إذ عرفتُه . . فما أبقتُ محبتهُ محبةً
 لسواه ، وما أريدُ بهِ بدلاً ، حتى قال لها : إن الله جلَّ ذكره أمرني بذلك ،
 وأخبرني أنه مخرجٌ منك ولدين ، وجاعلُهُما نبينين ، فقالت : أما إذا كان الله
 تعالى أمركَ بذلك ، وجعلني طريقاً إليه . . فطاعةٌ لأمرِ الله تعالى ، فعندها
 سكنتُ إليه^(١) .

فإذا؛ مَنْ أَحَبَّ اللهَ لَا يَعْصِيهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِيهِ^(٢) : [من الكامل]

تَعْصِي أِلَآهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي أَلْفِعالٍ بَدِيعُ
 لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وفي هذا المعنى قيل أيضاً^(٣) : [من الطويل]

وَأَتْرُكُ مَا أَهْوَى لِمَا قَدْ هَوَيْتَهُ وَأَرْضَى بِمَا تَرْضَى وَإِنْ سَخِطْتَ نَفْسِي

وقال سهلٌ رحمه الله : (علامةُ الحبِّ إيثارُهُ علىِ نفسِكَ) ، و (ليسَ كلُّ

(١) كذا في « القوت » (٥٢ / ٢) .

(٢) ديوانه (ص ٨٣) .

(٣) قوت القلوب (٥٤ / ٢) .

مَنْ عَمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ صَارَ حَبِيبًا ، وَإِنَّمَا الْحَبِيبُ مَنْ اجْتَنَبَ الْمَنَاهِي (١) .

وهو كما قال ؛ لَأَنَّ مُحِبَّتهُ لِلَّهِ تَعَالَى سَبَبُ مُحِبَّةِ اللَّهِ لَهُ ، كما قال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وإذا أَحَبَّهُ اللَّهُ . . تَوَلَّاهُ وَنَصَرَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَإِنَّمَا عَدُوُّهُ نَفْسُهُ وَشَهَوَاتُهُ ، فلا يَخْذِلُهُ اللَّهُ ولا يَكْلُهُ إِلَى هَوَاهُ وَشَهَوَاتِهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَالْعَصِيانُ هَلْ يَضَادُّ أَصْلَ الْمُحِبَّةِ ؟

فَأَقُولُ : إِنَّهُ يَضَادُّ كَمَالَهَا وَلَا يَضَادُّ أَصْلَهَا ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَحِبُّ نَفْسَهُ وَهُوَ مَرِيضٌ وَيَحِبُّ الصَّحَّةَ وَيَأْكُلُ مَا يَضُرُّهُ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ يَضُرُّهُ ، وَذَلِكَ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَكِنَّ الْمَعْرِفَةَ قَدْ تَضَعُفُ ، وَالشَّهْوَةُ قَدْ تَغْلِبُ ، فَيَعْجِزُ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّ الْمُحِبَّةِ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ أَنَّ نَعِيمَانَ كَانَ يُؤْتَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ قَلِيلٍ فَيَحْدُّهُ فِي مَعْصِيَةٍ يَرْتَكِبُهَا ، إِلَى أَنْ أَتِيَ بِهِ يَوْمًا فَحَدَّهُ ، فَلَعَنَهُ رَجُلٌ وَقَالَ : مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَلْعَنُهُ ؛ فَإِنَّهُ يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » (٢) ، فَلَمْ يَخْرِجْهُ بِالْمَعْصِيَةِ عَنِ الْمُحِبَّةِ .

(١) قوت القلوب (٥٤ / ٢) ، وهما قولان .

(٢) رواه البخاري (٦٧٨٠) .

نعم ، تخرجهُ المعصيةُ عن كمالِ الحبِّ ، وقد قال بعضُ العارفينَ :
(إذا كانَ الإيمانُ في ظاهرِ القلبِ .. أحبَّ اللهُ تعالى حبًّا متوسطًا ، فإذا دخلَ
سويداءَ القلبِ .. أحبهُ الحبُّ البالغُ وتركَ المعاصي) (١) .

وعلى الجملة : في دعوى المحبةِ خطرٌ ، ولذلك قال الفضيلُ : (إذا
قيلَ لك : أتُحِبُّ اللهُ تعالى .. فاسكتْ ؛ فإنَّكَ إنْ قلتَ : لا .. كفرتَ ،
وإنْ قلتَ : نعم .. فليسَ وصفُ المحيِّينَ ، فاحذرِ المقتَ) (٢) .

ولقد قال بعضُ العلماءِ : (ليسَ في الجنةِ نعيمٌ أعلى منْ نعيمِ أهلِ
المعرفةِ والمحبةِ ، ولا في جهنَّمَ عذابٌ أشدَّ منْ عذابِ مَنْ ادعى المعرفةَ
والمحبةَ ولم يتحققْ بشيءٍ منْ ذلك) (٣) .

ومنها : أن يكونَ مستهترًا بذكرِ اللهِ تعالى :

لا يفتُرُ عنه لسانُهُ ، ولا يخلو عنه قلبُهُ ، فمنْ أحبَّ شيئًا .. أكثرَ
بالضرورةِ ذكرَهُ ، وذكرَ ما يتعلَّقُ بهِ ، فعلامةُ حبِّ اللهِ تعالى حبُّ ذكرِهِ ،
وحبُّ القرآنِ الذي هو كلامُهُ ، وحبُّ رسولهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم ، وحبُّ
كلِّ ما يُنسبُ إليه ، فإنَّ مَنْ يحبُّ إنسانًا يحبُّ كلبَ محلَّتهِ ، فالمحبةُ إذا

(١) قوت القلوب (٥١ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (٥٢ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (٥٢ / ٢) .

قَوِيَتْ . . . تَعَدَّتْ مِنَ الْمَحْبُوبِ إِلَى كُلِّ مَا يَكْتَفُ بِالْمَحْبُوبِ وَيَحِيطُ بِهِ وَيَتَعَلَّقُ
بَأَسْبَابِهِ .

وذلك ليس شِرْكََةً في الحبِّ ، فإنَّ مَنْ أَحَبَّ رَسُولَ الْمَحْبُوبِ لِأَنَّهُ
رَسُولُهُ ، وكَلَامُهُ لِأَنَّهُ كَلَامُهُ . . فلم يجاوز حُبَّهُ إِلَى غَيْرِهِ ، بل هو دليلُ كَمَالِ
حُبِّهِ ، وَمَنْ غَلَبَ حُبُّ اللَّهِ عَلَى قَلْبِهِ . . أَحَبَّ جَمِيعَ خَلْقِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُمْ خَلَقَهُ ،
فكيف لا يحبُّ القرآنَ والرَّسُولَ وعبادَ اللَّهِ الصالحينَ ؟ !

وقد ذكرنا تحقيقَ هذا في كتابِ آدابِ الصَّحبةِ .

ولذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

وقال رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَحْبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ
نِعَمِهِ ، وَأَحْبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ . . . » (١) .

وقال سفيانُ : (مَنْ أَحَبَّ مَنْ يَحِبُّ اللَّهَ تَعَالَى . . فَإِنَّمَا أَحَبَّ اللَّهَ ، وَمَنْ
أَكْرَمَ مَنْ يَكْرُمُ اللَّهَ تَعَالَى . . فَإِنَّمَا يَكْرُمُ اللَّهَ تَعَالَى) (٢) .

وحكي عن بعضِ المريدينَ قال : كنتُ قد وجدتُ حلاوةَ المناجاةِ في
شِرَّةِ الإرادةِ (٣) ، فأدمنتُ قراءةَ القرآنِ ليلاً ونهاراً ، ثمَّ لحقَّتْني فترةٌ ،

(١) قوت القلوب (٥٠ / ٢) ، ورواه الترمذي (٣٧٨٩) وتسامه : « . . . وأحبوني
بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبي » .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٢٢ / ٩) .

(٣) الشِّرَّةُ : النشاط والحرص ، يقال : شِرَّةُ الشباب ؛ أي : حرصه ونشاطه ، ومنه قوله
صلى الله عليه وسلم - وهو يناسب السياق - : « إن لهذا القرآن شِرَّةً ، ثم إن للناس عنه
فترة . . . » الحديث .

فانقطعتُ عن التلاوة ، قال : فسمعتُ قائلاً يقولُ في المنامِ : إن كنتَ تزعمُ
أنَّكَ تحبُّني .. فلمَ جفوتَ كتابي ؟!

أما ترى ما فيه من لطيفِ عتابي ؟ قال : فانتبهتُ وقد أُشربَ في قلبي
محبةُ القرآن ، فعاودتُ إلى حالي ^(١) .

وقال ابنُ مسعودٍ : (لا ينبغي أن يسألَ أحدُكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن
كانَ يحبُّ القرآن .. فهو يحبُّ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وإن لم يكنْ يحبُّ القرآن ..
فليسَ يحبُّ اللهَ) ^(٢) .

وقال سهلٌ رحمه الله : (علامةُ حبِّ اللهِ تعالى حبُّ القرآن ، وعلامةُ
حبِّ اللهِ وحبِّ القرآن حبُّ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّم ، وعلامةُ حبِّ النبيِّ
صلى اللهُ عليه وسلَّم حبُّ السنَّةِ ، وعلامةُ حبِّ السنَّةِ حبُّ الآخرةِ ، وعلامةُ
حبِّ الآخرةِ بغضُّ الدنيا ، وعلامةُ بغضِّ الدنيا ألا يأخذَ منها إلا زاداً وبلغَةً
إلى الآخرةِ) ^(٣) .

ومنها : أن يكونَ أنسهُ بالخلوةِ ومناجاةِ اللهِ تعالى وتلاوةِ كتابهِ :

فيواظبُ على التهجدِ ، ويغتنمُ هدوءَ الليلِ ، وصفاءَ الوقتِ بانقطاعِ
العوائقِ ، فأقلُّ درجاتِ الحبِّ التلذُّدُ بالخلوةِ بالحبيبِ ، والتنعُّمُ بمناجاتِهِ ،

(١) قوت القلوب (٥٣/٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٥٣/٢) ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٧) .

(٣) قوت القلوب (٥٣/٢) .

فَمَنْ كَانَ النَّوْمُ وَالْإِشْتَغَالُ بِالْحَدِيثِ الَّذِي عِنْدَهُ وَأَطِيبَ مِنْ مُنَاجَاةِ اللَّهِ تَعَالَى . .
كَيْفَ تَصِحُّ مَحَبَّتُهُ ؟ !

قِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ وَقَدْ نَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ : مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ فَقَالَ : مِنْ
الْأَنْسِ بِاللَّهِ (١) .

وَفِي أَخْبَارِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (لَا تَسْتَأْنِسُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِي ، فَإِنِّي
إِنَّمَا أَقْطَعُ عَنِّي رَجُلَيْنِ : رَجُلًا اسْتَبْطَأْتُ ثَوَابِي فَاَنْقَطَعَ ، وَرَجُلًا نَسِيتَنِي فَرَضِي
بِحَالِهِ ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ أَنْ أَكْلَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَأَنْ أَدْعَهُ فِي الدُّنْيَا حَيْرَانًا) (٢) .

وَمَهْمَا أَنْسَ بِغَيْرِ اللَّهِ . . كَانَ يَقْدِرُ أَنْسِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ مُسْتَوْحِشًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ،
سَاقِطًا عَنْ دَرَجَةِ مَحَبَّتِهِ ، وَفِي قِصَّةِ بُرْخ - وَهُوَ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ الَّذِي اسْتَسْقَى بِهِ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ بُرْخًا نَعَمَ
الْعَبْدُ هُوَ لِي ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ عَيْبًا ، قَالَ : يَا رَبِّ ؛ وَمَا عَيْبُهُ ؟ قَالَ : يَعِجُّهُ
نَسِيمُ الْأَسْحَارِ فَيَسْكُنُ إِلَيْهِ ، وَمَنْ أَحَبَّنِي لَمْ يَسْكُنْ إِلَيَّ شَيْءٌ (٣) .

وَرُوي أَنَّ عَابِدًا عَبْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي غِيْضَةٍ دَهْرًا طَوِيلًا ، فَنَظَرَ إِلَى طَائِرٍ قَدْ
عَشَّشَ فِي شَجَرَةٍ يَأْوِي إِلَيْهَا وَيَصْفِرُّ عِنْدَهَا ، فَقَالَ : لَوْ حَوَّلْتُ مَسْجِدِي إِلَى
تِلْكَ الشَّجَرَةِ ، فَكُنْتُ أَنْسُ بِصَوْتِ هَذَا الطَّائِرِ ، قَالَ : فَفَعَلَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠ / ٨) .

(٢) نقله صاحب « القوت » (٦٢٣ / ٩) .

(٣) قوت القلوب (٥٤ / ٢) .

تعالى إلى نبي ذلك الزمان : قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق ؟ !
لأحطنتك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً^(١) .

فإذا ؛ علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب ، وكمال التنعم بالخلوة به ، وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذّة المناجاة ، وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذّة المناجاة ؛ كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه .

وقد انتهت هذه اللذّة ببعضهم حتّى إنّه كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علّة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به^(٢) .

ومهما غلب عليه الحب والأنس . . صارت الخلوة والمناجاة قرّة عين تدفع جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتّى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مراراً ؛ مثل العاشق الولهان ، فإنّه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه ، فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه .

وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا

(١) كذا في « القوت » (٥٤ / ٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩ / ١٠) بنحوه .

(٢) هو عروة بن الزبير ، وقد روى خبره ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦١ / ٤٠) دون تصريح أن القطع كان في الصلاة .

بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» قَالَ : (هَشَّتْ إِلَيْهِ ، وَاسْتَأْنَسَتْ بِهِ) (١) .

وَقَالَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (مَنْ ذَاقَ مِنْ خَالِصِ مُحَبَّةِ اللَّهِ . . شَغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ طَلَبِ الدُّنْيَا ، وَأَوْحَشَهُ عَنْ جَمِيعِ الْبُشْرِ) (٢) .

وَقَالَ مَطَرٌ : (الْمَحَبُّ لَا يَسْأَمُ مِنْ حَدِيثِ حَبِيبِهِ) (٣) .

وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (قَدْ كَذَبَ مَنْ ادَّعَى مُحَبَّتِي إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ . . نَامَ عَنِّي ، أَلَيْسَ كُلُّ مُحَبٍّ يُحِبُّ لِقَاءَ حَبِيبِهِ ؟ فَهَؤُنَا ذَا مَوْجُودٌ لِمَنْ طَلَبَنِي) (٤) .

وَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا رَبِّ ، أَيْنَ أَنْتَ فَأَقْصِدَكَ ؟ فَقَالَ : إِذَا قَصِدْتَ . . فَقَدْ وَصَلْتَ (٥) .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ : (مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ . . أَبْغَضَ نَفْسَهُ) .

وَقَالَ أَيْضاً : (مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ . . فَلَيْسَ بِمُحَبٍّ ؛ يُوَثِّرُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كَلَامِ الْخَلْقِ ، وَلِقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِقَاءِ الْخَلْقِ ، وَالْعِبَادَةَ عَلَى خِدْمَةِ الْخَلْقِ) .



(١) كَذَا فِي « الْقَوَات » (٦٤ / ٢) ، وَرَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي « تَفْسِيرِهِ » (١٨٣ / ١٣ / ٨) .

(٢) أَوْرَدَهُ الْخُرَكُوشِيُّ فِي « تَهْذِيبِ الْأَسْرَارِ » (ص ٩٥) .

(٣) أَوْرَدَهُ الْخُرَكُوشِيُّ فِي « تَهْذِيبِ الْأَسْرَارِ » (ص ٩٦) .

(٤) قَوَاتِ الْقُلُوبِ (٦٠ / ٢) بِنَحْوِهِ .

(٥) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٣١١ / ٩) بِلَفْظٍ : (. . . إِذَا انْقَطَعَتْ . . فَقَدْ وَصَلْتَ) .

ومنها : ألا يتأسف على ما يفوته ممّا سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه
على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته :

فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب ، والتوبة ، قال
بعض العارفين : (إنّ لله عبداً أحبوه واطمأننوا إليه ، فذهب عنهم
التأسف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحفظ أنفسهم إذ كان ملكٌ مليكهم تاماً ،
وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصلٌ إليهم ، وما فاتهم فبحسن تدبيره
لهم) (١) .

وحقّ المحبّ إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه ،
ويشتغل بالعتاب ، ويسأله ويقول : (ربّ ؛ بأيّ ذنبٍ قطعت برّك عني ،
وأبعدتني عن حضرتك ، وشغلتنني بنفسي وبمتابعة الشيطان) ، فيستخرج
ذلك منه صفاء ذكر ورقّة قلبٍ يكفر عنه ما سبق من الغفلة ، وتكون هفوته
سبباً لتجدد ذكره وصفاء قلبه .

ومهما لم ير المحبّ إلا المحبوب ، ولم ير شيئاً إلا منه . . لم يتأسف
ولم يشك ، واستقبل الكلّ بالرضا ، وعلم أنّ المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه
خيرته ، ويذكر قوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .



(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٢٤ / ٩) .

ومنها : أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ، ويسقط عنه تعبها :

كما قال بعضهم : (كابدت الليل عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة) (١) .

وقال الجنيد : (علامة المحبة دوام النشاط ، والدؤوب شهوة تفتربدنه ولا تفتربلبه) (٢) .

وقال بعضهم : (العمل على المحبة لا يدخله الفتور) (٣) .

وقال بعض العلماء : (والله ، ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل) (٤) .

فكل هذا مثاله موجود في المشاهدات (٥) ؛ فإن العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه ، ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقاً على بدنه ، ومهما عجز بدنه . . كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة ، وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به .

فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالباً . . قهر - لا محالة - ما هو دونه ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل . . ترك الكسل في خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال . . ترك المال في حبه .

(١) قوت القلوب (٣٦ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٥٥ / ٢) .

(٣) في (ف) وحدها : (فكل هذا وأمثاله موجود . . .) .

وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل ماله ونفسه حتى لم يبق له شيء :
 ما كان سبب حالك هذه في المحبة ؟ فقال : سمعت يوماً محباً وقد خلا
 بمحبوبه وهو يقول : أنا - والله - أحبك بقلبي كله وأنت معرضٌ عني بوجهك
 كله ، فقال له المحبوب : إن كنت تحبني .. فأيش تنفق علي ؟ فقال :
 يا سيدي ؛ أملكك ما أملك ، ثم أنفق عليك روعي حتى تهلك ، فقلت :
 هذا خلقٌ لخلق ، وعبدٌ لعبد ، فكيف بعبد لمعبود ؟! فكان هذا سببه^(١) .



ومنها : أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم ، شديداً على
 جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه :

كما قال الله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ولا تأخذه لومة
 لائم ، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، وبه وصف الله تعالى أوليائه إذ
 قال : (الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ، ويأوون إلى ذكرى
 كما يأوي النسر إلى وكريه ، ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد ؛
 فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا)^(٢) .

فانظر إلى هذا المثال ؛ فإن الصبي إذا كلف بالشيء .. لم يفارقه
 أصلاً ، وإن أخذ منه .. لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ،

(١) قوت القلوب (٥٥ / ٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢١ / ٣) .

فإن نام.. أخذته معه في ثيابه ، فإذا انتبه.. عاد وتمسك به ، ومهما
فارقه.. بكى ، ومهما وجدته.. ضحك ، ومن نازعه فيه.. أبغضه ، ومن
أعطاه إياه.. أحبه ، وأما النمر.. فإنه لا يملك نفسه عند الغضب ، حتى
يلغ من شدة غضبه أن يهلك نفسه .

فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات.. فقد تمت
محبة وخلص حبه ، فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ، ومن امتزج
بحبه حب غير الله.. تنعم في الآخرة بقدر حبه ؛ إذ يمزج شرابه بقدر من
شراب المقرئين ؛ كما قال تعالى في الأبرار : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ ، ثم
قال : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْثُومٍ ﴾ ﴿ خَتَمَهُ مِيسَكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾
﴿ وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، فإنما طاب شراب الأبرار
لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقرئين ، والشراب عبارة عن جملة نعيم
الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ
لَفِي عِلِّيَّينَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع
إلى حيث يشهده المقرَّبون .

وكما أن الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقرئين
ومشاهدتهم لهم.. فكذلك يكون حالهم في الآخرة ، ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُمُ
إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ، وكما قال تعالى :
﴿ جَزَاءُ وِفَاقًا ﴾ أي : وافق الجزاء أعمالهم ، فقبل الخالص بالصرف من
الشراب ، وقبل المشوب بالمشوب ، وشوب كل شراب على قدر ما سبق

مِنَ الشُّوبِ فِي حُبِّهِ وَأَعْمَالِهِ ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يُقَوْمُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا ﴾ ، ﴿ وَإِنْ
كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ .

فَمَنْ كَانَ حُبُّهُ فِي الدُّنْيَا رَجَاءً لِنَعِيمِ الْجَنَّةِ وَلِلْحُورِ الْعِينِ وَالْقُصُورِ .
مُكَّنَ مِنَ الْجَنَّةِ لِيَتَبَوَّأَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، فِيلْعَبُ مَعَ الْوِلْدَانِ ، وَيَتَمَتَّعُ
بِالنِّسْوَانِ ، فَهَنَّاكَ تَنْتَهِي لَذَّتُهُ فِي الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ فِي
الْمَحَبَّةِ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ وَتَلَذُّ عَيْنُهُ .

وَمَنْ كَانَ مَقْصِدُهُ رَبَّ الدَّارِ وَمَالِكَ الْمَلِكِ ، وَلَمْ يَغْلِبْ عَلَيْهِ إِلَّا حُبُّهُ
بِالْإِخْلَاصِ وَالصَّدَقِ . . أَنْزَلَ فِي مَقْعَدِ صَدِّقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ .

فَالْأَبْرَارُ يَرْتَعُونَ فِي الْبَسَاتِينِ ، وَيَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّاتِ مَعَ الْحُورِ الْعِينِ
وَالْوِلْدَانِ ، وَالْمُقَرَّبُونَ مُلَازِمُونَ لِلْحَضْرَةِ ، عَاكِفُونَ بِطَرْفِهِمْ عَلَيْهَا ،
يَسْتَحْقِرُونَ نَعِيمَ الْجَنَّاتِ بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَرَّةٍ مِنْهَا ، فَقَوْمٌ بِقَضَاءِ شَهْوَةِ الْبَطْنِ
وَالْفَرْجِ مُشْغُولُونَ ، وَلِلْمَجَالِسَةِ أَقْوَامٌ آخَرُونَ .

وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَّةُ ،
وَعَلِيُّونَ لِذَوِي الْأَلْبَابِ » (١) .

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٤٣١ / ٧) ، وابن عدي في « الكامل »
(٣١٣ / ٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » =

ولمَّا قَصَرَتِ الأفهامُ عَنْ دَرْكِ مَعْنَى عَلِيَيْنَ . . عَظَّمَ أَمْرَهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴾ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلْقَارِعَةُ ﴾ ﴿ مَا أَلْقَارِعَةُ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا أَلْقَارِعَةُ ﴾ .

ومنها : أَنْ يَكُونَ فِي حُبِّهِ خَائِفًا مُتَضَائِلًا تَحْتَ الْهَيْبَةِ وَالتَّعْظِيمِ :

وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ الْخَوْفَ يَضَادُّ الْحُبَّ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ إدْرَاكُ الْعَظَمَةِ يَوْجِبُ الْهَيْبَةَ ؛ كَمَا أَنَّ إدْرَاكَ الْجَمَالِ يَوْجِبُ الْحُبَّ ، وَلِخُصُوصِ الْمُحِبِّينَ مَخَافُوفٌ فِي مَقَامِ الْمَحَبَّةِ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ ، وَبَعْضُ مَخَافِهِمْ أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ .

فَأَوَّلُهَا خَوْفُ الْإِعْرَاضِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ خَوْفُ الْحِجَابِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ خَوْفُ الْإِبْعَادِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مِنْ (سُورَةِ هُودٍ) هُوَ الَّذِي شَيَّبَ سَيِّدَ الْمُحِبِّينَ ^(١) ؛ إِذْ سَمِعَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ .

وَأِنَّمَا تَعْظُمُ هَيْبَةُ الْبَعْدِ وَخَوْفُهُ فِي قَلْبِ مَنْ أَلْفَ الْقَرَبَ وَذَاقَهُ وَتَنَعَّمَ بِهِ ، فَحَدِيثُ الْبَعْدِ فِي حَقِّ الْمُبْعَدِينَ يَشِيْبُ سَمَاعُهُ أَهْلَ الْقَرَبِ فِي الْقَرَبِ ،

= (١٣٠٤) دُونَ زِيَادَةَ : (وَعَلِيُونَ لِذَوِي الْأَبَابِ) ، وَهِيَ عِنْدَ صَاحِبِ « الْقُوتِ » (١١٧ / ١) ، وَقَدْ رَوَى نَحْوَ هَذِهِ الزِّيَادَةَ الْحَافِظُ الْمَزِي فِي « تَهْذِيبِ الْكَمَالِ » (١١٧ / ٢٦ - ١١٨) عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْخَوَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .
(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٢٩٧) .

ولا يحنُّ إلى القربِ مَنْ أَلْفَ البعدِ ، ولا يبكي لخوفِ البعدِ مَنْ لَمْ يُمَكِّنْ مِنْ
بساطِ القربِ .

ثمَّ خوفُ الوقوفِ وسلبُ المزيدِ : فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ درجاتِ القربِ لا نهايةَ
لها ، وحقُّ العبدِ أَنْ يجتهدَ في كلِّ نفسٍ حتَّى يزدادَ فيه قرباً ، ولذلك قالَ
رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ استوى يوماً.. فهو مغبونٌ ، وَمَنْ
كَانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ أَمْسِهِ.. فهو ملعونٌ »^(١) .

وكذلك قالَ عليه الصلاة والسلامُ : « إِنَّهُ لِيَغَانُ عَلَى قَلْبِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ
حتَّى أَسْتَغْفِرُ اللهَ سَبْعِينَ مَرَّةً »^(٢) ، وَإِنَّمَا كَانَ اسْتِغْفَارُهُ مِنَ الْقَدَمِ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّهُ
كَانَ بَعْدَ الْإِضَافَةِ إِلَى الْقَدَمِ الثَّانِي^(٣) ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى الْفُتُورِ
فِي الطَّرِيقِ ، وَالِاتِّفَاتِ إِلَى غَيْرِ الْمَحْبُوبِ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ :
(إِنَّ أَدْنَى مَا أَصْنَعُ بِالْعَالَمِ إِذَا آثَرَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِي أَنْ أُسْلِبَهُ لَذِيذَ

(١) هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٩١٠) من حديث علي رضي الله عنه ،
وانظر « الإتحاف » (٦٢٨ / ٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥ / ٨) عن رؤيا رآها
الحسن البصري وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم الموعظة فلقنه إياها ، وهو عند
البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٨٧) رؤيا رآها عبد العزيز بن أبي رواد للنبي صلى الله
عليه وسلم يوصيه به .

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ،
وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين
مرة » .

(٣) في (ب) : (المقام) بدل (القدم) في الموضعين .

مناجاتي^(١) ، فسلبُ المزيدِ بسببِ الشهواتِ عقوبةُ العمومِ ، فأما
الخصوصُ . . فيحجبُهُم عن المزيدِ مجردُ الدعوى والعجبِ والركونِ إلى
ما ظهرَ مِنْ مبادي اللطفِ ، وذلكَ هو المكرُّ الخفيُّ الذي لا يقدرُ على
الاحترازِ منه إلا ذوو الأقدامِ الراسخةِ .

ثمَّ خوفُ فوتِ ما لا يُدركُ بعدَ فوتهِ : سمعَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ قائلاً يقولُ
وهو في سياحتهِ وكانَ على جبلٍ^(٢) :

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ مَغْفُورٌ رُ سَوَى الْإِعْرَاضِ عَنِّي
قَدْ وَهَبْنَا لَكَ مَا فَاتَ تَ بَقِيَ مَا فَاتَ مِنِّي

فاضطربَ وغشيَ عليه ، فلم يبقَ يوماً وليلاً ، وطرأتَ عليه أحوالٌ ، ثمَّ
قالَ : سمعتُ النداءَ مِنَ الجبلِ : يا إبراهيمُ ؛ كن عبداً ، فكنتُ عبداً
واسترحتُ^(٣) .

ثمَّ خوفُ السلوِّ عنه : فإنَّ المحبَّ يلازمُهُ الشوقُ والطلبُ الحثيثُ ، فلا
يفترُّ عن طلبِ المزيدِ ، ولا يتسلَّى إلا بلطفٍ جديدٍ ، فإنَّ تسلَّى عن ذلكِ . .
كانَ ذلكَ سببَ وقوفِهِ أو سببَ رجوعِهِ .

(١) قوت القلوب (١٤١ / ١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٠ / ٢) .

(٢) انظر « الكشكول » (١٥٤ / ١) .

(٣) قوت القلوب (٥٨ / ٢) ، وفيه : (وهبنا منك) بدل (وهبنا لك) ، وشرح لقول
إبراهيم رحمه الله تعالى : (كن عبداً) فقال : (لا يملكك إلا واحد تكون عبداً له حراً
مما سواه ، ولا تملك شيئاً ، فإن الأشياء في خزانة مليكها) .

والسلوُ يدخلُ عليه مِنْ حيثُ لا يشعرُ ؛ كما قد يدخلُ عليه الحبُّ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، فَإِنَّ هَذِهِ التَّغْلِبَاتِ فِي الْقَلْبِ لَهَا أَسْبَابٌ خَفِيَّةٌ سَمَاوِيَّةٌ لَيْسَ فِي قُوَّةِ الْبَشَرِ الْإِطْلَاعُ عَلَيْهَا ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَكْرَ بِهِ وَاسْتَدْرَاجَهُ . . أَخْفَى عَنْهُ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنَ السَّلْوِ ، فَيَقِفُ مَعَ الرَّجَاءِ ، وَيَغْتَرُّ بِحَسَنِ الظَّنِّ أَوْ بِغَلْبَةِ الْغَفْلَةِ وَالْهَوَى وَالنَّسْيَانِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ جُنُودِ الشَّيْطَانِ الَّتِي تَغْلِبُ جُنُودَ الْمَلَائِكَةِ ؛ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالذِّكْرِ وَالْبَيَانِ ، وَكَمَا أَنَّ مِنْ أَوْصَافِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظْهَرُ فَيَقْتَضِي هَيْجَانَ الْحَبِّ وَهِيَ أَوْصَافُ اللَّطْفِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ . . فَمِنْ أَوْصَافِهِ مَا يَلُوحُ فَيُورِثُ السَّلْوَ ؛ كَأَوْصَافِ الْجَبَرِيَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْإِسْتِغْنَاءِ ، وَذَلِكَ مِنْ مَقْدَمَاتِ الْمَكْرِ وَالشَّقَاءِ وَالْحَرَمَانِ .

ثُمَّ خَوْفُ الْإِسْتِبْدَالِ بِهِ بِإِنْتِقَالِ الْقَلْبِ مِنْ حَبِّهِ إِلَى حَبِّ غَيْرِهِ : وَذَلِكَ هُوَ الْمَقْتُ وَالسَّلْوُ عَنْهُ مَقْدَمَةٌ هَذَا الْمَقَامِ ، وَالْإِعْرَاضُ وَالْحِجَابُ مَقْدَمَةُ السَّلْوِ ، وَضِيقُ الصَّدْرِ بِالْبَرِّ وَانْقِبَاضُهُ عَنْ دَوَامِ الذِّكْرِ وَمَلَالُهُ لوظَائِفِ الْأَوْرَادِ أَسْبَابُ هَذِهِ الْمَعَانِي وَمَقْدَمَاتُهَا ، فَظَهَرُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ دَلِيلٌ عَلَى النُّقْلِ مِنْ مَقَامِ الْحَبِّ إِلَى مَقَامِ الْمَقْتِ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْهُ ، وَمُلَازِمَةُ الْخَوْفِ لِهَذِهِ الْأُمُورِ وَشِدَّةُ الْحَذَرِ مِنْهَا بِصِفَاءِ الْمِرَاقَبَةِ دَلِيلُ صَدَقِ الْحَبِّ ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا . . خَافَ - لَا مُحَالَةَ - فَقْدَهُ ، فَلَا يَخْلُو الْمَحَبُّ عَنْ خَوْفٍ إِذَا كَانَ الْمَحْبُوبُ مِمَّا يُمْكِنُ فَوَاتُهُ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : (مَنْ عَبْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَحْضِ الْمَحَبَّةِ مِنْ غَيْرِ

خوفٍ .. هلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة .. انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف .. أحبه الله تعالى ، فقرَّبه ومكَّنه وعلمه (١) .

فالمحب لا يخلو عن خوف ، والخائف لا يخلو عن محبة ، ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ، ولم يكن له من الخوف إلا يسيرٌ .. يُقال : هو في مقام المحبة ، ويُعدُّ من المحييين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب ، فلو غلب الحب واستولت المعرفة .. لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب .

فقد روي في بعض الأخبار : أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام في الجبال ، وحرَّ عقله ، وولَّه قلبه ، وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ، ولا ينتفع به شيء ، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال : يا رب أنقصه من الذرة بعضها ، فأوحى الله تعالى إليه : إنما أعطيناها جزءاً من مئة ألف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك أن مئة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا ، فأخرتُ إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت : أعطيتهم كما أعطيتُ ، فقسمتُ ذرة من المعرفة بين مئة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك ، فقال : سبحانك يا أحكم الحاكمين ! أنقصه ممَّا

(١) قوت القلوب (٥٩ / ٢) ، وفيه (عرف) بدل (عبد) في المواضع الثلاثة .

أعطيته ، فأذهب الله عنه جملة الجزء ، وبقي معه عشر معشاره ، وهو جزء
من عشرة آلاف ألف جزء من ذرة^(١) ، فاعتدل خوفه وحبّه ورجاؤه ، وسكن
وصار كسائر العارفين^(٢) .

وقد قيل في وصف حال العارف^(٣) :

قَرِيبُ الْوَجْدِ ذُو مَرَمَى بَعِيدٍ عَنْ الْأَخْرَارِ مِنْهُمْ وَالْعَبِيدِ
غَرِيبُ الْوَصْفِ ذُو عِلْمٍ غَرِيبٍ كَأَنَّ فُؤَادَهُ زُبْرُ الْحَدِيدِ
لَقَدْ عَزَّتْ مَعَانِيهِ فَعَابَتْ عَنْ الْأَبْصَارِ إِلَّا لِلشَّهِيدِ
يَرَى الْأَعْيَادَ فِي الْأَوْقَاتِ تَجْرِي لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفُ عِيدِ
وَلِلْأَحْبَابِ أَفْرَاحٌ بِعِيدِ وَلَا يَجِدُ الشُّرُورَ لَهُ بِعِيدِ

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتاً يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين
وأن ذلك لا يجوز إظهاره ، وهي هذه الأبيات^(٤) :

سَرَتْ بِأُنَاسٍ فِي الْغُيُوبِ قُلُوبُهُمْ فَحَلُّوا بِقُرْبِ الْمَاجِدِ الْمُتَقَضِّلِ
عِرَاصاً بِقُرْبِ اللَّهِ فِي ظِلِّ قُدْسِهِ تَجُولُ بِهَا أَرْوَاحُهُمْ وَتَنْقَلِ
مَوَارِدُهُمْ فِيهَا عَلَى الْعِزِّ وَالنَّهْيِ وَمَصْدَرُهُمْ عَنْهَا لِمَا هُوَ أَكْمَلُ

(١) في (ب ، د ، ع ، ف) : (وهو جزء من ألف ألف جزء) .

(٢) قوت القلوب (٦٠ / ٢) .

(٣) هكذا أنشد هذه الأبيات صاحب « القوت » ، إلا أنه بتقديم البيت الأخير على الذي
قبله . « إتحاف » (٦٣١ / ٩) .

(٤) قوت القلوب (٥٩ / ٢) ، الإتحاف (٦٣٢ / ٩) .

تَرُوحُ بِعِزِّ مُفَرِّدٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَفِي حُلَلِ التَّوْحِيدِ تَمْشِي وَتَرْفُلُ
وَمِنْ بَعْدِ هَذَا مَا تَدِقُّ صِفَاتُهُ وَمَا كَتَمَهُ أَوْلَى لَدَيْهِ وَأَعْدَلُ
سَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي بِهِ مَا يَصُونُهُ وَأَبْذُلُ مِنْهُ مَا أَرَى الْحَقَّ يَبْذُلُ
وَأُعْطِي عِبَادَ اللَّهِ مِنْهُ حُقُوقَهُمْ وَأَمْنَعُ مِنْهُ مَا أَرَى الْمَنْعَ يَفْضُلُ
عَلَى أَنْ لِلرَّحْمَنِ سِرّاً يَصُونُهُ إِلَى أَهْلِهِ فِي السِّرِّ وَالصَّوْنِ أَجْمَلُ

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ،
ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء منها لمن لم ينكشف له ، بل لو
اشترك الناس فيها . . لخربت الدنيا ، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة
الدنيا .

بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوماً . . لخربت الدنيا ؛ لزهدهم
فيها ، وبطلت الأسواق والمعاش .

بل لو أكل العلماء الحلال . . لاشتغلوا بأنفسهم ، ولوقفت الألسنة
والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ، ولكن لله تعالى فيما هو شر في
الظاهر أسراراً وحكم ، كما أن له في الخير أسراراً وحكماً ، ولا منتهى
لحكمته ، كما لا غاية لقدرته .

ومنها : كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقي من إظهار الوجد
والمحبة :

تعظيماً للمحبوب ، وإجلالاً له ، وهيبةً منه ، وغيره على سرّه ؛ فإنّ الحبّ سرٌّ من أسرار الحبيب ، ولأنّه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حدّ المعنى ويزيد عليه ، فيكون ذلك من الافتراء ، وتعظم العقوبة عليه في العقبى ، وتتعلّل عليه البلوى في الدنيا .

نعم ، قد يكون للمحبّ سكرة في حبه حتّى يدهش فيه ، وتضطرب أحواله ، فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تمخّل أو اكتساب . . فهو معذور ؛ لأنّه مقهور .

وربّما تشتعل من الحبّ نيرانه ، فلا يُطاق سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول : [من الطويل]

وَقَالُوا: قَرِيبٌ، قُلْتُ: مَا أَنَا صَانِعٌ بِقُرْبِ شُعَاعِ الشَّمْسِ لَوْ كَانَ فِي حِجْرِي
فَمَا لِي مِنْهُ غَيْرُ ذِكْرٍ بِخَاطِرٍ يُهَيِّجُ نَارَ الْحُبِّ وَالشَّوْقِ فِي صَدْرِي

والعاجز عنه يقول : [من السريع]

يُخْفِي فَيَبْدِي الدَّمْعُ أَسْرَارَهُ وَيُظْهِرُ الْوَجْدَ عَلَيْهِ النَّفْسُ

ويقول أيضاً^(١) : [من الطويل]

وَمَنْ قَلْبُهُ مَعَ غَيْرِهِ كَيْفَ حَالُهُ وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ

وقد قال بعض العارفين : (أكثر الناس من الله عز وجلّ بعداً أكثرهم

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٨١ / ٤) .

إشارة به^(١) ، كأنه أراد مَنْ يكثر التعريض به في كل شيء ، ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد ، فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل .

ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة ، فراه مبتلى ببلاء ، فقال : لا يحبه مَنْ وجد ألم ضربه ، فقال الرجل : لكني أقول : لا يحبه مَنْ لم يتنعم بضربه ، فقال ذو النون : ولكني أقول : لا يحبه مَنْ شهر نفسه بحبه ، فقال الرجل : أستغفر الله وأتوب إليه^(٢) .

فإن قلت : المحبة منتهى المقامات ، وإظهارها إظهار للخير ، فلماذا يُستنكر ؟

فاعلم : أن المحبة محمودة ، وظهورها محمود أيضاً ، وإنما المذموم التظاهر بها ؛ لما يدخل فيه من الدعوى والاستكبار ، وحق المحب أن ينم على حبه الخفي أفعاله وأحواله دون أقواله ، بل ينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب ، بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره . . فشرك في الحب ، وقادح فيه ؛ كما ورد في الإنجيل : (إذا تصدقت . . فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك ، فالذي يرى الخفيات

(١) طبقات الصوفية (ص ٧٣) ، قوت القلوب (٢/ ٦٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٧) .

يجزيك به علانية ، وإذا صمت . . فاغسل وجهك وادهن رأسك ؛ لئلا يعلم
بذلك غير ربك (١) .

فإظهار القول والفعل كله مذموم ، إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق
اللسان واضطربت الأعضاء . . فلا يلام فيه صاحبه .

حكى أن رجلاً رأى من بعض المجانين ما استجعله فيه (٢) ، فأخبر بذلك
معروفاً الكرخي رحمه الله ، فتبسّم ثم قال : يا أخي ؛ له محبوب صغار
وكبار ، وعقلاء ومجانين ، فهذا الذي رأته من مجانينهم (٣) .

ومما يكره التظاهر بالحب بسببه : أن المحب إن كان عارفاً ، وعرف
أحوال الملائكة في حبهم الدائم وشوقهم اللازم ، الذي به يسبحون الليل
والنهار لا يفترون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . .
لاستكف من نفسه ومن إظهار حبه ، وعلم قطعاً أنه أحسن المحبين في
مملكته ، وأن حبه أنقص من حب كل محب لله تعالى .

قال بعض المكاشفين من المحبين : عبتُ الله تعالى ثلاثين سنةً بأعمال
القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة ، حتى ظننتُ أن لي

(١) وقد روى أبو نعيم في « الحلية » (١٣٦/١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :
(إذا أصبح أحدكم صائماً . . فليترجل ، وإذا تصدق بصدقة يمينه . . فليخفها عن
شماله ، وإذا صلى صلاة أو صلى تطوعاً . . فليصلها في داخله) .

(٢) كذا في النسخ : (استجعله فيه) ، وفي (ق) : (استجله فيه) .

(٣) قوت القلوب (٦٧/٢) .

عند الله شأناً ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السماوات في قصة طويلة قال في آخرها : فبلغت صفّاً من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : نحن المحبّون لله عزّ وجلّ ، نعبده ههنا منذ ثلاث مئة ألف سنة ، ما خطر على قلوبنا قطّ سواه ، ولا ذكرنا غيره ، قال : فاستحييت من أعمالي ، فوهبتُها لمن حقّ عليه الوعيد تخفيفاً عنهم في جهنّم^(١) .

فإذا ؛ من عرف نفسه ، وعرف ربه ، واستحيا منه حقّ الحياء . . خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى .

نعم ، يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته ؛ كما حكى عن الجنيد أنه قال : مرضَ أستاذنا السريّ رحمه الله ، فلم نعرف لعلته دواءً ، ولا عرفنا لها سبباً ، فوصفَ لنا طبيبٌ حاذقٌ ، فأخذنا قارورة مائه ، فنظرَ إليه الطبيبُ وجعلَ ينظرُ ملياً ، ثمّ قال لي : أراه بولَ عاشقٍ ، قال الجنيدُ : فصعقتُ وغشيَ عليّ ، ووقعتِ القارورةُ من يدي ، ثمّ رجعتُ إلى السريّ فأخبرته ، فتبسّمَ ثمّ قال : قاتله الله ما أبصره ! قلتُ : يا أستاذ ؛ وتبينُ المحبةُ في البولِ ؟ قال : نعم .

وقد قال السريّ مرّةً : (لو شئتُ أقولُ : ما أيسرَ جلدي على عظمي ، ولا سلّ جسمي إلا حبه) ، ثمّ غشيَ عليه^(٢) .

(١) قوت القلوب (٦٨ / ٢) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٨٧) بنحوه .

وتدلُّ الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية
فهذه مجامع علامات الحب وثمراته .



ومنها : الأنس والرضا : كما سيأتي .

وبالجملة : جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، وما لا
يثمره الحب فهو اتباع الهوى ، وهو من رذائل الأخلاق .

نعم ، قد يحب الله لإحسانه إليه ، وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم
يحسن إليه ، والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين .

ولذلك قال الجنيد : (الناس في محبة الله تعالى عام وخاص ، فالعوام
نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه ، فلم يتمالكوا أن أرضوه ،
إلا أنهم تقلُّ محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ، فأما الخاصة ..
فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ، ولما
عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى .. لم يمتنعوا أن أحبوهُ ؛ إذ استحقَّ
عندهم المحبة بذلك لأنه أهلُّ لها ولو أزال عنهم جميع النعم .

نعم ، من الناس من يحبُّ هواه وعدوَّ الله إبليس ، وهو مع ذلك يلبسُ
على نفسه بحكم الغرور والجهل ، فيظنُّ أنه محبُّ لله عزَّ وجلَّ (١) ، وهو
الذي فُقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبسُ بها نفاقاً ورياءً وسمعةً وغرضه

(١) قوت القلوب (٢/ ٨٢) .

عاجلُ حظِّ الدنيا ، وهو يظهرُ مِنْ نفسه خلافَ ذلك ؛ كعلماءِ السوءِ وقرَّاءِ السوءِ ، أولئك بغضاءِ الله في أرضِهِ .

وكانَ سهلٌ إذا تكَلَّمَ مع إنسانٍ . . قالَ : يا دُوسْتُ^(١) - أي : يا حبيبُ - فقيلَ لَهُ : قد لا يكونُ حبيباً ، فكيفَ تقولُ هذا ؟! فقالَ في أذنِ القائلِ سرّاً : لا يخلو إمّا أن يكونَ مؤمناً أو منافقاً ، فإن كانَ مؤمناً . . فهو حبيبُ الله عزَّ وجلَّ ، وإن كانَ منافقاً . . فهو حبيبُ إبليسَ^(٢) .

وقد قالَ أبو ترابِ النخشيُّ في علاماتِ المحبَّةِ أبياتاً ، وهي^(٣) : [من الكامل]

لَا تُخَدَعَنَّ فَلِلْمُحِبِّ دَلَائِلُ	وَلَدَيْهِ مِنْ تُحَفِ الْحَبِيبِ وَسَائِلُ
مِنْهَا تَنْعُمُهُ بِمُرِّ بَلَائِهِ	وَسُرُورُهُ فِي كُلِّ مَا هُوَ فَاعِلُ
فَالْمَنْعُ مِنْهُ عَطِيَّةٌ مَقْبُولَةٌ	وَالْفَقْرُ إِكْرَامٌ وَبِرٌّ عَاجِلُ
وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مِنْ عَزَمِهِ	طَوْعَ الْحَبِيبِ وَإِنْ أَلَحَّ الْعَاذِلُ
وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مُتَبَسِّمًا	وَالْقَلْبُ فِيهِ مِنَ الْحَبِيبِ بَلَابِلُ
وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مُتَقَهِّمًا	لِكَلَامٍ مَنْ يَحْظِي لَدَيْهِ السَّائِلُ
وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مُتَقَشِّفًا	مُتَحَفِّظًا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ قَائِلُ

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ^(٣) :

وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُشْمِراً
فِي خِرْقَتَيْنِ عَلَى شُطُوطِ السَّاحِلِ

(١) لفظة فارسية .

(٢) قوت القلوب (٨٢ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (٦٣ / ٢) .

وَمِنْ الدَّلَائِلِ حُزْنُهُ وَنَحِيْبُهُ
وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَافِرًا
وَمِنْ الدَّلَائِلِ زُهْدُهُ فِيمَا يَرَى
وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ بَاكِيًا
وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَلِّمًا
وَمِنْ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ رَاضِيًا
وَمِنْ الدَّلَائِلِ ضِحْكُهُ بَيْنَ الْوَرَى

جَوْفَ الظَّلَامِ فَمَا لَهُ مِنْ عَازِلٍ
نَحْوَ الْجِهَادِ وَكُلِّ فِعْلٍ فَاضِلٍ
مِنْ دَارِ ذُلٍّ وَالنَّعِيمِ الزَّائِلِ
أَنْ قَدْ رَأَاهُ عَلَى قَيْحِ فَعَائِلٍ^(١)
كُلِّ الْأُمُورِ إِلَى الْمَلِكِ الْعَادِلِ
بِمَلِكِهِ فِي كُلِّ حُكْمٍ نَازِلِ
وَالْقَلْبُ مَحْزُونٌ كَقَلْبِ الثَّائِلِ



(١) في غير (ع) : (فاعل) بدل (فعائل) ، وفي (ب) : (باطل) .

بيان معنى الأُنس بالله تعالى

قد ذكرنا أنَّ الأُنسَ والخوفَ والشوقَ مِنْ آثارِ المحبَّةِ ، إلا أنَّ هذه آثارٌ مختلفةٌ ، تختلفُ على المحبِّ بحسَبِ نظريهِ ، وما يغلبُ عليه في وقتِهِ ، فإذا غلبَ عليه التطلُّعُ مِنْ وراءِ حجبِ الغيبِ إلى منتهى الجمالِ ، واستشعرَ قصورهَ عن الاطلاعِ على كنهِ الجلالِ . . انبعثَ القلبُ إلى الطلبِ ، وانزعجَ له ، وهاجَ إليه ، وتُسمَّى هذه الحالةُ في الانزعاجِ شوقاً ، وهو بالإضافة إلى أمرٍ غائبٍ .

وإذا غلبَ عليه الفرحُ بالقربِ ، ومشاهدةُ الحضورِ بما هو حاصلٌ مِنَ الكشفِ ، وكانَ نظرهُ مقصوراً على مطالعةِ الجمالِ الحاضرِ المكشوفِ ، غيرَ ملتفتٍ إلى ما لم يدركه بعدُ . . استبشَرَ القلبُ بما يلاحظُهُ ، فيُسمَّى استبشارُهُ أنساً .

وإنَّ كانَ نظرهُ إلى صفاتِ العزِّ ، والاستغناءِ وعدمِ المبالاةِ ، وخطرِ إمكانِ الزوالِ والبعدِ . . تألَّم القلبُ بهذا الاستشعارِ ، فيُسمَّى تألُّمُهُ خوفاً .

وهذه الأحوالُ تابعةٌ لهذه الملاحظاتِ ، والملاحظاتُ تابعةٌ لأسبابِ تقتضيها لا يمكنُ حصرُها ، فالأُنسُ : معناه استبشارُ القلبِ وفرحُهُ بمطالعةِ الجمالِ ، حتَّى إنَّهُ إذا غلبَ ، وتجرَّدَ عن ملاحظةِ ما غابَ عنه ، وما يتطرَّقُ إليه مِنْ خطرِ الزوالِ . . عظمَ نعيمُهُ ولذَّتهُ .

وَمِنْ هُنَا نَظَرَ بَعْضُهُمْ حَيْثُ قِيلَ لَهُ : أَنْتَ مُشْتَاقٌ ؟ فَقَالَ : لَا ، إِنَّمَا

الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضراً . . فإلى مَنْ يُشتاق ؟! (١) .
وهذا كلامٌ مستغرقٍ بالفرح بما ناله ، غير ملتفتٍ إلى ما بقي في الإمكان
من مزايا الألفاظ .

ومن غلب عليه حال الأنس . . لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ،
كما حكى أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل ، فقيل له : من أين أقبلت ؟
فقال : من الأنس بالله (٢) .

وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحُّش من غير الله ، بل كل ما يعوق عن
الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روي أن موسى عليه السلام
لما كلمه ربه . . مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه
الغشيان (٣) ؛ لأن الحب يُوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ،
فيخرج من القلب عذوبة ما سواه .

ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه : (يا مَنْ آنسني بذكره ، وأوحشني
من خلقه) (٤) .

وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كُنْ لِي مُشْتاقاً ، وبي مستأنساً ،
ومن سواي مستوحشاً (٥) .

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠ / ٨) .

(٣) في (ع ، ص) : (أخذه الغشيان) بدل (أخذه الغشيان) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٧ / ١٠) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٧ / ١٠) .

وقيل لرابعة : بِمَ نلتِ هذه المتزلة ؟ قالت : بتركي ما لا يعنيني ،
وأنسي بمن لم يزل^(١) .

وقال عبد الواحد بن زيد : مررتُ براهبٍ فقلتُ له : يا راهبُ ؛ لقد
أعجبك الوحدة ؟ فقال : يا هذا ، لو ذقت حلاوة الوحدة . . لاستوحشت
إليها من نفسك ، الوحدة رأسُ العبادَةِ ، قلتُ : يا راهبُ ؛ ما أقلُّ ما تجدُ
في الوحدة ؟ قال : الراحةُ من مداراةِ الناسِ ، والسلامةُ من شرِّهم ، قلتُ :
يا راهبُ ؛ متى يذوق العبدُ حلاوةَ الأنسِ باللهِ تعالى ؟ قال : إذا صفا الودُّ ،
وخلصتِ المعاملةُ ، قلتُ : ومتى يصفو الودُّ ؟ قال : إذا اجتمعَ الهمُّ فصارَ
هماً واحداً في الطاعة^(٢) .

وقال بعضُ الحكماءِ : عجباً للخلائقِ كيفَ أرادوا بكِ بدلاً ! عجباً
للقلوبِ كيفَ استأنستْ بسواكِ عنكِ !

فإن قلتَ : فما علامةُ الأنسِ ؟

فاعلمُ : أنَّ علامتهُ الخاصَّةُ ضيقُ الصدرِ من معاشرَةِ الخلقِ ، والتبرُّمُ
بهمُ ، واستهتارُهُ بعدوبةِ الذكرِ ، فإنْ خالطَ . . فهو كمنفردٍ في جماعةٍ ،
ومجتمعٍ في خلوةٍ ، وغريبٍ في حضرٍ ، وحاضرٍ في سفرٍ ، وشاهدٍ في

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٧/١٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٧/١٠) .

غيبية ، وغائب في حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال عليّ كرم الله وجهه في وصفهم : (هُم قَوْمٌ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، فَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَ الْمُتَرْفُونَ ، وَأَنْسَوْا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ ، صَحَبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مَعْلُوقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى ، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالِدَعَاةُ إِلَى دِينِهِ)^(١) .

فهذا معنى الأنس بالله ، وهذه علامته ، وهذه شواهدُه .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب ؛ لظنه أن ذلك يدلُّ على التشبيه ، وجهله بأنَّ جمالَ المدركاتِ بالبصائرِ أكملُ من جمالِ المبصراتِ ، ولذَّةُ معرفتها أغلبُ على ذوي القلوبِ ، ومنهم أحمدُ بنُ غالبٍ ، ويُعرفُ بـغلامِ الخليلِ ، أنكرَ على الجنيدِ وعلى أبي الحسينِ النوريِّ والجماعةِ حديثَ الحبِّ والشوقِ والعشقِ^(٢) ، حتَّى أنكرَ بعضهم مقامَ الرضا وقالَ : ليسَ إلا الصبرُ ، فأما الرضا . . فغيرُ متصوِّرٍ ، وهذا كلهُ كلامٌ ناقصٌ قاصرٌ ، لم يطلع من مقاماتِ الدينِ إلا على القشورِ ، فظنَّ أنَّه لا وجودَ إلا للقشرِ ، فإنَّ المحسوساتِ وكلَّ ما يدخلُ في الخيالِ في طريقِ الدينِ قشرٌ مجردٌ ، ووراءَهُ اللَّبُّ المطلوبُ ، فمن لم يصلْ من الجوزِ إلا إلى قشرِهِ . . يظنُّ أنَّ الجوزَ خشبٌ كلهُ ، ويستحيلُ عندهُ خروجُ

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣١١) .

(٢) قوت القلوب (٦٤ / ٢) ، وفتنته تعرف بمحنة الصوفية ، حتَّى رُفِعَ أمرهم إلى القتل ،

وتقدم تعليقاً ذكر قصتهم . وانظر « الحلية » (٢٥٠ / ١٠) .

الدهن منه لا محالة ، وهو معذور ، ولكن عذره غير مقبول ، وقد
 قيل (١) :

[من البيط]

الأنس بالله لا يخويه بطلان وليس يذركه بالحوّل مُحْتال
 والآنسون رجال كلهم نُجِب وكلهم صَفْوَة لله عَمَّال



(١) قوت القلوب (٦٤ / ٢) عن بعض العارفين .

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تشهره غلبة الأنس

اعلم : أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ، ولم يشوشه قلق الشوق ، ولم ينغصه خوف التغير والحجاب . . فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، ولكنه محتمل ممتن أقيم في مقام الأنس ، ومن لم يقم في ذلك المقام ، ويتشبه بهم في الفعل والكلام . . هلك به وأشرف على الكفر .

ومثاله : مناجاة بُرْخ الأسود الذي أمر الله تعالى كلمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى عليه السلام يستسقي لهم في سبعين ألفاً ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم ، سرائرهم خبيثة ، يدعونني على غير يقين ، ويأمنون مكري ، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له : بُرْخ ، فقل له يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام ، فلم يعرف ، فبينا موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود ، في شملة قد عقدتها على عنقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل ، فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمي بُرْخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين ، اخرج فاستسق لنا ، فخرج ، فقال في كلامه : ما هذا من فعالك ! ولا هذا من حلمك ! وما الذي بدا لك ؟ !

أَنْقَضَتْ عَلَيْكَ عَيُونُكَ؟^(١) أَمْ عَانَدْتَ الرِّيحَ عَنْ طَاعَتِكَ؟! أَمْ نَفَدَ مَا عِنْدَكَ؟! أَمْ اشْتَدَّ غَضَبُكَ عَلَى الْمَذْنِبِينَ؟! أَلَسْتَ كُنْتَ غَفَّاراً؟! قَبْلَ خَلْقِ الْخَطَّائِينَ خَلَقْتَ الرَّحْمَةَ ، وَأَمَرْتَ بِالْعَطْفِ ، أَمْ تَرِينَا أَنَّكَ مَمْتَنِعٌ؟! أَمْ تَخْشَى الْقُوَّةَ فَتَعْجَلُ بِالْعَقُوبَةِ؟! قَالَ : فَمَا بَرَحَ حَتَّى اخْضَلْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالْقَطْرِ ، وَأَنْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى الْعُشْبَ فِي نَصْفِ يَوْمٍ حَتَّى بَلَغَ الرُّكْبَ ، قَالَ : فَرَجَعَ بُرْخُ ، فَاسْتَقْبَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : كَيْفَ رَأَيْتَ حِينَ خَاصَمْتُ رَبِّي كَيْفَ أَنْصَفَنِي ، فَهَمَّ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : إِنَّ بُرْخًا يَضْحَكُنِي كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢) .

وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ : احْتَرَقَتْ أَخْصَاصٌ بِالْبَصْرَةِ ، فَبَقِيَ فِي وَسْطِهَا خَصٌّ لَمْ يَحْتَرَقْ ، وَأَبُو مُوسَى يَوْمَئِذٍ أَمِيرُ الْبَصْرَةِ ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ ، فَبَعَثَ إِلَى صَاحِبِ الْخَصِّ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ بِشَيْخٍ ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ؛ مَا بَالُ خُصِّكَ لَمْ يَحْتَرَقْ؟ قَالَ : إِنِّي أَقْسَمْتُ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَلَا يَحْرِقُهُ ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « يَكُونُ فِي أُمَّتِي قَوْمٌ شَعْنُهُمْ رُؤُوسُهُمْ دَنَسَةٌ ثِيَابُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللَّهِ . . . لَا بَرَّ لَهُمْ »^(٣) .

(١) فِي (ب) : (أَنْقَضَتْ عَلَيْكَ عَهْدُكَ) ، وَفِي « الْقُوَّة » (٦٥ / ٢) : (غِيُوْتُكَ) وَهِيَ كَذَلِكَ فِي (ف) .

(٢) يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ مِنْ ضَنَائِنِ أَوْلِيَائِهِ . « إِتْحَاف » (٦٤١ / ٩) ، وَالْخَبَرُ عِنْدَ صَاحِبِ « الْقُوَّة » (٦٥ / ٢) .

(٣) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « الْأَوْلِيَاء » (٤٢) ، وَالْمَرْفُوعُ مِنْ حَدِيثِهِ عِنْدَ الدَّيْلَمِيِّ فِي « مُسْنَدِ الْفَرْدَوْس » (٨٥٧٨) ، وَلَفْظُ الْمُصَنِّفِ عِنْدَ الْخَرَكُوشِيِّ فِي « تَهْذِيبِ الْأَسْرَارِ » (ص ٥٩٢) .

قَالَ : ووقع حريقٌ بالبصرة ، فجاء أبو عبيدة الخواصُّ فجعل يتخطى النار ، فقال له أميرُ البصرة : انظر ، لا تحترق بالنار ، فقال : إني أقسمتُ على ربِّي عزَّ وجلَّ ألا يحرقني بالنار ، قال : فاعزم عليها أن تطفأ ، قال : فعزم عليها ، فطفئت^(١) .

وكان أبو حفصٍ يمشي ذات يوم ، فاستقبله رستاقيٌّ مدهوشٌ ، فقال له أبو حفصٍ : ما أصابك ؟ فقال : ضلَّ حماري ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حفصٍ وقال : وعزَّتِكَ لا أخطو خطوة ما لم تردَّ عليه حمارُهُ ، قال : فظهرَ الحمارُ في الوقت ، ومرَّ أبو حفصٍ رحمه الله^(٢) .

فهذا وأمثاله يجري لذوي الأنسِ وليسَ لغيرِهِم أن يتشبهَ بِهِمْ .

قال الجنيدُ رحمه الله : (أهلُ الأنسِ يقولون في كلامِهِمْ ومناجاتِهِمْ في خلواتِهِمْ أشياء هي كفرٌ عندَ العامَّةِ) ، وقال مرَّةً : (لو سمعها العمومُ .. لكفروهُم) ، وهم يجدون المزيدَ في أحوالِهِمْ بذلك ، وذلك محتملٌ منهم ويليقُ بِهِمْ ، وإليه أشارَ القائلُ :

[من البسيط]

قَوْمٌ تَخَالِجُهُمْ زَهْوُ بَسِيْدِهِمْ وَالْعَبْدُ يَزْهُو عَلَى مِقْدَارِ مَوْلَاهُ
تَاهُوا بِرُؤْيَيْهِ عَمَّا سِوَاهُ لَهُ يَا حُسْنَ رُؤْيَيْهِمْ فِي عَزٍّ مَا تَاهُوا

(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٥٩٢) .

(٢) رواه الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٥٩٣) .

ولا تستبعدن رضا عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف
مقامهما ، ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت وفهمت ، فجميع
قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار ؛ حتى ينظروا إليها بعين
الاعتبار ، وإنما هي عند ذوي الاغترار من الأسمار .

فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس ، أما تراهما كيف اشتركا في
اسم المعصية والمخالفة ، ثم تباينا في الاجتباء والعصمة ؛ أما
إبليس . . فأبلس من رحمة الله^(١) ، وقيل : إنه من المبعدين . وأما آدم عليه
السلام . . فقيل فيه : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ثم أجنبه ربه فأب عليه
وهدى .

وقد عاتب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في الإعراض عن عبد
والإقبال على عبد وهما في العبودية سيان ، ولكن في الحال مختلفان ،
فقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ وهو يخشى ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ لِلَّهِ ﴾ ، وقال في الآخر :
﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَفَى ﴾ فَأَنْتَ لَمْ تَصْدَى .

وكذلك أمره بالعود مع طائفة فقال : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَائِتِنَا ﴾
فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، وأمره بالإعراض عن غيرهم فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ
يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ حتى قال : ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ ﴾

(١) أبلس هنا : يش .

الظالمين ﴿ ١ ﴾ ، وقال تعالى ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ
وَالْعِشِيِّ ﴾ .

فكذا الانبساط والإدلال يُحتملُ مِنْ بعضِ العبادِ دونَ بعضٍ .

فمِنْ انبساطِ الأنسِ قولُ موسى عليه السلامُ : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ
تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ ، وقوله في التعلُّلِ والاعتذارِ لَمَّا قِيلَ لَهُ : اذْهَبْ إِلَى
فِرْعَوْنَ ، فَقَالَ : ﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ ﴾ وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ وَيَضِيقُ
صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ ،
وهذا مِنْ غيرِ موسى عليه السلامُ مِنْ سوءِ الأدبِ ؛ لأنَّ الذي أُقيمَ مقامَ
الأنسِ يُلاطفُ ويُحتملُ .

ولم يُحتملِ ليونسَ عليه السلامُ ما دونَ هذا لما أُقيمَ مقامَ القبضِ
والهيبةِ ، فعُوقِبَ بالسجنِ في بطنِ الحوتِ في ظلماتٍ ثلاثٍ ، ونُودِيَ عليه
إلى يومِ الحشرِ : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَذَرَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ، قالَ
الحسنُ : (العراءُ : هو القيامةُ)^(١) ، ونُهيَ نبِيُّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ
أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ وَقِيلَ لَهُ : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ
مَكْظُومٌ ﴾ .

وهذه الاختلافاتُ بعضها لاختلافِ الأحوالِ والمقاماتِ ، وبعضُها لما

(١) ولفظ « القوت » (٦٤ / ٢) - والسياق له - : (وقيل : عراء القيامة) .

سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ، وقال : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ ، فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ، ولإدلاله سلم على نفسه فقال : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ، وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس ، وأما يحيى بن زكريا عليهما السلام . فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقُه فقال : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ .

وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف عليه السلام ما فعلوه بيوسف ، وقد قال بعض العلماء : (قد عدت من أول قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا ﴾ إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفاً وأربعين خطيئة ، بعضها أكبر من بعض ، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ، فغفر لهم وعفا عنهم ، ولم يحتمل لعزير مسألة واحدة سأل عنها في القدر ، حتى قيل : مُحَيٍّ مِنْ دِيْوَانِ النُّبُوَّةِ (١) .

وكذلك كان بلعم بن باعوراء من أكابر العلماء ، فأكل الدنيا بالدين ،

(١) سؤال عزير رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥٠ / ٦) عن أبي عمران الجوني عن نوف قال : قال عزير فيما يناجي ربه عز وجل : تخلق خلقاً ؛ فتضل وتهدي من تشاء ، قال : فقل : يا عزير ؛ أعرض عن هذا ، لتعرضن عن هذا أو لأمحونك من النبوة ، لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

فلم يُحتملَ له ذلكَ وكانَ آصفُ مِنَ المسرفينَ ، وكانتَ معصيتهُ في الجوارحِ ، فعفا عنه ، فقد رويَ أَنَّ اللهَ تعالى أوحى إلى سليمانَ عليه السلامُ : يا رأسَ العابدينَ ، ويا بنَ محجةِ الزاهدينَ ؛ إلى كمَ يعصيني ابنُ خالتِكَ آصفُ وأنا أحلمُ عليه مرَّةً بعدَ مرَّةٍ ، فوعزتي وجلالي ؛ لئن أخذتُهُ عطفةً مِنْ عطفاتي عليه . . لأتركَنَّ مُثْلَةً لِمَنْ مَعَهُ ، ونكالاَ لِمَنْ بَعْدَهُ ، فلمَّا دخلَ آصفُ على سليمانَ عليه السلامُ . . أخبرَهُ بما أوحى اللهُ تعالى إليه ، فخرجَ حتَّى علا كثيراً مِنْ رملٍ ، ثُمَّ رفعَ رأسَهُ ويديه نحوَ السماءِ وقالَ : إلهي وسيدي ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، فكيفَ أتوبُ إن لم تتبْ عليَّ ، وكيفَ أستعصمُ إن لم تعصمني ، لأعودَنَّ ، فأوحى اللهُ تعالى إليه : صدقتَ يا آصفُ ، أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، أستقبلُ التوبةَ إليَّ ، فقد تبَّتْ عليك ، وأنا التَّوابُ الرحيمُ وهذا كلامُ مدلٍّ بهِ عليه ، وهاربٍ منه إليه ، وناظرٍ بهِ إليه^(١) .

وفي الخبرِ : أَنَّ اللهَ تعالى أوحى إلى عبدٍ تدراكهُ بعدُ أن كانَ أشفى على الهَلَكَةِ : كمَ مِنْ ذنبٍ واجهتني بهِ غفرتهُ لكَ قد أهلكْتُ في دونهِ أُمَّةٌ مِنَ الأممِ ؟! ^(٢) .

فهذه سنَّةُ اللهِ تعالى في عبادِهِ بالتفضيلِ ، والتقديمِ والتأخيرِ على

(١) قوت القلوب (٦٥ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (٦٦ / ٢) .

ما سبقت به مشيئته الأزلية ، وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل ، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور ، وتعرف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول : ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۝ ﴾ ، وتارة يتعرف إليهم بأفعاله المخوفة والمرجوة ، فيتلو عليهم سنته في أنبيائه وفي أعدائه فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ ﴾ .

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة ؛ وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله تعالى وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده^(١) .

ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة ؛ وهو التقديس . . وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث القرآن فقال : « مَنْ قرأ سورة الإخلاص . . فقد قرأ ثلث القرآن »^(٢) ؛ لأنّ منتهى التقديس في أن

(١) ولذلك انقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام : توحيد الذات ، وتوحيد الصفات ، وتوحيد الأفعال . « إتحاف » (٦٤٥ / ٩) .

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٦) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وهو عن غيره عند البخاري (٥٠١٤) ، ومسلم (٨١١) بنحوه .

يكون واحداً في ثلاثة أمور : لا يكون حاصلًا منه مَنْ هو نظيره^(١) وشبهه ؛
 ودلّ عليه قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكِلِدْ ﴾ ، ولا يكون هو حاصلًا ممَّن هو نظيره
 وشبهه ؛ ودلّ عليه قوله : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ، ولا يكون في درجته وإن لم
 يكن أصلًا له ولا فرعًا مَنْ هو مثله^(٢) ؛ ودلّ عليه قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
 كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، ويجمعُ جميع ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ،
 وجملته تفصيل قولك : لا إله إلا الله .

فهذه أسرار القرآن ، ولا تنهاه أمثال هذه الأسرار في القرآن ،
 ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : (ثوروا القرآن والتمسوا غرائبهُ ،
 ففيه علمُ الأولين والآخرين)^(٣) ، وهو كما قال ، ولا يعرفه إلا مَنْ طال في
 أحادِ كلماته فكرهُ ، وصفا لها فهمهُ ، حتَّى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام
 جبارٍ قاهرٍ ، مليكٍ مقتدرٍ ، وأنه خارجٌ عن حدِّ استطاعة البشر .

وأكثرُ أسرار القرآن معبأةً في طيّ القصص والأخبار ، فكن حريصاً على

(١) في غير (ب ، ص) : (نوعه) بدل (نظيره) .

(٢) والعبارة في (أ) : (ولا يكون له شبهه ونظير) أي : بعد نفي الأصل والفرع .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٣٥ / ٩) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٩٤)
 ولفظه : (من أراد العلم . . فليثور القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين) ، وقوله :
 (والتمسوا غرائبهُ) جاءت في المرفوع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كما رواه
 الحاكم في « المستدرک » (٩٣٤ / ٢) .

استنباطها ؛ لينكشف لك فيها من العجائب ما تستحقّر معها العلوم المزخرفة
الخارجة عنها .

فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته ، وبيان
تفاوت عباد الله فيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلم : أنَّ الرضا ثمرةٌ من ثمار المحبة ، وهو من أعلى مقامات المقرَّين ، وحقيقته غامضةٌ على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشفٍ إلا لمن علَّمه الله تعالى التأويل ، وفهمه وفقَّهه في الدين .

فقد أنكر منكرون تصوُّر الرضا بما يخالف الهوى ، ثمَّ قالوا : إنَّ أمكن الرضا بكلِّ شيءٍ لأنَّه فعلُ الله . . فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي .

وانخدع بذلك قومٌ ، فرأوا الرضا بالفجور والفسق ، وترك الاعتراض والإنكار ؛ من باب التسليم لقضاء الله تعالى .

ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع . . لما دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لابن عباسٍ حيث قال : « اللهم ؛ فقَّهه في الدين ، وعلِّمه التأويل »^(١) .

فلنبداً ببيان فضيلة الرضا ، ثمَّ بحكايات أحوال الراضين ، ثم بذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوُّره فيما يخالف الهوى ، ثمَّ نذكر ما يُظنُّ أنَّه من تمام الرضا وليس منه ؛ كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .



(١) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلِّمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (٢٦٦/١) .

بيان فضيلة الرضا

أَمَّا الْآيَاتُ :

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ ، وَمَتَّهَى الْإِحْسَانِ رِضَا اللَّهِ عَنْ عَبْدِهِ ، وَهُوَ ثَوَابُ رِضَا الْعَبْدِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ الرِّضَا فَوْقَ جَنَّاتٍ عَدْنٍ ؛ كَمَا رَفَعَ ذِكْرَهُ فَوْقَ الصَّلَاةِ حَيْثُ قَالَ : ﴿ إِنَّكَ الصَّكْلُوهَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فَكَمَا أَنَّ مَشَاهِدَةَ الْمَذْكُورِ فِي الصَّلَاةِ أَكْبَرُ مِنَ الصَّلَاةِ . . . فَرِضْوَانُ رَبِّ الْجَنَّةِ أَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ ، بَلْ هُوَ غَايَةُ مَطَالِبِ سَكَّانِ الْجَنَانِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَيَقُولُ : سَلُونِي ، فَيَقُولُونَ : رِضَاكَ »^(١) ، فَسُؤَالُهُمُ الرِّضَا بَعْدَ النَّظَرِ نَهَايَةُ التَّفْضِيلِ .

وَأَمَّا رِضَا الْعَبْدِ . . . فَسَنَذْكُرُ حَقِيقَتَهُ .

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « صِفَةِ الْجَنَّةِ » (٩١) ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي « الْأَوْسَطِ » (٢١٠٥) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً ضَمَّنَ خَبْرَ طَوِيلٍ ، وَعِنْدَ أَبِي يَعْلَى فِي « مُسْنَدِهِ » (٤٢٢٨) مِنْ حَدِيثِهِ أَيْضاً وَفِيهِ : « ثُمَّ يَقُولُ : مَاذَا تَرِيدُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا ؛ رِضْوَانُكَ » .

وأما رضوان الله تعالى عن العبد . . فهو بمعنى آخر يقرب ممّا ذكرناه في حبّ الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته ، إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ، ومن يقوى عليه . . فيستقل بإدراكه من نفسه .

وعلى الجملة : فلا رتبة فوق النظر إليه ، فإنما سألوا الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوا غاية الغايات وأقصى الأمانى لمّا ظفروا بنعيم النظر ، فلمّا أمروا بالسؤال . . لم يسألوا إلا دوامه ، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ، قال بعض المفسرين فيه : يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ؛ إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً ، وهو قوله تعالى ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴾ ، والثالثة : يقول الله تعالى : إني عنكم راضٍ ، فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : من النعيم الذي هم فيه^(١) ، فهذا فضل رضا الله تعالى ، وهو ثمرة رضا العبد .

(١) قوت القلوب (٣٩/٢) .

وأما الأخبار :

فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه : « ما أنتم ؟ » ، فقالوا : مؤمنون ، فقال : « ما علامة إيمانكم ؟ » فقالوا : نصبرُ على البلاء ، ونشكرُ عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : « مؤمنون ورب الكعبة »^(١) .

وفي خبر آخر أنه قال عليه الصلاة والسلام : « حكماء علماء ، كادوا من فقهِهم أن يكونوا أنبياء »^(٢) .

وفي الخبر : « طوبى لمن هُدي إلى الإسلام ، وكان رزقه كفافاً ، ورضي به »^(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ . . رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ »^(٤) .

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « إذا أحبَّ الله عبداً . . ابتلاه ،

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) بنحوه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٩ / ٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٠ / ٤١) .

(٣) رواه مسلم (١٠٥٤) ، والترمذي (٢٣٤٨) ، وفيهما : (وقع به) بدل (ورضي به) ، وانظر « قوت القلوب » (٣٩ / ٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرغ بعد الشدة » (١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٨ / ٥٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فإن صبر... اجتباه، فإن رضي... اصطفاه» (١).

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «إذا كان يوم القيامة... أنبت الله تعالى لطائفة من أممي أجنحة، فيطرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاؤوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فيقولون لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فيقولون: ناشدناكم الله؛ حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا... نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير ممّا قسم لنا، فتقول الملائكة: يحقّ لكم هذا» (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الفقراء؛ أعطوا الله تعالى الرضا

(١) قوت القلوب (٥٣/٢)، وأورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٩٧١).

(٢) كذا في «القوت» (٣٩/٢)، حيث قال: (وقد روينا حديثاً حسناً، كالمسند عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك) وذكره، وقال الحافظ العراقي: (رواه ابن حبان في «الضعفاء»، وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن علي القيسي، ساقط هالك، والحديث منكر مخالف للقرآن والأحاديث الصحيحة في الورود وغيره). «إتحاف» (٦٥٠/٩).

مِنْ قُلُوبِكُمْ . . تظفروا بثواب فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا « (١) .

وفي أخبار موسى عليه السلام : أن بني إسرائيل قالوا له : سَلْ لَنَا رَبَّكَ
أَمْراً إِذَا نَحْنُ فَعَلْنَاهُ . . يَرْضَى بِهِ عَنَّا ، فقال موسى عليه السلام : إلهي ؛ قَدْ
سَمِعْتَ مَا قَالُوا ، فَقَالَ : يَا مُوسَى ؛ قُلْ لَهُمْ يَرْضُونَ عَنِّي حَتَّى أَرْضَى
عَنْهُمْ (٢) .

ويشهد لهذا ما رُوِيَ عن نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ
أَنْ يَعْلَمَ مَا لَهُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . . فليَنْظُرْ مَا لَلهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ ؛ فَإِنَّ اللهَ
تَعَالَى يَنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ » (٣) .

وفي أخبار داوود عليه السلام : (ما لأوليائي والهمَّ بالدنيا ؟ ! إِنَّ الهمَّ
يَذْهَبُ حَلَاوَةً مَنَاجَاتِي مِنْ قُلُوبِهِمْ ، يَا دَاوُودُ ؛ إِنَّ مُحَبَّتِي مِنْ أَوْلِيَائِي أَنْ
يَكُونُوا رُوحَانِيْنَ لَا يَغْتَمُّونَ) (٤) .

وَرُوِيَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : يَا رَبِّ ؛ دَلَّنِي عَلَى أَمْرٍ فِيهِ رِضَاكَ
حَتَّى أَعْمَلَهُ ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : إِنَّ رِضَايَ فِي كَرِهِكَ ، وَأَنْتَ لَا تَصْبِرُ

(١) قوت القلوب (١٩٤ / ٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ،
وحكى سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٢٨١ / ٤) ، وانظر « الإتحاف »
(٢٨٣ / ٩ ، ٦٥٠) .

(٢) قوت القلوب (٣٩ / ٢) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٥٢٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٤٩٤ / ١) .

(٤) كذا في « القوت » (٤٠ / ٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧٩ / ١٠) .

على ما تكره ، قال : يا رب ؛ دلني عليه ، قال : فإن رضاي في رضاك بقضائي .

وفي مناجاة موسى عليه السلام : أي رب ؛ أي خلقك أحب إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب . . سالمني ، قال : فأني خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرني في الأمر ، فإذا قضيت له . . سخط قضائي^(١) .

وقد روي ما هو أشد من ذلك ، وهو أن الله تعالى قال : (أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائي ، ولم يرض بقضائي . . فليخذ رباً سواي)^(٢) .

ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال الله تعالى : قدرت المقادير ودبرت التدبير ، وأحكم الصنع ، فمن رضي . . فله الرضا مني حتى يلقاني ، ومن سخط . . فله السخط مني حتى يلقاني »^(٣) .

وفي الخبر المشهور : « يقول الله تعالى : خلقت الخير والشر ، فطوبى

(١) قوت القلوب (٤١ / ٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٤١ / ٢) ، وقد روي مرفوعاً كما هو عند الطبراني في « الكبير » (٣٢٠ / ٢٢) ، وأبو نعيم في « معجم الصحابة » (٣٠٤٧ / ٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٤١ / ٢) ، وروى الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ؛ فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » .

لَمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ ثُمَّ وََيْلٌ لِمَنْ قَالَ : لِمَ ؟ وَكَيْفَ ؟ ^(١) .

وفي الأخبارِ السالفةِ : أَنَّ نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ شَكَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْجُوعَ وَالْفَقْرَ وَالْقَمَلَ عَشْرَ سِنِينَ ، فَمَا أُجِيبَ إِلَى مَا أَرَادَ ، ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : كَمْ تَشْكُو ؟ ! هَكَذَا كَانَ بَدْوُكَ عِنْدِي فِي أُمِّ الْكِتَابِ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَهَكَذَا سَبَقَ لَكَ مِنِّي ، وَهَكَذَا قَضَيْتُ عَلَيْكَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ الدُّنْيَا ، أَفَتَرِيدُ أَنْ أُعِيدَ خَلْقَ الدُّنْيَا مِنْ أَجْلِكَ ؟ ! أَمْ تَرِيدُ أَنْ أَبْدَلَ مَا قَدَّرْتُهُ عَلَيْكَ فَيَكُونَ مَا تَحِبُّ فَوْقَ مَا أَحَبُّ ، وَيَكُونَ مَا تَرِيدُ فَوْقَ مَا أَرِيدُ ؟ ! وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ؛ لَنْ تَلْجُلَجَ ^(٢) هَذَا فِي صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى . .
لَأَمْحُوَنَّكَ مِنْ دِيْوَانِ النُّبُوَّةِ ^(٣) .

وَرُوي أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بَعْضُ أَوْلَادِهِ الصِّغَارِ يَصْعَدُونَ عَلَى بَدَنِهِ وَيَنْزِلُونَ ، يَجْعَلُ أَحَدُهُمْ رِجْلَهُ عَلَى أَضْلَاعِهِ كَهَيْئَةِ الدَّرَجِ ، فَيَصْعَدُ إِلَى رَأْسِهِ ، ثُمَّ يَنْزِلُ عَلَى أَضْلَاعِهِ كَذَلِكَ ، وَهُوَ مَطْرُقٌ إِلَى الْأَرْضِ لَا يَنْطُقُ وَلَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ وَلَدِهِ : يَا أَبَتِ ؛ أَمَا تَرَى مَا يَصْنَعُ هَذَا

(١) كذا في « القوت » (٤١ / ٢) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن شاهين في « شرح السنة » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف) ، وقد رواه دون الجملة الأخيرة منه الطبراني في « الكبير » (١٧٣ / ١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) في (أ) : (اختلج) بدل (تلجلج) .

(٣) قوت القلوب (٤١ / ٢) .

بك ؟! لونهيته عن هذا ، فقال : يا بني ؛ إنني رأيتُ ما لم تروا ، وعلمتُ ما لم تعلموا ، إنني تحرَّكتُ حركةً واحدةً فأهبطتُ من دارِ الكرامةِ إلى دارِ الهوانِ ، ومن دارِ النعيمِ إلى دارِ الشقاءِ ، فأخافُ أن أتحرَّكَ حركةً أخرى فيصيبني ما لا أعلم^(١) .

وقال أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه : (خدمتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم عشرَ سنينَ ، فما قالَ لي شيءٌ فعلتهُ : لِمَ فعلتهُ ، ولا شيءٌ لم أفعلهُ : ألا فعلتهُ ، ولا قالَ في شيءٍ كانَ : ليتَّهُ لم يكنْ ، ولا في شيءٍ لم يكنْ : ليتَّهُ كانَ ، وكانَ إذا خاصمني مخاصمٌ من أهلهِ يقولُ : « دعوه ، لو قضيَ شيءٌ . . . لكانَ »)^(٢) .

ويُروى أنَّ اللهَ تعالى أوحى إلى داوودَ عليه السلامُ : (يا داوودُ ؛ تريدُ وأريدُ ، وإنما يكونُ ما أريدُ ؛ فإن سلَّمتَ لما أريدُ . . كفيْتُكَ ما تريدُ ، وإن لم تسلِّمَ لما أريدُ . . أتعبْتُكَ فيما تريدُ ، ثمَّ لا يكونُ إلا ما أريدُ)^(٣) .



وأما الآثارُ :

فقد قالَ ابنُ عباسٍ رضي اللهُ عنهُما : (أوَّلُ مَنْ يُدعى إلى الجنةِ يومَ

(١) قوت القلوب (٤١ / ٢) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٨) ، ومسلم (٢٣٠٩) إلى قوله : (ألا فعلته) ، ورواه بتمامه أحمد في « المسند » (٢٣١ / ٣) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٥٣ / ٩) .

القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال (١) .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : (ما بقي لي سرورٌ إلا في مواقعِ القدرِ) (٢) .

وقيل له : ما تشتهي ؟ فقال : ما يقضي الله تعالى .

وقال ميمون بن مهران : (مَنْ لَمْ يَرْضَ بالقضاءِ .. فليسَ لحمقِهِ دواءٌ) (٣) .

وقال الفضيل : (إنْ لَمْ تَصْلَحْ على تقديرِ الله .. لَمْ تَصْلَحْ على تقديرِ نفسك) .

وقال عبد العزيز بن أبي رواد : (ليسَ الشأنُ في أكلِ خبزِ الشعيرِ والخلِّ ، ولا في لبسِ الصوفِ والشعرِ ، ولكنَّ الشأنُ في الرضا عن الله عزَّ وجلَّ) (٤) .

وقال عبد الله بن مسعود : (لأنَّ الحسنَ جمرَةً أحرقتْ ما أحرقتْ ، وأبقتْ ما أبقتْ .. أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أقولَ شيءٍ كانَ : ليتَّهُ لَمْ يكنْ ، أوْ شيءٍ لَمْ يكنْ : ليتَّهُ كانَ) (٥) .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٩ / ١٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٥٠٢ / ١) ،

وأبو نعيم في « الحلية » (٦٩ / ٥) من حديثه رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) قوت القلوب (٤٠ / ٢) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٠٩) عن الحسن البصري .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٦ / ٢٣) ضمن خبر له .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٢) من زيادات نعيم بن حماد .

ونظرَ رجلٌ إلى قرحةٍ في رجلِ محمد بن واسع فقال : إنني لأرحمُكَ مِنْ هذهِ القرحةِ ، فقال : إنني لأشكرُها منذُ خرجتُ إذْ لَمْ تخرجْ في عيني !^(١).

وروي في الإسرائيليات أنَّ عابداً عبدَ الله تعالى دهرًا طويلاً ، فرأى في المنام : فلانةُ الراعيةُ رفيقتك في الجنةِ ، فسألَ عنها إلى أن وجدَها ، فاستضافها ثلاثاً لينظرَ إلى عملِها ، فكانَ يبيتُ قائماً وتبيتُ نائمةً ، ويظلُّ صائماً وتظلُّ مفطرةً ، فقال : أما لكِ عملٌ غيرَ ما رأيتُ ؟ فقالت : ما هو - والله - إلا ما رأيتَ ، لا أعرفُ غيرَهُ ، فلمْ يزلْ يقولُ : تذكّري حتّى قالت : خُصيلةٌ واحدةٌ هيَ فيَّ ؛ إن كنتُ في شدّةٍ .. لم أتمنَّ أن أكونَ في رخاءٍ ، وإن كنتُ في مرضٍ .. لم أتمنَّ أن أكونَ في صحّةٍ ، وإن كنتُ في الشمسِ .. لم أتمنَّ أن أكونَ في الظلِّ ، فوضعَ العابدُ يدهُ على رأسِهِ وقال : أهذهِ خُصيلةٌ ؟! هذهِ - والله - خُصيلةٌ عظيمةٌ يعجزُ عنها العبّادُ^(٢) .

وعن بعضِ السلفِ : (أن الله تعالى إذا قضى في السماءِ قضاءً أحبَّ مِنْ أهلِ الأرضِ أن يرضوا بقضائِهِ)^(٣) .

وقال أبو الدرداءِ : (ذروةُ الإيمانِ الصبرُ للحكم ، والرضا بالقدرِ)^(٤) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٢ / ٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٣٩ / ٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٣ / ٨) .

(٣) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٦٥٤ / ٩) ، وفي « القوت » (٣٩ / ٢) : (وقد رويانا عن ابن مسعود : من رضي بما ينزل من السماء إلى الأرض .. غفر له) .

(٤) كذا في « القوت » (٣٩ / ٢) ، ورواه مع زيادة ابن المبارك في « الزهد » (١٢٣) من زيادات نعيم بن حماد .

وقال عمر رضي الله عنه : (ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أورشاء)^(١) .

وقال الثوري يوماً عند رابعة : اللهم ؛ ارض عنا ، فقالت : أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راضٍ ؟! فقال : أستغفر الله ، فقال جعفر بن سليمان الضبعي : فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة^(٢) .

وكان الفضيل يقول : (إذا استوى عنده المنع والعطاء .. فقد رضي عن الله تعالى)^(٣) .

وقال أحمد بن أبي الحواري : قال أبو سليمان الداراني : إن الله عز وجل من كرمه قد رضي من عبده بما رضي العبد من مواليهم ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه ؟ قلت : نعم ، قال : فإن محبة الله من عبده أن يرضوا عنه^(٤) .

وقال سهل : (حظ العبد من اليقين على قدر حظهم من الرضا ،

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣٠٤ / ٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

(٢) قوت القلوب (٤٠ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (٤٠ / ٢) .

(٤) قوت القلوب (٤٠ / ٢) .

وحظُّهُمْ مِنَ الرِّضَا عَلَى قَدْرِ عَيْشِهِمْ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١) .
 وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحَكَمِهِ وَجَلَالِهِ
 جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرْحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينَ ، وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ
 وَالسُّخْطِ » (٢) .



(١) قوت القلوب (٤١/٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢١٥/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢١/٤) ،
 والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١١٦) بنحوه ، ولفظ المصنف في « القوت »
 (٤١/٢) .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم : أن مَنْ قَالَ : (ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر ، فأما الرضا . . فلا يُتصوّر) . . فإنما أُتِيَ مِنْ ناحية إنكار المحبة ، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى ، واستغراق الهم به . . فلا يخفى أن الحب يُورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك مِنْ وجهين :

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم ، حتّى يجري عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ، ومثاله : الرجل المحارب ؛ فإنه في حال غضبه أو حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها ، حتّى إذا رأى الدم . . استدلّ به على الجراحة ، بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحسّ بالألم ذلك ؛ لشغل قلبه ، بل الذي يُحجم أو يُحلق رأسه بحديدة كالة يتألم بها ؛ فإن كان مشغول القلب بمهمّ مِنْ مهمّاته . . فرغ المزين والحجّام وهو لا يشعر به ، وكلّ ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمرٍ مِنْ الأمور مستوفى به . . لم يدرك ما عداه ، فكذلك العاشق المستغرق الهمّ بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتمّ له لولا عشقه ، ثمّ لا يدرك غمّه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه ، لهذا إذا أصابه مِنْ غير حبيب ، فكيف إذا أصابه مِنْ حبيب ؟ !

وشغل القلب بالحب والعشق مِنْ أعظم الشواغل ، وإذا تصوّر هذا في

ألم يسير بسبب حب خفيف.. تُصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم؛ فإنّ الحب أيضاً يُصوّر تضاعفه في القوة كما يُصوّر تضاعف الألم، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر.. فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يُقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه.. فقد يهره بحيث يدهش ويُغشى عليه، فلا يحس بما يجري عليه، فقد روي أنّ امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إنّ لذة ثوابه أزالَتْ عن قلبي مرارة وجعه^(١).

وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه، فقيل له في ذلك: فقال: يا دُوست؛ ضرب الحبيب لا يوجع^(٢).

وأما الوجه الثاني: فهو أنّ يحس به، ويدرك ألمه، ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه، مريداً له: أعني: بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة؛ فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنّه راضٍ به وراغب فيه، ومتقلد من الفصاد منه بفعله.

فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم، وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمره سفره طيب عنده مشقة

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص ٥١٩).

(٢) قوت القلوب (٦٧/٢)، ودوست: حبيب، لفظة فارسية تقدم استخدامها.

السفر ، وجعله راضياً بها ، ومهما أصابه بليّة من الله تعالى وكان له يقين بأنّ ثوابه الذي ادّخر له فوق ما فاتهُ . . رضي به ، ورغب فيه وأحبه ، وشكر الله تعالى عليه ، هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازي به عليه .

ويجوز أن يغلب الحبُّ بحيث يكون حظُّ المحبِّ في مرادِ حبيبهِ ورضاهُ ، لا لمعنى آخر وراءهُ ، فيكون مرادُ حبيبهِ ورضاهُ محبوباً عنده ومطلوباً ، وكلُّ ذلك موجودٌ في المشاهداتِ في حبِّ الخلق ، وقد توصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمالِ الصورة الظاهرة بالبصر .

فإن نظرَ إلى الجمالِ . . فما هوَ إلا جلدٌ على لحمٍ ودم ، مشحونٌ بالأقدارِ والأخبارِ ، بدايته من نطفةٍ مذرة ، ونهايته جيفةٌ قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحملُ العذرة .

وإن نظرَ إلى المدركِ للجمالِ . . فهي العينُ الخسيسةُ التي تغلطُ فيما ترى كثيراً ، فترى الصغيرَ كبيراً ، والكبيرَ صغيراً ، والبعيدَ قريباً ، والقيحَ جميلاً .

فإذا تصوّرَ استيلاءَ هذا الحبِّ . . فمن أين يستحيلُ ذلك في حبِّ الجمالِ الأزليِّ الأبديِّ ، الذي لا منتهى لكمالهِ المدركِ بعينِ البصيرةِ التي لا يعترِبها الغلطُ ولا يدورُ بها الموتُ ، بل تبقى بعدَ الموتِ حيّةً عندَ الله ، فرحةً برزقِ الله تعالى ، مستفيدةً بالموتِ مزيدَ تنبُّهِ واستكشافٍ ؟ !

فهذا أمرٌ واضحٌ من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهدُ لذلك الوجودُ وحكاياتُ أحوالِ المحبِّين وأقوالِهِمْ .

فقد قال شقيقُ البلخي : (مَنْ يرى ثوابَ الشدةِ . . لا يشتهي المخرجَ منها) .

وقال الجنيدُ : سألتُ سرياً السقطيَّ : هل يجدُ المحبُّ ألمَ البلاءِ ؟ قال : لا ، قلتُ : وإنْ ضُربَ بالسيفِ ، قال : نعم ، وإنْ ضُربَ بالسيفِ سبعينَ ضربةً ، ضربةً على ضربةٍ .

وقال بعضهم : (أحبُّ كلَّ شيءٍ بحبه ، حتَّى لو أحبَّ النارَ . . أحبُّ دخولَ النارِ) .

وقال بشرُ بنُ الحارثِ : مررتُ برجلٍ وقد ضُربَ ألفَ سوطٍ في شرقيةِ بغدادَ ولم يتكلَّم ، ثمَّ حُمِلَ إلى الحبسِ ، فتبعتهُ ، فقلتُ له : لِمَ ضُربتَ ؟ فقال : لأنِّي عاشقٌ ، فقلتُ له : ولمَ سكَّ ؟ قال : لأنَّ معشوقي كانَ يحذائي ينظرُ إليَّ ، فقلتُ : فلو نظرتَ إلى المعشوقِ الأكبرِ ! قال : فزَعَقَ زعقةً خَرَّ ميّناً .

وقال يحيى بن معاذِ الرازي رحمه الله تعالى : (إذا نظرَ أهلُ الجنةِ إلى الله تعالى . . ذهبَتْ عيونُهُمْ في قلوبِهِمْ مِنْ لَذَّةِ النظرِ إلى الله تعالى ثمانَ مئةَ سنةٍ لا ترجعُ إليهِمْ ، فما ظنُّكَ بقلوبٍ وقعتْ بينَ جمالهٍ وجلاله ، إذا لاحظتْ جلاله . . هابت ، وإذا لاحظتْ جماله . . تاهت) .

وقال بشرٌ : قصدتُ عبَّادانَ في بدايتي ؛ فإذا أنا برجلٍ أعمى ،

مجدوم ، مجنون قد صرع ، والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق .. قال : من هذا الفضولي الذي يدخل بينى وبين ربى ؟! لو قطعني إرباً إرباً .. ما ازددت له إلا حباً ، قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نعمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها^(١) .

وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث : (إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا إذا جاعوا .. نظروا إلى وجهه ، فشغلهم جماله عن الإحساس بالم الجوع) ، بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله ، حتى ما أحسن بذلك .

وقال سعيد بن أحمد : رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شاباً وفي يده مديّة وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول^(٢) : [من الكامل]

يَوْمُ الْفِرَاقِ مِنَ الْقِيَامَةِ أَطْوَلُ وَالْمَوْتُ مِنَ أَلَمِ التَّفَرُّقِ أَجْمَلُ
قَالُوا الرَّحِيلُ فَقُلْتُ لَسْتُ بِرَاحِلٍ لَكِنَّ مُهْجَتِي أَلَّتِي تَرَحَّلُ

ثم بقر بالمديّة بطنه وخر ميتاً ، فسألت عنه وعن أمره ، فقيل لي : إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوماً واحداً^(٣) .

(١) قوت القلوب (٤٣/٢) .

(٢) انظر « تزيين الأسواق » (ص ١٣٨) .

(٣) أورده بلاغاً ابن الجوزي في « ذم الهوى » (١١٢٥) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦٥٨/٩) : (رواه أبو محمد السراج في « مصارع العشاق ») .

ويُروى أنَّ يونسَ عليه السلامُ قالَ لجبريلَ : دُلّني على أعبِدِ أهلِ الأرضِ ، فدَلَّهُ على رجلٍ قد قطعَ الجذامُ يديه ورجليه وذهبَ ببصره ، فسمعه وهو يقولُ : إلهي ؛ متعتني بهما ما شئتَ أنتَ ، وسلبتني ما شئتَ أنتَ ، وأبقيتَ لي فيكَ الأملَ ، يا برُّ يا وصولُ^(١) .

ويُروى عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي اللهُ تعالى عنهُما أنَّه اشتكى له ابنُ ، فاشتدَّ وجدهُ عليه ، حتَّى قالَ بعضُ القومِ : لقد خشينا على هذا الشيخِ إن حدثَ بهذا الغلامِ حدثٌ ، فماتَ الغلامُ ، فخرجَ ابنُ عمرَ في جنازته وما رجلٌ أبدى سروراً منه ، فقيلَ له في ذلكَ ، فقالَ ابنُ عمرَ : إنَّما كانَ حزني رحمةً له ، فلمَّا وقعَ أمرُ الله... رضيانا به^(٢) .

وقالَ مسروقٌ : كانَ رجلٌ بالباديةِ له كلبٌ وحمارٌ وديكٌ ، فالديكُ يوقظُهُم للصلاةِ ، والحمارُ ينقلونَ عليه الماءَ ويحملُ لَهُم خبَاءَهُم ، والكلبُ يحرسُهُم ، قالَ : فجاءَ الثعلبُ فأخذَ الديكَ ، فحزنوا له ، وكانَ الرجلُ صالحاً ، فقالَ : عسى أن يكونَ خيراً ، ثمَّ جاءَ ذئبٌ فخرقَ بطنَ الحمارِ فقتلهُ ، فحزنوا عليه ، فقالَ الرجلُ : عسى أن يكونَ خيراً ، ثمَّ أُصيبَ الكلبُ بعدَ ذلكَ ، فقالَ : عسى أن يكونَ خيراً ، ثمَّ أصبحوا ذاتَ يومٍ ، فنظروا فإذا قد سُبِيَ مَنْ حولَهُم وبقوا هُم ، قالَ : وإنَّما أخذوا أولئكَ لما كانَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٢٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٩٨) .

عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة ، وكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى^(١) .

فمن عرف خفي لطف الله تعالى . . رضي بفعليه على كل حال .

ويروى أن عيسى عليه السلام مرَّ برجل أعمى أبرص مقعد ، مضروب الجنين بفالج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني ممَّا ابتلي به كثيراً من خلقه ، فقال له عيسى : يا هذا ؛ أيُّ شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك ؟ فقال : يا روح الله ؛ أنا خير ممَّن لم يجعل الله في قلبي ما جعل في قلبي من معرفتي ، فقال له : صدقت ، هات يدك ، فناوله يده ، فإذا هو أحسن الناس وجهاً ، وأفضلهم هيئةً ، وقد أذهب الله عنه ما كان به ، فصحب عيسى عليه السلام وتعبَّد معه .

وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ، ثم قال : الحمد لله الذي أخذ مني واحدةً ، وايمك ؛ لئن كنت أخذت . . لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت . . لقد عافيت ، ثم لم يدع ورده تلك الليلة^(٢) .

وكان ابن مسعود يقول : (الفقر والغنى مطيتان ، ما أبالي أيتهما ركبْتُ ، إن كان الفقر . . فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى . . فإن فيه البذل)^(٣) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٣٨ ، ١٣٩) ، وقوله : (وايمك) قسم .

(٣) قوت القلوب (٤٠ / ٢) .

وقال أبو سليمان الداراني : (قد نلتُ مِنْ كُلِّ مقامٍ حالاً إلا الرضا ، فما لي منه إلا مشامُ الريح ، وعلى ذلك لو أدخلَ الخلائقَ كلَّهُمُ الجنةَ ، وأدخلني النارَ . . كنتُ بذلك راضياً)^(١) .

وقيل لعارفٍ آخر : هل نلتَ غايةَ الرضا عنه ؟ فقال : أمّا الغايةُ . . فلا ، ولكنَّ مقامَ مِنَ الرضا قد نلتهُ ، لو جعلني جسراً على جهنَّمَ يعبرُ الخلائقُ عليَّ إلى الجنةِ ، ثمَّ ملأَ بي جهنَّمَ تحلةً لقسمِهِ وبدلاً مِنْ خَلِيقَتِهِ . . لأحييتُ ذلكَ مِنْ حِكْمِهِ ، ورضيتُ بِهِ مِنْ قِسْمِهِ^(٢) .

وهذا كلامٌ مَنْ عَلمَ أَنَّ الحبَّ قد استغرقَ همَّهُ حتَّى منعه الإحساسَ بِألمِ النارِ ، وإن بقي إحساسٌ فيغمُرُهُ ما يحصلُ مِنْ لذَّتِهِ في استشعارِهِ حصولَ رضا محبوبِهِ بإلقائه إيَّاهُ في النارِ ، واستيلاءُ هذهِ الحالةِ غيرُ محالٍ في نفسه وإن كان بعيداً مِنْ أحوالنا الضعيفةِ ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيفُ المحرومُ أحوالَ الأقوياءِ ويظنَّ أَنَّ ما هو عاجزٌ عنه يعجزُ عنه الأولياءُ .

وقال الروذباري : قلتُ لأبي عبدِ اللهِ بنِ الجلاءِ الدمشقي : قولُ فلانٍ : (وددتُ أَنَّ جسدي قُرِضَ بالمقاريضِ وَأَنَّ هذا الخلقَ أطاعوه) ما معناه ؟ فقال : يا هذا ، إنَّ كانَ هذا من طريقِ الإشفاقِ والنصحِ للخلقِ . .

(١) قوت القلوب (٤٢ / ٢) عن بعض العارفين ، والمشهور عن أبي يزيد رضي الله عنه أنه قال مثل هذا في التوكل .

(٢) قوت القلوب (٤٢ / ٢) .

فأعرف ، وإن كان من طريق التعظيم والإجلال . . فلا أعرف ، قال : ثم غشي عليه^(١) .

وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه ، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ، قد نُقِبَ له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء^(٢) ، فجعل يبكي لما يرى من حاله ، فقال : لم تبكي ؟ قال : لأنني أراك على هذه الحالة العظيمة ، قال : لا تبك ؛ فإن أحبته إلى الله تعالى أحبته إلي ، ثم قال : أحدثك شيئاً لعل الله أن ينفعك به واكتم علي حتى أموت ، إن الملائكة تزورني فأنس بها ، وتسلم علي فأسمع تسليمها^(٣) .

فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة ؛ إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ، فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضياً به ؟!

قال : ودخلنا على سويد بن مشبة نعوذه ، فرأينا ثوباً ملقى ، فما ظننا

(١) قوت القلوب (٤٢ / ٢) ، والقول المذكور لزهير بن نعيم البابي ، رواه له الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص ٨٠) ، والضمير في (أطاعوه) عائذ الله سبحانه وتعالى ، فهو بقوله هذا يتفدى .

(٢) عند الحافظ الزبيدي في «إتحافه» (٦٦٠ / ٩) : (وفي «القوت» : «أو أخوه أبو العلاء» ، والصواب أبو العلاء ، وهو يزيد بن عبد الله الشخير العامري البصري) ، وفي مطبوعة «القوت» : (أو أخوه العلاء) ، واتفقت النسخ على المثبت .

(٣) قوت القلوب (٤٣ / ٢) ، ومختصراً رواه أحمد في «المسند» (٤٢٨ / ٤) ، والتفسير الآتي عنده .

أَنْ تَحْتَهُ شَيْئاً حَتَّى كُشِفَ ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : أَهْلِي فِدَاؤُكَ ، مَا نَطْعُمُكَ ؟
 مَا نَسْقِيكَ ؟ فَقَالَ : طَالَتْ الضَّجْعَةُ ، وَدَبَّرَتِ الْحِرَاقِفُ ، وَأَصْبَحْتُ نَضِوًّا
 لَا أَطْعَمُ طَعَاماً وَلَا أَسْيِغُ شَرَاباً مِنْذُ كَذَا - فَذَكَرَ أَيَّاماً - وَمَا يَسْرُنِي أَنِّي نَقَصْتُ
 مِنْ هَذَا قَلَامَةً ظَفِرٍ (١) .

وَلَمَّا قَدِمَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ إِلَى مَكَّةَ وَكَانَ قَدْ كُفَّ بَصْرُهُ . . جَاءَهُ النَّاسُ
 يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ، كُلُّ وَاحِدٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ ، فَيَدْعُو لَهُذَا وَلِهَذَا ، وَكَانَ
 مُجَابِبَ الدَّعْوَةِ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّائِبِ : فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا غَلَامٌ ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ
 فَعَرَّفَنِي وَقَالَ : أَنْتَ قَارِئُ أَهْلِ مَكَّةَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَذَكَرَ قِصَّةً قَالَ فِي
 آخِرِهَا : فَقُلْتُ لَهُ : يَا عَمُّ ؛ أَنْتَ تَدْعُو لِلنَّاسِ ، فَلَوْ دَعَوْتَ لِنَفْسِكَ فَرَدَّ اللَّهُ
 عَلَيْكَ بَصْرَكَ ، فَتَبَسَّمَ وَقَالَ : يَا بَنِي ؛ قِضَاءُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنْ
 بَصْرِي (٢) .

وَضَاعَ لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ وَلَدٌ صَغِيرٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَمْ يُعْرِفْ لَهُ خَبْرٌ ، فَقِيلَ لَهُ :
 لَوْ سَأَلْتَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْكَ ، فَقَالَ : اعْتِرَاضِي عَلَيْهِ فِيمَا قَضَى أَشَدُّ
 عَلَيَّ مِنْ ذَهَابِ وَلَدِي (٣) .

وَعَنْ بَعْضِ الْعَبَادِ أَنَّهُ قَالَ : إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْباً عَظِيماً ، فَأَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ مِنْذُ

(١) كَذَا فِي « الْقَوْتِ » (٤٣ / ٢) ، وَرَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي « الزَّهْدِ » (٤٦٣) ،
 وَالْحِرَاقِفُ : جَمْعُ حَرْقَفَةٍ ، رَأْسُ الْوَرِكِ .

(٢) قَوْتُ الْقُلُوبِ (٤٣ / ٢) .

(٣) قَوْتُ الْقُلُوبِ (٤٣ / ٢) .

ستين سنة ، وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب ، فقيل له : وما هو ؟ قال : قلت مرةً لشيءٍ كان : ليتَّه لم يكن^(١) .

وقال بعضُ السلف : لو قُرِضَ جسمي بالمقاريض . . لكان أحبَّ إليَّ من أن أقول لشيءٍ قضاؤه اللهُ سبحانه : ليتَّه لم يقضِه^(٢) .

وقيل لعبدٍ الواحد بن زيد : هل هنا رجلٌ قد تعبَّدَ خمسين سنةً ، فقصدَه ، فقال له : يا حبيبي ؛ أخبرني عنك : هل قنعتَ به ؟ قال : لا ، قال : فهل أنستَ به ؟ قال : لا ، قال : فهل رضيتَ عنه ؟ قال : لا ، قال : فإنَّما مزيدُك منه الصومُ والصلاة ؟ قال : نعم ، قال : لولا أنني أستحي منك . . لأخبرتُك بأنَّ معاملتكَ خمسين سنةً مدخولة^(٣) .

ومعناه : أنَّك لم يفتحْ لك بابُ القلبِ فترقى إلى درجاتِ القربِ بأعمالِ القلبِ ، وإنَّما أنتَ تُعدُّ في طبقةِ أصحابِ اليمينِ ؛ لأنَّ مزيدَك منه في أعمالِ الجوارحِ التي هي مزيدُ أهلِ العمومِ .

ودخل جماعةٌ من الناسِ على الشبلي رحمه اللهُ تعالى في مارستانٍ قد حُبِسَ فيه وقد جمعَ بينَ يديه حجارةً ، فقال : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : محبُّوك ، فأقبلَ عليهم يرميهم بالحجارةِ ، فتهاربوا ، فقال : ما بالكمُ ادعيتمُ محبَّي ؟ إنَّ صدقتُم . . فاصبروا على بلائي^(٣) .

(١) قوت القلوب (٤٣ / ٢) ، وفيه (ثلاثين) بدل (ستين) .

(٢) قوت القلوب (٤٣ / ٢) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٢٥) .

[من البسيط]

وللشبلبي رحمة الله^(١) :

إِنَّ الْمَحَبَّةَ لِلرَّحْمَنِ أَشْكُرَنِي وَهَلْ رَأَيْتَ مُحِبًّا غَيْرَ سَكْرَانٍ
 وَقَالَ بَعْضُ عِبَادِ أَهْلِ الشَّامِ : (كُلُّكُمْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُصَدِّقًا وَلَعَلَّهُ قَدْ
 كَذَبَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ كَانَ لَهُ إَصْبَعٌ مِنْ ذَهَبٍ ظَلَّ يَشِيرُ بِهَا ، وَلَوْ كَانَ
 بِهَا شَلْلٌ ظَلَّ يُوَارِيهَا)^(٢) ؛ يَعْنِي بِذَلِكَ : أَنَّ الذَّهَبَ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسُ
 يَتَفَاخَرُونَ بِهِ ، وَالْبَلَاءُ زِينَةُ أَهْلِ الْآخِرَةِ وَهُمْ يَسْتَنكِفُونَ مِنْهُ .

وَقِيلَ : إِنَّهُ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي السُّوقِ ، فَقِيلَ لِلْسُرِيِّ : احْتَرَقَ السُّوقُ
 وَمَا احْتَرَقَ دُكَانُكَ ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ قُلْتَ ؟ ! الْحَمْدُ لِلَّهِ
 عَلَى سَلَامَتِي دُونَ الْمُسْلِمِينَ !! فَتَابَ مِنَ التَّجَارَةِ ، وَتَرَكَ الْحَانُوتَ بَقِيَّةَ
 عَمْرِهِ ؛ تَوْبَةً وَاسْتِغْفَارًا مِنْ قَوْلِهِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ^(٣) .

فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ . . عَرَفْتَ قَطْعًا أَنَّ الرِّضَا بِمَا يَخَالِفُ الْهَوَى
 لَيْسَ مُسْتَحِيلًا ، بَلْ هُوَ مَقَامٌ عَظِيمٌ مِنْ مَقَامَاتِ أَهْلِ الدِّينِ ، وَمَهْمَا كَانَ ذَلِكَ
 مُمْكِنًا فِي حُبِّ الْخَلْقِ وَحِظْوِظِهِمْ . . كَانَ مُمْكِنًا فِي حُبِّ الْخَالِقِ تَعَالَى
 وَحِظْوِظِ الْآخِرَةِ قَطْعًا ، وَإِمْكَانُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : الرِّضَا بِالْأَلَمِ لِمَا يُتَوَقَّعُ مِنَ الثَّوَابِ الْمَوْجُودِ ؛ كَالرِّضَا

(١) ديوانه (ص ١٢٩) .

(٢) قوت القلوب (٤٤ / ٢) .

(٣) قوت القلوب (٤٦ / ٢) ، وَقَالَ : (وَبَلَّغْنِي عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : قُلْتُ كَلِمَةً فَأَنَا
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً ؛ يَعْنِي قَوْلَهُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ) .

بالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء انتظاراً للشفاء .

والثاني : الرضا به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ورضاً له ، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب ، فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ، ولو في هلاك روحه ؛ كما قيل^(١) :

[من البسيط]

فَمَا لِيْجُرْحَ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم .

وقد يستولي الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقدّه من نفسه ، لأنه إنما فقدّه لفقد سببه ، وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب . . لم يعرف عجائبه ، فللمحبين عجائب أعظم ممّا وصفناه .

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافقي^(٢) قال : كنت في مجلس بالرقّة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنيّة ، وكانت معنا في المجلس ، ف ضربت بالقضيب وغنت :

[من مجزوء المتقارب]

عَلَامَةُ ذُلِّ الْهَوَى عَلَى الْعَاشِقِينَ الْبُكَاءُ

(١) عجز بيت للمتنبّي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣ / ٣٧٠) ، وتماهه :

إن كان سرکم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

(٢) منسوب إلى الرافقة ، مدينة جانب الرقة ، بناها المنصور وأتمها المهدي . « إتحاف »

(٦٦٢ / ٩) .

وَلَا سِيَّماً عَاشِقٍ إِذَا لَمْ يَجِدْ مُشْتَكِي

فَقَالَ لَهَا الْفَتَى : أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ يَا سَيِّدَتِي ، أَفْتَأْذِنِينَ لِي أَنْ أَمُوتَ ؟
فَقَالَتْ : مُتْ رَاشِداً ، قَالَ : فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى الْوَسَادَةِ ، وَأَطْبَقَ فَمَهُ ،
وَعَمَّضَ عَيْنَيْهِ ، فَحَرَّكَ نَاحِيَةَ رَأْسِهِ إِذَا هُوَ مَيِّتٌ ^(١) .

وَقَالَ الْجَنِيْدُ : رَأَيْتُ رَجُلًا مُتَعَلِّقًا بِكُمْ صَبِيٍّ وَهُوَ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيُظْهِرُ لَهُ
الْمَحَبَّةَ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَقَالَ لَهُ : إِلَى مَتَى ذَا النِّفَاقُ الَّذِي تَظْهَرُ لِي ؟
فَقَالَ : قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي صَادِقٌ فِيمَا أوردُهُ ، حَتَّى لَوْ قُلْتُ لِي : مُتْ . .
لَمُتْ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا . . فَمُتْ : قَالَ : فَتَنَحَّى الرَّجُلُ وَعَمَّضَ
عَيْنَيْهِ ، فَوُجِدَ مَيِّتًا ^(٢) .

وَقَالَ سَمْنُونُ الْمُحِبِّ : كَانَ فِي جِيرَانِنَا رَجُلٌ وَلَهُ جَارِيَةٌ يُحِبُّهَا غَايَةَ
الْحُبِّ ، فَاعْتَلَّتِ الْجَارِيَةُ ، فَجَلَسَ الرَّجُلُ لِيُصْلِحَ لَهَا حَيْسًا ، فَبَيْنَا هُوَ يَحْرُكُ
الْقَدْرَ إِذْ قَالَتِ الْجَارِيَةُ : آه ، قَالَ : فَدَهِشَ الرَّجُلُ ، وَسَقَطَتِ الْمَلْعَقَةُ مِنْ
يَدِهِ ، وَجَعَلَ يَحْرُكُ مَا فِي الْقَدْرِ بِيَدِهِ حَتَّى تَسَاقَطَتْ أَصَابِعُهُ ، فَقَالَتِ
الْجَارِيَةُ : مَا هَذَا ؟ ! قَالَ الرَّجُلُ : هَذَا مَوْضِعُ قَوْلِكَ : آه ^(٣) .

(١) رَوَاهُ ابْنُ الْوَشَاءِ فِي « الْمَوْشَى » (ص ٧٨) ضَمِنَ خَبْرَ عَجِيبٍ ، فِيهِ أَنَّهُ مَاتَ مَعَ الْفَتَى
الْقَيْنَةُ وَابْنَةُ شَيْخٍ ، دَفَنُوا بِمَوْضِعٍ وَاحِدٍ .

(٢) رَوَاهُ السَّلْمِيُّ فِي « الْمَقْدَمَةِ فِي التَّصَوُّفِ » (ص ٢٧) .

(٣) كَذَا عِنْدَ السَّلْمِيِّ فِي « الْمَقْدَمَةِ فِي التَّصَوُّفِ » (ص ٢٤) ، وَرَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي « ذَمِّ
الْهَوَى » (٩٠٢) .

وَحُكِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِيِّ قَالَ : رَأَيْتُ بِالْبَصْرَةِ شَابًا عَلَى
سَطْحٍ مَرْتَفِعٍ وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ يَقُولُ :

[من السريع]

مَنْ مَاتَ عِشْقًا فَلَيْمُتَ هَكَذَا لَا خَيْرَ فِي عِشْقٍ بِلا مَوْتٍ

ثُمَّ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، فَحَمَلُوهُ مَيِّتًا^(١) .

فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق ، والتصديق به في حب الخالق أولى ؛ لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال ، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال .

نعم ، الذي فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنعيمات الموزونة ؛ فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضاً هذه اللذات التي لا مِظَنَّةَ لها سوى القلب .



(١) كذا عند السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص ٢٥) ، ومختصراً عند القشيري في « الرسالة » (ص ٥٢٧) .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا، ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا

وكذلك كراهة المعاصي ، ومقت أهلها ، ومقت أسبابها ، والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضاً ، وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين ، وزعموا أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله تعالى وقدره ، فيجب الرضا به ، وهذا جهل بالتأويل ، وغفلة عن أسرار الشرع .

فأما الدعاء :

فقد تُعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات . . تدلُّ عليه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى المقامات من الرضا ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله : ﴿ يَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا ﴾ .

وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها :

فقد تُعبد الله تعالى به عبادة ، وذمُّهم على الرضا به فقال : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وفي الخبر المشهور : « مَنْ شَهِدَ مَنكَراً فَرَضِي بِهِ . . فَكَأَنَّهُ قَدْ فَعَلَهُ » ^(١) .

(١) رواه بنحوه أبو يعلى في « مسنده » (٦٧٨٥) ولفظه : « مَنْ شَهِدَ أَمراً فَكَرَهُ . . كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهُ ، وَمَنْ غَابَ عَنْ أَمْرٍ فَفَرَضِي بِهِ . . كَانَ كَمَنْ شَهِدَهُ » .

وفي الحديث : « الدالُّ على الشرِّ . . كفَاعِلِهِ » (١) .

وعن ابن مسعود : (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَغِيبُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَكُونُ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ صَاحِبِهِ ، قِيلَ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : يَلْغُهُ فَيَرْضَى بِهِ) (٢) .

وفي الخبر : « لَوْ أَنَّ عَبْدًا قُتِلَ بِالشَّرِّ وَرَضِيَ بِقَتْلِهِ آخِرًا بِالمَغْرِبِ . . كَانَ شَرِيكًا فِي قَتْلِهِ » (٣) .

وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور ، فقال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَبْثُهَا فِي النَّاسِ وَيَعْلَمُهَا ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ » ، وفي لفظ آخر : « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ : لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا . . لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ » (٤) .

(١) كذا في « القوت » (٤٦ / ٢) ، ورواه أبو بكر الإسماعيلي في « معجم الشيوخ » (١١٨) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٣١٢١) من حديث عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما .

(٢) قوت القلوب (٤٦ / ٢) .

(٣) كذا في « القوت » (٤٦ / ٢) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده أصلاً بهذا اللفظ ، ولا بن عدي - في « الكامل » [٢٣٠ / ٧] - من حديث أبي هريرة : « من حضر معصية فكرها . . فكأنما غاب عنها ، ومن غاب عنها وأحبها . . فكأنما حضرها ، وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف) . « إتحاف » (٦٦٤ / ٩) .

(٤) كذا في « القوت » (٤٩ / ٢) بروايته ، وروى الحديث الأول منهما البخاري (٧٣) ، =

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتئهم :

فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يُحصى ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ ، وقال

تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ .

وفي الخبر : (إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل

منافق ، وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن)^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المرء مع من أحب »^(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحب قوماً ووالاهم .. حُشِرَ معهم

يوم القيامة »^(٣) .

= ومسلم (٨١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وروى الثاني منهما البخاري

(٧٢٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) كذا في « القوت » (٤٧ / ٢) حيث قال : (وروينا في خبر) ولم يذكر رفعه ، والمعنى

في الآيات قبله ، ومما ورد في هذا المعنى ما رواه مسلم (٧٨) عن علي رضي الله عنه

قال : (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ؛ إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم إلي ألا

يحبني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق) .

(٢) رواه البخاري (٦١٦٩) ، ومسلم (٢٦٤١) .

(٣) كذا في « القوت » (٤٧ / ٢) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (١٩ / ٣) من حديث

أبي قرصافة رضي الله عنه ، وابن عدي في « الكامل » (٣٠٣ / ١) من حديث جابر

رضي الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » (١) .

وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة ، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا نعيده .



فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى ، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى .. فهو محال ، وهو قاذح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى .. فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، فكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه ؟ وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟

فاعلم : أن هذا ممّا يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاماً من مقامات الرضا ، وسمّوه حسن خلق ، وهو جهل محض ، بل نقول : الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد في شيء واحد أن يُكره من وجه ويُرضى به من وجه ؛ إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضاً عدو بعض أعدائك وساع في

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٧٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٢٨٦ / ٤) .

إهلاكه ، ففكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه مات عدوك ، وكذلك المعصية لها وجهان :

وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته ، فيرضى به من هذا الوجه ؛ تسليماً للملك إلى مالك الملك ، ورضاً بما يفعله فيه .

ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتاً عند الله تعالى وبغضاً عنده ، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكراً ومذموماً .

ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال :

فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبيه : إنني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني ، وأنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً ، وهو أنني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشتم لي ، حتى إذا شتمني . . أبغضته واتخذته عدواً لي ، فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدوي ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي .

ثم فعل ذلك ، وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض ، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة ، فحق على كل من هو صادق في محبه وعالم بشروط المحبة أن يقول :

أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إيّاه للبغض والعداوة . . فأنا محب له وراض به ، فإنه رأيك وتدبيرك ، وفعلك

وإرادتك ، وأما شتمه إياك . . فإنه عدوانٌ من جهته ؛ إذ كان حقُّه أن يصبرَ ولا يشتمَ ، ولكنه كان مرادك منه ، فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتيم الموجب للمقت ، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتديريك الذي دبرته . . فأنا راضٍ به ، ولو لم يحصل . . لكان ذلك نقصاناً في تديريك ، وتعويقاً في مرادك ، وأنا كارهٌ لفوات مرادك ، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص ، وكسب له ، وعدوانٌ وتهجُّمٌ منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك ، إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتيم . . فأنا كارهٌ له من حيث نسبته إليه ، ومن حيث هو وصف له ، لا من حيث هو مرادك ومقتضى تديريك .

وأما بغضك له بسبب شتمك . . فأنا راضٍ به ، ومحِبُّ له ؛ لأنه مرادك ، وأنا على موافقتك أيضاً مبغضٌ له ؛ لأن شرط المحب أن يكون حبيبٌ المحبوب حبيباً ، وعدوٌّ عدوًّا .

وأما بغضه لك . . فإنني أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك ، إذ أبعدته عن نفسك ، وسلطت عليه دواعي البغض ، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله ، وأمقته لذلك ، فهو ممقوتٌ عندي لمقته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضاً مكروهٌ عندي من حيث إنه وصفه ، وكل ذلك من حيث إنه مرادك . . فهو مرضيٌّ .

وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضيٌّ ، ومن حيث إنه

مرادك مكروه ، فأما إذا كان مكروهاً لا من حيث إنه فعله ومراده ، بل من حيث إنه وصف غير وكسبه . فهذا لا تناقض فيه ، ويشهد لذلك كل ما يُكره من وجه ويُرضى به من وجه ، ونظائر ذلك لا تُحصى .

فإذا ؛ تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجزّء ذلك إلى حب المعصية ، ويجزّء الحب إلى فعل المعصية . . يضاهاى ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً ليجزّء الضرب إلى الغضب ، والغضب إلى الشتم ، ومقت الله تعالى لمن عصاه - وإن كانت معصيته بتدبيره - يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه .

وفعل الله تعالى ذلك بكلّ عبد من عبده - أعني : تسليط دواعي المعصية عليه - يدل على أنه سبق مشيئته بإبعاده ومقتيه ، فواجب على كلّ عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ، ويمقت من مقته الله ، ويعادي من أبغده الله عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ؛ فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيداً بإبعاده قهراً ، ومطروداً بطرده اضطراراً .

والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيماً بغضاً إلى جميع المحييين ؛ موافقةً للمحسوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده .

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله ، والحب في الله ، والتشديد على الكفار ، والتغليظ عليهم ، والمبالغة في مقتيهم ، مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل .

وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه ، وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضي به ، فمن قال : ليس الشر من الله . . فهو جاهل ، وكذا من قال : إنهما جميعاً منه من غير افتراق في الرضا والكراهة . . فهو أيضاً مقصر ، وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « القدر سرُّ الله ، فلا تفشوه »^(١) ، وذلك يتعلق بعلم المكاشفة ، وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تُعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه .

وبهذا يُعرف أيضاً أن الدعاء بالمغفرة ، والعصمة من المعاصي ، وسائر الأسباب المعينة على الدين . . غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ؛ فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١٠٢ / ٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٨٢ / ٦) .

التضرُّع ، ويكون ذلك جلاءً للقلب ومفتاحاً للكشف ، وسبباً لتواتر مزايا اللطف ؛ كما أنَّ حملَ الكوزِ وشربَ الماءِ ليسَ مناقضاً للرضا بقضاءِ الله تعالى في العطشِ ، وشربُ الماءِ طلبٌ لإزالةِ العطشِ ومباشرةٌ سببِ رتبته مسببُ الأسبابِ ؛ فكَذلكَ الدعاءُ سببٌ رتبته اللهُ تعالى وأمر به ، وقد ذكرنا أنَّ التمسُّكَ بالأسبابِ جرياً على سُنَّةِ اللهِ تعالى لا يناقضُ التوكُّلَ ، واستقصيناهُ في كتابِ التوكُّلِ ، فهو أيضاً لا يناقضُ الرضا ؛ لأنَّ الرضا مقامٌ يلاصقُ التوكُّلَ ويتصلُّ به .

نعم ، إظهارُ البلاءِ في معرضِ الشكوى ، وإنكارُهُ بالقلبِ على الله تعالى .. مناقضٌ للرضا ، وإظهارُ البلاءِ على سبيلِ الشكرِ والكشفِ عن قدرةِ اللهِ تعالى .. لا يناقضُ وقد قال بعضُ السلفِ : مِنْ حَسَنِ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَلَا يَقُولُ : هَذَا يَوْمٌ حَارٌّ^(١) ؛ أَيُ : فِي مَعْرِضِ الشَّكَايَةِ ، وَذَلِكَ فِي الصَّيْفِ ، فَأَمَّا فِي الشِّتَاءِ .. فَهُوَ شَكْرٌ .

والشكوى تناقضُ الرضا بكلِّ حالٍ ، وذمُّ الأَطعمةِ وعيبُها يناقضُ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالى ؛ لأنَّ مَذْمَةَ الصَّنْعَةِ مَذْمَةٌ لِلصَّانِعِ ، وَالْكُلُّ مِنْ صَنِيعِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَوْلُ الْقَائِلِ : الْفَقْرُ بَلَاءٌ وَمَحَنَةٌ ، وَالْعِيَالُ هُمْ وَتَعَبٌ ، وَالاحْتِرَافُ كَذٌّ وَمَشَقَّةٌ .. كُلُّ ذَلِكَ قَادِحٌ فِي الرِّضَا ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَسْلَمَ التَّدْبِيرَ لِمَدْبِرِهِ ،

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

والمملكة لمالكها ، ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : (لا أبالي أصبحت
غنياً أو فقيراً ، فإنني لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)^(١) .



(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وهو في « القوت » (٤٠ / ٢) .

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا

اعلم : أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون^(١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ؛ لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى ، وذلك محال ، بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فُتح هذا الباب .. لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المطعونون مهملين ، لا متعهد لهم ، فيهلكون هزلاً وضراً ، ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف^(٢) ، ولو كان ذلك للفرار من القضاء .. لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف ، وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل .

وإذا عُرِف المعنى .. ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فراراً من القضاء ، بل من القضاء الفرار ممّا لا بد من الفرار منه ، وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي ، والأسباب التي تدعو إليها ؛ لأجل التنفير عن المعصية .. ليس مذموماً ، فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك ، حتى اتفق جماعة على ذم بغداد ، وإظهارهم ذلك ، وطلب

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٤٥/٦) .

الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفتُ الشرق والغرب فما رأيتُ بلداً شراً من بغداد ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : هو بلدٌ تُزدرى فيه نعمة الله ، وتُستغفر فيه معصية الله^(١) .

ولما قدم خراسان . . قيل له : كيف رأيتَ بغداد ؟ فقال : ما رأيتُ بها إلا شرطياً غضباناً ، أو تاجراً لهفاناً ، أو قارئاً حيراناً^(١) .

ولا ينبغي أن تظنَّ أن ذلك من الغيبة ؛ لأنه لم يتعرضْ لشخصٍ بعينه حتى يستضرَّ ذلك الشخصُ به ، وإنما قصدَ بذلك تحذيرَ الناسِ .

وكان يخرجُ إلى مكة وكان مقامه ببغداد ريث استعداد القافلة ستة عشر يوماً ، فكان يتصدقُ بستة عشر ديناراً ؛ لكلِّ يوم دينارٌ كفارة لمقامه^(١) .

وقد ذمَّ العراق جماعة ؛ كعمر بن عبد العزيز ، وكعب الأحمري ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له : أين تسكنُ ؟ فقال : العراق ، فقال : فما تصنعُ به ؟ ! بلغني أنَّه ما من أحدٍ يسكنُ العراق إلا قَيَّضَ الله له قريناً من البلاء !^(١) .

وذكر كعب الأحمري يوماً العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشرِّ ، وفيه الداء العضالُ ، وقد قيلَ : قُسِّمَ الخيرُ عشرة أجزاء ، فتسعة أعشاره بالشام ، وعشره بالعراق ، وقُسِّمَ الشرُّ عشرة أجزاء على العكسِ من ذلك^(٢) .

(١) قوت القلوب (٤٩ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (٤٩ / ٢) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٩ / ١) بنحوه .

وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوماً عند الفضيل بن عياض ، فجاءه صوفي متدرّع بعباءة فأجلسه إلى جانبه ، وأقبل عليه ، ثم قال : أين تسكن ؟ فقال : بغداد ، فأعرض عنه وقال : يأتينا أحدهم في زِيّ الرهبان ، فإذا سألناه أين تسكن . . قال : في عشّ الظلمة !^(١) .

وكان بشر بن الحارث يقول : (مثال المتعبّد ببغداد مثال المتعبّد في الحشّ) .

وكان يقول : (لا تقتدوا بي في المقام بها ، مَنْ أراد أن يخرج . . فليخرج)^(٢) .

وكان أحمد ابن حنبل يقول : لولا تعلّق هؤلاء الصبيان بنا . . كان الخروج من هذا البلد أثر في نفسي ، قيل : وأين تختار السكنى ؟ قال : بالثغور^(٣) .

وقال بعضهم وقد سُئِلَ عن أهل بغداد : (زاهدٌ زاهدٌ ، وشريرون شريرٌ) .

فهذا يدلُّ على أن مَنْ بُلي ببلدةٍ تكثر فيها المعاصي ، ويقلُّ فيها الخير . . فلا عذر له في المقام بها ، بل ينبغي أن يهاجر ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١ / ٩) .

(٢) نقلهما صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١ / ٩) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١ / ٩) .

وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوماً عند الفضيل بن عياض ، فجاءه صوفي متدرّع بعباءة فأجلسه إلى جانبه ، وأقبل عليه ، ثم قال : أين تسكن ؟ فقال : بغداد ، فأعرض عنه وقال : يأتينا أحدهم في زيّ الرهبان ، فإذا سألناه أين تسكن .. قال : في عشّ الظلمة !^(١) .

وكان بشر بن الحارث يقول : (مثال المتعبّد ببغداد مثال المتعبّد في الحشّ) .

وكان يقول : (لا تقتدوا بي في المقام بها ، مَنْ أراد أن يخرج .. فليخرج)^(٢) .

وكان أحمد بن حنبل يقول : لولا تعلّق هؤلاء الصبيان بنا .. كان الخروج من هذا البلد أثر في نفسي ، قيل : وأين تختار السكنى ؟ قال : بالثغور^(٣) .

وقال بعضهم وقد سُئِلَ عن أهل بغداد : (زاهدٌ زاهدٌ ، وشريّرٌ شريّرٌ) .

فهذا يدلُّ على أن مَنْ بُلي ببلدةٍ تكثر فيها المعاصي ، ويقلُّ فيها الخير .. فلا عذر له في المقام بها ، بل ينبغي أن يهاجر ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١ / ٩) .

(٢) نقلهما صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١ / ٩) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١ / ٩) .

لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان : لم ؟ قال : لعلني أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً ، فقيل لوهيب : أيش تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئاً ، أحب ذلك إليّ أحبّه إلى الله تعالى ، فقبّله الثوري بين عينيه وقال : روحانيّة وربّ الكعبة^(١) .



(١) قوت القلوب (٤٤ / ٢) .

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين : إنَّكَ محبٌّ ، فقال : لستُ محبّاً ، إنّما أنا محبوبٌ ، والمحِبُّ متعوبٌ^(١) .

وقيل له أيضاً : الناسُ يقولون : إنَّكَ واحدٌ مِنَ السبعة ، فقال : أنا كلُّ سبعة^(٢) .

وكان يقول : إذا رأيْتُموني . . فقد رأيْتُم أربعين بدلاً ، قيل : وكيف أنتَ شخصٌ واحدٌ ؟ قال : لأنِّي رأيْتُ أربعين بدلاً ، وأخذتُ مِنْ كلِّ بدلٍ علقةً مِنْ أخلاقه^(١) .

وقيل له : بلغنا أنَّكَ ترى الخضرَ عليه السلامُ ، فتبسّمَ وقال : ليسَ عجبٌ ممَّن يرى الخضرَ ، ولكن العجبُ ممَّن يريدُ الخضرَ أن يراهُ فيحتجبُ منه^(١) .

ويحكى عن الخضرِ عليه السلامُ أنّه قال : (ما حدثتُ نفسي يوماً قطُّ أنّه يمّ يبقَ وليّ الله تعالى إلا عرفتُهُ إلا ورأيْتُ في ذلك اليومَ وليّاً لم أعرفهُ) .

وقيل لأبي يزيدَ البسطاميّ مرّةً : حدّثنا عن مشاهدتكَ مِنَ الله تعالى ، صاحَ ثمَّ قال :

(١) قوت القلوب (٦٩ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (٦٩ / ٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٧ / ١٠) .

ويلكم ! لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك .

قيل : فحدثنا بأشدّ مجاهدتك لنفسك في الله تعالى .

فقال : وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه .

قيل : فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك .

فقال : نعم ، دعوت نفسي إلى الله عزّ وجلّ فجمحت عليّ ، فعزمتُ

عليها ألا أشرب الماء سنةً ، ولا أذوق النوم سنةً ، فوقت لي بذلك^(١) .

وحكي عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد

صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزاً على صدور قدميه ، رافعاً أخصصهما

مع عقبه عن الأرض ، ضارباً بذقنه على صدره ، شاخصاً بعينه لا يطفئ ،

قال : ثمّ سجد عند السحر فأطال ، ثمّ قعد فقال :

اللهم ! إن قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء ، والمشي في

الهواء ، فرضوا بذلك ، وإنّي أعود بك من ذلك .

وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم طي الأرض ، فرضوا بذلك ، وإنّي أعود بك

من ذلك .

وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض ، فرضوا بذلك ، وإنّي أعود بك

من ذلك .

(١) قوت القلوب (٢ / ٧٠) .

قَالَ : حَتَّىٰ عَدَّ نِيفًا وَعِشْرِينَ مَقَامًا مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ ، ثُمَّ التَفَتَ
فِرَآئِي ، فَقَالَ :

يَحْيَىٰ ! فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا سَيِّدِي ، فَقَالَ : مُذْ مَتَى أَنْتَ هَاهُنَا ؟ قُلْتُ : مِنْذُ
حِينَ ، فَسَكَتَ .

فَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي ؛ حَدِّثْنِي بِشَيْءٍ ، فَقَالَ :

أَحَدُكَ بِمَا يَصْلَحُ لَكَ ، أَدْخَلَنِي فِي الْفَلَكَ الْأَسْفَلِ ، فَدَوَّرَنِي فِي
الْمَلَكُوتِ السُّفْلِيِّ ، وَأَرَانِي الْأَرْضِينَ وَمَا تَحْتَهَا إِلَى الثَّرَى ، ثُمَّ أَدْخَلَنِي فِي
الْفَلَكَ الْعُلَوِيِّ ، فَطَوَّفَ بِي فِي السَّمَاوَاتِ ، وَأَرَانِي مَا فِيهَا مِنَ الْجَنَانِ إِلَى
الْعَرْشِ ، ثُمَّ أَوْقَفَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ :

سَلِّنِي أَيَّ شَيْءٍ رَأَيْتَ حَتَّىٰ أَهْبَهُ لَكَ ، فَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي ؛ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا
اسْتَحْسَنْتُهُ فَأَسْأَلُكَ إِلَّاهُ ، فَقَالَ :

أَنْتَ عَبْدِي حَقًّا ، تَعْبُدُنِي لِأَجْلِ صَدَقَاءَ ، لِأَفْعَلَنَّ بِكَ وَلَا فَعَلَنَّ ، فَذَكَرَ
أَشْيَاءَ .

قَالَ يَحْيَىٰ : فَهَالَنِي ذَلِكَ وَامْتَلَأْتُ بِهِ ، وَعَجِبْتُ مِنْهُ ، فَقُلْتُ :
يَا سَيِّدِي ؛ لِمَ لَا سَأَلْتَهُ الْمَعْرِفَةَ بِهِ وَقَدْ قَالَ لَكَ مَلِكُ الْمُلُوكِ : سَلِّنِي
مَا شِئْتَ ؟

قَالَ : فَصَاحَ بِي صَبِيحَةً وَقَالَ : اسْكُتْ وَيْلَكَ ، غَرْتُ عَلَيْهِ مِنِّي ، حَتَّىٰ
لَا أَحَبُّ أَنْ يَعْرِفَهُ سِوَاهُ^(١) .

(١) قوت القلوب (٧٠ / ٢) .

وحكي أن أبا تراب النخشي كان معجباً ببعض المريدين ، فكان يدينه ،
ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجيدته ، فقال له أبو تراب
يوماً : لو رأيت أبا يزيد ، فقال المريد : إنني عنه مشغول .

فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله : لو رأيت أبا يزيد . هاج وجد المريد
فقال : ويحك ! ما أصنع بأبي يزيد ؟ قد رأيت الله تعالى فأغواني عن
أبي يزيد .

قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : ويلك !
تغتر بالله عز وجل ؟! لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة . . كان أنفع لك من أن
ترى الله سبعين مرة ، قال : فبهت الفتى من قوله وأنكره ، فقال : وكيف
ذلك ؟

قال له : ويلك ! إنما ترى الله تعالى عندك ، فيظهر لك على مقدارك ،
وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره ، فعرف ما قلت ، فقال :
احملني إليه ، فذكر قصة قال في آخرها :

فوقفنا على تلٍ ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوي إلى غيضة
فيها سباع ، قال : فمررنا وقد قلب فروة على ظهره ، فقلت للفتى : هذا
أبو يزيد فانظر إليه ، فنظر إليه الفتى فصعق ، فحركناه فإذا هو ميت ،
فتعاوننا على دفنه ، فقلت لأبي يزيد :

يا سيدي نظره إليك قتله ؟ قال : لا ، ولكن كان صاحبك صادقاً ،
وأسكن في قلبه سرٌّ لم ينكشف له بوصفه ، فلما رأنا . . انكشف له سرٌّ

قلبه ، فضايق عن حمليه ؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك^(١) .

ولما دخل الزنج البصرة ، فقتلوا الأنفس ، ونهبوا الأموال . . اجتمع إلى سهل إخوانه ، فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ، فسكت ثم قال : إن لله عبداً في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين . . لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ، ولكن لا يفعلون ، قيل : لم ؟ قال : لأنهم لا يحبون ما لا يحب ، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يُستطاع ذكرها ، حتى قال : ولو سألوهُ ألا يقيم الساعة . . لم يقمها^(٢) . وهذه أمورٌ ممكنةٌ في أنفسها ، فمن لم يحظَ بشيءٍ منها . . فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة ، والفضل عظيم^(٣) ، وعجائب الملك والملوك كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها ، وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له .

ولذلك كان أبو يزيد يقول : (إن أعطاك مناجاة موسى ، وروحانية عيسى ، وخلة إبراهيم عليهم السلام . . فاطلب ما وراء ذلك ، فإنَّ عنده فوق ذلك أضعافاً مضاعفةً ، فإن سكنت إلى ذلك . . حجبك به ، وهذا بلاء

(١) قوت القلوب (٧٠ / ٢) ، وقد ينكشف للمريد في صحبة العارفين والنظر إلى وجوههم في لحظة واحدة ما لا ينكشف له بالاجتهاد في مدة متطاولة . « إتحاف » (٦٧٤ / ٩) .

(٢) قوت القلوب (٧١ / ٢) .

(٣) في (أ) : (عميم) بدل (عظيم) .

مِثْلِهِمْ ، وَمَنْ هُوَ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ ؛ لَأَنَّهُمْ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ (١) .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ :

كُوشِفْتُ بِأَرْبَعِينَ حُورَاءَ ، رَأَيْتُهُنَّ يَتَسَاعَيْنَ فِي الْهَوَاءِ ، عَلَيْهِنَّ ثِيَابٌ مِنْ
ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَجَوْهَرٍ يَتَخَشَّخَشُ وَيَتَشَتَّى مَعَهُنَّ ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِنَّ نَظْرَةً ، فَعُوقِبْتُ
أَرْبَعِينَ يَوْمًا .

ثُمَّ كُوشِفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَمَانِينَ حُورَاءَ فَوْقَهُنَّ فِي الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ ، وَقِيلَ
لِي : انْظُرْ إِلَيْهِنَّ ، قَالَ : فَسَجَدْتُ وَغَمَضْتُ عَيْنِي فِي سَجُودِي لئَلَّا أَنْظَرَ
إِلَيْهِنَّ ، وَقُلْتُ :

أَعُوذُ بِكَ مِمَّا سِوَاكَ ، لَا حَاجَةَ لِي بِهَذَا ، فَلَمْ أَزَلْ أَتَضَرَّعُ حَتَّى صَرَفَهُنَّ
اللَّهُ عَنِّي (١) .

فَأَمْثَالُ هَذِهِ الْمَكَاشِفَاتِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْكَرَهَا الْمُؤْمِنُ لِإِفْلَاسِهِ عَنْ مِثْلِهَا ،
فَلَوْ لَمْ يُؤْمِنْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَّا بِمَا يَشَاهِدُهُ مِنْ نَفْسِهِ الْمَظْلَمَةِ وَقَلْبِهِ الْقَاسِيِ . .
لَضَاقَ مَجَالُ الْإِيمَانِ عَلَيْهِ .

بَلْ هَذِهِ أَحْوَالٌ تَظْهَرُ بَعْدَ مَجَاوِزَةِ عَقَبَاتٍ وَنِيلِ مَقَامَاتٍ كَثِيرَةٍ ، أَدْنَاهَا
الْإِخْلَاصُ وَإِخْرَاجُ حُظُوظِ النَّفْسِ وَمُلَاحَظَةُ الْخَلْقِ عَنْ جَمِيعِ الْأَعْمَالِ ظَاهِرًا
وَبَاطِنًا ، ثُمَّ مَكَاتِمُهُ ذَلِكَ عَنِ الْخَلْقِ بِسَرِّ الْحَالِ حَتَّى يَبْقَى مُتَحَصِّنًا بِحَصَنِ
الْخُمُولِ .

(١) قوت القلوب (٧٢ / ٢) .

فهذه أوائل سلوكيهم ، وأقل مقاماتهم ، وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس .

وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين ، وينكشف له مبادي الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديد إذا شككت ونقيت ، وصقلت وصورت بصورة المرأة .

فنظر المنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدا والخبث ، وهو لا يحكي صورة من الصور . . . فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهريها ، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال .

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء ، إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى .

بل إنما يشتم روائح المكاشفة من سلك شيئاً ولو من مبادي الطريق ؛ كما قيل لبشر : بأي شيء بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : كنت أكاتم الله تعالى حالي .

معناه : أسأله أن يكتم عليّ ويخفي أمري^(١) .

وروي أنه رأى الخضر عليه السلام ، فقال له : ادع الله تعالى لي ، فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت : زدني ، فقال : وسترها عليك .

(١) قوت القلوب (٧٣ / ٢) .

فقيل : معناه سترها عن الخلق ، وقيل : معناه : سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها^(١) .

وعن بعضهم أنه قال :

أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام ، فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئاً كان أهم الأشياء عليّ ، قال : فرأيتُهُ ، فما غلب عليّ همِّي ولا همّتي إلا أن قلتُ له :

يا أبا العباس ؛ علّمني شيئاً إذا قلته حُجبتُ عن قلوب الخليفة ، فلم يكن لي فيها قدرٌ ، ولم يعرفني أحدٌ بصلاح ولا ديانة ، فقال : قل :

اللهم ؛ أسبل عليّ كثيف سترك ، وحطّ عليّ سرادقات حجبك ، واجعلني في مكنون غيبك ، واحجبني عن قلوب خلقك^(٢) .

قال : ثم غاب فلم أره ، ولم أشتق إليه بعد ذلك ، فما زلت أقول هذه الكلمات في كل يوم .

فحكى أنه صار بحيثُ كان يُستدَلُّ ويُمْتَهَنُ ، حتى كان أهل الذمّة يسخرون به ، ويستسخرونه في الطرق يحملُ الأشياء لهم ، لسقوطه عندهم ، وكان الصبيان يُولعون به ، فكانت راحته ووجود قلبه واستقامته حاله في ذلّه وخموله^(٣) .

(١) قوت القلوب (٧٣ / ٢) ، وأوردها كذلك القشيري في « رسالته » (ص ٥٩٨) .

(٢) في غير (ع ، ف) : (واحجبني في قلوب خلقك) .

(٣) قوت القلوب (٧٣ / ٢) .

فهكذا حال أولياء الله تعالى ، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا ،
والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيايس ، وفي المشهورين
بين الخلق بالعلم والورع والرئاسة ، وغيره الله تعالى على أوليائه تأبى إلا
إخفاءهم ، كما قال تعالى : (أوليائي تحت قبابي ، لا يعرفهم غيري) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « رَبِّ أَشَعْتَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ،
لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ . . . لَا بَرَّةُ » (١) .

وبالجملة : فأبعدُ القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة ،
المعجبة بأنفسها ، المستبشرة بعملها وعلمها .

وأقربُ القلوب إليها القلوب المنكسرة ، المستشعرة ذل نفسها استشعاراً
إذا أذلّ واهتضم . . لم يحسّ بالذل ؛ كما لا يحسّ العبد بالذل مهما ترفع
عليه مولاه .

فإذا لم يحسّ بالذل ، ولم يشعر أيضاً بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان
عند نفسه أحسن منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلاً في حقه ، بل يرى
نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته . . فمثل هذا القلب
يرجى له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح .

فإن فقدنا مثل هذا القلب ، وحرمانا مثل هذا الروح . . فلا ينبغي أن

(١) رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) .

يُطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهلِهِ ، فَمَنْ لا يقدرُ أن يكونَ مِنْ أولياءِ الله . .
فليكنَ محبّاً لأولياءِ الله ، مؤمناً بِهِمْ ، فعسى أن يُحشرَ معَ مَنْ أحبَّ .

ويشهدُ لهذا ما رُويَ أنَّ عيسى عليه السلامُ قالَ لبني إسرائيلَ : أينَ ينبتُ
الزُّرْعُ ؟ قالوا : في الترابِ ، فقالَ : بحقِّ أقولُ لَكُمْ : لا تنبتُ الحكمةُ إلا
في قلبٍ مثلِ الترابِ^(١) .

ولقد انتهى المریدونَ لولايةِ الله تعالى في طلبِ شروطِها بإذلالِ النفسِ
إلى منتهى الضعةِ والخسَّةِ .

حتَّى رُويَ أنَّ ابنَ الكَرْنَبِيِّ وهو أستاذُ الجنيدِ دعاهُ رجلٌ ثلاثَ مرَّاتٍ إلى
طعامِهِ ، ثُمَّ كانَ يردُّهُ ، ثُمَّ يستدعيهِ ، فيرجعُ إليه بعدَ ذلكَ ، حتَّى أدخلَهُ في
المرَّةِ الرابعةِ ، فسألهُ عن ذلكَ ، فقالَ :

قد رُضْتُ نفسي على الذلِّ عشرينَ سنةً ، حتَّى صارتَ بمنزلةِ الكلبِ ،
يُطردُ فينظرُ ، ثُمَّ يُدعى فيُرمى له عظمٌ فيعودُ ، ولو رددتني خمسينَ مرَّةً ثُمَّ
دعوتني بعدَ ذلكَ . . لأجبتُ^(٢) .

وعنه أيضاً أنه قالَ :

نزلتُ في محلَّةٍ ، فعُرفتُ فيها بالصلاحِ ، فتشَّتْ قلبي ، فدخلتُ

(١) قوت القلوب (٧٤ / ٢) .

(٢) قوت القلوب (٧٤ / ٢) ، وبنحوه أورد القشيري في « رسالته » (ص ٤١٤) عن
أبي عثمان الحيري .

الحمَّام ، وعيَّنتُ على ثيابٍ فاخرةٍ فسرقتها ولبستها ، ثمَّ لبستُ مرقَّعتي فوقها وخرجتُ ، وجعلتُ أمشي قليلاً قليلاً ، فلحقوني فتزعوا مرقَّعتي ، وأخذوا الثيابَ ، وصفعوني وأوجعوني ضرباً ، فصرتُ بعدَ ذلكَ أعرفُ بلصِّ الحمامِ ، فسكنتُ نفسي^(١) .

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتَّى يخلَّصَهُمُ اللهُ مِنَ النظرِ إلى الخلقِ ، ثمَّ مِنَ النظرِ إلى النفسِ ، فإنَّ الملتفتَ إلى نفسه محجوبٌ عن الله تعالى ، وشغلُهُ بنفسِهِ حجابٌ له ، فليسَ بينَ القلبِ وبينَ الله حجابٌ بعيدٍ وتخلُّلٍ حائلٍ ، وإنَّما بعدُ القلوبِ شغلُها بغيره أو بنفسِها ، وأعظمُ الحجبِ شغلُ النفسِ .

ولذلكَ حُكي أنَّ شاهداً عظيماً القدرِ مِنْ أعيانِ أهلِ بسطامَ كانَ لا يفارقُ مجلسَ أبي يزيدَ ، فقالَ له يوماً : يا أبا يزيدَ ؛ أنا منذُ ثلاثينَ سنةً أصومُ الدهرَ لا أفطرُ ، وأقومُ الليلَ لا أنامُ ، ولا أجدُ في قلبي مِنْ هذا العلمِ الذي تذكرُ شيئاً ، وأنا أصدِّقُ بهِ وأحبُّهُ ، فقالَ أبو يزيدَ :

ولو صمتَ ثلاثَ مئةِ سنةٍ ، وقمتَ ليلها . . ما وجدتَ مِنْ هذا ذرَّةً ، قالَ : ولمَ ؟ قالَ :

لأنَّكَ محجوبٌ بنفسِكَ ، قالَ : فلهذا دواءٌ ؟ قالَ : نعمَ ، قالَ : قلْ لي حتَّى أعملهُ ، قالَ : لا تقبلهُ ، قالَ : فاذكرهُ لي حتَّى أعملهُ ، قالَ :

(١) كذا في « القوت » (٧٤ / ٢) .

اذهب الساعة إلى المزيّن فاحلق رأسك ولحيّتك ، وانزع هذا اللباس
واترّز بعباءة ، وعلّق في عنقك مخلّاة مملوءة جوزاً ، واجمع الصبيان حولك
وقل :

كلّ مَنْ صفّعني صفعةً . . أعطيتُه جوزةً ، وادخل السوق ، وطّف الأسواق
كلّها عند الشهود وعند مَنْ يعرفك وأنت على ذلك ، فقال الرجل :

سبحان الله ! تقول لي مثل هذا ؟! فقال أبو يزيد : قولك : سبحان الله
شرك ، قال : وكيف ؟ قال : لأنك عظّمت نفسك فسبّحتّها ، وما سبّحت
ربّك ، فقال : هذا لا أفعله ، ولكنّ دُلّني على غيره ، فقال : ابتدء بهذا
قبل كلّ شيء ، فقال : لا أطيقه ، فقال : قد قلت لك : إنك لا تقبل^(١) .

فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء مَنْ اعتلّ بنظره إلى نفسه ومرضَ بنظر
الناس إليه ، ولا ينجي من هذا المرض دواءٌ سوى هذا وأمثاله .

فمَنْ لا يطيق الدواء . . فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حقّ مَنْ داوى
نفسه بعد المرض ، أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً .

فأقلّ درجات الصّحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل
أيضاً .

وهذه أمورٌ جليّة في الشرع واضحة ، وهي مع ذلك مستبعدة عند مَنْ

(١) قوت القلوب (٧٤/٢) .

يعدُّ نفسه من علماء الشرع ، فقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتَّى تكونَ قلَّةُ الشيءِ أحبَّ إليه من كثرتِه ، وحتَّى يكونَ ألا يُعرفَ أحبَّ إليه من أن يُعرفَ »^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلامُ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ .. استكملَ إيمانهُ : لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ ، ولا يرائي بشيءٍ من عمله ، وإذا عُرِضَ عليه أمرانِ ؛ أحدهما للدنيا ، والآخرُ للآخرةِ .. أثرَ أمرِ الآخرةِ على أمرِ الدنيا »^(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلامُ : « لا يكملُ إيمانُ العبدِ حتَّى يكونَ فيه ثلاثُ خصالٍ : مَنْ إذا غضبَ .. لم يخرجْهُ غضبُهُ عن حقٍّ ، وإذا رضي .. لم يدخلْهُ رضاهُ في باطلٍ ، وإذا قدرَ .. لم يتناولَ ما ليسَ له »^(٣) .

وفي حديثٍ آخرَ :

(١) كذا في « القوت » (٧٥ / ٢) ، حيث قال : (وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف كمال الإيمان ثلاثة أحاديث من أصول هذه الأحوال ، وأساس هذه الأفعال ...) فذكرها ، وانظر « الإتحاف » (٣٣٢ / ٩) .

(٢) كذا في « القوت » (٧٥ / ٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣ / ٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) كذا في « القوت » (٧٥ / ٢) ، وبنحوه رواه الطبراني في « الصغير » (٦١ / ١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٦٨ / ١) من حديث أنس رضي الله عنه .

ثلاث مَنْ أُوتِيَهُنَّ . . فقد أُوتِيَ مثلَ ما أُوتِيَ آلُ داوودَ : العدلُ في الرضا والغضبِ ، والقصدُ في الغنى والفقرِ ، وخشيةُ الله في السرِّ والعلانية «^(١) .

فهذه شروطُ ذكرها رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأولي الإيمانِ ، فالعجبُ ممَّن يدَّعي علمَ الدينِ ولا يصادفُ في نفسه ذرَّةً مِنْ هذه الشروطِ ، ثمَّ يكونُ نصيبُهُ مِنْ علمِهِ وعقلِهِ أنْ يجحدَ ما لا يكونُ إلا بعدَ مجاوزةِ مقاماتٍ عظيمةٍ عليَّةٍ وراءَ الإيمانِ .

وفي الأخبارِ :

أنَّ اللهَ تعالى أوحى إلى بعضِ أنبيائه^(٢) : (إِنَّمَا أَتَخَذُ لَخُلَّتِي مَنْ لَا يَفْتَرُ عَنْ ذِكْرِي ، وَلَا يَكُونُ لَهُ هَمٌّ غَيْرِي ، وَلَا يُوَثِّرُ عَلَيَّ شَيْئاً مِنْ خَلْقِي ، وَإِنْ حُرِّقَ بِالنَّارِ . . لَمْ يَجِدْ لِحَرْقِ النَّارِ وَجَعاً ، وَإِنْ قُطِّعَ بِالمناشيرِ . . لَمْ يَجِدْ لِمَسِّ الحديدِ ألماً)^(٣) .

فمَنْ لَمْ يبلُغْ إلى أنْ يغلبَهُ الحبُّ إلى هذا الحدِّ . . فمِنْ أينَ يعرفُ ما وراءَ الحبِّ مِنَ الكراماتِ والمكاشفاتِ ، وكلُّ ذلكَ وراءَ الحبِّ ، والحبُّ

(١) كذا في « القوت » (٧٥ / ٢) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نواذر الأصول » (ص ١٣٠) ، وبنحوه رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) في (ع) : (أوليائه) بدل (أنبيائه) .

(٣) قوت القلوب (٧٧ / ٢) ، وقد قال : (وقد كان الحسن رحمه الله تعالى يروي في الخلّة أخباراً ، منها . . .) فذكره .

وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوتة في الزيادة والنقصان لا حصر له ؟!

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للصدِّيق رضي الله عنه : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ مِثْلَ إِيمَانٍ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِبِي مِنْ أُمَّتِي ، وَأَعْطَانِي مِثْلَ إِيمَانٍ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ »^(١) .

وفي حديث آخر :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ثَلَاثَ مِثَّةٍ خُلِقَ ، مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ . . دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ هل في خلقٍ منها ؟ فقال : « كُلُّهَا فَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؛ وَأَحْبَبُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى السَّخَاءُ »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « رَأَيْتُ مِيزَانًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ ، وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ ، فَرَجَحَتْ بِهِمْ ، وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كِفَّةٍ وَجِيءَ بِأُمَّتِي فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ ، فَرَجَحَ بِهِمْ »^(٣) .

(١) كذا في « القوت » (٧٨ / ٢) ، وقد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢٧٠) من حديث علي رضي الله عنه بنحوه .

(٢) كذا في « القوت » (٧٨ / ٢) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠٤ / ٣٠) ، وجمع نحو هذه الأخبار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦٧٩ / ٩) .

(٣) كذا في « القوت » (٧٨ / ٢) ، ورواه أحمد في « المسند » (٢٥٩ / ٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره ، فقال : « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً .. لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله تعالى »^(١) ؛ يعني : نفسه صلى الله عليه وسلم .



(١) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢ ، ٢٣٨٣) .

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة يستفح بها

قال سفيان : (المحبة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم)^(١) .

وقال غيره : (دوام الذكر)^(٢) .

وقال غيره : (إثارة المحبوب)^(٣) .

وقال بعضهم : (كراهية البقاء في الدنيا)^(٤) .

وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة ، فأما نفس المحبة . . فلم يتعرضوا لها .

وقال بعضهم : (المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب ، تعجز القلوب عن إدراكه ، وتمتنع الألسن عن عبارته)^(٥) .

وقال الجنيد : (حرّم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة)^(٦) .

وقال : (كل محبة تكون بعوض ، فإذا زال العوض . . زالت المحبة)^(٧) .

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٠) ، وسفيان هو ابن عيينة ، وسياق المصنف الآتي عنده .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٩) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٠) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٤ / ١٠) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٠) .

وقال ذو النون : (قل لمن أظهر حب الله : احذر أن تذلل
لغير الله)^(١) .

وقيل للشبلي رحمه الله : صف لنا العارف والمحِب ، فقال : العارف
إن تكلم .. هلك ، والمحِب إن سكت .. هلك^(٢) .

وقال الشبلي رحمه الله^(٣) :

[من مخلص البسيط]

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني أنت بما مر بي عليم

ولغيره^(٤) :

[من الوافر]

عجبت لمن يقول ذكرت ربي وهل أنسى فأذكر ما نسي
أموت إذا ذكرتك ثم أحيأ ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيأ بالمنى وأموت شوقاً فكم أحيأ عليك وكم أموت
شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفذ الشراب وما رويت
فلئت خياله نصب لعيني فإن أقصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها :

(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية »
(٣٧٣ / ٩) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩١) .

(٣) ديوانه (ص ١٢٢) .

(٤) انظر « شرح نهج البلاغة » (١١ / ٧٩ - ٢٣٥) .

حييُّنا معنا ، ولكنَّ الدنيا قطعَتْنا عنه^(١) .

وقال ابنُ الجلاء رحمه الله تعالى : (أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إنِّي إذا اطلعتُ على سرِّ عبدٍ ، فلم أجذ فيه حبَّ الدنيا والآخرة . . ملائكة من حبي ، وتوليته بحفظي)^(١) .

وقيل : تكلم سمنون يوماً في المحبة ، فإذا بطائر نزل بين يديه ، فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال منه الدم فمات^(٢) .

وقال إبراهيم بن أدهم : (إلهي ؛ إنك تعلم أن الجنة لا تزُن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك ، وأنستني بذكرك ، وفرغتني للتفكير في عظمتك)^(٣) .

وقال السري رحمه الله : (من أحبَّ الله . . عاش ، ومن مال إلى الدنيا . . طاش ، والأحمق يغدو ويروح في لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش)^(٤) .

(١) أوردها الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٣) .

(٢) أوردها الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٣) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٢٥) .

(٣) أوردها الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥ / ٨) .

(٤) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) ، ورواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (١٠٣١) ، ولاش : لا شيء ، وجاءت هكذا مراعاة للسجعة ، وهي لا تأتي كذلك إلا في الازدواج ونحوه ، وتقرأ الجمل مسكنة الآخر .

وقيلَ لرابعة : كيف حبُّكَ للرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ؟ فقالت : واللهِ ؛ إنِّي لأحبهُ حبًّا شديدًا ، ولكنَّ حبَّ الخالقِ شغلني عن حبِّ المخلوقين^(١) .

وسئلَ عيسى عليه السلامُ عن أفضلِ الأعمالِ ، فقالَ : الرضا عن الله تعالى والحبُّ له^(٢) .

وقالَ أبو يزيدَ : (المحبُّ لا يحبُّ الدنيا ولا الآخرة ، إنما يحبُّ من مولاة مولاة)^(٣) .

وقالَ الشبليُّ : (الحبُّ دهشٌ في لذَّةٍ ، وحيرةٌ في تعظيم)^(٣) .

وقيلَ : (المحبَّةُ أنْ تمحو أثرَكَ عنكَ حتَّى لا يبقى فيكَ شيءٌ راجعٌ منك إليك)^(٤) .

وقيلَ : (المحبَّةُ قرْبُ القلبِ مِنَ المحبوبِ بالاستبشارِ والفرحِ)^(٤) .

وقالَ الخوَّاصُّ : (المحبَّةُ محوُ الإراداتِ ، واحتراقُ جميعِ الصفاتِ والحاجاتِ)^(٥) .

(١) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) ، ورواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٨٨) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) .

(٣) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٩) .

(٤) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٠) .

(٥) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠١) .

وسئل سهل عن المحبة فقال : (عطفُ الله تعالى بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه)^(١) .

وقيل : (معاملة المحب على أربع منازل : على المحبة ، والهيبة ، والحياء ، والتعظيم ، وأفضلها التعظيم والمحبة ؛ لأن هاتين المتزلتين يقيان في الجنة مع أهل الجنة ويرفع عنهم غيرهما)^(١) .

وقال هرم بن حيّان : (المؤمن إذا عرف ربه عز وجل .. أحبه ، وإذا أحبه .. أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه .. لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا ، وتروحه في الآخرة)^(٢) .

وقال عبد الله بن محمد : سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية ، والدموع على خدّها جارية : والله ؛ لقد سئمت من الحياة ، حتى لو وجدت الموت يُباع .. لا شريته شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقاءه ، قال : فقلت لها : فعلى ثقة أنت من عملك ، قالت : لا ، ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه ؟! ^(٣) .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : (لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ، ورفقي بهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم .. لماتوا شوقاً

(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠١) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٢) .

(٣) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٨) .

إِلَيَّ ، وَتَقَطَّعْتَ أَوْصَالَهُمْ مِنْ مُحَبَّتِي ، يَا دَاوُودُ ؛ هَذِهِ إِرَادَتِي فِي الْمَدْبَرِينَ عَنِّي ، فَكَيْفَ إِرَادَتِي فِي الْمُقْبِلِينَ عَلَيَّ ؟ ! يَا دَاوُودُ ؛ أَحُوجُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَيَّ إِذَا اسْتَغْنَى عَنِّي ، وَأَرْحَمُ مَا أَكُونُ بَعْدِي إِذَا أَدْبَرَ عَنِّي ، وَأَجَلُّ مَا يَكُونُ عِنْدِي إِذَا رَجَعَ إِلَيَّ) (١) .

وَقَالَ أَبُو خَالِدٍ الصَّفَّارُ : (لَقِيَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَابِداً ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الْعِبَادِ تَعْمَلُونَ عَلَى أَمْرِ لِسَانِ مَعَاشِرِ الْأَنْبِيَاءِ نَعْمَلُ عَلَيْهِ ، أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ عَلَى الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَنَحْنُ نَعْمَلُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالشَّوْقِ) (٢) .

وَقَالَ الشَّيْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : (أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا دَاوُودُ ؛ ذَكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ، وَجَنَّتِي لِلْمُطِيعِينَ ، وَزِيَارَتِي لِلْمُشْتَاقِينَ ، وَأَنَا خَاصَّةٌ لِلْمُحِبِّينَ) (٣) .

وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (يَا آدَمُ ؛ مَنْ أَحَبَّ حَبِيباً . . . صَدَّقَ قَوْلَهُ ، وَمَنْ أَنْسَ بِحَبِيبِهِ . . . رَضِيَ فَعَلُهُ ، وَمَنْ اشْتَاقَ إِلَيْهِ . . . جَدَّ فِي مَسِيرِهِ) (٤) .

وَكَانَ الْخَوَّاصُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَضْرِبُ عَلَى صَدْرِهِ وَيَقُولُ : (وَاشُوقَاهُ لِمَنْ يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ) (٥) .

(١) أوردته الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٨) .

(٢) أوردته الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٩) .

(٣) أوردته الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٠) .

(٤) أوردته الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٠) .

وقال الجنيد : بكى يونس عليه السلام حتى عمي ، وقام حتى انحنى ،
وصلّى حتى أقعد ، وقال : وعزّتك وجلالك ؛ لو كان بيني وبينك بحرٌ من
نارٍ . . لخضتُ إليك شوقاً منّي إليك^(١) .

وعن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن ستّهِ فقال : « المعرفة رأسُ مالي ، والعقل أصلُ ديني ،
والحبُّ أساسي ، والشوق مركبي ، وذكرُ الله عزّ وجلّ أنيسي ، والثقة
كنزي ، والحزن رفيقي ، والعلمُ سلاحي ، والصبرُ ردائي ، والرضا
غنيمتي ، والعجزُ فخري ، والزهدُ حرفتي ، واليقينُ قوتي ، والصدقُ
شفيعي ، والطاعةُ حسبي ، والجهادُ خلقي ، وقرّةُ عيني في الصلاة »^(٢) .

وقال ذو النون : (سبحان مَنْ جعلَ الأرواحَ جنوداً مجنّدةً ، فأرواحُ
العارفينَ جلالِيّةٌ قدسيّةٌ ، فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى ، وأرواحُ المؤمنينَ
روحانيّةٌ ، فلذلك حنّوا إلى الجنّةِ ، وأرواحُ الغافلينَ هوائيّةٌ ، فلذلك مالوا
إلى الدنيا)^(٣) .

(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١١) .

(٢) كذا أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٢) ، وكذا أورده القاضي عياض
في « الشفا » (ص ١٩١) ، وقال الحافظ العراقي : (ولم أجد له إسناداً) . « إتحاف »
(٦٨٤ / ٩) ، وزاد : (وسئل عنه الحافظ ابن حجر في « فتاويه » فقال : لا أصل
له) .

(٣) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٢) .

وقال بعض المشايخ : رأيتُ في جبلٍ لكam رجلاً أسمر اللون ، ضعيفَ
البدن ، وهو يقفزُ من حجرٍ إلى حجرٍ وهو يقولُ : الشوقُ والهوى صيراني
كما ترى^(١) .

ويُقالُ : الشوقُ نارُ الله تعالى ، أشعلها في قلوبِ أوليائه ، حتى يحرقَ
بها ما في قلوبهم من الخواطرِ والإراداتِ ، والعوارضِ والحاجاتِ^(٢) .
فهذا القدرُ كافٍ في شرحِ المحبةِ والأنسِ والشوقِ والرضا ، فلنقتصرُ
عليه ، واللهُ الموفقُ للصوابِ .



تم كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة على رسوله وآله طاهراً وباطناً

يُتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق

(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٢) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٣) .

مُحتَوَى الكِتَابِ

رُبْعُ الْمُنْجِيَّاتِ / الْقِسْمُ الثَّانِي

- ٧ كتاب الفقر والزهد
- ١٠ - علاقة الفقر والزهد بالدنيا
- ١١ - الشطر الأول: في الفقر
- ١١ - بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه
- ١١ - الفقر وصف لازم للعبد
- ١٣ - استواء الوجود والفقد خير من الزهد، وهي درجة المستغني
- ١٤ - قُرْبُ العبد من الله بقُرْبِ الصفات
- ١٥ - المستغني من المقرَّبِينَ، والزاهد من أصحاب اليمين
- ١٥ - مثال يبيِّن كيف يكون المشتغل بيبغض الدنيا مشغولاً عن الله تعالى
- ١٨ - تحريجة: إن كان الاستواء أحمدَ فلمَ فرَّ الأنبياء والأولياء من المال؟ ...
- إنما استعاذ صلى الله عليه وسلم من فقر الاضطرار، وإنما سأل الفقر والاضطرار إلى الله تعالى
- ٢١ - بيان فضيلة الفقر مطلقاً
- ٢٢ - كلام النبوة ليس فيه إلا حقيقة الحق
- ٢٣ - طرف من خواص النبوة
- ٣٤ - حال سيدة نساء أهل الجنة

- ٣٩ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين
- ٤٥ بيان فضل الفقر على الغنى
- ٤٨ - الرد على من فضل الغنى بأنه وصف الحق
- ٤٨ - حب الدنيا هو الشاغل عن الله تعالى
- ٤٩ - علة تفضيل الفقر على الغنى على العموم
- ٥١ - الأصلح لعامة الخلق فقد المال
- ٥١ - البعد عن الدنيا يحتم القرب من الحق سبحانه
- ٥٢ - بقدر ضعف العلاقة مع الدنيا تتضاعف تسييحات الفقير
- ٥٤ - كيف يكون التحلي بوصفه تعالى الغني
- ٥٥ - منتهى العبد التخلق بأخلاق الله تعالى
- ٥٥ - سبب بعد التحلي بصفة الكبر التي هي وصف الحق سبحانه
- ٥٦ - طلب ضروري المال شاغل عن الله تعالى
- ٥٨ - ينبغي أن تحب من لا تفارقه
- ٥٨ - الفقر هو الأشرف والأفضل لكافة الخلق إلا في موضعين
- ٦٠ بيان آداب الفقير في فقره
- ٦٣ الادخار ثلاث درجات
- ٦٥ بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال
- ٦٦ - التشديد على العالم والمتصدر للوعظ في قبول العطاء
- ٦٩ - خطر آفة الرد
- ٧٢ - الزيادة على قدر الحاجة ابتلاء وفتنة

- إنما المعطي هو الله سبحانه ٧٤
- بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه ٧٦
- الفقيه الضعيف يستبعد هذا المسلك في التأديب ٨٠
- للسائل أربعة أحوال عند سؤاله ٨١
- مثال الضروريات ٨١
- مثال الحاجيات المهمة ٨١
- مثال الحاجيات الخفيفة ٨٢
- تحريجة: كيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ ٨٢
- تحريجة: لو أخذ وهو يعلم بأن باعث المعطي هو الحياء.. فهو حلال
أو شبهة؟ ٨٣
- تحريجة: ربما ظنه راضياً وهو غير راض، فما العمل؟ ٨٥
- حدُّ إباحة السؤال ٨٦
- أطيب المال كسب اليد ٨٧
- بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ٨٩
- بيان أحوال السائلين ٩٤
- متى يكون السؤال زيادة في الدرجات ٩٥
- منكِران جاهلان ٩٦
- السعيد أحد رجلين ٩٧
- الشطر الثاني: في الزهد ٩٨
- بيان حقيقة الزهد ٩٨

- ١٠٠ - الزاهد المطلق
- ١٠٢ - علة تشبث من علم حسنة الدنيا بها
- ١٠٤ - علامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج
- ١٠٥ - إنما المعول على الترك عند الجدة والتجربة
- ١٠٥ - أبو حنيفة وفراره من الدنيا
- ١٠٦ - لا تزهد في المال وتركن إلى حب الجاه
- ١٠٨ - بيان فضيلة الزهد
- ١٠٨ - الآيات الواردة في فضل الزهد
- ١٢٥ - نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا
- - بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى المرغوب عنه وإلى
- ١٢٧ - المرغوب فيه
- ١٢٩ - مثال من ترك الدنيا للآخرة عند أهل العرفان
- ١٣١ - من طلب غير الله تعالى فقد عبد مطلوبه
- ١٣٢ - لا لذة فوق لذة النظر إلى وجه الكريم سبحانه
- ١٣٣ - درجات الزهد على الإجمال
- ١٣٣ - إذا كان المراد من العلم ملك القلوب فالزهد فيه فضيلة
- ١٣٣ - إشارة إلى الزهد على التفصيل
- ١٣٤ - الهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس
- ١٣٤ - الزاهدون الحقيقيون هم الذين يبذلون نفوسهم في سبيل الله
- ١٣٦ - أقوالهم في بيان حدّ الزهد

- ١٣٨ طلب الحق من أقاويل الناس مجلبة للحيرة
- ١٣٩ الحق لا يكون إلا واحداً
- تحريجة: الأكل والشرب واللبس اشتغال بما سوى الله، فكيف نزهد
- ١٤١ بما سوى الله؟
- ١٤٢ تحريجة: لا بد من التلذذ عند الجوع
- ١٤٤ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
- ١٤٥ المهم الأول: المطعم
- ١٤٩ المهم الثاني: الملبس
- ١٥٠ أحوال الأنبياء والصحابة في ترك الملبس
- ١٦٢ المهم الثالث: المسكن
- ١٦٢ للزهد في المسكن ثلاث درجات
- ١٦٤ الأخبار الواردة في الزهادة في المسكن
- ١٦٩ المهم الرابع: أثاث البيت
- ١٦٩ للزهد في أثاث البيت ثلاث درجات
- ١٦٩ أخبار السلف في زهدهم بالأثاث
- ١٧٣ المهم الخامس: المنكح
- ١٧٦ المهم السادس: المال والجاه
- ١٧٦ الأصل ترك طلب الجاه رأساً
- ١٧٧ المراد بقولنا: (خرج عن حدّ الزهد)
- ١٧٨ على المرء أن يزهد أهله دون إرهاب

- ١٧٨ ليست الحاجة من الدنيا
- ١٧٩ طالب الدنيا وجامعها كدود القز
- ١٨٠ العذاب على قدر الحجاب
- ١٨٣ بيان علامات الزهد
- ١٨٣ الزهد في المال دون الجاه لا ينفع
- ١٨٣ بطلان دعوى من قال: إنما الزهد في القلب فحسب
- ١٨٤ علامات الزهد في الباطن
- ١٨٦ إمساك قليل المال لا يدل على فقد الزهد

كتاب التوحيد والتوكل

- ١٩١ بيان فضيلة التوكل
- ١٩٥ مَن اعتصم بالله لم يضره كيدُ سواه
- ١٩٨ الرزق طالبٌ للعبد، لا مطلوب
- ١٩٩ الشطر الأول: بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل
- ٢٠١ التوحيد بحر خضم، لا ساحل له
- ٢٠٢ مراتب التوحيد
- ٢٠٦ تحريجة: كيف يتصور ألا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟
- ٢٠٦ كلُّ شيء واحدٌ باعتبار، كثيرٌ باعتبار آخر

- تحريجة: قد أنطق الله تعالى في حق أرباب القلوب والمشاهدات كلَّ
ذرة في الأرض والسماء، فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت؟ ... ٢١٢
- أول أبواب الملكوت المكاشفة بالقلم ٢١٩
- تحريجة: التوحيد مبني على الإيمان بعالم الملكوت، فمن لا يفهم
ذلك أو يجحده فما طريقه؟ ٢٢٥
- ذرات الملك والملكوت تشهد بالتوحيد ٢٢٦
- تحريجة: التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلاً
فيه ٢٢٧
- تحريجة: كيف يكون الإنسان مسخراً؟ ٢٢٩
- تحريجة: كيف يكون الإنسان مجبوراً مختاراً؟ ٢٢٩
- أفعال الإنسان طبيعية، وإرادية، واختيارية ٢٣٠
- الكشف عن معنى الاختيار ٢٣١
- الكسب جامع بين الجبر والاختيار ٢٣٣
- تحريجة: إن قلت: إن العلم ولد الإرادة، والإرادة ولدت القدرة،
فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى، وإن أبيت ذلك، فما
معنى ترتب البعض من هذا على البعض؟ ٢٣٣
- تحريجة: إن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً؟ ٢٣٧
- تحريجة: إذا كان الكل جبراً فما معنى الثواب والعقاب؟ ٢٤٢
- ليس في الإمكان أبدع مما كان ٢٤٤
- الشطر الثاني: في أحوال التوكل وأعماله ٢٤٧

- ٢٤٧ بيان حال التوكل
- ٢٤٨ - شروط الوكيل الموثوق به أربعة
- ٢٥٠ - تمام التوكل بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً
- ٢٥٢ - درجات التوكل ثلاث
- ٢٥٣ - الدرجة العليا في التوكل تثمر ترك الدعاء
- ٢٥٦ - حقيقة (لا حول ولا قوة إلا بالله) ونسبتها إلى كلمة التوحيد
- ٢٦٢ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل
- ٢٦٤ - معنى قول إبراهيم عليه السلام: (أما إليك.. فلا)
- ٢٦٦ بيان أعمال المتوكلين
- ٢٦٦ حركات العبد لا تعدو عن فنون أربعة
- ٢٦٧ الفن الأول: في جلب النافع
- ٢٦٧ - ترك الأسباب المقطوع بها جنون محض
- ٢٧١ - حكم القعود دون كسب
- ٢٧٣ - الصوفي يأخذ رزقه من يد العزيز
- ٢٧٥ - مقامات المتوكلين
- ٢٧٨ - المفاضلة بين القعود والاكتساب
- ٢٧٩ - ما اضطرب قلبك لفقده فأنت متوكل عليه
- ٢٨٢ - مداواة الركون إلى الأسباب الظاهرة
- ٢٩٠ بيان توكل المعيل
- ٢٩٥ - سبب ترك التوكل الرغبة في التنعم على الدوام
- ٢٩٧ - الحيلة في تحقيق التوكل ترك الحيلة

- ليس الرزق على قدر الأسباب ٢٩٩
- بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال ٣٠٠
- السؤال أربعة أقسام ٣٠٠
- الفن الثاني: في التعرض لأسباب الادخار ٣٠٣
- الادخار مع فراغ القلب لا يبطل التوكل ٣٠٩
- الفن الثالث: في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف ٣١١
- ما علامة الوصول إلى التوكل؟ ٣١٤
- ليس الادخار مبطلاً للتوكل ٣١٦
- بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم ٣١٩
- أحوال المتوكلين في حفظ المتاع ٣١٩
- ما جعل في سبيل الله فلا رجوع فيه ٣٢٢
- الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله ٣٢٦
- أدلة عدم مناقضة التداوي للتوكل ٣٢٦
- صور من تداويه صلى الله عليه وسلم ٣٢٩
- بيان أن ترك التداوي قد يحمّد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل
- وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله ﷺ ٣٣٥
- أسباب ترك التداوي عند القوم ٣٣٦
- بيان الرد على من قال: إن ترك التداوي أفضل بكل حال ٣٤٩
- اختلاف الصحابة في شأن الطاعون ٣٤٩
- حكمة النهي عن الخروج من بلد فيه الطاعون ٣٥١

- في ترك التداوي فضل ، فلم لم يتركه صلى الله عليه وسلم ؟ ٣٥٢
- بيان أحوال المتوكل في إظهار المرض وكتمانه ٣٥٦
- ٣٦١ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا
- بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى ٣٦٥
- بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى ٣٧٢
- لا تتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ٣٧٢
- انقسام الحب بحسب انقسام المدركات والحواس ٣٧٣
- بيان أقسام المحبة وأسبابها ٣٧٥
- محبة الحيّ وجود نفسه وكمالها وبقائه ٣٧٥
- الإنسان عبد الإحسان ٣٧٦
- محبة الشيء لذاته لا لشيء وراء ذاته ٣٧٨
- تحريجة : ما ذكر كله في المحسوسات ولا ينكر الحسن فيها إنما ينكر
في غيرها ٣٨١
- المحبة لأجل المناسبة الخفية في الباطن ٣٨٤
- الأسباب التي ترجع إليها أقسام الحب ٣٨٥
- بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده ٣٨٧
- أسباب المحبة مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ٣٨٧
- بيان محبته تعالى من حيث حب الإنسان نفسه ٣٨٧
- بيان محبته تعالى من حيث حب الإنسان من أحسن إليه ٣٩٠

- ٣٩٣ بيان محبته تعالى من حيث حب المحسن في نفسه
- ٣٩٥ بيان محبته تعالى من حيث حب كل جميل لذاته
- ٣٩٦ الأمور التي يرجع إليها جمال صفات الصديقين
- ٣٩٧ النسبة بين علم الخلق وعلم الخالق
- ٣٩٨ النسبة بين قدرة الخلق وقدرة الخالق
- ٤٠٠ النسبة بين تنزه الخلق عن النقائص وتنزهه سبحانه عنها
- ٤٠٣ بيان محبته سبحانه من حيث المناسبة والمشاكلة
- ٤٠٧ محبته سبحانه لا يتطرق إليها نقصان الشراكة
- بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم
- ٤٠٩ فإنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة
- ٤١٠ العقل المذموم عند الصوفية
- ٤١١ لذة العلم بقدر شرف المعلوم
- ٤١٢ ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله
- ٤١٣ اللذات : ظاهرة وباطنة، والباطنة أغلب على ذوي الكمال
- ٤١٤ خصائص لذة معرفة الله تعالى
- ٤١٦ معرفة الله تعالى مختصة بمن له قلب
- ٤١٩ مقصد العارفين وصل الله تعالى ولقاؤه
- ٤٢٠ اللذات المتفرقة منطوية في لذة معرفة الله تعالى
- ٤٢١ مثال في أطوار الخلق في لذاتهم
- ٤٢٢ بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

- الحياة الدنيا حجاب عن مشاهدة ما وراء الخيال من المعلومات ٤٢٣
- تفاوت درجات المعرفة سبب في تفاوت درجات التجلي ٤٢٦
- تحريجة: لذة المعرفة قليلة فمهما تضاعت لا تنتهي إلى استحقار لذات الجنة ٤٢٨
- أسباب تفاوت لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا ٤٢٨
- العارف في الدنيا لا يخلو عن مشوشات ٤٣٠
- سبب حب الموت وكرهته عند أهل المعرفة ٤٣١
- سبب حب البقاء وتمني الموت عند سائر الخلق ٤٣١
- تحريجة: أين محل هذه الرؤية؟ ٤٣٢
- بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ٤٣٣
- قوة حب الدنيا سببٌ لضعف حب الله تعالى ٤٣٥
- علاج القلب من آفة حب الدنيا ٤٣٥
- انقسام العارفين إلى أقوياء وضعفاء ٤٣٧
- تحريجة: كلا طريقي الأقوياء والضعفاء مشكل ٤٣٨
- بعض عجائب الله تعالى في مخلوقاته ٤٣٩
- بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ٤٤٥
- بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى ٤٤٨
- أسباب ما تقصر عنه عقولنا ٤٤٩
- ما لا ضدَّ له يعسر إدراكه ٤٥٠
- إلف الشواهد على الله تعالى من الصبا يسقط وقعها عن القلب ٤٥٣

- ٤٥٥ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
- ٤٥٥ - متعلق الشوق
- ٤٥٦ - تصور الشوق في حق الله تعالى
- ٤٦٩ بيان محبة الله للعبد ومعناها
- ٤٧١ - استعمال لفظ الحب في حق الخالق استعارة وتجوّز
- ٤٧٣ - محبة الله تعالى لعبده لا توجب تغيراً ولا تجدداً في حقه سبحانه
- ٤٧٥ - تحريجة: فبم يعرف العبد أنه حبيب الله؟
- ٤٧٧ - الفعل الدال على كون العبد محبوباً لله تعالى
- ٤٧٨ القول في علامات محبة العبد لله تعالى
- ٤٨١ - تحريجة: من لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محباً لله؟
- ٤٨٤ - تحريجة: هل العصيان يضادّ أصل المحبة؟
- ٤٨٦ - من غلب حبُّ الله على قلبه.. أحب جميع خلقه
- ٤٩٦ - مخاوف المحبين
- ٤٩٦ - خوف الإعراض والحجاب والإبعاد
- ٤٩٧ - خوف الوقوف وسلب المزيد
- ٤٩٨ - خوف فوت ما لا يُدرك بعد فوته
- ٤٩٨ - خوف السلو عن المحبوب
- ٤٩٩ - خوف الاستبدال بالمحبوب غيره
- ٥٠٠ - فائدة خوف المحبين
- ٥٠٢ - الحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا

- تحريجة: لماذا يستنكر إظهار المحبة وهي منتهى المقامات؟ ٥٠٤
- مكارم الأخلاق ثمرة الحب ٥٠٧
- بيان معنى الأنس بالله تعالى ٥١٠
- تحريجة: ما علامة الأنس ٥١٢
- بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس ٥١٥
- لا يُستبعد رضا الله تعالى عن عبد بما يغضب به على غيره ٥١٨
- القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته ... ٥٢٥
- بيان فضيلة الرضا ٥٢٦
- ثلاث تحف لأهل المزيد ٥٢٧
- بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى ٥٣٨
- الحبُّ يورث الرضا بأفعال الحبيب من وجهين ٥٣٨
- حكايات في أحوال المحبين وأقوالهم ٥٤١
- الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً ٥٤٩
- من لم يعرف طعم الحب لم يعرف عجائبه ٥٥٠
- بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا ... ٥٥٣
- تحريجة: المعاصي بقضاء الله فكيف السبيل إلى كراهتها والرضا
بالقضاء؟ ٥٥٦
- اتخاذ الأسباب لا يناقض الرضا بالقضاء ٥٦٠
- بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في
الرضا ٥٦٣

- بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم ٥٦٨
- إنما تنسم روح هذه المعاني الشريفة القلوب المنكسرة ٥٧٦
- أعظم الحجب شغل النفس ٥٧٨
- من لا يطيق الدواء لا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء ٥٧٩
- خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها ٥٨٤
- محتوى الكتاب ٥٩٣